جامعة الزقازيق
كلية الآداب
قسم التاريخ

التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب
خلال العهدين الموحدى والحفصى
(٥٥٥ – ٩٨٠ هـ / ١١٦٠ – ١٥٧٢ م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه
في الآداب من قسم التاريخ
(شعبة التاريخ الإسلامى)

إعداد الطالبة : مريم محمد عبد الله جبوده

إشـــراف
أ . د / سامية مصطفي مسعد
أستاذ التاريخ والحضارة
بكلية الآداب جامعة الزقازيق

٢٠٠٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ)

صدق الله العظيم

سورة النور – آية ٣٧

الإهداء

إلي روح والدتى الغالية

أدعو الله أن يكون هذا العمل في ميزان حسناتها

إلي رفيق دربي

زوجي العزيز

إلي زينة الحياة الدنيا

أبنائي

أحمد

همام

زكريا

أهدى ثمرة هذا الجهد

شكر وتقدير

أتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير إلي ذوي الفضل والجميل في إنجاز هذه الدراسة . وأخص بالذكر أستاذتى الفاضلة الأستاذ الدكتور / سامية مصطفي مسعد، التي تفضلت بالإشراف على خطوات الدراسة وشملتنى بالرعاية والتوجيه والإرشاد طيلة سنوات البحث فكان لسعة صدرها ، ورعايتها ونصحها وتوجيهها التوجيه المنهجي الصحيح ومساندتها الفضل الأول في أن يري هذا البحث حيز الوجود.

كما أتقدم بخالص شكري وإحترامى وعرفانى بالجميل إلي كل من قدم لى عونًا أو معلومة أثرت هذا البحث . وهم لا شك كثيرون وأخص بالشكر المكتبة المركزية بجامعة تونس الأولى ، والمكتبة المركزية بجامعة القاهرة، والمكتبة المركزية بجامعة عين شمس ، ومكتبة مركز جهاد الليبيين ، ومكتبة كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس ، وإلي جميع زملائى وزملائى اللذين ساعدونى ولو بكلمة طيبة خلال مشواري البحثي في بلدي الثاني جمهورية مصر العربية.

ولا يفوتنى أن أتقدم بجزيل الشكر وخالص الإمتنان إلي اللجنة الموقرة الأستاذ الدكتور/ محمود إسماعيل . والأستاذ الدكتور / حاتم الطحاوى اللذان تفضلا بقبول مناقشة هذا البحث وأنا على يقين بأنه سيكون لمشاركتهما في مناقشة البحث أعظم كسب وأكبر إثراء.

وبعد فإن الكمال لله وحده عز وجل ، ولذا فإن كل عمل يقوم به الإنسان فهو ناقص ، محل نقد . والعذر في ذلك أنه من صنع البشر.

والله ولي التوفيق ،،،

فهرس المحتويات

الفصل الخامس
المؤسسات التجارية

المقدمــة

شـهدت بـلاد إفريقيـة وطـرابلس الغـرب نشـاطاً تجاريـاً ملحوظـاً فـي أثنـاء الحكـم الموحـدى والحفصـى ، خاصـةً وأن بـلاد إفريقيـة وطـرابلس الغـرب تشـترك كمـا هـو معـروف مـع بقيـة بـلاد المغـرب فـي وقوعهـا فـي منطقـة جغرافيـة متميـزة علـى سـاحل البحـر المتوسـط ، ممـا أتـاح لهـا السـيطرة علـى بعـض الطـرق التجاريـة لأنهـا تقـع بـين السـاحل والصـحراء ، ولا تنفصـل سهولها عن شواطئ البحر ؛ ولذلك كانت الموانئ الإفريقية والطرابلسية نقطـة لقاء بين المشرق والمغرب ، وبين التجارة المتوسطية وقوافل التجارة الصحراوية .

وكان لطابع الاستقرار السياسى الذى شهدته المنطقة بعد الضم الموحد لها سنة (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) دور بـارز فـي ذلك النشـاط التجارى ، بعد أنْ كانت الوحدة السياسية للبلاد مشتتة بين النورمـان في بعض مـدن السـاحل ، وبـين الإمـارات الداخليـة مثل آل خراسـان بتـونس ، وآل الرنـد بقفصـة وبـلاد الجريـد ، وابـن الـورد العـرب ببنـزرت وغيرهـا مـن المـدن الداخليـة المستقلة [١].

وقد تحسن الوضـع التجارى في إفريقيا فـي ظـل الوحـدة السياسية أيـام الموحـدين وورثـتهم الحفصين (٦٢٦ هـ ، ١٢٢٨ م) .

غير أن تلك الصحوة التي حصلت مع الموحدين والحفصين الأوائل لا شك أنه قد أعقبتها حركة ارتداد في فتراتٍ عديدةٍ وخاصـةً في أواخرِ الحكمِ الحفصـى فأصبحت معها الحركةُ التجاريةُ بين مدٍ وجزرٍ .

وعلـى الرُّغم من الدور التجارى المهم الذى اضـطلعت بـه المنطقة فـي العهدين الموحـدى والحفصـى ، وعلى الرغم من أن هناك العديد من المصـادر والمراجع التـي تناولت النشـاط الاقتصـادى بشكل عام من مختلف أبعاده فـي تلك الفترة ؛ إلا أن الـدور التجـارى لمنطقـة المغرب الأدنى (إفريقية وطرابلس الغرب) لم يعالج كموضوع مستقل بذاته .

فكل ما هنالك مجرد معلومات في عدد كبير من المصـادر والمؤلفات التاريخيـة والجغرافيـة ، ومقالات وأبحاث في حشد كبير من الكتب والمجلات التاريخية .

([١]) انظر : ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٦ ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٣ وما بعدها .

والتى من غير الممكن نكران أهميتها وعظيم فائدتها باعتبارها المصدر الذى أستقى منه البحث مادته ومعلوماته فظهر بفضلها إلي حيز الوجود.

فعالج هذا البحثُ جانبًا مهمًا من جوانب النشاط الاقتصادى وهو تاريخ التجارة في بلاد إفريقية ، وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحدى والحفصى ، وهى فترة زمنية تمتد إلي ما يقارب أربعة قرون تبدأ من تاريخ الضم الموحدى لأفريقية وطرابلس عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م أى النصف الثاني من القرن السادس الهجرى/ الثاني عشر الميلادى إلي نهاية العصر الحفصى في المنطقة سنة ٩١٥هـ/١٥١٠ م أى أوائل القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى.

ولعل طول الفترة الزمنية لمرحلة الدراسة والتي تتجاوز أربعة قرون ؛ تعتبر من أهم الصعوبات التي واجهت الباحثة الأمر الذى يجعل تتبع خطوات النشاط التجارى فى كل مرحلة من مراحل الحكم السياسى من الأمور الشاقة والمضنية أحياناً ، فجاءت المحاولات حثيثة وبقدر المستطاع ومن خلال استقراء ما توفر من مراجعَ ومصادرَ عربيةٍ وأجنبيةٍ الإلمام بجوانب الموضوع وبيان أهم مراحل النشاط التجارى خلال مرحلة الدراسة .

وقد تم تقسيم الإطار الموضوعى للبحث إلي مقدمة ، وتمهيد جغرافى ، وسياسى ، وخمسة فصول ، وخاتمة .

عالجت المقدمة أهمية الموضوع وحدوده التاريخية وسبب اختياره والمنهج المتبع في دراسته ، إضافة إلي دراسة نقدية لأهم مصادر البحث .

وتناول التمهيد لمحة موجزة عن جغرافية بلاد إفريقية وطرابلس الغرب ، وذلك لغرض بيان أهمية الموقع الجغرافى بالمنطقة واستنتاج دوره في نشاطها التجارى.

وتضمن التمهيد بيان مختصر لأحوال البلاد السياسية قبيل مجيء الموحدين وأثناء الحكم الموحدى والفترة الانتقالية بين حكم الموحدين واستقرار وريثه الحكم الحفصى في البلاد ، وما شهدته المنطقة من مستجدات إيجابية وسلبية (أى استقرار وفتن وثورات) .

وكان لابد للتجارة لكى تنمو وتزدهر من توافر عدة مقومات وعوامل مؤثرة لذلك تحدث الفصل الأول عن أهم العوامل المؤثرة في النشاط التجارى سلباً وإيجاباً . فاستعرض الفصل الأمن والاستقرار سواء الداخلى أو الخارجى من فتن وثورات داخلية قام بها العرب

الهلالية والسليمية في المنطقة إضافة إلي الفئات العامة (الشعبية) لاستنتاج مدى تأثيرها السلبى على حركة التجارة .

بالإضافة إلي توضيح أمنِ البحر المتوسط وكيف أثرت حركة القرصنة في زعزعة الأمن من قبل الجانبين الأوروبى والإفريقي والأضرار التي ألحقتها بالتجارة ؟

وأوضح الفصل أهمية الموارد الطبيعة في المنطقة والتي ساهمت في نمو حركة التجارة عن طريق الإنتاج الزراعى ، والحيوانى ؛ إضافة إلي المنتجات الصناعية على صعيدى التسويق الداخلى والخارجى.

وتناول الفصل الثاني التجارة الخارجية بلاد إفريقية وطرابلس مع البلاد المجاورة فتم بيان أهم الطرق الخارجية التي ربطت بلاد إفريقية مع الدول المجاورة لتقسيمها إلي طرق بحرية مع توضيح لأهم الموانئ والمراكز البحرية في إفريقية لاستنتاج مدى مساهمتها في تدعيم حركة التجارة البحرية ، وطرق القوافل البرية التي ربطت بلاد إفريقية وطرابلس مع بلاد السودان .

كما تضمن الفصل توضيحًا للعلاقات التجارية الخارجية مع البلاد المجاورة وأهمها بلاد المشرق ، وبلاد السودان ، وبلاد الأندلس ، والجمهوريات الإيطالية ، وجزيرة صقلية ، وقشتالة وأراغون .

فكيف سارت تلك العلاقات ؟ وهل كانت تخضع للظروف السياسية ؟ وهل استمرت في الخط والإتجاه نفسه طيلة فترتى الحكم الموحدى والحفصى ؟ خاصة وأن الوثائق والكتب قد أمدَّتنا بمعلومات زاخرة عن اتفاقيات السلم والتجارة ، وخاصة مع الجمهوريات الإيطالية . فما طبيعة تلك الاتفاقيات ؟ وهل كانت تعقد الند للند أم احتوت على تنازلات اقتضتها بعض المصالح ؟

كما تم توضيح أهم الصادرات والواردت من وإلي بلاد إفريقية وطرابلس مع البلاد المجاورة بالإضافة إلي أهم الرسوم الجمركية المفروضة على السلع التجارية.

وخصص الفصل الثالث لدراسة التجارة الداخلية . وقد تم طرحه بعد فصل التجارة الخارجية وذلك لأنه بنشاط التسويق الخارجى للسلع والبضائع الخارجية وحركة الاستيراد من الخارج سوف ينعكس على نشاط حركة التسويق الداخلى والبيع والشراء في الداخل

والعكس بالعكس. وقد يكون التمييز بين التجارة الداخلية ، والتجارة الخارجية أمر من الصعوبة بمكان ؛ إذ أن الثانية امتداد الأولى وتتعلق في كثير من الوجوه بالنشاط التجارى الخارجى من استيراد وتصدير للبضائع (الواردة – الصادرة).

واحتوت دراسة التجارة الداخلية على توضيح لأهم الطرق الساحلية والداخلية التي ربطت مدن إفريقية وطرابلس مع بعضها البعض ، وتم تقدير المسافات بينها كما وردت في كتب الجغرافية والرحلات.

ومن الواضح أن التجارة الداخلية قد نشطت وتم تعاطيها في مراكز خصصت للبيع والشراء عرفت باسم الأسواق فتم التعريف بها وبيان أهم أنواعها وتراتيبها داخل الحواضر التونسية . فكيف عمقت تلك الأسواق فاعلية النشاط التجارى ؟ وهل كانت سلطات المحتسب ورقابته على الأسواق ونظم البيع عاملاً في ازدهار التجارة أو ركودها ؟ ونظام التسعير في الأسواق كيف كان ؟ ومن المسئول عن ضبطه ؟ وهل تصدت الدولة لظاهرة الاحتكار في التجارة ؟ وضرائب الأسواق هل كانت خاضعة لقواعد الشريعة الإسلامية ؟ أم أنها كانت تسير وفقاً لرغبات الطبقة الحاكمة بالبلاد ؟

وقد عرفت التجارة وسائل عديدة من التعامل التجارى والمالى . لذلك خصص الفصل الرابع لدراسة تلك الوسائل مثل النقد أو العملة فتم توضيح تطور سك العملة الموحدية والحفصية والتي تمثلت في الدينار الذهبى والدرهم الفضى ، بالإضافة إلي نظام المقايضة والصكوك والسفاتج والمكاييل والأوزان .

فهل تمكنت السلطة الحاكمة من فرض رقابة صارمة على نظامها المالى أم تعرضت لأساليب الغش والتدليس من قبل التجار ؟ وهل أكسبت قوة الدولة الموحدية والحفصية دينارها فرصة التداول في الأسواق العالمية أم لا ؟

وتناول الفصل الخامس المؤسسات والهياكل التي ارتكزت عليها التجارة وتم تقسيمها إلي الفنادق لاستنتاج أهميتها في تدعيم العلاقات التجارية بين إفريقية والدول المسيحية باعتبارها مكان لسكن وإقامة التجار المسيحيين ومركز التمثيل القنصلى الذى يقوم على مراقبة مصالح رعاياه الأجانب في إفريقية وطرابلس .

كما اعتبرت وسائل النقل التجارى البحرى والبرى من المؤسسات التي قامت عليها التجارة وعن طريقها استطاعت أن تستمر و تنمو. فتم توضيح دور السفن في النقل البحرى وأهم المراكب المستخدمة ، بالإضافة إلي دور القوافل في النقل البرى. وأهم النظم المتبعة في سير القوافل وتنظيمها .

وأخيراً فقد خُتمتْ الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

نقد المصادر الرئيسة :-

اعتمد البحث على عدد كبير من المصادر العربية، لاسيما أن الدارس لتاريخ النشاط الاقتصادي وخاصة لموضوع التجارة تحديداً، يجد نفسه مضطراً لمراجعة مصادر متنوعة سواء أكانت تاريخية أم جغرافية أم فقهية أم في كتب التراجم.

فضلاً عن بعض الكتب والوثائق الأجنبية، بالإضافة إلى بعض الكتب العربية والْمُعَرَّبة. وتلك المصادر كان بعضها معاصرًا للأحداث والبعض الآخر متقدم عن الفترة التاريخية المدروسة (من أواسط القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري).

ولكنها على أية حال أعطتنا خلفية لا بأس بها عن الطبيعة الجغرافية للمنطقة. وخاصة فيما يتعلق بالطرق والمسالك التجارية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت بمثابة المصدر الذي استقت منه المصادر المعاصرة لفترة البحث المعلومات التاريخية والجغرافية ومن هنا تبدو أهميتها في الرسالة.

أولا: المصادر الجغرافية وكتب الرحلات:-

امدتنا كتب الجغرافيا والرحلات بفائدة كبيرة في دراسة الطبيعة الجغرافية للمنطقة ووصف المدن والموانئ وذكر الطرق والمسالك بالإضافة إلي المنتجات الزراعية والصناعية . وضمن التآليف الجغرافية البارزة – التي تخص الفترة التاريخية المعنية بالدراسة – نجد ظاهرة النقل عن السابقين ولذلك رجعنا إلى المصادر الأم التي كان لها نصيب السبق في الحديث عن تلك الظاهرة . فقدم لنا ابن حوقل النصيبى (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م) في كتابه صورة الأرض وصفًا للطرق ومسالكها في المغرب والصحراء ؛ وتكمن أهمية الكتاب في كونه قد جمع مادته أثناء تجواله واشتغاله بالتجارة فقد طاف ابن حوقل في بلاد المغرب حتى درعة ودخل الصحراء حتى أودغست . فكان بذلك أول جغرافى عربى يصل إلى بلاد السودان ، ووقف على المعاملات التجارية بنفسه فجاءت معلوماته فى كثير من المواضع دقيقة عن التجارة . وقد أفادنى هذا المصدر الجغرافى أثناء الحديث عن طرق التجارة الخارجية خاصة تلك التي ربطت بين بلاد إفريقية وطرابلس الغرب وبين بلاد السودان .

بالإضافة إلى ذكر ابن حوقل لمنتجات بلاد المغرب فأفدتُ من ذلك في أثناء حديثى عن السلع المتبادلة بين إفريقية والبلاد المجاورة .

وأورد أبو عبيد الله البكرى (ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م) في كتابه (المغرب في ذكر إفريقية والمغرب) وهو جزء من كتاب المسالك والممالك معلومات مهمة عن مدن إفريقية وطرابلس الغرب والتعريف بها وذكر مواقعها ومسالكها والمسافات بينها ، ويتصف المصدر بالوصف الذى يتيح الحصول على معلومات اقتصادية مهمة وقد أفدتُ من هذا الكتاب الجغرافى أثناء الحديث عن أهم المراكز التجارية وطرابلس الغرب ، بالإضافة إلي أهم السلع المتبادلة بين تجار المنطقة والبلاد المجاورة .

كما يعد الإدريسى (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤ م) أول المتخصصين في علم الجغرافية[١] ويعتبر كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) من المصادر الجغرافية المهمة فيما يتعلق بتاريخ المغرب والأندلس ، وقد اتسم بالدقة في وصفه للمدن والبلدان التى زارها. بالإضافة إلى تقدير المسافات بين المدن والأقاليم . وقد أولى الإدريسى أهمية خاصة إلي المسالك الاستراتيجية والتجارية والحياة الاقتصادية والموانئ البحرية وتضاريس السواحل . وتكمن أهمية كتابه كونه معاصرًا لفترة الدراسة. وقد إفدتُ من هذا المصدر أثناء الكتابة عن أهم الطرق والمسالك الخارجية والداخلية التي ربطت بلاد إفريقية وطرابلس الغرب بالأقاليم المجاورة ، أو تلك الرابطة بين المدن الداخلية ، فقدرها الإدريسي تقديراً دقيقاً بالمراحل والأميال. بالإضافة إلى ذكره للأسواق والمتاجر وطرقها وأصنافها، الأمر الذي أفادني أيضًا في الفصل الثالث عند الحديث عن الأسواق في مدن إفريقية وإقليم طرابلس الغرب وطرق المعاملات فيها.

بالإضافة إلى المنتجات الزراعية والصناعية لكثير من مدن المنطقة الأمر الذى أفادني أيضاً أثناء ذكر الصادرات والواردات من وإلي مدن بلاد إفريقية وطرابلس الغرب.

غير أنه مما يؤخذ على الإدريسي أنه قد عاش في ظل الملك النورماني "رجار الثاني" ملك صقلية مما جعله يلصق الكثير من النعوت السيئة بأهالي إفريقية أيام الحكم الموحدي نظراً للنزاعات القائمة بينهم وبين النورمان حكام صقلية نظراً لأطماع النورمان

---

[١] حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافين في الأندلس ،مكتبة مدبولى ، ط ٢ ، ١٩٨٦ ، ص ١٦٧.

في الاستيلاء على المراكز التجارية في إفريقية وطرابلس – مدارة من الإدريسي لملك صقلية النورماني – الأمر الذي يجعلنا نتوخى الكثير من الحذر في أثناء استقاء المعلومات من كتاب الجغرافي الشهير.

ويحتوى كتاب (الاستبصارفي عجائب الأمصار) لمؤلف مجهول يرجع إلي عام (٥٨٧هـ/ ١١٩١م) على معلومات وتفاصيل وفيرة في وصف مدن بلاد إفريقية وإقليم طرابلس الغرب أوردها المؤلف ضمن وصفه لبلاد المغرب بصفة عامة.

وقد افدتُ منه في بيان الأحوال الاقتصادية في المنطقة وخاصة فيما يخص التجارة، من خلال حديثه عن الطرق والمسالك سواء الداخلية أو الخارجية، بالإضافة إلى ذكره للأسواق والفنادق داخل المدن وطرق التعامل فيها.

وتكاد المعلومات الواردة في هذا الكتاب أن تكون شبيهة بما أورده الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق" إلا أنها احتوت بعض الإضافات التي يمكن أن توصف أنها أكثر تفصيلاً في بعض الأحيان.

ويعتبر كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) من أهم المعاجم الجغرافية لبلاد العالم الاسلامي، يمتاز باتساع مادته وغزارتها ويجمع بين المادة التاريخية والجغرافية وتظهر فيه معرفة مؤلفه الواسعه للعالم الاسلامي من خلال تجارته وأسفاره في أنحائه، فقد زار مصر ، والشام ، والعراق ، وفارس ، وبلاد المغرب ، وبلاد ما وراء النهر، بالإضافة إلى اعتماده على النقل من كتب التاريخ والجغرافية بأمانة تامة مسندًا كل ما ينقله في مادة جغرافية إلى مصادرها الأصلية [(١)].

كما يمتاز معجم البلدان بترتيبه على حروف الهجاء، مما يساعد على سهولة الانتفاع بمادته، ويمتاز أيضًا باتساع مادته وغزارتها وبالجمع بين المادة الجغرافية والتاريخية والأدبية، وقد افدتُ من هذا المصدر في وصف مدن إقليمي إفريقية وطرابلس الغرب وبيان أهميتها الاقتصادية من حيث المنتجاتُ الزراعيةُ والصناعيةُ ونشاطها التجاري.

[(١)] أنظر: السيد عبد العزيز سامح، التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكتاب البناني، ١٩٦٧م، ص ١٩٦.

وقد إفدتُ من كتاب (رحلة ابن جبير) (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) المعروفة باسم (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) فيما يخص العلاقات وبين الموحدين وملك النورمان في صقلية ، حيث زار ابن جبير صقلية ووصف حال المسلمين بهذه الجزيرة في أثناء الحكم النورمانى خاصة إذا علمنا أن بلاد إفريقية وطرابلس الغرب قد أدَّتْ دوراً مهمًا في توجيه تلك العلاقات بحكم أطماع النورمان الاقتصادية في المنطقة. بالإضافة إلي وصفه للسفن المستخدمة للرحلات في البحرالمتوسط وأخطار تلك الرحلات .

ويعتبر ابن بطوطة (ت ٧٧٠ه/١٣٦٨م) من الرحالة العرب المشاهير في طواف آفاق الأرض. وقد تميز في كتابه (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) المعروف بـ (رحلة ابن بطوطة) بسرد تفصيلات مشاهداته التي قام بها ومراعاة تسجيل ملاحظاته الخاصة بالأحوال الاقتصادية والإجتماعية للبلاد التي زارها.

كما يعد ابن بطوطة أول رحالة جاب الآفاق المجهولة في الصحراء الكبرى وكتب عن مشاهدته فيها ، كما كتب عن إفريقية جنوب الصحراء كثيراً واصفاً عادات أهلها ، وأحوالهم ، ومعاملاتهم الاقتصادية وكان ابن بطوطة لماحاً حساساً فقد ذكر ما استحسنه من أعمال السودان وما استقبحه منها . وقد افدتُ من هذا المصدر في أثناء الحديث عن علاقات إفريقية مع بلاد السودان وفي ذكر الطرق والمسالك والمعاملات التجارية بين الطرفين .

كذلك افدتُ من كتاب ابن بطوطة في وصفه لتونس ولسلطانها الحفصي ووصف أحوال مصر زمن المماليك والعلاقات بين المغرب بصفة عامة وبين مصر في هذا العهد.

ولكن مما يؤخذ على ابن بطوطة تقربه ومداراته لذوي الجاه والسلطان ربما طمعاً في مكاسب مادية الأمر الذي يخرجه في كثير من الأحيان عن الحياد والصدق والكتابة الموضوعية في وصف البلاد والأقاليم.

وتعتبر رحلة التجانى (ت أوائل القرن الثامن الهجرى) من المصادر المهمة التي تخص فترة الحكم الحفصى فقد سجل التجانى في رحلته مشاهداته فى البلاد الافريقيه

ودون انطباعاته باسلوب سلس،واهتم بوصف العمران التونسى اثناء تجواله فى المدن والقرى مع التعريف بأخبارها التاريخية وأحوالها الاقتصادية. وقد زار التجانى الساحل التونسى ومر بصفاقس ثم اتجه جنوباً إلى قابس وجزيرة جْربة ووصفها وصفًا جميلاً، وذكر عادات أهلها ومذهبهم ثم وصل الى طرابلس.وأقام بها فترة من الوقت اتصل خلالها بعلماء المدينة وأولى الفضل من أهلها ثم عاد الى وطنه واصفًا ما مر به فى طريقه حتى وصل الى تونس ثانية [١].

وقد افدتُ كثيرًا من رحلة التجانى خاصّة انه كان شاهد عيان فى وصفه لمدن إفريقية وطرابلس وذكر أحوالها الاقتصادية وعلاقتها التجارية مع البلاد المجاوره بالإضافة إلي ذكره للحالة السياسية والفتن والثورات التي أشتعلت في المنطقة والتي كان لها تأثيرها الواضح على اضطراب الأمن وأثرت على سير النشاط التجارى.

ويعتبر كتاب الحميري (ت٨٦٦هـ/١٤٦١م) (الروض المعطار في خبر الأقطار) مصدراً جغرافيًا ، وتاريخيًا هامًا لمدن المغرب، وعلى الرغم من أن الحميري من جغرافيي القرن التاسع الهجري إلا أنه مصنفه يعتبر ركيزة مهمة للباحثين في تاريخ المغرب.

وترجع أهمية كتابه في أنه إلى جانب كونه معجماً جغرافياً مرتباً على الحروف كأحسن ما تكون المعاجم الجغرافية، يتضمن معلومات تاريخية قيمة والكتاب يحتوي بهذا المعنى على فنيين مختلفين أحدهما ذكر الأقطار والمدن وما احتوته من طرق ومسالك ونعوت جغرافية مختلفة.وثانيهما الأخبار والوقائع المختلفة بها.

ويعيب الحميري أنه استقى مادة كتابه من مصادر عديدة قد سبقته ولكنه أغفل الإشارة إليها مثل المسالك والممالك للبكري ونزهة المشتاق للإدريسي، والاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مغربي مجهول من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

ومع ذلك فقد احتوى هذا المصدر الجغرافي على معلومات وإشارات مهمة أفادتني والحق يقال في كثير من مواضع البحث. لاسيما في ذكر كثير من مدن إفريقية وطرابلس الغرب ودورها الاقتصادي وخاصة التجاري، وبيان موقع الكثير من المدن البحرية

---

[١] السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق،ص٢٣٤.

وأهميتها كموانئ ومراكز تجارية أدت دورًا مهمًا في عملية النشاط التجاري مع بقية المدن والأقاليم المجاورة.

يعتبر كتاب (وصف إفريقيا) للحسن الوزان المعروف بجان ليو الإفريقي (ت٩٥٧هـ/١٥٥٠م) مصنف تاريخي جغرافي مهمًا اعتمد الحسن الوزان في تدوينه على ما شاهده بعينه وسمعه بنفسه، بالإضافة إلى المعلومات التاريخية والجغرافية التي قدمها هذا الكتاب. قدم أيضًا معلوماتٍ اقتصاديةً عن كثير من المدن والبلدان، ورغم تأخر الفترة التي صاغ فيها الحسن الوزان كتابه فإن أغلب ملاحظاته بخصوص أقاليم إفريقية وطرابلس التى كانت تحت حكم الأسبان تعتبر شهادة صالحة قبل ذلك بعشرين عاماً ، وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة للبحث في أن مؤلفه عاصر حكم الدولة الحفصية، فجاءت معلوماته دقيقة في كثير من المواضع عن عملية التبادل التجاري بين إفريقية وبقية الدول المجاورة. كما تضمن الكتاب وصفاً جغرافياً واقتصادياً لكثير من مدن بلاد إفريقية وطرابلس الغرب مما أفاد البحث فائدة كبيرة في ذكر الطرق والمسالك التجارية سواء الداخلية أو الخارجية. وذكر السلع التجارية سواء الواردة أو الصادرة بين مدن إفريقية الحفصية وبين الدول المجاورة.

ولا تخلو الأهمية من كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمرى (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م) الذى يعتبر مصنفه موسوعة تاريخية وجغرافية مهمة وكتاب (الرحالة) أبو عبد الله العبدرى (ت٦٨٨هـ/١٢٩٠م) الذى قدم معلومات غزيرة عن إقليم إفريقية وطرابلس الغرب رغم تحامله الكبير على إقليم طرابلس ونعت أهله نعوتاً سيئة ، إلا أن معلوماته عن الحياة الاقتصادية جد كثيرة الأهمية.

ثانياً: المصادر التاريخية:-

(محمد الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي) ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م

١- عبد الواحد المراكشي:

فـي كتابـه "المعجـب فـي تلخـيص أخبـار المغـرب"ت فـي النصـف الثـاني فـي القـرن (٧هـ/١٣م)

احتوى الكتاب حديثاً مفصلاً عن التاريخ الموحدي، وقد كتب المؤلف كتابه في المشرق بعيداً عن مقر الأحداث في بلاد المغرب، وهنا تكمن أهمية كتابه لأنه لم يقع تحت تأثير النفوذ الموحدي، لذلك اتسمت روايته بالحيادية وجاءت بعيدة عن المحاباة والمجاملة.

ويتميز الكتاب بسرد الحوادث التاريخية دون التقيد بالسنين وقد افدتُ منه في ذكر بعض الأحداث السياسية التي مرت بها بلاد إفريقية في أثناء الحكم الموحدي.

فضـلاً عـن التعريـف بمـدن بـلاد إفريقيـة وطـرابلس الغـرب، وذكـر خصائصـها الجغرافية والاقتصادية من زراعة ومعادن وصناعات.

٢-أبو العباس أحمد بن محمد بن عذارى المراكشي المعروف بابن عذارى (ت أواخر القرن السابع الهجري)

يعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ الأندلس والمغرب وقد ذكر فيه ابن عذارى أخبار المغرب منذ الفتح الإسلامي حتى عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م، وقد اعتمدت في دراستي على الجزء الخاص بأخبار الدولة الموحدية – قسم الموحدين – فيما يخص الفتح الموحدي لإفريقية وطرابلس وأهم ولاتها كذلك حركة بني غانية وقراقوش في إفريقية واستبدادهم بها ومقاومة الموحدين لهم بزعامة ابن أبي حفص الهنتاتى ومن ثم انفصال بني حفص بحكم إفريقية وقد المح ابن عذارى إلى الوضع الاقتصادي في إفريقية زمن الحكم الموحدي واتبع ابن عذارى في مؤلفه المنهج الحولي مع التزام الموضوعية. ويتميز كتاب البيان أن مؤلفه قد اعتمد على أصول تاريخية أولية مفقودة في الوقت الحاضر [1].

٣-عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المعروف بإبن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)
وكتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"

---

(١) عبد الواحد ذنون طه، إبن عذارى المراكشي شيخ مؤرخي المغرب، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٣٨.

يعتبر كتابه من المصادر الهامة في تاريخ المغرب بل أن الباحث في تاريخ الشمال الإفريقي لا غنى له عن تاريخ ابن خلدون، وقد كتب ابن خلدون تاريخه حسب الموضوعات وليس حسب السنوات.

واعتمدت في دراستي على الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ، طبعة بيروت عام ١٩٦٩م، وقد تضمن الكتاب أخباراً مفصلة عن أصول القبائل البربرية التي حكمت إفريقية وطرابلس الغرب زمن الموحدين والحفصيين كذلك عن ثورة بني غانية وقراقوش التقوي مما أفادني في عرض التمهيد السياسي للمنطقة. كذلك استنتجت من عرض الأوضاع السياسية في أثناء الحكم الموحدي والحفصي بعض الإشارات التي أفادتني في تقييم الوضع الاقتصادي لاسيما النشاطُ التجاريُّ.

٤- محمد بن إبراهيم اللؤلؤي الزركشي (ت ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م)

وكتابه "تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية"

هذا الكتاب من تسميته قد تضمن تاريخ المغرب في عصر الدولتين الموحدية والحفصية أي في (القرن السادس هـ / الثاني عشر الميلادي إلى القرن التاسع هـ / الخامس عشر الميلادي) وإن كان التركيز على دولة بني حفص بتونس. ومن مزاياه أنه كان معاصراً للأحداث التي كتبها. ومما يؤخذ عليه هو اختصاره الشديد في الأحداث التاريخية لذكر بعض الحوادث التاريخية ولكن هذا لم يمنع إفادتي الكبرى من الكتاب في التمهيد السياسي لإفريقية، واستنتاج الكثير من الإشارات عن وضع البلاد الاقتصادي في العهد الحفصي مثلما ذكره في عهد السلطان أبي فارس من إنشاء الأسواق والفنادق التي تركها السلطان مما يدل على ازدهار الوضع التجاري في عهده.

٥- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع (ت ٨٦١هـ / ١٤٥٦م)

في كتابه الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية:-

ألف كتابه في (القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي) ويتسم الكتاب بالصبغة التونسية أكثر من غيره من الكتب لاسيما أن المؤلف قد شغل خطة "قضاء الأمحال" في عهد السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان (٨٣٩ - ٨٩٤هـ / ١٤٣٥ - ١٤٨٨م).

والكتاب هو استعراض تاريخي متسلسل لسلاطين بني حفص وتضمن إشارات متفرقة عن الوضع الاقتصادي في إفريقية زمن الحكم الحفصي وعلاقات البلاد التونسية التجارية مع البلاد المجاورة بالإضافة إلى إشارته إلى النقد الحفصي (دراهم الحندوس) وسبب أحداث التعامل بها.

غيرَ أن ما يؤخذ على هذا المؤلف أنه عاش في كنف بني حفص وكتب مؤلفه في ظل السلطان أبي عمرو عثمان مما جعله يطنب كثيراً عندما وصل إلى وصف عهد السلطان أبو عمرو عثمان لهذا وصف تاريخه بالضعف من ناحية المعلومات والقيمة الاخبارية [١].

٦- أبو العباس أحمد بن الحسين بن علي بن الخطيب ابن القنفذ القسنطيني في كتابه "الفارسية في مفاخر الدولة الحفصية":-

وقد ألف ابن القنفذ كتابه في كنف بني حفص وتحديداً في عهد السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز (٧٩٦ – ٨٣٩هـ / ١٣٩٤ – ١٤٣٤م).

وقد عني فيه المؤلف بإبراز كل مناقب الدولة الحفصية وغض الطرف عن كل ما يشينها وخاصة منها ما اتصف به السلطان أبو فارس وهذا يعتبر من المآخذ التي تؤخذ على كتاب الفارسية ويقف في مصاف ابن الشماع في كتابه "الأدلة البينة النورانية" ولكن هذا لا يعني عدم أهمية هذا المصدر، بل يعتبر من المصادر الإخبارية المهمة التي أمدتنا – والحق يقال – بالكثير من المعلومات المهمة عن سيرة بني حفص وإشارات متفرقة عن وضعهم الاقتصادي ومعاملاتهم التجارية وعلاقاتهم التجارية مع بقية الدول المجاورة.

<u>ثالثاً : كتب الفقه والنوازل:-</u>

ومن أهمها كان كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"، (١٣ جزء) لأحمد بن يحيى الونشريسي وكتاب "جامع مسائل

---

[١] إبن الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، الدار العربية للكتاب، تحقيق وتقديم محمد الطاهر العموري، ١٩٨٤م، ص ٢٠ (المقدمة).

الأحكام لمن نزل من القضايا بالمفتين والحكام" لأبي القاسم بن أحمد البلوي المعروف بالبرزلي وكان هذا النوع من الكتب أداةَ بحثٍ مهمة بالنسبة لموضوع دراستنا فقد أعاننا إلى حد كبير على دراسة قيمة العملة والمعادلة بين أصنافها والكشف عن مواقف الشرع من القضايا المتعلقة بها بالإضافة إلى بيان موقف السلطة الحاكمة من مسألة تداول العملة "المغشوشة".

كذلك أورد الونشريسي إشارات قيمة عن الشركات التجارية والوكلاء التجاريين. مما وفر لنا مادة لا بأس بها في الفصلين الثاني والثالث من البحث. عند الحديث عن الأسواق الداخلية و نظم البيع والشراء وسلطات المحتسب ونظم التسعير بالإضافة إلي وسائل التعامل التجارى ووجوهها الشرعية .

رابعاً : الرسائل والوثائق الرسمية:-

تعتبر الرسائل الموحدية في مجموعتها الجديدة والتي قام بتحقيقها ودراستها د.أحمد عزاوي (جزءان) قد سلطت المزيد من الضوء وبشيْءٍ من الأهمية على العلاقة التجارية بين السلاطين الموحدين وسلاطين بني حفص في إفريقية من جهة وبين الجمهوريات الإيطالية (جنوا – بيزا – البندقية) بالإضافة إلى مملكتي قشتالة وأراغون وصقلية أيضًا. فوفرت لنا – والحق يقال – مادة عزيزة عن طبيعة تلك العلاقة والإجراءات الأمنية التي حاول اتخاذها الحكام المسلمين في إفريقية وطرابلس الغرب ضد حركة القرصنة وعوائق التجارة الأخرى.

أما الوثائق كان أهمها الوثائق الإيطالية الأصلية باللغة العربية التي نشرها المؤرخ ميشال أمارى (Michele Amari) عام ١٨٦٣م مصحوبة بترجمة إلى اللغة الإيطالية وهي تعتبر مراسلات بين خلفاء وسلاطين الموحدين الحفصيين والجمهوريات الإيطالية بخصوص حرية التجارة والملاحة في الموانئ الإفريقية وردع حركة القرصنة . وإن كان بعضها مراسلات غير رسمية أرسلها التجار أنفسهم إلي بعضهم البعض وتمثل هذه المراسلات أهمية بالغة في توضيح العلاقات التجارية بين مدن إفريقية وبين المدن

الإيطالية التجارية (بيزا – جنوا – البندقية) وتعطينا انطباعاً وتصوراً كاملاً عن نشاط الحركة التجارية.

ونشر المؤرخ (De Mas Latrie) عدداً من الوثائق في كتابه (معاهدات سلم وتجارة) ١٨٦٦ م بباريس ، والتي أصبحت فيما بعد مصدرًا رئيسًا للبحاث في هذا المجال ، إذ أورد أهم المعاهدات التجارية التي عقدت بين حكام إفريقية وبين الجمهوريات الإيطالية وأوضح أهم بنودها التي عالجت مسائل عن القرصنة والتجارة وتعيين القناصل المندوبين عن بلدانهم داخل بلاد إفريقية والمراكز المعدة لهم والتي تمثلت في الفنادق.

ويحتوى الأرشيف الأراجونى على أكبر عدد من الوثائق التي تهم العهد الحفصى مكتوب عليها (رسائل ملكية دبلوماسية – غربية) وتهم العلاقة مع بلاد إفريقية وقد نشرها الأستاذ / عمر سعيدان في كتابه (علائق الحفصيين ببلاد أراجون) ونشر فيه كل ما يخص العلاقات بينهما من خلال استعراض المراسلات الهامة .

كذلك أفادنا كتابه الثانى (علاقات أسبانيا القطلانية بالحفصيين في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر الميلادى ، دراسة وثائق ورسائل ومعاهدات) حيث استعرض فيه الأطماع الأراجونية في إفريقية وطرق التغلغل فيها بالتجارة والقرصنة والعدوان .

ولا يفوتنا في هذا المجال التنويه بأهمية كتاب (تاريخ إفريقية في العهد الحفصى جزءان) لمؤلفه روبار برنشفيك الذى تم تعريبه عن اللغة الفرنسية. فقد عالج الكتاب تاريخ إفريقية في العهد الحفصة من الناحية السياسية والحضارية . وأفادنا بما أورده من تحليلات وإشارات جدُّ هامة عن سير العلاقات التجارية بين إفريقية والجمهوريات الإيطالية بالإضافة إلي مملكة صقلية وقشتالة وأرجوان ومدى تأثرها بالأحداث السياسية.

وقد إفدنا من مرجع مهم بالنسبة لتاريخ التجارة لأوليفيا ريمى كونستبل المعروف باسم (التجارة والتجار فى الأندلس) من خلال طرحه الجيد وتعامله الدقيق مع المصادر العربية الأولى فاستطعنا أن نخرج منه بتصور عام لأطر المعاملات التجارية وخاصة فيما يتعلق بعلاقة بلاد إفريقية مع الأندلس وتردد التجار الأندلسيون على مرافئ إفريقية والعكس . بالإضافة إلي الصادرات والواردات بين الطرفين.

وكتاب النشاط الاقتصادى في بلاد المغرب في القرن ٦هـ/١٢م لمؤلفه عز الدين موسى وقد افدنا منه بما أورده من إشارات تخص موضوع النشاط التجارى خلال العصر الموحدى ، بالإضافة إلي بعض المعلومات عن الإنتاج الزراعى والصناعى ، الأمر الذى أفادنا خلال الحديث عن الموارد الطبيعية في بلاد إفريقية كعامل من عوامل النشاط التجارى .

هذا إلي جانب عدد كبير من المصادر والمراجع العربية المعربة والمراجع الأجنبية وبعض الأبحاث في المجلات التاريخية بالإضافة إلي بعض الرسائل الجامعية التي تم ثبتها في قائمة المصادر والمراجع .

تمـهيـد

- لمحة موجزة عن جغرافية بلاد أفريقية وطرابلس الغرب.

- الأوضـاع السياسية لإفريقيـة وطرابلس الغرب قبيل و أثنـاء الحكم الموحدي والحفصي .

أولاً: لمحة جغرافية عن بلاد إفريقية (*):-

إن دراسة البيئة الجغرافية من موقع وتضاريس ومناخ يعد مدخلاً ضرورياً لمعرفة الظاهرة الاقتصادية لأن العملية الاقتصادية هي تفاعل الإنسان مع بيئته ودرجة سيطرة الإنسان على الطبيعة بالزراعة و الصناعة، والتغلب على نواقص البيئة واستثمار فائضها بالتجارة، هي التي تحدد حال اقتصاده غنياً كان أم فقيراً(١).

وقد كان لموقع البلاد التونسية في الشمال الغربي من القارة الإفريقية أبلغ الأثر في تحديد تفاعلها التجارى بما يحيط بها . فكان يحدها شمالاً وشرقاً البحر المتوسط، وجنوباً إقليم طرابلس الغرب والصحراء الكبرى، وبلاد الجزائر في الجنوب الغربي، وتبلغ مساحتها حوالي مائة وأربعة وستين ألف كيلو متر مربع(٢).

أما طرابلس الغرب فهي تقع في إقليم يقع في منتصف القارة الإفريقية تقريباً، يحده شمالاً البحر المتوسط، وإقليم برقة شرقاً، وفزان والصحراء الكبرى جنوباً والبلاد التونسية غرباً(٣).

وقد سمح هذا الموقع الجغرافي المطل على البحر الأبيض المتوسط لبلاد إفريقية وطرابلس الغرب بتفتح تجاري كبير، فمن المعروف أن الحوض الغربي للبحر المتوسط يتصل بأوسع منطقة جغرافية تشرف على الصحراء، فبعد الواجهة البحرية تبدأ منطقة الهضاب والسباسب الفاصلة بين الساحل والصحراء، وكان لهذا الموقع الجغرافي الخاص

(*) إن لفظة "بلاد إفريقية" التي تداولتها المصادر العربية في فترة العصور الوسطى، إنما تطابق البلاد التونسية الحالية؛ بإضافة البلاد الطرابلسية في الجنوب الشرقي وأكد ابن حوقل على ذلك قائلاً " فأما طرابلس فكانت قديماً من عمل إفريقية" . وتضم بلاد إفريقية أيضاً منطقة بجاية وقسنطينة في الجهة الغربية، أو ما يطلق عليه أحياناً إسم منطقة "المغرب الأدنى" وأحياناً أخرى "بلاد البربر الشرقية" . أنظر : ابن حوقل صورة الأرض منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ٧١ . روبار برنشفيك، إفريقية في العهد الحفصي، ج١، تعريب: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨، ص٢٩ .

(١) عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣، ص٣٥.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، دار الجنوب للنشر، تونس، ٢٠٠١، ص١١.

(٣) محمود إدريس علي بك، طرابلس الغرب منذ الهجرة الهلالية إلى بداية العهد العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٨، ص٥٩.

أثر بالغ في تطور المسالك التجارية جنوبًا ، وشمالاً ، وغربًا وشرقًا، وقد أثّر هذا الجانب الجغرافي في الموضع تأثيراً واضحاً في مساهمة بلاد أفريقية في التجارة العالمية، وفي علاقاتها الحضارية مع دول حوض البحر المتوسط[١].

ومن المعروف أن بلاد إفريقية تشترك مع بقية بلاد المغرب في وجود جبال أطلس حيث تقع بلاد إفريقية في الطرف الشرقى لتلك الجبال[٢]التي تمتد من الغرب إلى الشرق، تنتهي جبال أطلس التل جنوبي تونس بجبال زغوان، وتشتمل هذه السلسلة على جبال القصور، وجبال العمور، وجبال أولاد نايل ، والزَّاب ، والأوراس والسلسلة الثانية هي جبال أطلس الجنوبية أو أطلس الصحراء، ويسميها ابن خلدون جبال درن[٣].

وبالإضافة إلى الجبال تشتمل إفريقية على سهول ساحلية ضيقة، وذلك بسبب اقتراب الجبال من الساحل[٤]، وهنالك سهول تكونت حول وديان صغيرة مثل سهل وادي مجردة، أما الواحات فتشتمل على سهول داخلية تقع حولها نفطة وتوزر وقفصة وتسمى جميعاً بلاد قسطيلية[٥].

حيث كلما اتجهنا شرقاً تتكون السلاسل الجبلية (أطلس التل) من هضاب صغيرة غير متصلة يزداد ارتفاعها حتى تصل منتهاها عند قسنطينة والأوراس، ثم تصبح كتلاً متقطعة ، وسلاسل قصيرة، فتصبح بونة حداً فاصلاً بين أطلس التل والساحل التونسي، وتتجاور الجبال (أطلس التل) الصحراء حيث تكثر الواحات والشطوط، وتتصل الصحراء بمشارف طرابلس التي أحاطت بها جبال نفوسة كالهلال[٦]، وبذلك يمكن تقسيم البلاد التونسية إلى ثلاثة أقسام طبيعية:

---

[١] الحبيب الجنحاني، التجارة في المغرب العربي الإسلامي خلال القرنين الثالث والرابع الهجري، سلسلة عالم المعرفة، مطابع السياسة، الكويت، ٢٠٠٥م، ص٧٧.

[٢] يسري الجوهري ، شمال إفريقية ، دراسة في الجغرافيا التاريخية والإقليمية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٦ ، ص ٢٧١ .

[٣] العبر ، ج ٦ ، ص ١٠٠ .

[٤] عز الدين موسى، مرجع سابق، ص٥١.

[٥] مجهول ، الإستبصار في عجائب الأمصار ، دار الشئون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص١٥٦.

[٦] عز الدين موسى، مرجع سابق، ص٥١-٥٢.

١-جهة شمالية، تتركب من مزارع خصبة يمر على جانب كبير منها وادي مجردة.
٢-الساحل، وهو يمتد على طول الساحل الشرقى ، وهو في بعض الأحيان مستوي وفي البعض الأخر مضرس ، وأقصى اتساع له يوجد بالقرب من مدينة تونس ومنطقة سوسة وصفاقس وهذا القسم يتألف من أرض خصبة غزيرة العمران[١] .
٣-قسم جنوبي يشتمل على سهول عظيمة ومراعٍ شاسعة وواحات نخيل تبتدئ منها الصحراء الكبرى[٢].

وكان مناخ المنطقة الساحلية القريبة من البحر يدخل في نطاق مناخ البحر المتوسط أو ما يسمى بمزاج التلول الذي يميل إلى الاعتدال، أما المنطقة الثانية والمسماة ببلاد الجريد[*] فيميل مناخها إلى المناخ الصحراوي، وأمطار الساحل التونسي شتوية، إلا في خليج قابس الذي نعم بهطول أمطارٍ صيفية نتيجة مرور الرياح القبلية الشرقية الجافة على مياهه[٣].

أما مدينة طرابلس التي عرفت باسم "ابنة البحر والصحراء"[٤] فقد استمدت تسميتها تسميتها من ذلك الموقع المتميز بين ساحل البحر المتوسط وبين الصحراء الكبرى، وكان مناخها تعبيرًا صادقًا عن موقعها حيث يخضع لنظامين متصارعين، المناخ البحري من جهة ، والمناخ الصحراوي من جهة أخرى، فبينما هي تتأثر بالنظام الأول فصل الصيف، نجدها تتأثر بالنظام الثاني خلال فصل الشتاء[٥].

---

(١) يسري الجوهري ، مرجع سابق ، ص ٢٧٣ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص١١.

(*) بلاد الجريد: في أفريقية على طرف الصحراء، وقد سميت بهذا الاسم لكثرة النخيل بها، وفي بلاد الجريد واحات خصبية كثيرة الفواكه والثمار لوفرة المياه فيها، وأولها من جهة الساحل مدينة قابس ، انظر: مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ص١٥٠.

(٣) محمد السيد غلاب وآخرون، جغرافية العالم، دراسة إقليمية، ج٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص١١٥.

(٤) مابل لومس تود، أسرار طرابلس، ط١، دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٦٨، ص١٧.

(٥) محمود إدريس علي بك، مرجع سابق، ص٥٩.

وتربة البلاد التونسية خصبة صالحة للزراعة، ومن أشهر منتجاتها الزراعية من الحبوب القمح ، والشعير ، والذرة ، ومن الأشجار المثمرة الزيتون ، والنخيل ، والكروم بالإضافة إلى الفواكه التي تزرعها البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط(١).

أما النباتات التي تنمو في إقليم طرابلس فهي ثمار الانتقال بين ظروف البحر المتوسط، والظروف الصحراوية، فتختلط بها أشجار النخيل التي تمثل الإقليم الصحراوي بأشجار الزيتون التي تمثل إقليم البحر المتوسط، وقد نبتت في الشريط الساحلي المزروع وفي بعض المرتفعات الجبلية بساتين الأشجار الحمضية وأشجار الفواكه، كما زرع فيها القمح والشعير بينما انتشرت أشجار النخيل في الواحات(٢).

وقد أسهب الجغرافيون والرحالة العرب في وصف مدن البلاد التونسية ومدينة طرابلس الغرب.

فذكرنا عن مدينة تونس " مدينة بأرض المغرب كبيرة على ساحل البحر ، قصبة بلاد إفريقية وأصلح بلادها هواءً وأطيبها ماءً وأكثرها خيراً وبها من الثمار والفواكه ما لا يوجد في غيرها من بلاد المغرب حسناً وطعماً "(٣) .

ذكر البكري(٤) عن طرابلس فقال: "مدينة على شاطئ البحر،... وهي كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتينُ جليلةٌ".

ووصفها صاحب كتاب الاستبصار فقال(٥): "فأول مدن إفريقية على الساحل مدينة مدينة طرابلس وهي مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر، والبحر يضرب في سورها... وهي كثيرة الفواكه ، جمّة الخيرات، وأكثر أهلها تجار يسافرون براً وبحراً ولهم سمح في تجاراتهم" وقال عنها الإدريسي(٦)، إنها: "عديمة المثال في إصابة الزرع ولا يدري أن على على معمور الأرض مثلها في ذلك وهذا معروف معلوم".

(١) حسن حسني عبد الوهاب، مرجع سابق، ص١١.

(٢) محمود إدريس علي بك، مرجع سابق، ص٦٠.

(٣) القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص ١٧٣ .

(٤) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ١٨٥٧ ، ص٧-٨.

(٥) مؤلف مجهول ، ص١١٠.

(٦) الإدريسى ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤ ، ص٢٩٨.

كما ورد ذكر مدن القطر التونسي في كتب الرحالة والجغرافيين، فهذا البكري[١] يصف مدينة تونس قائلاً: "ومدينة تونس من أشرف مُدُن أفريقية وأطيبها ثمرة وأنفسها فاكهة".

ويصف ابن حوقل[٢] مدينة قابس قائلاً: "... مدينة ذات مياه جارية، وأشجار متهدلة وفواكه رخيصة... وهي خصبة في أكثر أوقاتها...".

"وبنزرت مدينة في البحر خصبة... وفيها ثمار كثيرة ، وأنهار واسعة غزيرة"[٣].

ونتبين من ذلك الوصف الذي ذكره الرحالة والجغرافييون العرب للمدن التونسية ومدينة طرابلس الغرب، أن المنطقة كانت تنعم بازدهار اقتصادي عظيم، ولو أن الإدريسي قد أشار إشارة واضحة إلى تأثير الغزوة الهلالية على خيرات المنطقة، فعند حديثة عن مدينة زويلة فقال: "قبل دخول العرب أرض إفريقية وإفسادهم لها فيها جنات وبساتين بسائر الثمار العجيبة والفواكه الطيبة ولم يبق الآن منها شيء"[٤].

وعند حديثة عن طرابلس: "وكانت... من جميع جهاتها كثيرة شجر الزيتون والتين وبها فواكه جمّة ونخل إلا أن العرب أضرب بها وبما حولها من ذلك وأجلت أهلها وأقفرت بواديها وغيرت أحوالها وأبادت أشجارها وأغورت مياهها"[٥].

إلا أن مجيء الموحدين واستقرار المنطقة بالكامل تحت سلطة سياسية موحدة أثّر على الجانب الاقتصادي فاستقرت الأحوال وصلحت إلى حد كبير.

ونستنتج من ذلك الطرح الموجز لجغرافية المنطقة، وبيان أهمية موقعها وإمكانياتها الاقتصادية التي حبتها بها الطبيعة من الموقع المتميز كل ذلك سوف يؤدى دورًا كبيرًا في نشاط حركة التجارة في العهد الموحدي، ثم ازدهارها في العهد الحفصي بل ربما كان لتلك المقومات الطبيعية لبلاد إفريقية الأثر البالغ في عملية استقلال الحفصيين عن جسم الدولة الموحدية.

---

[١] مصدر سابق، ص٤١.
[٢] صورة الأرض ، ص٧٢.
[٣] ابن حوقل، نفس المصدر أعلاه، ص٧٥.
[٤] نزهة المشتاق ، ج ١، ص٢٨٣.
[٥] نفس المصدر أعلاه، ج١، ص٢٩٧.

ثانياً: الوضع السياسي في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب:

كانت منطقة المغرب الأدنى التي تشمل بلاد إفريقية وطرابلس الغرب قبل مجيء الموحدين، تمرُّ بفترة مضطربة من تاريخها فعندما رحل الفاطميون عن المغرب إلى مصر، تركوا بني زيري[*] خلفاء لهم يحكمون باسمهم بلاد المغرب[١].

وفي ظل دولة بني زيري أصبحت إفريقية بفضل عاصمتيها القيروان والمهدية تحتل مكانة مرموقة بين الدول المطلة على البحر المتوسط، وأخذت سلطتهم تتسع وقوتهم تزداد مما أطمعهم في الاستقلال عن الفاطميين في مصر، وهذه الرغبة في الاستقلال لم تتضح بوجه علني إلا في عهد المعز بن باديس رابع أمرائهم الذي خلع طاعة الفاطميين رسمياً حين قطع الخطبة لصاحب مصر وأقام الخطبة للخليفة العباسي[٢].

ومن الطبيعي أن لا يرضي هذا الانفصال الحكومة الفاطمية في مصر، إذ رأوا أن سياسة الزيريين الجديدة ستؤدي حتماً إلى تحطيم النفوذ الفاطمي بالمغرب وتقلص المذهب الإسماعيلي (الشيعي) بالإضافة إلى تخلخل الميزانية الفاطمية لتوقف ورود أموال الإمارة الزيرية عنهم.

ومما ساهم في استفحال الجفوة بين بنى زيري وبين الفاطميين أن الخليفة الفاطمي المستنصر كان قد أستوزر الحسن بن على اليازوري ولم يكن من أهل الوزارة بل كان (يشتغل في الفلاحة) فأستخف به المعز بن باديس ولم يخاطبه بما كان يخاطب به الوزراء، وكان ذلك من أسباب حقد اليازوري على المعز فظل يكثر الوقيعة له عند المستنصر الفاطمي وأقترح عليه إرسال أعراب بنى هلال وبنى سليم نحو المغرب

(*) بنو زيري: بطن كبير في بطون صنهاجة، تركهم الفاطميون خلفاء لهم يحكمون باسمهم بلاد المغرب ليقروا تشيعه وبجبو أمواله ويحموا جانبهم الغربي، ابن خلدون، العبر، ج٦، ص١٥٤-١٥٥.

(١) ابن خلدون، نفس المصدر أعلاه، ج ٦، ص١٥٥.

(٢) اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي قطع فيها بني زيري الدعوة للفاطميين ودعوا لبني العباس، فابن الأثير يحدد سنة ٤٣٥هـ، بينما يحدد ابن خلدون عام ٤٤٠هـ، إلا أنه من المرجح أن القطيعة قد مرت على مراحل استغرقتها تلك السنوات.

أنظر: ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج ٩، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٢، ص ٥٢١.

ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ١٥٩.

وأمروهم بقصد القيروان وكتب اليازوري إلي المعز : " أما بعد فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً . وحملنا عليها رجالاً كهولاً . ليقضي الله أمراً كان مفعولاً "[١] نتيجة لذلك قام الفاطميون بإطلاق أعراب بني هلال وبني سليم على بلاد المغرب الإسلامي والسماح لهم بتملك ما يقع تحت أيديهم[٢].

وأمام هذا السيل العارم اضطر المعز بن باديس إلى إخلاء مدينة القيروان والنزوح إلى مدينة المهدية لليلتين خلتا من شعبانَ سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م[٣].

وكان استيلاء عرب بني هلال وسليم على مدينة القيروان والمناطق التابعة لبني زيري في طرابلس الغرب بمثابة بداية الانحلال للدولة الزيرية وتصدع وحدتها السياسية وبروز حركات انفصالية أخذت شكل دويلات الطوائف[٤].

وقد كانت غزوة بني هلال وبني سليم ضارة باقتصاد دويلات المغرب لأن أولئك الأعراب جاءوا بغرض الغزو ومن ثم استباحوا البلاد سلباً ، ونبهاً وحاصروا المدن وفتكوا بأهلها ، وقطعوا الطرق على السابلة واستباحوا الدماء والحرمات، فكان والحال تلك أن توقفت القوافل عن نقل المتاجر بين المغربْين الأوسط والأدنى ولذلك كسدت التجارة الدولية لعدم توفر ظروف الأمن والاستقرار[٥]، وعليه فقد تزعزت الإمارة الزيرية إلى أبعد الحدود وقلت هيبتها.

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٦٦ .

[٢] ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ١ ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٥، ص٤١٧.

[٣] ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٤٢٥، ٤٢٦، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٦، ص١٥٩.

[٤] وأهم تلك الدويلات: وبنو جامع الهلاليين في قابس، ابن خلدون، مصدر سابق، ج٦، ص١٦٣– ١٦٥.

[٥] التجاني ، الرحلة ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ليبيا ، ١٩٨١ ، ص١٦.
ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج٦ ، ص ١٤ – ١٦ . ابن الآثير ، مصدر سابق ، ج ٩ ، ص٥٦٧.

وإلى هذا يشير المؤرخ النويري[١] بقوله: "شنّوا الغارات على البلاد، وقطعوا على الرفاق، وأفسدوا الزرع، وقطعوا الأشجار، وحاصروا المدن، فضاق الناس وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم، وحلّ بإفريقية من البلاء ما لم ينزل بمثله قط".

وفي وسط هذا الجو المشحون بالخوف والاضطراب والفقر جاءت أساطيل صقلية تحمل جيوشاً مدربة لتشن حرباً صليبية على بلاد المغرب الأدنى[٢].

فقاموا بالاستيلاء على طرابلس عام ٥٤١ هـ على يد القائد جرجي ميخائيل[٣]، ثم استولوا على سوسة ثم استولوا على المهدية عام ٥٤٣ هـ[٤] ولما استقَّر جورجى بالمهدية سير أسطولاً بعد أسبوع إلي مدينة صفاقس وامتنع أهلها فقاتلهم الفرنج وتمكنوا من هزيمتهم ودخلوا البلد في ٢٣ من صفر سنة ٥٤٣هـ وأما سوسة فقد دخلها الفرنج دون أى قتال في ١٢ من صفر ٥٤٣هـ ، وفي رجب من عام ٥٤٨هـ ١١٥٣م استولوا على بونة شرقي مدينة بجاية عاصمة بني حّماد[*] وباستيلاء النورماندبين على المهدية خرج آخر أمراء بني زيري يحمل أهله ومتاعه هارباً إلى نهايته المحتومة وهكذا سقطت إمارة بني زيري التي قامت عام ٣٣٥ هـ / ٥٤٣هـ أى حوالى مائتا عام وثماني سنوات[٥]. وصار للفرنج ملك بلاد المغرب من طرابلس الغرب إلي قريب تونس[٦] .

وفي ظل تلك الاضطرابات التي شهدها المغرب الأدنى حدث التدخلُ الموحدي في إفريقية وتمكن الموحدون خلال حملتين عسكريتين بقيادة عبد المؤمن بن علي بنفسه من السيطرة التامة على البلاد حيث تمكنت الأولى عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م من الاستيلاء على

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٢٤، تحقيق حسين نصار ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص٢١٤.

(٢) مراجع عقلية الغناي ، قيام دولة الموحدين ، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي ، ليبيا، ١٩٨٨، ص٣٠.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص١٦٨. ابن الآثير ، مصدر سابق ، ج ١١ ، ص ١٠٨ .

(٤) ابن الآثير ، المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١٢٨ .

(*) بنو حمّاد شعبة من دولة بني زيري حيث أن المنصور بن بلكين قد عقد لأخيه حمّاد علي أشير والمسيلة (المغرب الأوسط) ثم استقل الأخير عام ٣٨٧هـ، ابن خلدون مصدر سابق، ج٦، ص١٧١.

(٥) ابن الآثير ، مصدر سابق ، ج ١١ ، ص ١٢٧ .

(٦) ابن الآثير ، المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ١٢٩ .

بجاية وقسنطينة والحاق بنّي حمّاد بالدولة الموحدية، وأمن أهلها على أموالهم وأنفسهم[١] ، واستطاعت الثانية عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م أن تمد السلطان الموحدي على البلاد التونسية والطرابلسية ووضع كامل الشمال الإفريقي تحت سلطة سياسية موحدة[٢].

وقد عمل الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي تعيين ولاة جدد بمدن إفريقية، فعمل على توزيعها على أبنائه فقام بتعيين ابنه أبي محمد عبد الله على بجاية[٣] ، وقام بتعيين أحد الموحدين المتمتعين بثقته إلى جانبه وهو أبو سعيد يخلف بن الحسين[٤] وولىّ وولىّ على إفريقية ولده ابا إسحاق إبراهيم[٥] وعلى تونس الشيخ أبا عبد الله بن بوفيان الهرغى[٦] وولىّ على أعمالها المخزنية أبا حفص عمر بن فاخر العبدرى[٧].

ونلاحظ هنا تميزاً بين إفريقية عامة وتونس وقد يكون الهرغى والياً بجانب ابن الخليفة أبى إسحاق بن الخليفة أبى إسحاق إبراهيم ومعاوناً له في ولاية إفريقية وحاضرتها مدينة تونس باعتباره أحد الموحدين المتمتعين بثقة الخليفة الموحدي.

أما مدينة طرابلس التي استسلمت للخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي، حيث وصل وفد منها برئاسة أبي يحيى بن مطروح وقدموا طاعتهم للخليفة الموحدي فقبلها منهم وأمر ابن مطروح والياً على طرابلس[٨].

---

[١] ابن الآثير ، نفس المصدر أعلاه ، ج ١١ ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

[٢] ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ٢٣٧ . روبار برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٣٢.

[٣] الوزير السراج ، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، ج ١ ، القسم الرابع ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، الدار التونسية للنشر ، ص ٩٩١ . البيذق ، أخبار المهدى بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧١ ، ص ٧٦ .

[٤] ابن عذاري، البيان ، قسم الموحدين ، ص٥٠.

[٥] الزركشى ، تاريخ الدولتين ، الموحدية والحفصية ، تحقيق : الحسين العيقوبى ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٩٨ ، ص ٢٩ .

[٦] ابن القنفذ ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق : محمد الشاذلى وعبد المجيد التركى ، الدولة التونسية للنشر ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٢ .

[٧] الزركشى ، مصدر سابق ، ص ٢٩ .

[٨] أحمد الناصري ، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى ، ج٢، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، ص٣٧. ابن خلدون، العبر، ج٦، ص١٦٨.

ولقد تحسنت أوضاع إفريقية تحسناً ملحوظاً بعد الضم الموحدي بالمقارنة مع ما كان عليه الحال منذ زحف بني هلال، فقد انتعشت نسبياً الحياة الثقافية والاقتصادية[١]، ويبدو أن حالة الاستقرار التي شهدتها البلاد في ظل حكومة موحدة لم تكن سوى مرحلة آنية ومؤقتة، إذَ سرْعان ما اندلعت بعض الاضطرابات الداخلية من قبل الأعراب الذين كانوا في انتظار اللحظة المناسبة ليعبّروا عن امتعاضهم من الوضع الجديد، سيما وأن مقر الحكم الموحدي كان بعيداً في مراكش مما شكل بعض الصعوبة للتحكم في إفريقية، الأمر الذي شجّع من ناحية أخرى على اندلاع الانتفاضات والثورات الخارجية، ولعل أهمها كانت ثورة بني غانية[*] في الجزر البحرية الواقعة شرقي الأندلس والمعروفة بجزر البليار[**] ولم يكن الوضع الداخلي بإفريقية هو الذي ساعد علي بن غانية على ثورته ضد الدولة الموحدية، بل كان هناك عامل خارجي {وهو قدوم الغز الأتراك بقيادة قراقوش التقوي أحد مماليك بني أيوب[*] من البلاد} المصرية، واستيلائهم على قسم كبير من طرابلس الغرب[٢] ومدن الجنوب التونسي بمساعدة أعراب بني سليم وبني هلال. " ووصل ووصل (قراقوش) إلى جبال نفوسه في طرابلس واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط ، وهو من أعيان الأمراء العرب هناك وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن

---

[١] روبار برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٣٥.

[*] ينتمى بنو غانية إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية، وعلى أكتاف مسوفة ولمتونة وجدالة، قامت دولة المرابطين، التي وسعت المغرب الأقصى والأندلس الإسلامية، وجد بني غانية هو علي المسوفي، وكان يوسف بن تاشفين يرى في على هذا شخصية بارزة ذات أبعاد ممتازة فقام بتقريبه منه وزوجّه امرأة من بيته اسمها غانية وهي التي اشتهر أبناؤه منها باسمها وولدت له ابنيه يحي ومحمد اللذان تربيا في كنف أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، فعقد ليحى على غرب الأندلس وأنزله قرطبة ، وعقد لمحمد على الجزائر الشرقية ميورقة و منورقة و يابسة سنة ٥٢٠ هـ . للمزيد راجع ابن خلدون، العبر، ج٦، ص١٩٠.

[**] تقع جزر البليار في البحر المتوسط، شرق بلاد الأندلس وتعتبر أكبر جزائر شبه الجزيرة الأندلسية، وهذه الجزر تقع مصاقبة لبلنسية وقطلونية من بلاد الأندلس، وتسمى لدى الجغرافيين المحدثين بجزر البليار، وذكر عنها عبد الواحد المراكشي: "وهذه الجزيرة –يعني ميورقة– أخصب الجزر أرضاً وأعدلها هواء... ويجاورها بالقرب منها جزيرتان تقربان منها في الخصب، تسمى إحداهما منورقة والأخرى يابسة" . أنظر : المراكشى ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، دار الفرجانى ، طرابلس ، ١٩٩٤ ، ص٢٦٨.

[*] مملوك تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين الأيوبي. ابن الآثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٨٩.

[٢] التجانى ، مصدر سابق ، ص ١١٣ .

واولاده فأتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها ، ثم فتحت فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيراً من بلاد إفريقية ما خلا المهدية وصفاقس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع "[١].

ومن الناحية الأخرى من جهة الغرب، كان خطر بني غانية يهدد أبواب إفريقية الموحدية، عندما خرج على بني غانية بقواته على ظهر أسطول قاصداً مدينة بجاية واستطاع أن يدخلها بمساعدة من محالفيه من سكانها، وقد وقع بعض القتال بينه وبين الرعية انتهى بسقوط المدينة في يد ابن غانية [٢].

ويبدو أن السهولة التي استولى بها ابن غانية على بجاية كانت مغرية لمواصلة الغزو، فخرج منها بعد أسبوع واحد بعد أن ولىّ عليها أخاه يحيى بمعاونة قائده رشيد الرومي[٣]، واستولى ابن غانية على عدة مدن بالمغرب الأوسط ولم تصمد أمامه سوى مدينة قسنطينة التي حاصرها طويلاً، وكاد يستولى عليها لولا نفاذ الذخيرة، واستعداد الموحدين لملاقاته إذ جهزوا جيشاً مزدوجًا من أسطول بحري وجيش بري، تمكن من استرجاع الجزائر وبجاية عام ٥٨١هـ[٤] ثم اتجه إلى قسنطينة المحاصرة من قبل ابن غانية الذي ما أن وصلته أخبار انتصارات الموحدين حتى فك الحصار عن قسنطينة[٥]، واتجه نحو الجنوب حيث عبر منطقة الزاب وواصل طريقه إلى أن بلغ منطقة الجريد التونسي واستقر بتوزر ودخل مدينة قفصة سنة٥٨٢هـ[٦].

---

[١] ابن الآثير ، مصدر سابق ، ج ١١ ، ص ٣٨٩ .

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص١٧٦. المراكشى ، المعجب ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ . وقد أختلف المؤرخان في سنة دخول ابن غانية بجاية حيث ذكر ابن عذارى التاسع عشر من صفر عام ٥٨١ هـ بينما ذكر المراكشى ٦ شعبان عام ٥٧٨ هـ .

[٣] ابن عذارى ، مصدر سابق ، قسم الموحدين ، ص ١٧٦ .

[٤] المراكشى ، المعجب ، ص ٢٢٧. ابن خلدون ، العبر،ج ٦،ص ٢٤٣.الناصرى ، الإستقصا ، ج١ ، ص ١٥٩ .

[٥] ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٢٤٣ . محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦، ص٢٤.

[٦] ابن عذارى ، البيان ، قسم الموحدين ، ص ١٨٥ . ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٢٤٣ .

وما أن استولى ابن غانية على الجريد وقفصة حتى تحالف مع قراقوش التقوي الذي كانت ممتلكاته في إفريقية تمتد إلى قابس، واستطاع الحليفان استمالة عدد كبير من عرب إفريقية في قضيتهما ويبدو أنه كان للأعمال الشنيعة التي ارتكبها بنى غانية في إفريقية من سلب ونهب وذلك بمساعدة بعض أعراب بني سليم وبني هلال[١] أثرها الواضح في التحرك الموحدي السريع لإنقاذ البلاد.

فتوجه الجيش الموحدي بقيادة الخليفة يعقوب المنصور نَحْوَ إفريقية في شوال من عام ٥٨٢هـ/ ديسمبر ١١٨٦م حتى وصل تونس، ومن هناك أوفد الخليفة جيشاً قوامه ستة آلافِ رجل إلى قفصة حيث يوجد هناك الحليفان ابن غانية وقراقوش التقوي، ودارت بين الطرفين معركة في مكان يقال له "عُمرة" مُنى فيها الموحدين بهزيمة كبرى ورجعت فلول الجيش المنهزم إلى تونس حيث يوجد الخليفة الموحدي المنصور فاستاء لذلك "وكثر قلقه وطال أرقه"[٢].

غير أن هزيمة الموحدين تلك لم تشلّهم عن مطاردة خصومهم بل استأنف الخليفة المنصور الموحدي تجهيز قواته وقادها هذه المرة بنفسه في رجب في عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م والتقى الطرفان في "الحامة" ودارت معركة انتصر فيها الموحدون انتصاراً باهراً وفرّ من الميدان علي بن غانية وقراقوش، وتمكن الخليفة الموحدى من استعادة بلاد الجريد وقفصة[٣]، التي هدّم أسوارها وضمن لأهلها الأمن "وجعل أملاكهم بينهم على حكم المساقاة"، وارتحل قراقوش إلى الصحراء، ولاذ علي بن غانية بالفرار وما لبث أن لاقى حتفه[٤].

غيرَ أن ثورة بني غانية ما لبثت أن اندلعت مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت بزعامة يحيى بن غانية اخ القائد السابق (علي بن غانية)، وحدث تحالف جديد بينه وبين قراقوش التقوي، الذي تمكن بدوره من الاستيلاء مرة أخرى على قابس وطرابلس وحقق

---

[١] رحلة التجاني، مصدر سابق ، ص١٤. الوزير السراج ، الحلل السندسية ، ص ١٠٠٦ .

[٢] ابن عذارى ، مصدر سابق ، قسم الموحدين ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

[٣] الزركشى ، مصدر سابق ، ص ٣٤ .

[٤] الزركشى ، المصدر نفسه ، ص ٣٥ . ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٩٣.

انتصارات كبرى في الجنوب الشرقي لإفريقية، بينما استحوذ يحيى بن غانية على جنوبها الغربي، غير أن الخلاف سرعان ما دبّ بين قراقوش وابن غانية حيث شعر الأخير بخطر التوسعات التي قام بها قراقوش في بلاد إفريقية، فعمل على إيقافها وحاصره في طرابلس وتمكن من الاستيلاء عليها هي ومدينة قابس.

أما قراقوش فقد ولىّ هارباً أمام زحف ابن غانية متوغلاً في جبال نفوسة[١].

وقد استطاع يحيى بن غانية أن يسيطر على كل بلاد إفريقية، حيث سقطت مدنها في يده الواحدة تِلْوةّ الأخرى، وخطب فيها ابن غانية للخليفة العباسي[*] وأصبحت نظرياً تابعة للخلافة العباسية في بغداد.

وأمام تلك التطورات اعتزم الخليفة الموحدي الناصر التوجه إلى بلاد إفريقية لتخليصها من بني غانية بعدما بلغه ما استولى عليه من أملاك الموحدين، وما فعله بالأهالي في تلك المناطق " وجاءته الأخبار أن الميورقى غلب على أكثر بلاد إفريقية وأخذ المهدية وضيق على أهل تونس وألزمهم مائة ألف دينار "[٢].

فخرج الخليفة الموحدي الناصر على رأس قواته من مراكش سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م ، نحو إفريقية ولم يستطع يحيى بن غانية الصمود أمام قوات الموحدين، الذين تمكنوا من استعادة أغلب بلاد إفريقية بعد أن انسحب بنو غانية منها، وتوجهوا بعد ذلك نحو المهدية وضربوا حصاراً قوياً عليها[٣]، وتمكنت قوة موحدية كبيرة بقيادة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص من إحراز نصرٍ كبيرٍ على ابن غانية في معركة عرفت باسم

---

[١] ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ١٩٣ .

[*] حيث كان بني غانية من بقايا المرابطين، ومن المعروف أن دولة المرابطين كانت تابعة اسمياً للخلافة العباسية ومعترفة بشرعية الحكم العباسي. ابن ابى زرع ، الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق : عبد الوهاب بنمنصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٩٩، ص ١٧٤ .

[٢] ابن أبى دينار ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تحقيق : محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ص٢٢. العروسي المطوي، مرجع سابق، ص٦٣.

[٣] ابن عذاري، مصدر سابق، قسم الموحدين ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤. ابن خلدون ، مصدر سابق ، ٢٤٨.

"معركـة تـاجراً" سـنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤ م [١] ، وتمكـن الموحـدون بعـد هـذه المعركـة أن يحطموا قوى بني غانية ويسترجعوا منهم أغلب بلاد إفريقية.

وقد استقر الخليفة الموحدي بمدينـة تـونس وعمـل فـي أثنـاء وجوده بإفريقيـة علـى إصـلاح الـبلاد وبـث الطمأنينـة بين الرعيـة وتيسير أمورهم، وتـأمين الطـرق وتعيين الـولاة والعمـال علـى الولايـات المختلفـة " وأمـر بإشـاعة الاسـتقرار بتـونس والنظـر فـي اتخـاذ المحارث والاتساع في المزارع وأشغل باله بالنظر في من يولى إفريقية " [٢].

وقد رأى الخليفة الموحدي الناصـر أن يختـار لولايـة إفريقيـة واليًـا حازمًـا ومحترمًـا وموثوقًـا بـه، ووقـع اختيـاره علـي أبـي محمـد عبـد الواحـد بـن الشـيخ أبـي حفـص عمـر الهنتاتي[*]."وأوقف نظره الموفق وذكره على شيخ الموحدين وأكبر نجباء جماعتهم أجمعين أبـا محمد عبد الواحـد بـن الشـيخ أبـى حفض عمـر الهنتـاتى ، فأصـفق علـى هـذا النظـر السديد العقلاء والألباب وأعان عليه الصلحاء". [٣]

ومـع أن الشـيخ أبـي حفـص الهنتـاتي الـذي كـان يعـد مـن كبـار رجـال السـلطة الموحدية[*] لم يقبل تلك المهمة الدقيقة التي ستبعده عن السلطة المركزية في مراكش، إلا

---

[١] ابن خلدون، مصدر سابق، ص٢٤٨.

[٢] بن عذارى ، مصدر سابق ، ص ٢٤٨ . الغنّاي، سقوط دولة الموحدين، ص٢٣٠.

[*] كان ابى محمد عبد الواحد بنى الشيخ ابى حفص عمر الهنتاتى رحمه الله عالماً فاضلاً ذكياً فطناً شجاعاً محسناً وهو الذى إخترع زمـام التضـييف بتونس للوفود ، وكـان يجلس يـوم السبت للنظـر فـي مسـائل النـاس ومدحـه بعض الفضلاء بقصيدة تدل على فضله منها :وماذا على المداح أن يمدحوا به ∴ وفيه خصال ليس تحصر بالعد

نهارك في تدبير ما يصلح الورى∴وليلك مقسوم على الذكر والورد.

انظر : ابن ابى دينار ، المؤنس ، ص ١٣١ .

[٣] ابن عذاري، مصدر سابق ، قسم الموحدين ، ص٢٤٩.

[*] ينتمى بنو حفص إلي هنتاته ، وهى أعظم قبائل المصامدة ، وكان بنو حفص يتمتعون بمنزلة كبيرة من الاحترام لدى الموحدين، لما لهم من أثر كبير في بناء الدولة الموحدية، وإرساء قواعدها، فبعد عودة محمد بن تومرت، (المهدي) من المشرق وشروعه في نشر دعوته بين قبائل المصـامدة كـان أبـو حفص عمر بن يحيى الهنتـاتي، (الجد الأعلـى للحفصـيين) أول المستجيبين لدعوته ومن أقواهم دعايـة لها حتى أصبح يطلق عليه منذ ذلك الحين لقب "الشيخ أبـو حفص" وكـان أحد العشرة الـذين أنبنت علـى أكتـافهم دعـائم الدولـة الموحديـة بل أقواهم وأوسعهم نفوذاً، حتـى أن عبد المؤمن بن علي عندما اعتزم على الرحلة إلى أفريقية لم يقدم شيئاً على استشارة الشيخ أبي حفص، وعندما ذهب إليها مرة أخرى استخلفه على المغرب كما كلفه بعدة أعمال عسكرية أخرى ، ويرفع نسبه إلي أمير المؤمنين أبى حفص عمر بن الخطـاب رضـى الله عنـه . أنظـر: ابـن خلـدون، العبـر، ج٦، ص٢٧٥- ٢٧٦. كذلك أحمد بـن أبـى الضـياف ،

أنه قبلها بإلحاح الخليفة الموحدي الناصر وبعدة شروط أهمها "اللحاق بالمغرب بعد مهمات إفريقية في ثلاث سنين، وعلى أن يختار من يجلسه معه ويكون عوناً له في جميع ضرورياته وأن لا يتعقب عليه في أموره من توليه ولا عزل"[١].

وبذلك نلاحظ أن ثورة بني غانية وحليفهم قراقوش التقوي قد زعزعت قوة الموحدين بإفريقية، ومهدت بصورة غير مباشرة لقيام حركة انفصالية فيما بعد عن جسم الدولة الموحدية هي الدولة الحفصية.

هذا إذا أضفنا تلك الأعمال التخريبية التي قام بها بنو غانية في نواحي طرابلس وإفريقية بالتعاون مع عرب بني هلال وبني سليم الذين وجدوا في قدوم بني غانية وأحلافهم الغز الأتراك فرصة للسلب والنهب، ولذلك تعطلت حركة التجارة وكسدت الصناعة والزراعة أهملت لعدم توفر الأمن للمزارعين[٢].

تعتبر ولاية أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص على إفريقية عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م تمهيداً لانبعاث دولة جديدة في إفريقية بعد تبعيتها السابقة للدولة الموحدية.

وقد تمكن عبد الواحد بن أبي حفص من ضبط الأمن في بلاد إفريقية محققاً بذلك رضا أهالي البلاد، ورغم ما كان يتمتع به من حرية مطلقة في التصرف، فقد ظل خاضعاً لسلطة الخليفة واستشارته[٣]، ولم يظهر أية بادرة أو رغبة في الانتفاض أو شق عصا الطاعة في وجه السلطة المركزية في مراكش؛ عدا موقفه من مبايعة المستنصر بالله الموحدي الذي تولىَّ السلطة بعد وفاة والده محمد الناصر عام ٦١٠هـ/ ١٢١٣م وكان طفلاً لم يتجاوز العاشرة من عمره، وكان أبوه قد أوصى عليه بعض أشياخ الموحدين بحضرته فتغلبوا عليه أيام دولته[٤].

اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار ، تونس ، ١٩٦٣ م ، ص ١٥٢ .

[١] الزركشي، مصدر سابق ، ص٣٩. ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٤٨ – ٢٧٨.

[٢] الغنّاي، سقوط دولة الموحدين، ص٢٢٥.

[٣] ابن الشماع ، مصدر سابق ، ص٥٠ .

[٤] ابن عذاري، قسم الموحدين، ج١، ص٢٦٥.

فقد تأخرت بيعة أبى محمد عبد الواحد بن أبي حفص في إفريقية لصغر سن المستنصر[١] وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على شدة تمسك بني حفص في صلاحية من يتولى قيادة السلطة الموحدية.

كما أثبت أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص كفايته من أول الأمر، فعندما حاول يحيى بن إسحاق بن غانية انتهاز فرصة عودة الخليفة الموحدى (محمد الناصر) إلى المغرب لتجديد غاراته عندما جمع أتباعه في نواحى طرابس وخرج إليهم أبو محمد عبد الواحد من أبى حفص في عساكر الموحدين وانضم إليهم بعض من عرب بنى سليم وأوقع ابن أبى حفص هزيمة قاصمة بابن غانية عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م[٢]، وتعتبر هذه الواقعة النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في إفريقية وتعتبر كذلك بداية لنجاح بني حفص في إفريقية وتثبيت أقدامهم في تلك الولاية الجديدة[٣].

توفي الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي في غرة المحرم ٦١٨هـ/ ١٢١١م، فتمّ اختيار ابنه عبد الرحمن أبى زيد ليكون والياً من بعده على بلاد إفريقية وجلس مكان أبيه على ولاية إفريقية " وأقعدوه بمجلس أبيه في الإمارة فسكن الثائر، وشمّر للقيام بالأمر عزائمه، وأفاض العطاء، وأجاز الشعراء"[٤].

غيَر أن الخليفة المستنصر الموحدي[*] سرعان ما أرسل كتاباً بعزلَ والي إفريقية الجديد بعد ثلاثة أشهر من توليه[٥].

---

[١] ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٢٥٠ . محمد العروسي المطوي، مرجع سابق، ص١٠١.

[٢] ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٧٨.

[٣] حسين مؤنس، وثائق المرابطين والموحدين، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٤٥.

[٤] ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢٧٩- ٢٨٠.

[*] هو ابو يعقوب يوسف بن محمد بن الأمير يعقوب الملقب بالمستنصر بالله ومولده أول شوال سنة ١٩٩٤ ولم يكن في بنى عبد المؤمن أحسن وجهاً منه ولا أبلغ في المخاطبة ، إلا أنه كان مشغوفاً براحته فلم يبرح عن حضرته ، فضعفت الدولة في أيامه ومات في شوال أو ذى القعدة سنة عشرين وستمائة ولم ويخلف ولداً . ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان ، تحقيق : يوسف على طويل ومريم قاسم طويل ، ج٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ص ٣٨٢ – ٣٨٣ .

[٥] ابن خلدون، المصدر نفسه ، ج٦، ص٢٨٠. ويبدو أن تولية ابا زيد عبد الرحمن بن الشيخ ابن أبى حفص كانت بموافقة شيوخ الموحدين الموجودين بتونس وليس بموافقة السلطان الموحدى في المغرب لذلك جاء عزله من قبل

وتمّ تعيينُ والٍ جديد مكانه هو أبو العلاء إدريس بن يوسف حفيد عبد المؤمن وإلي إشبيلية سابقًا،والذي عامل أقارب الشيخ الراحل أبى محمد عبد الواحد بن أبي حفص وأنصاره معاملة قاسية[١]، لذلك سرعان ما تمّ خلعه بسبب تصرفاته المتعسفة التي أثارت ضده العوام، وكان ذلك من قبل الخليفة الموحدي أبي محمد عبد الله العادل، وخلفه في ولاية إفريقية الشيخ أبو محمد عبد الله المعروف بعبّو ابن الوالي الراحل أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي، وقد وصل الوالي الجديد إلى تونس، ومعه أخوه المولى الأمير أبو زكريا يحيى في ذي القعدة عام ٦٢٣هـ[٢].

ولما استقر الوالي الجديد (أبو محمد عبد الله) على تونس عهد لأخيه أبي زكريا على مدينة قابس، وأضاف إليها الحامة، إلا أنه سرعان مادبّ الخلاف بين الأخوين (ابنا الشيخ الراحل ابن أبي حفص) خاصة بعد أن امتنع والي إفريقية أبو محمد عبد الله عن مبايعة الخليفة الموحدي الجديد في مراكش أبي العلاء إدريس المأمون، فعمل الخليفة الموحدي على كتابة ولاية إفريقية إلى أبي زكريا وكان إذ ذاك والياً على قابس وبعزل أخيه والي إفريقية أبى محمد عبد الله عبو[٣].

في رجب ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨، حكم إفريقية وملكها منذ ذلك التاريخ ووجه أخاه في البحر إلى إشبيلية[٤].

ويعتبر أبو زكريا الحفصي " هو أول بني حفص بالاستفراد بالإمارة " على حد تعبير ابن الشماع[٥].

السلطان الموحدى المستنصر بعد ثلاثة أشهر فقط من توليه الإمارة ، وقد يكون سبب ذلك إعتقاده أن الولايه ستصبح وراثيه في آل عبد الواحد بن أبى حفص .

[١] الزركشى ، مصدر سابق ، ص ٤٣ . برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٤٧.

[٢] الزركشي، مصدر سابق ، ص٤٦.

[٣] الزركشي، المصدر نفسه، ص٤٩.

[٤] ابن الشماع، مصدر سابق ، ص٥٤. بينما يذكر الزركشى أن النفى كان إلي تونس في قصر يسمى قصر (ابن فاخر) . تاريخ الدولتين ، ص ٥٠ .

[٥] ابن الشماع ، مصدر سابق ، ص٥٨.

ويبدو أنَّ ثمةَ أحداثًا وقعت في مراكش هي التي ساهمت في استقلال بني حفص بحكم تونس، أهمها ضعف ووهن الدولة الموحدية بسبب الفتن الداخلية والاضطرابات، فمنذ سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م قام الخليفة الموحدي المأمون بالتنكر لمذهب ابن تومرت(*) بسبب صراعه مع أخيه العادل وابن أخيه يحيي بن الناصر، وأهلك عدداً كبيراً من الموحدين ولذلك وجدها أبو زكريا الحفصي فرصة، حيث خلع طاعته ، وطَرَدَ العمال الذين بعثهم إليه واقتصر على الدعاء في الخطب والجمعة للمهدي وللخلفاء الراشدين وكان ذلك بمثابة الإعلان عن الاستقلال عن الدولة الموحدية(١).

ويحدثنا ابن عذاري(٢) عنه " فقعد الأمير أبو زكريا من حينه مقعد الأمراء وبايعه أشياخ الموحدين الكبراء ورحل إلى تونس فبويع بها بيعة الخلفاء العظماء، وأقعد الكتاب والوزراء وأنفذ الكتب للبلدان، لكل جهة ومكان، فوصلته البيعات، من كل الجهات وطاعت له جميع تلك البلاد، واستقامت الأحوال على أكمل البغية والمراد".

وبعد أن استقل أبو زكريا بتونس بادر إلى توسيع حدود دولته بضم الدولة الحّمادية سابقاً، فنهض إلى قسنطينة سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م وتمكن من فتحها ثم رحل إلى بجاية

(*) " ثم دخل المأمون الحضرة وأحضر مشيخة الموحدين .. وتقبض على مائة من أعيانهم فقتلهم وأرسل كتابه إلي البلدان لمحو اسم المهدى من السكة والخطبة والنعى عليه في النداء للصلاة باللغة البربرية وزيادة النداء لطلوع الفجر وهو أصبح ولله الحمد وغير ذلك من السنن التي أختص بها المهدى المعصوم" . أنظر : ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج٦ ، ص ٢٥٢ .

(١) " لقد استفحل الخلاف بين أبناء بنى عبد المؤمن الموحدى على السلطة ذلك أن المأمون أبو العلاء أدريس بن المنصور الموحدى عندما بلغه خبر إنتقاض الموحدين على أخيه السلطان العادل الذى تولى السلطة عام ٦٢١ – ٦٢٤ هـ / ١٢٢٤ – ١٢٢٧ م ، والذى تم قتله خنقاً في ٢٢ شوال عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م وتمت البيعة ليحيى بن الناصر لذلك قام المأمون بالدعوة لنفسه وهو حينذاك كان والياً على إشبيليه ، وتمت بالفعل بيعة الموحدين له بمراكش وخلعوا يحيى بن الناصر وبايع للمأمون أهل فاس وتلمسان وسبته وبجاية ، وبعث المأمون إلى صاحب إفريقية آنذاك ابى محمد عبد الله (عبو) ابن الشيخ محمد عبد الواحد ولكنه رفض البيعه له مما دعاه إلي خلعه وتولية أخاه أبى زكريا على إفريقية الذى بادر بالبيعه إلي المأمون " وكان بعد ذلك الذى ذكرناه . للمزيد أنظر : ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٢٥٣ . الزركشى ، مصدر سابق ، ص ٤٧ – ٤٨ – ٤٩ . العروسي المطوي، مرجع سابق، ص١١٧، برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٥٠.

(٢) مصدر سابق، قسم الموحدين ، ص٢٩٣.

ففتحها أيضاً[١]، وبذلك تمكن أبو زكريا وفي وقت قصير أن يجمع تحت سلطته كامل أنحاء إفريقية وما أصبح يدعى بالدولة الحفصية من منطقة القبائل الكبرى إلى منطقة سرت الكبرى، وبذلك أسس أبو زكريا الدولة الحفصية التي سيكتب لها الدوام مدة ثلاثة قرون ونصف[٢].

وفي عام ٦٣٤هـ بويع أبو زكريا البيعة الثانية وذكر اسمه في الخطبة ولم يتسم بأمير المؤمنين بل اقتصر على لقب الأمير[٣] وقد توالت عليه بعد ذلك البيعات من جهات متعددة ففى عام ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م أتته بيعة زيان بن مردنيش صاحب شاطبة بالأندلس وفي سنة ٦٤٠هـ /١٢٤٢ م أتته بيعة سبتة والمرية وفي عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م بايعه صاحبا إشبيليه وغرناطة حيث وصل وفداهما إلي تونس[٤] ، وقد استقرت الأمور في إفريقية أيام حكم أبي زكريا الحفصي خير استقرار "كانت أيامه خير أيام وأكثرها سعادة وأدرها أرزاقاً وأكثرها أفراحاً، ونام الناس معه على مهاد العافية، واكتسبوا الأموال، وأكثروا الغراسات... وكان عنده جباة الأموال والصنّاع وأصحاب المعارف وأرباب البصر مالم يكن عند غيره"[٥]. " ومآثره ومحاسنه كثيرة معروفة في الحاضرة وغيرها[٦]".

ويكاد يتفق المؤرخون على أن الدولة الحفصية هي امتداد لدولة بني عبد المؤمن الموحدية لأن الحفصيين كما أوضحنا فرع من الموحدين وينتسبون أصلاً إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمر الهنتاتي، شيخ قبيلة هنتاتة أحد بطون مصمودة التي قامت على أكتافها دولة الموحدين[٧]، لذلك ورثت هذه الدولة كل ممتلكات الدولة الموحدية في إفريقية.

---

[١] الزركشي، مصدر سابق، ص٥٦،.

[٢] برنشفيك، مرجع سابق، ج ١ ، ص٥١.

[٣] الوزير السراج، مصدر سابق ، ص١٠٢٤. أحمد بن ابى ضياف ، مصدر سابق ، ص ١٥٥.

[٤] أحمد بن ابى ضياف ، مصدر سابق ، ص ١٥٦.

[٥] ابن القنفذ، الفارسية ، ص١١٢.

[٦] أحمد بن ابى ضياف ، مصدر سابق ، ص ١٥٧.

[٧] ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٧٥ .

فأصبح إقليم طرابلس داخلاً في التشكيل السياسي الحفصي، وقد توفرت لطرابلس بقيام الدولة الحفصية حماية حقيقية وذلك لقرب مركز السلطة الحفصية في تونس من طرابلس إذ أصبح بوسع السلطان الحفصي أن يسرع لنجدة طرابلس في وقت قصير، إذا دعت الحاجة وليس كما كان يحدث في ظل الموحدين عندما كان القرار بالدفاع عن طرابلس يتخذ وقتاً طويلاً، حتى يصدر عن صاحب مراكش ويوضع موضع التنفيذ.

وقد شهد إقليم طرابلس في ظل الحكم الحفصي نوعاً من الاستقرار السياسي رغم التطورات التي مر بها الإقليم(*) .

ويبدو أن ضعفَ ووهنَ الخلافةِ الموحدية في مراكش، كانت من أهم أسباب انفصال بني حفص بحكم إفريقية.

ولكن ماهي مقومات الدولة الوليدة ؟ أو بالأحرى هل امتلكت بلاد إفريقية مقومات سياسية واقتصادية جعلتها مكتفية ذاتياً ومعتمدة في انفصالها من جسم الدولة الأم ؟

لا شك أن ضمان السلم والأمن في أية بقعة جغرافية عندما تحظى بحكومة لها قبضة يد في تسيير أمورها سوف يكون ذلك كفيلاً بضمان الاستقرار السياسي، ومن ثمّ انتعاش الوضع الاقتصادي.

وقد كانت سياسة السلطان أبي زكريا بداية طيبة لتحقيق ذلك الاستقرار حيث "صلحت به البلاد، ورخت الأسعار، وأمنت الطرق وجمع من الأموال والسلام مالم يجمعه أحد"(١).

وظلت إفريقية في العهد الحفصي تتأرجح بين الاستقرار ، والفوضى ، والاضطراب في ظل حكام بني حفص قويهم وضعيفهم(*) أما عن المقومات الاقتصادية، فلا شك أن

(*) شهدت طرابلس بعض التقلبات السياسية في العهد الحفصي فكانت تارة يغلب عليها الاستقلال الذاتي بالتدبير مثلما حدث عندما استقل بنو ثابت (الوشاحيون من عرب بني سليم) بالمدينة وظلت تتأرجح طوال أيام حكمهم بين التبعية والاستقلال، فحيناً يستقلون بها وحيناً آخر يقدمون طاعتهم للسلطان الحفصي في تونس، وتارة أخرى تكون طرابلس قاعدة لفرع حفصي معارض يتطلع إلى تولي رياسة البيت الحفصي في تونس وتارة ثالثة تضطرب أمورها ويضيع وضعها الاستقلالي لتصبح مجدداً ولاية تابعة لتونس، انظر: ابن خلدون ،العبر ، ج ٦ ، ص ٨٥ – ٣٦٨ . الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس من الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، دار الفتح للطباعة، بيروت، ١٩٧٠، ص١٣٠.

(١) الزركشي، مصدر سابق ، ص٥٥.

ما تتمتع به بلاد إفريقية من مزايا طبيعية تتمثل في موقعها الجغرافي المتميز وإمكانياتها الزراعية –التي عرضناها سابقاً– قد ساهمت في موضوع انفصالها واكتفائها الذاتي كدولة مستقلة.

(*) من أهم سلاطين بني حفص الأقوياء الذين تميزوا بازدهار عهودهم: المستنصر ابن السلطان أبي زكريا (٦٤٧–٦٧٥هـ / ١٢٤٩ – ١٢٧٧م) والسلطان أبي العباس (٧٧٢ – ٧٩٦ هـ / ١٣٧١ – ١٣٧٤م) الذي أعاد للأسرة الحفصية مجدها وهيبتها التي فقدتها بعد فترة من الوهن والاضطراب والانقسامات والسلطان أبي فارس عبد العزيز (٧٩٦ – ٨٣٧هـ/ ١٣٩٤ – ١٤٣٤ م) الذي يعتبر آخر عظماء سلاطين بني حفص فقد اتسمت سياسته بالحزم والحذر وتدعيم السلطة الحفصية أكثر وأكثر داخل أفريقية . أما سلاطين بنى حفص الذين إتصفت عهودهم بالضعف والانحلال فكان أهمهم السلطان يحيى الواثق الحفصى (٦٧٥ – ٦٧٨ هـ/١٢٧٧ – ١٢٨٠م) الذى مثل عهده بداية ضعف الدولة الحفصية فكان يمثل فترة التحول وبداية النزول من القمة. والسلطان أبى اسحق إبراهيم (٦٧٨–٦٨١هـ/١٢٨٠–١٢٨٢م) الذى كان منصرفاً إلي لذاته حتى استولت الأعراب في أيامه بتونس على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم ، وزادت العوائد (الضرائب) ليجد الراحة في لذاته وقلت المجابي في أيامه وكثر الإخراج والإنفاق . والسلطان أبى عصيدة (٦٩٣–٧٠٩ هـ/١٢٩٤ –١٣٠٩م) الذى كان لصغر سنه الأثر البالغ في تآمر حاشيته واستفحالهم بأمر السلطان ، بالإضافة إلى إنقسام البيت الحفصى وصراعاتهم القوية على تولى الحكم . والسلطان أبى يحيى زكريا بن اللحيانى (٧١١–٧١٧هـ/١٣١١–١٣١٧م) الذى مثل عهده قمة التنازع والإنقسام في البيت الحفصى على تولى السلطة فاشتد اضطراب الأمور بداخل البلاد ، وإفتتان القبائل ، والأعراب بالإضافة إلي انشغاله بجمع الأموال ؛ ومما زاد الطين بلة هو تقربه وتحالفه مع النصارى من الأراجونيين والسماح لهم بالتدخل في البلاد ، وإعطائهم بعض الإمتيازات . للمزيد راجع : الزركشى ، مصدر سابق ، ص ٧٩ وما بعدها ، ص ٢١٦ وما بعدها ، ص ٢٣٤ وما بعدها . ص ١٣١ ، ١٣٢ . ابن القنفد ، الفارسية ، ص١٣٩. العروسى المطوى ، مرجع سابق ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٣٢٥.

الفصل الأول

العوامل المؤثرة في النشاط التجاري

أولاً: الأمن:

١- الفتن والحروب الداخلية.

٢- أمن البحر المتوسط (القرصنة البحرية).

ثانياً: الموارد الطبيعية:

١- الزراعة.

٢- الإنتاج الحيواني.

٣- الصناعة.

٤- التعدين.

أولاً: الأمن:

يعتبر الأمن العامل الأساسي في التطور الاقتصادي بشكل عام والنشاط التجاري بشكل خاص.

[١] الفتن والحروب الداخلية:

لقد شهدت بلاد إفريقية قلاقل وفتن داخلية ، أثّرت على سير الحياة الاقتصادية ولاسيما النشاط التجاري.

وقد أشارت غالبية المصادر[١] إلى الأثر السلبي الذي تركته العرب الهلالية والسليمية في إفريقية ومسألة السلب والنهب ، وتخريب الأراضى الزراعية ؛ وقطع الطرق على السابلة ، ونشر الخراب والدمار في طرق التجارة.

والجدير بالذكر أن أحوال إفريقية الداخلية عند مجئ العرب الهلالية والسليمية كانت متدهورة نتيجة عدة عوامل نذكر منها تلك النزاعات الداخلية بحواضر إفريقية ، بالإضافة إلى خروج المقاطعات الطرفية عن سلطة المركز مثل جهة طرابلس والحضنة والجريد[٢].

بالإضافة إلى الضغط الخارجي المتمثل في سيطرة النورمان على صقلية ، ثم ازدياد التوسع النورماني في المتوسط وسيطرتهم على الشريط الساحلي الممتد من طرابلس إلى مشارف مدينة تونس ؛ مدخلين الاضطراب الاجتماعي ناشرين الدّمار في قطاعي الفلاحة والتجارة ، عاملين على قطع المدن عن نواحيها ، وهو أمر يفسر استنفار مدن إفريقية وأريافها وتأهبها للدفاع عن نفسها[٣].

وفي ظل هذا التفكك المجتمعي واحتدام الأزمة بإفريقية عرفت البلاد وهناً عاماً وتراجعاً خطيراً ، ولم تكن إذن الهجرة الهلالية في ذلك الوقت سوى حلقة من الحلقات العديدة التي أسست لهذا التطور السلبي.

---

[١] النويري ، نهاية الأرب ، ج٢٤ ، ص ٢١١. ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ١٤-١٦. التجاني ، الرحلة، ص١٦.

[٢] محمد حسن ، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي ، ج١ ، جامعة تونس الأولى ، ١٩٩٩ ، ص٣١.

[٣] ابن خلدون العبر ، ج٦ ، ص ١٦٢-١٦٤.

وعند مجئ الموحدين تمكن عبد المؤمن بن علي من التحكم في عملية انتشار البدو الهلالية والسليمية في بلاد المغرب الوسطى والشرقية ، وقد حصل الصدام بين القوة الموحدية والقبائل العربية في موقعة سطيف عام ٥٤٧هـ/١١٥٣م[١] ، التي واجه فيها عبد المؤمن بن علي قبائل المغرب الأوسط وغرب إفريقية وهي قبائل رياح وزغبة والأثيج.

وقد تصرف عبد المؤمن مع القبائل المنهزمة بلباقة سياسية ، حيث أعاد لهم أسلابهم[٢] من أجل كسبهم إلى صفه واستئلافهم وذلك لاستعمالهم في حروبه ضد الأندلس: "واستكانوا لعز الموحدين وغلبهم ، فدخلوا في دعوتهم وتمسكوا بطاعتهم وأطلق عبد المؤمن أسراهم ولم يزالوا على استقامتهم ، ولم يزل الموحدون يستفزونهم في جهادهم في الأندلس ، وربما بعثوا إليهم في ذلك المخاطبات الشعرية فأجازوا مع عبد المؤمن ويوسف ابنه كما هو في أخبار دولتهم"[٣].

وبذلك تمكن الموحدون من التحكم في عملية الانتشار البدوي وتسييرها وفق إرادتهم ، ووضعوا حدًّا لاستقلالية البدو الذين ألفوا وضعاً سائباً طيلة قرن من الزمن. وضبطوا تحركات القبائل العربية التي ظلت منتفعة بإقطاعات البلاد[*].

ونجح عبد المؤمن بن علي في تأمين البلاد وتهدين القبائل البدوية عن طريق إفراغ البلاد وترحيل عدد كبير من بني هلال إلى المغرب الأقصى وتشريكهم في حروب الأندلس.

وظلت هذه السياسة فاعلة في عهد خلفائه ، وبدأت بوادر التسرب السليمي إلى أواسط إفريقية والتى كانت نازلة "بجهات طرابلس وما وراءها مشرقاً ومصحراً إلى برقة

---

[١] البيذق ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٧٤-٧٥. ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٢٠.

[٢] البيذق ، مصدر سابق ، ص ٧٥.

[٣] ابن خلدون العبر ، ج٦ ، ص ٢٠.

[*] وقد هاجرت قبائل بني هلال بن عامر حتى وصلوا إلى القيروان التى عاثوا فيها عيثاً شديداً أدى إلى خرابها فرحل تميم بن المعز بن باديس إلى المهدية ثم سارت هذه القبائل إلى أن وصلت إلى المغرب الأوسط حيث نزلوا على المنصور بن المنتصر فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من تمرها وبُرها. أنظر: المراكشي ، المعجب ، ص ١٨٩.

والإسكندرية"[١] منذ عام ٥٧٦هـ كي تحل محل بني هلال. وتواصلت هذه العملية ببطء إلى سنة ٦٣٠هـ تاريخ القرار الحاسم الذي اتخذه أبو زكريا الحفصي في استجلاب بني سليم ودحر بني رياح نحو الغرب[٢].

والذي يهمنا في هذا المجال. هل بالفعل استكانت تلك القبائل للحكم الموحدي في افريقية وهدأت توتراتها؟

يبدو أن تلك القبائل لم تستكن لهزيمتها أمام الموحدين ولم تسلم بالواقع الجديد وخاصة قبيلة الأثبج الهلالية التى وجدت في حركة ابن غانية فرصتها للثورة على هذا الواقع هذا من جهة ، ومن جهة أخرى وجدت قبيلتا رياح ودباب فرصة للتمرد والثورة على الحكم الموحدي وذلك بتحالفها مع قراقوش التقوي. وتمكن هذا الحلف من رياح ودباب من ناحية وقراقوش من ناحية ثانية من السيطرة على جهة طرابلس ، وجبل نفوسة ، وتحصلت هذه القبائل البدوية على عطاءاتها من القائد الأرمني قراقوش[٣].

وبذلك تكّون حلف من عناصر متعددة (المغامرون الأغزاز ، والقبائل العربية ، وبني غانية) ، ولابد أن يحدث ذلك ارتباكاً وتوتراً له تأثير مباشر على الحركة التجارية في البلاد.

فالمغامرون الأغزاز وصلوا لإفريقية بغية تكوين ثروة وربما تأمين طريق القوافل الصحراوي الرابط بين مصر والسودان الغربي مروراً بصحراء المغرب ، بينما حاول بنو غانية الميورقيين إحداث شرخ في جسم الدولة الحفصية ، والسيطرة على محور عمودي يمتد من ميورقية – بجاية – قسنطينة – الزاب (بسكرة) – بلاد الجريد– أي تكوين محور يربط بين المجال الصحراوي ، والمجال المتوسطي[٤].

أما القبائل العربية فإن انتماءَها لحركة بني غانية وحليفهم قراقوش التقوي لم يكن

---

[١] ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، تحقيق: الهادي التازي ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٦٤ م ، ص ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٩.

[٢] محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج١ ، ص ٤٤.

[٣] التجاني ، الرحلة ، ص ١١٠ – ١١١.

[٤] محمد حسن ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٤٥.

بنفس الحدة والانضباط[*]خاصة وأن الدولة مارست معها سياسة فَرّق تَسُدْ وهي الميزة الخاصة والأساسية التي سوف تطبع علاقات القبائل الهلالية والسليمية مع الموحدين ثم مع الحفصيين[١].

وقد عمل الحفصيون في إفريقية على اصطناع بني سليم لمشايعة الدولة "واستظهر بهم السلطان على شأنه وأنزلهم بساح القيروان ، وأجزل لهم الصِّلات والعوائد ، وزاحموا الذواودة في رياح بمنكب بعد أن كانت لهم استطالة على جميع بلاد إفريقية"[٢].

ويبدو أن اصطناع بني حفص لقبيلة بني كعب السليمية قد جعلها في موقف قوة حيث توسعت نحو الشمال وصارت على مقربة من مدينة تونس "وصار أضرارهم باسابلة وحطمهم للجنات وانتهابهم للزرع"[٣].

فتضرر أهل افريقية من هذا الوضع الذي أدى إلى غلاء الأسعار ، فكان لهم رد فعل قوي تجاه الأعراب عندما بطشوا برئيس الكعوب سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م (هداج بن عبيد الكعبي) بجامع الزيتونة[٤].

وتجدر الإشارة إلى أن قبائل بني لسليم الطرفية (بني عوف) في طرابلس وقابس والجريد كانت في تحالفها مع قراقوش التقوي[*] في بدايات زحفه على إفريقية إنما أرادات التوغل شمالاً بلاد افريقية وتجاوز خط قابس الاستراتيجي ؛ لكن الحفصيين – رغم

---

[*]فقد تحالفت قبيلة بني رياح مع بني غانية ، وكانت العمود الفقري لتلك الثورة ضد الموحدين ، بينما انضمت بعض فصائل بني سليم في علاق ودباب إلى الموحدين ، ووقفوا إلى صف أبي زكريا يحيى الحفصي ، بالإضافة إلى قبيلة زغبة الهلالية التي أعانت الموحدين ومن ثم الحفصيين في تلك الثورة ، وتحصلوا على إقطاعات في ضواحي بجاية ، بل أنهم قدموا الإعانات ، فعند عجز بجاية عن استخلاص جبايتها من القبائل الموجودة في دائرتها جمعها بنو يزيد (وهم فرع من زغبة) باسم الدولة ولصالحها. ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤١.

[١] محمد سعيد ، القبائل الهلالية والسليمية وعلاقاتها بالدولة الحفصية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة تونس ، ١٩٨٧ ، ص ٨٧.

[٢] ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٧٣.

[٣] ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣١٤. الزركشي ، مصدر سابق ، ص ١١٦.

[٤] الزركشي ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

[*]لقد تخلت قبائل بني سليم على حليفها قراقوش التقوي بعد أن استأصل شأفة سبعين من شيوخهم ، حيث استدعى قراقوش شيوخ بني سليم من دباب والكعوب إلى قصر العروسين وقام بقتلهم جميعاً. التجاني ، الرحلة ، ص ١٠٤.

اصطناعهم وتقريبهم فيما بعد لبني سليم – لم يفرطوا في هذا الموقع الجغرافي السياسي الرابط بين المشرق والمغرب من جهة وبلاد الصحراء وافريقية من جهة أخرى ، وما يعني ذلك نم عائدات تجارية مهمة[١].

وإجمالاً فإن الحفصيين استطاعوا السيطرة على أمن الدولة من عيث تلك القبائل العربية في البلاد ، وخاصة في زمن قوة السلاطين الحفصيين فلم تسجل القبائل العربية حضوراً إيجابياً بل استكانت في الغالب لقوة السلطة ، ومع ذلك فإن خطر تلك القبائل وعيثها ظل في البوادي في فترة ضعف وإنقسام الحفصيين[٢].

والجدير بالذكر أن التوتر الاجتماعي والفتن الداخلية ظلت قائمة متمثلة في حركات قامت بها الفئات الشعبية[**]، أو العامة من المجتمع ، والتي عادةً ما كانت تتدلع لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية ؛ وليس غرضنا في هذا المجال تفصيلَ تلك الحركات ، بل نسعى فقط لإبراز أمثلة ونماذج منها لبيان أسبابها وآثارها في اضطراب الأمن وإثارة التوتر الداخلي في البلاد وتأثير كل ذلك على الوضع الاقتصادي لاسيما النشاطُ التجاريُّ.

فقد قام أهالي إفريقية برد فعل شعبي عنيف على العملة النحاسية التى ضربت سنة ٦٦٠هـ/٢٣٦٢م المعروفة باسم الحندوس والتي تعرضت للغش والتدليس ، ورغم تدخل السلطة السياسية لوضع حد للغش فيها ، ولكن دون جدوى ؛ إلاَّ أن الفئات الشعبية

---

[١] محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج١ ، ص ٤٥.

[٢] رسائل موحدية ، تحقيق ودراسة : أحمد عزاوى ، ج٢ ، منشورات كلية الأداب ، جامعة القنيطرة ، المملكة المغربية ، ١٩٩٥ ، ص ٨٠.

[**] إن مسألة تحديد مصطلح الفئات الشعبية أو العامة قد تكون من الصعوبة بمكان ، ذلك لأن هذا المصطلح هو متصور واسع وغير محدد ، وإذا قارناه بمعكوسه الفئات الخاصة ، والتى تضم النخبة والمقربين إلى السلطان من أهل الخطط ، وأصحاب الجاه فإن العامة إذن هي بقية الفئات الاجتماعية المحرومة من الثروة والمعدومة النفوذ والجاه وتتكون داخل المدن من الحرفيين وصغار التجار ، والعاملين في الزراعة والرقيق. محمد حسن ، حركات العامة بمدن افريقية في العهد الحفصي (المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي) ، المجمع التونسي للعلوم والآداب ، ١٩٩٩م ، ص ٢٦٦.

قد أصرت على التخلص من هذه النقود النحاسية لما لها من آثار سيئة على التعامل التجارى.

"وأعلن الناس بالنكير في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها وكثر الخوض في ذلك وتوقعت الفتنة"[١].

وكان للظروف الطبيعية ومرور المنطقة بسنوات عجاف من الجوع ، والفقر دورٌ بارز في قيام اضطرابات اجتماعية أخلّت بالأمن.

وتحضرنا هنا حركة ابن أبي عمارة[٢] التي هددت الكيان الحفصي في عهد أبي إسحاق (٦٧٩هـ/٦٨١هـ) وتزامنت مع استفحال ظاهرة الجوع في البلاد ، ويبدو أن الظروف العصبية التي كانت تمر بها افريقية قد ساعدت على استفحال هذه الحركة ؛ ذلك لأن سياسة السلطان أبي إسحاق لم تكن في صالح العامة أي أنه انتهج سياسة لا شعبية ، فقد انتشط في جمع الضرائب في وطن هوارة غرب البلاد[٣].

بينما بادر ابن أبي عمارة عند دخوله تونس إلى رفع ضريبة الإنزال لكسب الفئات العامة إلى جانبه.

ومن جهة أخرى فإن سياسة أبي إسحاق مع القبائل العربية زادت من حدة التوتر الاجتماعي واختلال الأمن إذ "استولى العرب في أيامه بتونس على القرى والمنازل ونهبوا الأموال ، والحريم ، وهو أول من كتب البلاد الغربية للعرب بالظهائر"[٤].

---

[١] ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٢٨٤.

[٢] هو أحمد بن مرزوق من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة ، ونشأ ببجاية ... وكان يحدث نفسه بالملك. وكان قد اغترب عن بلده ولحق نصر بصحراء سجلماسة واختلط ببعض العرب وانتمى إلى أهل البيت ، وادعى أنه الفاطمي المنتظر ، ولما افتضح أمره وكذبه أخذ يتقلب في الأرض حتى وصل إلى جهاب طرابس ونزل على ذباب وصحب منهم الفتى نصير مولى الواثق بن المستنصر وتلقب بنوبر ، ولما رآه تبين فيه شبهاً من الفضل بن الواثق فطفق يبكي ويقبل قدميه ، فقال ابن أبي عمارة ما شأنك؟ فقص عليه الخبر فقال له: صدقني في هذه الدعوى وأنا أشرد من قاتلهم". انظر: ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٣٠٢.

[٣] ابن الشماع ، مصدر سابق ، ص ٧٦. ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٠٢. ابن القنفذ ، مصدر سابق، ص١٤٢.

[٤] ابن القنفذ ، المصدر نفسه ، ص ١٣٩.

غير أن تهدين القبائل لم تكن بالسياسة الناجحة في تهدئتها خاصة وأن حركة الدعى ابن أبي عمارة استندت على عصبية إحداها وهي قبيلة أولاد ذباب السليمية الموجودة في الجنوب الشرقي[١].

حيث إن ابن أبي عمارة عندما انكشفت ترهاته وخداعه في بجاية ثم في سجلماسة وأخفق في تحويل المعادن إلى ذهب – كما ادعى – توارى عن الأنظار وظهر فجأة بين قبيلة ذباب السليمية في جهات طرابلس مدعياً أنه الفضل ابن أبي الواثق الحفصي.

ولاقى هناك تأييد كبير من شيخ دباب مرغم بن صابر وأعلن الأخير تصديقه للدعي وذلك لتحقيق أهدافه الشخصية للانقسام بطرابلس عن جسم الدولة الحفصية[٢].

وبذلك نلاحظ أن هذه الحركة قامت على أساس عصبية قبلية ؛ ولأن قائدها (ابن أبي عمارة) كان حرفي (خياط) [٣] فقط لاقت مساندة من قبل العامة في الأسواق ؛ غير أن هذه الحركة سرعان ما باءت بالفشل وذلك نظراً لتسرع ابن أبي عمارة في فك الترابط مع البدو المساندين له ، فحال نجاحه في دخول تونس سارع إلى التخلص من العرب. "ثم أخرج جيشاً وأمّر عليه شيخ الموحدين الشيخ أبا محمد عبد الحق بن تافراجين وأمر بقتل من ظفر به من العرب"[٤].

ولم يستطع الصمود أمام السلطان الحفصي أبي حفص عمر عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م حيث "ضربت عنقه بعد التنكيل به وطيف بجسمه على حمار وجر إلى السبخة فرمي بها وطيف برأسه على عصا"[٥].

وبذلك نستنتج أن استياء طبقات الشعب من بعض تصرفات السلطة الحاكمة يجعلها في حالة تعبئة واستنفار للانصياع وراء قيادة – مهما كانت مواصفاتها – تقودها

---

[١] ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٣٠٢.

[٢] محمود إدريس علي بك ، مرجع سابق ، ص ٣٢٨.

[٣] ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٣٠٢.

[٤] الزركشي ، مصدر سابق ، ص ٩٧.

[٥] الزركشى ، نفس المصدر أعلاه ، ص ١٠٥.

للثورة ضد الوضع المعاش مما يسبب في قلقلة الأمن ، ويثير التوتر ، والفتن ويؤثر على أمن الّمِنْطَقة واستقرارها.

وكان لحركة الانفصال التى قادها أبي زكريا بن أبي إسحاق الحفصي(*) في مدينة بجاية أثر واضح في اختلال الأمن وإثارة الفتن الداخلية ، وقد اغتنم أبو زكريا الظروف الصعبة التي كانت تمر بها السلطنة الحفصية في عهد السلطان أبي حفص عمر(*)وأعلن انفصاله في بجاية بتحريض عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م وذلك بتحريض من بعض القوى المحلية(**).

وبذلك انقسمت الدولة الحفصية إلى دولتين: الأولى عاصمتها تونس ، والثانية عاصمتها بجاية.

ويروي ابن القنفذ(١) أن دولة أبي زكريا في بجاية شهدت قوة نسبية في مظاهر البناء والتشييد والنجاح في حماية الحدود من الجهتين الغربية والشرقية ضد بني مرين وبني عبد الواد(***) والحفصيين بتونس.

(*)هو أبي زكريا بن أبي إسحاق السلطان الحفصي (٦٧٨-٦٨١هـ/١٢٨٠-١٢٨٢م) فرَّ مع أبيه إلى بجاية أثناء حركة الدعي ابن أبي عمارة واستيلائه على تونس سنة ٦٨١هـ/١٢٨٣م. وكان أخيه الأمير أبي فارس موجوداً في بجاية غير أنه لم يحسن استقبال أبيه وطمع في الحكم وخرج لقتال الدعي ولكنه قتل ، ثم كان وقع الهزيمة على بجاية كبيراً عندما احتلها ابن أبي عمارة وقتل السلطان أبي إسحق ، غير أن الأمير أبي زكريا استطاع النجاة والاحتماء بصهره ابن يغمراسن صاحب تلمسان ، ولما اضطرب أمر أبي عمارة نتيجة لتخلي العرب عنه كذلك أسقطوه ورفعوا أبي حفص عمر للسلطة سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م الذي قتله في نفس السنة طمع أبي زكريا في الانفصال عن السلطة في بجاية. ابن خلدون ، العبر ، ج٦، ص ٣٠٣-٣٠٥.

(*)أهمها غزو ملك أراغون وصقلية لجزيرة جربة سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وفرضوا على السلطان أبي حفص ضريبة سنوية. انظر برنشفيك ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٢٤-١٢٧.

(**)من قبائل الدواودة الهلالية من بني رياح ، وقبائل سدويكش وهي قبيلة بربية تنتمي إلى كتافة من البربر البرانس. انظر ابن خلدون ، العبر ، ص ١٤٩-٣٠٣.

(١) مصدر سابق ، ص ١٤٨-١٥٥.

(***) بنو عبد الواد ويسمون أيضاً بنورزيان وهم قبيلة بربرية متفرغة من زناتة البتر ، أسسوا بزعامة شيخهم يغمراسن دولتهم سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م في المغرب الأوسط والتي عاشت إلى منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ١٢٠.

وظلت بجاية منطقة مستقلة عن الدولة الأم في تونس إلى أن عادت إلى حكم بني حفص عام ٧١٨هـ/١٣١٨م.

ومما زاد من سوء الأوضاع الداخلية في المنطقة محاولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط الهجوم على بجاية والاستيلاء عليها(١).

ثم جاء هجوم بني مرين ورثة الموحدين في المغرب الأقصى على تلمسان أولاً مما أدى إلى تراجع بني عبد الواد عن بجاية وفي عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م زحفت جيوش بني مرين على بجاية واستولت عليها(٢).

ثم استهدف بني مرين تونس ودخلوها في نفس العام(٣) ، غير أن المرنيين سرعان ما خرجوا من تونس عندما قَفَلَ السلطان أبو الحسن (المريني) عائدًا إلى بلده عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م لقلاقل هناك وعادت البلاد إلى حكامها بني حفص(٤).

وظلت بجاية منفصلة تحت الحكم المريني إلى أن استرجعها السلطان الحفصي أبو إسحق إبراهيم الثاني عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م(٥) ، وبقيت منذ ذلك التاريخ في تبعية مستمرة لبني حفص حتى تعرضت للسيطرة الأسبانية عام٩١٥هـ/١٥٠٩-١٥١٠م(٦).

وهكذا ظلت بجاية تلك المدينة الطرفية (الطرف الغربي) للدولة الحفصية تتأرجح بين التبعية والاستقلال للحكم الحفصي ، مثيرة جانبًا كبيرًا من القلق والتوتر السياسي والاجتماعي والاقتصادي في أمن الدولة.

وكان إقليم طرابلس في الطرف الشرقي للدولة الحفصية هو الآخر عرضة لمحاولات الانفصال عن جسم الدولة الحفصية مثيراً قلاقل وفتنًا داخلية.

---

(١) ابن خلدون المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٣٣٦.

(٢) ابن خلدون المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٣٤١. ابن القنفذ ، مصدر سابق ، ص ١٧١.

(٣) ابن خلدون المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٣٥٨.

(٤) ابن القنفذ ، مصدر سابق ، ص ١٧٣.

(٥) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٣٧٣.

(٦) صالح بعيزيق ، بجاية في العهد الحفصى دراسة إقتصادية وإجتماعية ، ، ج١، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة تونس الأولى ، ١٩٩٥ ، ص ٩٥.

فقد ذكرنا أن طرابلس كانت قاعدة من قواعد الصراع بين الموحدين من جهة وقراقوش التقوي وبني غانية من جهة أخرى.

ومع أن طرابلس قد شهدت أوائل الحكم الحفصي استقراراً كان له الأثر الواضح في اتجاه أهلها للنشاط التجاري لاسيما البحري ، لأن البحر كان مورد رزقهم الأكبر سواء ذلك عن طريق الصيد ، أو عن طريق التبادل التجاري ما بين صادرات وواردات مع الدول المجاورة في الشمال[١].

مع ذلك كله فقد لاقت طرابلس محاولة للاستقلال والانفصال عن الدولة الحفصية في تونس ، وذلك على يد أسرة بني ثابت وهم عرب وشاحيون من بني سليم ينتمون إلى قبيلة الجواري من وشاح بن عامر بن دباب بن مالك بني سليم[٢].

ويبدو أن استقرار تلك القبائل العربية في بعض نواحي إفريقية وطرابلس مدة تزيد على ثلاثة قرون جعلها تشعر بالاستقرار والتمدن وارتفع مقام بعض العائلات مثل أسرة بني ثابت في طرابلس وأخذت تمارس التجارة ، مما أكسبها ثروة طائلة إلى جانب نسبها العربي النقي فأصبحت لها مكانة مرموقة في مدينة طرابلس مما قوى طبيعتها المبنية على عدم الخضوع للسلطة[٣]. "وكان ثابت شابًا غرًا يوم أن ولى شئون طرابلس"[٤].

لذلك أعلن ثابت بن محمد بن ثابت بن عمار والي طرابلس (٧٥٠-٧٧٠هـ/ ١٣٤٩-١٣٦٨م) استقلاله عن الحفصيين[٥] مستغلاً انشغال السلطة الحفصية نتيجة زحف بني مرين على تونس عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م. [٦]

وفي عهد بني ثابت تعرضت طرابلس لهجوم الجنويين بقيادة (فيليب دوريا) عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م مستغلين فرصة انشقاق واليها ثابت بن محمد عن الدولة الأم في تونس

---

[١] محمود إدريس علي بك ، مرجع سابق ، ص ٣٢٥.

[٢] ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٨٥.

[٣] محمود إدريس بك ، مرجع سابق ، ص ٣٤٦.

[٤] ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،ج ١،دار الجيل،بيروت ، ١٩٩٣،ص٥٢٩.

[٥] ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٣٦٨.

[٦] الزركشى ، مصدر سابق ، ص ١٦٨ .

وسوء أوضاع البلاد الداخلية."وكان تجار الجنويين يترددون إليها فاطلعوا على عوراتها وائتمروا في غزوها".(١)

وتعرضت المدينة على يد الجنويين لضروب في السلب والنهب ، حتى تمكن أبو العباس أحمد بن مكي صاحب قابس(*) في فداء مدينة طرابلس من النصارى "فجمع ما عنده واستوجب ما بقى من أهل قابس والعامة وبلاد الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخير وأمكنه النصارى من طرابلس فملكها واستولى عليها وأزال من دنسها من وضر الكفر"(٢).

واستمرت طرابلس ما بين تبعية واستقلال بين بني ثابت وبني حفص ، إلى أن عادت للحكم الحفصي عام (٨٠٣-٩١٥هـ/١٤٠٠-١٥١٠م) وظلت تحت التبعية الحفصية إلى أن احتلها الأسبانُ عام ٩١٥هـ /١٥١٠م واستولوا عليها.

ولعلَّ أكثَر ما أفرزته تلك المحاولات الاستقلالية الفتنَ والثوراتَ وانعدامَ الأمنِ داخلَ البلاد.

---

(١) ابن خلدون ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٨٥ .

(*) بنومكي ينتمون إلى بني دباب من بني سليم فهم أبناء عمومة بني ثابت ، حيث انقسم ذباب إلى قسمين وهم المحاميد بنو محمود بن طوق بن بقية بن وشاح ورئيسهم (أبو مروان عبد الملك بن مكي) ومواطنهم ما بين قابس ونفوسه. والقسم الثاني الجواري كما ذكرنا وهم بنو حميد بن جارية بن وشاح ومواطنهم طرابلس وما يليها. انظر: ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٨٥ .

(٢) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص ٣٦٨.

[٢] أمن البحر المتوسط:

القرصنة: (*)

اعتبرت القرصنة من أهم العوامل التي أثرت على النشاط البحري في حوض المتوسط خلال فترة العصور الوسطى ، وقد انعكس هذا التأثير على العلاقات السياسية والاقتصادية لاسيما النشاط التجاري بين مختلف قوى البحر المتوسط. وفي هذا الصدد يقول: دي ماس لاتري "Mas Latrie"(١) "لقد كان من النادر جدًّا في العصور الوسطى أن تعيش الشعوب في سلام تام مع الشعوب الأخرى ؛ فقانون الحرب كان يسود هذه المدن وتلك الممالك – حيث يوجد – بجانب المسيحيين من عام الشعب ، من يمتلكون السفن ولديهم القدرة على إنشاء وبناء السفن الحربية ، وإعلان العداء على كل من فعلوا أفعالاً سيئة من القراصنة".

(*) القرصنة كلمة إيطالية تعني السباق ومنها اشتقت كلمة Corsaro وهو الذي يقوم بفعل السباق ، وقد استعملت هذه الكلمة لتعبر عن التسابق البحري أي الهجوم والاعتداء على السفن أو سواحل الدول الأخرى. بينما نجد في المصادر الإسلامية تعبيراً آخر عن القرصنة وهو "غزاة البحر" كما ورد عند ابن خلدون والغبريني. وعموماً فإن مفهوم القرصنة قد اختلف فيه حتى أصبحت في الغالب تخضع إلى النسبية والتفاوت ، فقد تكون القرصنة أحياناً الحملات التى تشنها دولة ضد السفن التجارية لدولة أخرى تكون بينها عداوة أو حرب لاعتراض تجارتها وإعاقة تطورها الاقتصادي ، وقد تلتبس القرصنة أحياناً باللصوصية وأعمال السلب والنصب ، بأن تفسح بعض الدول المجال للتعاون في بعض الأحيان لأولئك اللصوص لتستغل مهاراتهم وخبراتهم الملاحية لضرب تجارة الدول الأخرى التى تكون على خلاف أو حرب معها ، وهذا التداخل في المفهوم على أرض الواقع إنما يعود إلى الجو الهام الذي تسير فيه العلاقات بين قوى البحر المتوسط والتي كانت معرضة دائماً للأزمات والنزاعات. راجع عبد الناصر جبّار ، بنو حفص والقوى الصليبية في غرب البحر المتوسط خلال القرنين ٨ – ٩ هـ / ١٤–١٥ م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠، ص ١٠١–١٠٣. ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٣٩٩. الغبريني ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٤٥.

(1) Mas Latrie, Relations Des Chretens , Des Chiretiens Avec les Arabes De l'a Frique se Ptentrionale , Paris , 1866 , P 94-95.

وكان لعمليات القرصنة آثار سيئة على حرية الانتقال والتجارة في البحر المتوسط بما آثارته من الرعب والإرهاب[١].

وقد أورد الرحالة ابن بطوطة[٢] معلوماتٍ عن نشاط القرصنة في البحر المتوسط، فيذكر أن السفينة التى كان يُقلُّها في أثناء عودته من الأرض المقدسة إلى جِرْبة قد استولى عليها العدو – الصليبيين – قبل أن تصل إلى تونس حيث يقول: "فركبت البحر في قرقورة (نوع من المراكب) لبعض التونسيين صغيرة ، وذلك في صفر سنة ٧٥٠هـ ، وسرت حتى نزلت بجربة ، وسافر المركب المذكور إلى تونس ، فاستولى العدو عليه".

ثم يصف لنا ابن بطوطة حالة الرعب التي تعرض لها في أثناء سفره من تونس إلى تازا "ثم سافرت من تونس في البحر مع القطلانين فوصلنا إلى جزيرة سردانية ، من جزر الروم ، ولها مَرْسى عجيب ، عليه خشب كبار دائرة به ، وله مدخل كأنه باب ، لا يفتح إلا بإذن منهم ، وفيها حصون ، دخلنا أحدها ، وبه أسواق كثيرة ، ونذرت لله تعالى إن خلصنا الله منها صوم شهرين متتابعين. لأننا تعرفنا أن أهلها عازمون على إتباعنا إذا خرجنا عنها ليأسرونا ، ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس ثم إلى مازونة ثم إلى مستغانم ثم إلى تلمسان ... ثم سافرنا منها فبينما نحن بقرب أزغنغان، إذ خرج علينا خمسون راجلاً وفارسان فعزمنا على قتالهم ورفعنا علمًا ثم سالمونا وسالمناهم"[٣].

ويبدو أن أعمال القرصنة واعتراض سبيل المسافرين والتجار وسفن التجارة إنما هي وليدة الحروب الصليبية ، فعندما عجز المسيحيون عن استرداد الأجزاء التي افتتحها المسلمون على حسابهم في الماضي رغم المحاولات التي قاموا بها في شكل (حروب صليبية) تحولت هجماتهم إلى أعمال قرصنة التي هي حرب تعتمد على الغارات السريعة

---

[١] مصطفى عبد الخالق ، علاقة القوى الصليبية في غرب البحر المتوسط بالمغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجري ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٢٥٠.

[٢] رحلة ابن بطوطة المسماة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، بدون سنة نشر ، ص ٥٨٨.

[٣] المصدر نفسه ، ص ٥٨٩-٥٩٠.

وإحداث أكبر قدر ممكن من الأضرار على السواحل الإسلامية ثم العودة دون الدخول في اشتباكات عسكرية[١].

والجدير بالذكر أن هناك أسبابًا ودوافع مباشرة لتقدم القرصنة المسيحية في هذه الفترة أهمها : التنمية والتقدم في التجارة البحرية أدى إلي وجود القراصنة بشكل كبير ، بالإضافة إلي الامكانات المتاحة – لزمن طويل – من خلال القوانين العامة التي تعمل على خدمة السباق أو الصراع مثل التسليح الشرعي في حالة الحرب. كذلك كان لغياب وعدم كفاية القوات البحرية للدولة الأمر الذى تطلب تدخل البحرية التجارية لحمايتها[٢] .

وعلى الرغم من التدابير التى اتخذها الموحدون لحفظ أمن وسلامة البحر المتوسط والتجارة العابرة وتأمين التجار والمارة عن طريق معاهدات السلم والتجارة التي عقدوها مع الدول الأوروبية[*] ؛ فإن غارات القراصنة ظلت مستمرة على سواحل إفريقية في أثناء الحكم الموحدي.

ففي عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م قامت سفينتان من جمهورية بيزا الإيطالية بالإغارة على ميناء تونس والاعتداء على ثلاث سفن موحدية ؛ ورغم تدخل الموظفين المسيحيين ومنهم التراجمة العاملون في مكتب جمرك مدينة تونس لإطلاق سراح السفن وتهديدهم بالعقوبة مذكرين إياهم بالالتزام الذي اتخذه حاكم بيزا أمام السلطان الموحدي بعدم الاعتداء على

---

[١] ويبدو أن المسلمين في المغرب قد شعروا منذ وقت مبكر بخطورة تلك الغارات فأقاموا على طول الشريط الساحلي عدداً من الحصون عرفت بالرباط لاستطلاع غارات العدو قبل وصولها والتصدي لها في الوقت المناسب مثل رباط صفاقس ورباط سوسة ورباط المنستير ورباط بنزرت. انظر البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٢٠ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٧. الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : حسين عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٣٦٥-٣٣١.

[2] Mas Latrie, Ibid , P16 .

[*] فقد نصت معاهدة عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م بين السلطان الموحدى وبين جمهورية بيزا على معاقبة القراصنة . فجاء في أحد بنودها (لو أن رجلاً من بيزا أو من بلد خاضع لحكومة بيزا قد إتخذ البحر مسرحاً لسرقة أو مهاجمة المسلمين أو أساء إليهم بأية طريقة فيوجب على حكومة بيزا مطاردته ومعاقبته كمذنب). وكذلك نصت معاهد ٦٣٤هـ/١٢٣٦م بين الحفصيين وجمهورية جنوة على انه لو أن أحد الجنويين أو أحد المسيحيين بجنوة قد أتخذ البحر لمهاجمة المغاربة المسلمين يجب على شعب جنوة أن يقبض عليه ويساق الموت دون تأخير ، كما تمنح ثروته إلي هؤلاء المغاربة المسلمين .

أنظر : Mas Latrie , Ibid , P 16 .

رعاياه وممتلكاته ؛ إلا أن القراصنة لم يأبهوا بتلك النصائح ولم يطلقوا سوى السفينتين الفارغتين ، واحتفظوا بالسفينة الثالثة المشحونة. وقبل أن يبتعدوا تقابل معهم الأسطول الموحدي واسترد منهم السفينة بدون البضاعة الموجودة فيها(١).

ويبدو أن الحكومة الموحدية في تونس لم تقم بأي رد فعل انتقامي سوى أن الأمير (حاكم تونس) أبا زيد عبد الرحمن بن أبي حفص أمر ببيع جميع كميات القمح التي يمتلكها التجار البيزيون في تونس وتعويض المسلمين الذين كانوا في المراكب الثلاث المعتدى عليها عن خسارتهم(٢).

وذلك ربما يرجع إلى حرص الحكومة الموحدية على إبقاء العلاقات التجارية قائمة بين الدولتين دون تعرضها للمزيد من التوتر ، ومن جهة أخرى فإن الدولة الموحدية في تلك الفترة وصلت إلى درجة من الضعف والوهن الكبير.

وتجدر الإشارة إلى أن أكبر عمليات القرصنة التي وجهت ضد افريقية في عهد بني حفص وخاصة في النصف الثاني من القرن ٨هـ/١٤م كانت من طرف الأراغوبنين والذين اتسمت علاقاتهم مع الحفصيين بالتذبذب ويغلب عليها العداء.

---

(١) لقد أورد ميشيل أماري (Michel Amari) نص الرسالة التي أرسلها عبد الرحمن بن أبي الطاهر ناصر الديوان (الجمرك) في ميناء تونس إلى حكومة بيزا عام ١٢٠٠م لتوضيح الأمر وحضها على معاقبة المعتدين مما ورد فيها "وردّوا المركبين اللذين فيهما بعص الوسيق وأقلعوا بالمركب الثالث واتفق أثر ذلك وصول الأسطول المظفر فألفاهم بمرسى راس الجبل فرده عن قتالهم وأخذهم ونكالهم عقوبة الأمير العزيز أدامه الله ، إذ لم يكن تقدم إليهم أمر بذلك ، فاجتمع الطلبة الذين كانوا بالأسطول المظفر ، أعزهم الله بأصحاب المسطحات وأعيانهم ، وقبحوا عليهم سوء فعلهم ، وخوفهم عقوبة الأمير العزيز أدامه الله وعقوبتكم على ما انتهكوا من حرمة المسلمين ، وإفسادهم مرسى أمير المؤمنين أدام الله له العزة والمكرم والفتح المبين فردوا المركب دون شيء من البضائع التي كانت فيه والأموال والأثاث الذي كان للركاب والحجاج. وقالوا للطلبة المذكورين جميع ما اتخذنا للمسلمين من مال وبضائع يؤخذ من أصحابنا البيشانين الذين بتونس ، أصحاب مركب الرندلة وغيرهم من البيشاينين ، ونحن نعيدوا عليهم جميع ما يردوا عنا للمسلمين عوضاً عما أخذنا لهم إذا وصولا إلى مدينة بيشة..".

انظر:

Michael Amari, Idiplomi Arabi Del R. Archivio Fiorentinno, Fitenze, 1863, P.. 28-23.

(2) Michele Amari, Ibid, P. 28.

يقول دوفورك (Du Fourcq) [١] "إن التوجه القطالوني نحو المغرب دفاعاً وهجوماً في آنٍ واحدٍ وبرغبة أكيدة حصلوا من خلالها على دعم وتشجيع من الكنسية ، بخاصة من البابا أنوسنت الرابع الذي كان يحلم بغزو المغرب ... وفي عام ١٢٤٨م طلب هذا البابا من الملك جاك المظفر أن يبيح لرهبان وجنود هيل الرب أن يمنعوا توطين المسلمين ، وإزالة أي وجود لهم في هذه الجزيرة (ميورقة) ... والعمل على دعم دفاعات جنود الرب ضد أي هجوم محتمل من قبل المسلمين ... وكان ملك هذه المدين يتبنى سياسة بناء الأساطيل البحرية ، ولم تكن فقط لأغراض تجارية ، ولكن بغرض القرصنة البحرية وبقصد شن غارات على مناطق ما وراء البحر".

وبذلك كثرت أعمال القرصنة والسلب والنهب التي احترفها الأراغوانيين فكانت في العصور الوسطى أصناف ثلاثة تجوب البحار إما تاجر أو جندي بالبحرية أو قُرْصَان.

وكان القراصنة ينتقون فرائسهم فينقضون على السفن المحملة ويقتلون من بها من تجار وبحارة ، ويستولون على ما بها من بضائع نفيسة ، ولذلك كانت السفن تقاوم وتثابر حتى تصل إلى ميناء آمن على امتداد الطريق بين سواحل الأندلس أو بين جنوة وتونس حتى تهدأ هجمات سفن القراصنة[٢].

وفي عام ٦٨٤هـ/١٢٨٤م هاجم ملك أراغونة بيار الثالث جزيرة جِرْبة وقام باحتلالها بقيادة قائدها الأميرال (روجير دي لوريا) وبالرغم من أن هذه الحرب كانت بإيعاز من الملك وموافقة منه فإننا نعدها من قبيل أعمال القرصنة لما خلفته من خراب ودمار وراءها فقد اتسمت تلك الغزوة الاغتصاب ، والسلب ، والقتل ولم تترفق بالنساء ولا بالأطفال. وبهدم ملاجئ الجزيرة[٣] وقد أدت إلى الزيادة في تعكر العلاقات بين الدولتين ، ففي عام ١٢٨٥م تلقى ملك أراغونة شكوى صادرة من اثنين من رعاياه مفادها أن الموظفين التونسيين قد انتزعوا منهما بضائعهما ، فرخص لهما بحجز أملاك رعايا

---

(1) Dufourcq, L'espagne Catalane et le Maghrib , aux XIII et XIV siecles , Pars , 1966, P88.

(2) Andreas Gimenez Soler, LA edad Media en Lacorona De Aragon Barcelona , 1909 – 1910 , P.136.

(3) Dufourcq , Ibid , P 265 .

السلطان الحفصي (أبو حفص عمر) وتقديمها إلى حاكم قطالونيا الذي سيعوض لهما قيمة البضائع التي انتزعت منهما[١].

فأصبح بذلك السلطان أبو حفصٍ عمر في موقف ضعيفٍ خوفًا منه أن يلحق أضراراً بالتجارة والجباية في تونس بادر إلى إرسال بعثة إلى الملك الأراغواني بيدور الثالث للتفاوض معه على السلام وذلك عام ١٢٨٥م ، وعقد معاهدة بين الطرفين ضمنت للتجار الأراغون حرية الملاحة والتجارة وبناء فنادقهم وممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة[٢].

وبذلك سمحت تلك المعاهدة بالتدخل الأراغوني المباشر في إفريقية وممارسة القرصنة ، وعليه نلاحظ تركيز الأراغونيين لأعمال القرصنة على سواحل إفريقية على يد الأميرال (روجير دي لوريا) فقد تعرضت مناطق مَرْسى الخزر وساحل سوسة والمهدية لغارات رهيبة من السلب والنهب[٣].

ويبدو أن أهم العوامل التي ساعدتْ على نشاط القرصنة الأراغونية هي استيلاء أراغونة على أهم جزر غرب ووسط المتوسط (سردينينا وكوريسكا وصقية والبليار ثم جزيرة جربة وقرقنه سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م) من المسلمين والتي تحولت إلى ملاجئ خطيرة للقراصنة[٤].

بالإضافة إلى تشجيع الملوك الأراغون للقراصنة ؛ وخاصة الملك الفونسوا الثاني الذي أصدر قراراً عام ١٢٨٨م أن القرصنة تدخل ضمن نشاطات "المؤسسة الحرة" وهذا إنما يعد تصريحًا منه بالاعتراف بأعمال القرصنة والسلب والنهب وكأنها أعمال

---

(١) روبار برنشفيك ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٢٦.

(٢) روبار برنشفيك ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٢٦.

(٣) وبار برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج١ ، ص ١٢٩.

(4) Mas Latri, Ibid, P. 90.

تجارية[١]. فكانت إذًا القرصنة الرسمية والقطع في البحار بإيعاز من الملوك والقراصنة المحترفين والمناوئين أمراً متواصلاً وسياسة قارة للملك الأراجونى والدولة النصرانية[٢] .

وفي ظل هذا الوضع بات من الصعب الالتزام بتطبيق المعاهدات المنعقدة بين مملكة أراغون وبين السلطة الحفصية.

وقد توالت محاولات بعض الحكام الأراجون لتسوية الخلافات وقطع العلاقات الذى سببته عمليات القرصنة . من ذلك ذهاب القائد العسكرى (ماريمون دو بلجامان) إلي تونس لنزع فتيل الحرب وتسوية الخلاف الناشئ بين الجالية القطلانية في تونس ولتحصيل العوائد الخاصة بميراث ثرى برشلونى. وقد تم ذلك بعد قيام بعض البحارة القطلانيين بعمليات من القرصنة ضد إفريقية على مدى خمسة شهور متواصلة[٣].

ولذلك تعددت شكاوى السلاطين الحفصيين من تعدي القراصنة الأراغون على سواحل افريقية ، منها الكتاب الذي أرسله السلطان أبو إسحاق الحفصي إلى بترو الرابع ملك أراغون عام ٧٦١هـ/١٣٦٠م يشتكي فيه من قطع أحد القراصنة الميورقيين الذي سطا على مرسى كل من مدينتي تونس وسوسة ، ولم يحترم عقد الصلح المبرم بين الدولتين ، والذي يتضمن الأمن للبلدين ، والاتفاق على أن لا يتطرق أحد من أهل البلدين إلى أي مرسى من مراسى الدولتين ، ولا يعمد إلى إلحاق الضرر بهما والسطو عليهما[٤].

وتلك الرسالة ما هى إلاَّ نموذج أو مثالُ لعديد الرسائل التى بعثها السلاطين الحفصيون إلى ملوك أرغون ، والتي احتوت على معلومات كثيرة عن القرصنة[٥].

---

[١] عبد الناصر جبّار ، مرجع سابق ، ص ١١٥.

[٢] عمر سعيدان ، علاقات أسبانيا القطلانية بالحفصيين في الثلثين الاول والثاني من القرن الرابع عشر الميلادى ، منشورات سعيدان ، تونس ، ٢٠٠٢ ، ص ٧٢ .

(3) Dufourcq , L, Spagne Catalane , P 116 .

[٤] عمر سعيدان ، مرجع سابق ، ص ١٦٨-١٦٩. وقد أورد المؤلف تلك الرسالة نصيّة وهي وثيقة عدد ١٤٢ بأرشيف أراغون.

[٥] راجع عبد الناصر جبّار ، مرجع سابق ، ص ١١٨-١٢٠. عمر سعيدان ، مرجع سابق ، ص ١٠٨ ، ١٨٢ ، ١٨٣.

وفي القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى استمرت القرصنة الأراجونية ذلك أن مملكتي قشتالة وأراغون قد حاولت بأقصى جهودها أن تصل إلى مكان مرموق في تاريخ التجارة العالمية وقد كان لعلاقة المصاهرة (زواج على مستوى ملكي) عندما اتحدت قشتالة وأراغون قد أثرت في رواج وتقدم الحياة الاقتصادية ، وكان الرابح الأكبر من هذا الزواج هم التجار الذين ازداد نفوذهم ، وازدادت سلطاتهم ، والأهم من ذلك أن ملوك أسبانيا ركزوا على سياسة تحويل مسار الطرق التجارية الحيوية والهجمات التي كان يشنها القراصنة على السفن التجارية في البحر المتوسط وما كان يترتب عليها من خسائر فادحة[١].

وبعد استعراض بعض الأمثلة لقرصنة النصارى واعتداءاتهم على سواحل افريقية. نتساءل ما كان رد فعل سلاطين إفريقية على تلك التحرشات ؟ أو بالأحرى هل كانت هناك قرصنة حفصية ضد أولئك النصارى ؟

إن القرصنة الحفصية جاءت في حقيقة الأمر كردَّ فعل على طغيان الأوروبيين عليهم خلال فترات طويلة.

ويبدو أن القرصنة أو كما أطلق عليها الغبريني "غزاة البحر" قد مارسها أهل إفريقية منذ العصر الموحدي ، فقد ذكر الغبريني[٢] في منتصف القرن ٦هـ/١٢م "وذلك أن بجاية كانت بلدة غزاة ، وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبى الكثير منها ، وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها وهناك يخمس ويقع الفصل فيه ولم يزل الحال على ذلك ، وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوحش".

ونلاحظ أن نشاط غزاة البحر بقي حثيثاً إلى عصر الغبريني أي النصف الثاني من القرن ٧هـ/١٣م ، عندما استدرك قائلاً "ولم يزل الحال على ذلك"[٣].

---

(1) Jose Luis Martin, Lapeninsula en Edad Media, Editoral Teide , Barcelona , P741.

(٢) عنوان الدراية ، ص ٤٥.

(٣) الغبريني ، مصدر سابق ، ص ٤٥.

وقد مارس تجار إفريقية قرصنة مكثفة ضد التجار الأراجونيين في عام ٦٦٠ هـ/١٢٦٢م سلبت بضائع تاجر برشلونى قصراً . كذلك هاجم بعض الأفراد من بجاية الحفصية تاجراً برشلونياً يدعى (بيرو نجير تريبون) وسلبوا منه بضائعه[١].

وتجدر الإشارة إلى أن غارات أهل إفريقية على سواحل أوروبة كانت أشد عنفاً ابتداءً من النصف الثاني من القرن ٨هـ/١٤م ، فاستهدفت غارات الحفصيين كل سواحل أوروبة المطلة على البحر المتوسط من أسبانيا غرباً حتى إيطاليا شرقاً بما فيها جزر البليار وصقلية[٢]. ويبدو أن الحملة الفرنسية الجنوية ضد المهدية عام ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م كانت منعرجاً خطيراً في تاريخ القرصنة الحفصية ضد النصارى[*].

فهذا ابن خلدون[٣] يؤكد تفوق القرصنة الحفصية على القرصنة الأوربية عند حديثه عن منازلة نصارى الإفرنج المهدية: "... ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بإفرنسة ، وافترقت طوائف أهل برشلونة وجنوة والبنادقة ، وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية ، وأصبحوا دولاً متعددة ، فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم ، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنةً فيجمع النفراء والطائفة من غزاة البحر ، ويضيعون الأسطول ويتحيزون له الأبطال الرجال ، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة ، فيتحفظون منها ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى...".

وبذلك نلاحظ أن القرصنة الحفصية قد تفوقت في هذه الفترة بحيث فاقت قرصنة الأوروبيين حسب رأي ابن خلدون.

لذلك قام قراصنة إفريقية عام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م بغارة قويةٍ مباغتةٍ ، وسريعة وهادفة ، على قرية "توريبلكنا" الواقعة في مملكة بلنسية بأسبانيا وأسروا نحو المائة رجل وامرأة من

---

[1] Dufourcq , Ibid , P 114 .

[٢] عبد الناصر جبّار ، مرجع سابق ، ص ١٣٢.

[*] وهذا يؤكد أن الغارات البحرية الحفصية على سواحل أوروبا إنما كانت ردود فعل على انتهاكات النصارى لسواحلهم. ويشير ديفورك بخصوص القرصنة الأراجونية "أن الأعمال القطلانية تدفع للإنتقام وهو السبيل الوحيد لكى يبرهن الحفصيون على المصلحة العامة عندما يفى الجميع بإرتباطاته" . Dufourcq , Ibid , P 114.

[٣] العبر ، ج٦ ، ص ٣٩٩.

سكَان القرية ، حمولهم معهم ثم دخلوا الكنيسة ، وأخذوا منها حقّة القربان مع جميع أدواتها[١].

وفي أواخر ٨١٤هـ/١٤١٢م قام "غزاة" من بجاية بهجوم على سواحل ليغوريا بشمال إيطاليا قرب مدينة جِنوة[٢].

وتواصلت غارات الحفصيين على سواحل أوروبة في البحر المتوسط لأنهم نظروا إلى القرصنة كعامل قوة لابد من تبنّيه ، خاصة أن القرصنة الأوربية كانت بدورها نشيطة فالمواجهة بالمثل إذن كانت ضرورية.

إلا أننا نتسآل هل اتخذت القرصنة الحفصية صفة الجهاد ضد النصارى؟ وهل السلطة الحفصية قامت بتوظيف استراتيجي للقرصنة كعامل من عوامل إثبات الوجود الإسلامي؟

إننا في حقيقة الأمر ، وإن كنا لا ننفي أهمية العامل الديني ، لأن السلطة الحفصية وظفت القرصنة باسم شرعية الجهاد ، ولإثبات وجودها والحفاظ على توازن قوتها مع القوى الأوربية في البحر المتوسط.

إلا أن المصالح الاقتصادية تفوقت في غالب الأحيان ، لما كان يحققه القراصنة من مكاسب مادية ، تمثلت في الأسرى الذين كانوا يباعون كرقيق "إن عملية الأسر وبيع الرجال والنساء هي إحدى مجالات تجارة البحر المتوسط"[٣].

بالإضافة إلى الغنائم التي كان يعود بها القراصنة في بضائع وأموال[٤] ، وقد أكد الوزان[٥] على ارتفاع مداخيل القراصنة في بجاية ، حتى أنه ربط ثرائهم بها قائلاً: "البجائيون أغنياء فهم يسلحون العديد من المراكب التي يرسلونها إلى سواحل أسبانيا".

---

[١] برنشفيك ، تاريخ افريقية ، ج١ ، ص ٢٥٠-٢٥١.

[٢] برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج١ ، ص ٢٤٩.

[3] Dufourcq, Ibid, P. 71.

[٤] صالح بعيزيق ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٣٠٢-٣٠٤.

[٥] الوزان ، وصف أفريقيا ، تعريب : محمد حجى ومحمد الأخضر ، ج٢ ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٥٠.

ورغم ذلك فإننا نؤكد أن القرصنة سواء الأفريقية ، أو الأوربية قد ضربت مصالح الطرفين نظراً للخسائر المادية والبشرية ، وفقدان الأمن في البحر المتوسط بالنسبة لممارسة أعمالهم التجارية المشروعة فانعكست القرصنة سلباً على التجارة.

غيرَ أن أهل إفريقية اضطروا أن يتعاملوا مع الأمر الواقع بما يقتضيه ، وذلك لخلق نوع من التوازن في البحر بينهم وبين الأوروبيين الذين نشطت عندهم القرصنة. لأنه في غياب قرصنة حفصية يمكن أن تضعف مكانتها لتفسح المجال للسيطرة الأوروبية المطلقة.

وعلى كُلٍّ فإن القرصنة كان لها تأثير سلبى على التجارة ، فكثيراً ما عطلت القرصنة التجارة الحفصية الأراجونية ، وكثيراً ما عانت منها ، ولكن من ناحية أخرى فإن القرصنة البحرية الشاملة لم تقض نهائياً على التجارة رغم تأثيرها الكبير عليها(١).

ثانياً: الموارد الطبيعية:

[١] الزراعة:

هل كان الإنتاج الزراعي في بلاد إفريقية قادراً على مسايرة نشاطها التجاري؟

إن الطبيعة الجغرافية ، والظواهر التضاريسية في بلاد إفريقية جعلت منها – إجمالاً – أرضًا صالحةً للزراعة.

فبلاد إفريقية تتكون من أقسام طبيعية ثلاثة: جهة شمالية تتركب من مزارعَ خصبة يمر على جانب كبير منها وادي مجردة. وجهة ساحلية تمتد من ناحية الشرق على طول البحر وتتألف من أرض خصبة غزيرة العمران ، وقسم جنوبي يشتمل على مراعٍ شاسعة ، وواحات نخيل ، تبتدئ منها الصحراء الكبرى.

أما التربة فقد تميزت بصفة عامة بالخصوبة وملائمتها للزراعة ، ومع ذلك فإنها تتنوع تبعاً لصفاتها الطبيعية والكيماوية ، ففي شمال إفريقية تقع الأراضي الفلاحية الجيدة الخصبة حيث توجد التربة الدكناء سواء الغابية أو الكلسية الصالحة للزراعة.

---

(1) Dufourcq, Ibid, P. 117.

وفي مناطق الوسط والجنوب التى تكون أكثر جفافاً ، توجد التربة الأقل خصوبة والتي تحتاج إلى مجهود في زراعتها ؛ وبذلك نجد تباينًا كبيرًا في قيام الزراعات بين مناطق الشمال والوسط والجنوب ، تبعاً لخصوبة التربة وغزارة الأمطار [١].

وكانت مصادر المياه ونظم الري في بلاد إفريقية تنقسم إلى:

(١) مياه الأمطار: التي كانت تهطل في فصل الشتاء وتتميز بغزارتها على المرتفعات المتمثلة في سلسلة جبال أطلس التل المرتفعة في شمال إفريقية والممتدة من الغرب إلى الشرق[٢] أي إقليم طرابلس[٣]. بالإضافة إلى وجود الأنهار والوديان الجارية التى تكثر مياهها في فصل الشتاء نظراً لهطول الأمطار.

وأهم تلك الأنهار ، نهر مجردة الذي ينبع بتراب تبسة جنوب قسنطينة ويصب في البحر المتوسط ، ويعتبر نهر مجردة من أهم أودية مدن إفريقية "الذي يروي غور دخلة الرسوبي"[٤].

ويوجد في مدينة بنزرت بحيرة عذبة المياه نتيجةً لنزول ماء المطر[٥] ، وإلى جانب الأودية توجد في مدن إفريقية العيون الجارية ، التي تنبع من باطن الأرض ، وتقوم بتغذية الأنهار بالمياه بجانب الأمطار ، ووجد في غدامس عين "وفي وسطها عين أزلية عليها أثر بنيان رومى عجيب يفيض الماء منها ويقتسمه أهل المدينة بأقساط معلومة وعليه يزرعون"[٦] وقد ذكر أنَّ السلطانَ المستنصَر بن أبى زكريا الحفصى (٦٤٧ –

---

[١] يسري الجوهرى ، شمال إفريقيا دراسة في الجغرافيا التاريخية والإقليمية ، ص ٢٧٣ . منى سيد عبد العزيز ، الحياة الإجتماعية والإقتصادية في الدولة الحفصية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات والبحوث الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ٥٢.

[٢] منى سيد عبد العزيز ، المرجع نفسه ، ص ٥٥.

[٣] القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج٥ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ١٠٤. ويقول القلقشندي عن طرابلس: "وبها الخصب الكثير وليس بها ماء جباب عليها سواق". نفس الصفحة.

[٤] القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٦ ، ص ٤٨. منى سيد عبد العزيز ، مرجع سابق ، ص ٥٧.

[٥] يقول عنها الوزان: "ويمتد غربها – بنزرت – سهل عظيم يسمى سهل ماطر وهذا السهل منتج إلى أقصى حد". الوزان ، وصف افريقيا ، ج ٢، ص ٦٨.

[٦] القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٠٣ .

٦٧٥ هـ / ١٢٤٩ – ١٢٧٧ م) قد " أتى بالماء من عيون زغوان لقصره المعروف بأبى فهر ، وجعل بعض بساتينه جابية تشبه بحيرة ، وأجرى ماءَها القوارب وتعرف الآن (بجابية الحفاصة) قرب أريانه بها ستمائة شجرة من الزيتون "[١] . كما وصفت مدينة قابس بأنها مليئة بالعيون الجارية ، ونتج عن تلك العيون وجود وادٍ أُستخدمت مياههُ في الزراعة.

يذكر الإدريسيُّ[٢] "أن لها واديًا يأتيها من غدير كبير ، وعلى هذا الغدير قصر سجة وبينه وبين قابس ثلاثة أميال".

ويذكر التجاني[٣] "ولها وادٍ يسقي بساتينها ، ومزارعها ويخترق في كثير من مواضع الغابة فى دورها وشوارعها ، وأصل هذا الوادي من عين خرارة في جبل بين القبلة والمغرب".

كما تمتعت مدينة بجاية بثروة مائية هائلة تكونت من أودية ، وعيون ، وجداول. أهمها وادي الساحل ، أو الوادي الكبير ، ويصفه الإدريسي[٤] بأنه "نهر عظيم" ، وقال عنه البكري[٥] "بشرقيها (شرقي بجاية) نهر كبير تدخله السفن محملة".

وهذه دلالة واضحة على أن هذا الوادي كان يقوم في بجاية بوظيفة اقتصادية فلاحية بالدرجة الأولى.

ووجدت في مدينة قفصه "عيون كثيرة في وسط المدينة ، وقد بنيت عليها أحواض مستطيلة ، عميقة ، واسعة تحيط بها الجدران"[٦]. وتلك الأحواض إنما هي مساقٍ لري الزروع.

وكان اعتماد أهل توزر في ري مزروعاتهم على عيون الماء ، التي تنبع من الرمال البيضاء ، التي تقع خارج المدينة والتي تكون واديًا كبيرًا يسمى وادي المنشر[١].

---

(١) أحمد بن أبى ضياف ، إتحاف أهل الزمان ، ص ١٦١ .

(٢) نزهة المشتاق ، ج١ ، ص ٢٧٩.

(٣) الرحلة ، ص ٨٧–٨٨.

(٤) مصدر سابق ، ص ٢٦٠.

(٥) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص ٨٢.

(٦) الوزان ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٤٤–١٤٥.

وتوجد في بلاد الجريد عين طره بمدينة نفزاوة وعين أخرى ببشرى بنفزاوة ، وهي عيون متسعة عظيمة[٢].

ومع أن تلك الموارد المائية مهمة لري المحاصيل الزراعية ، غير أنها كانت معرضة لتقلبات المناخ ، ولذلك اهتم أهالي إفريقية بإنشاء تقنيات ، ووسائل مختلفة للإفادة من مياه الأمطار أهمها: مواجل المياه أو صهاريج الماء ، وهي عبارة عن أحواض مكشوفة تشبه البرك إذا امتلأت بالماء[٣].

ذكر اليعقوبي[٤]: "فإذا كان الشتاء ووقعت الأمطار ، والسيول ، دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها المواجل ، وكانت تبنى بالحجارة".

وقد اعتمد أهل مدينة بونة على الصهاريج لخزن ماء المطر سواء لشربهم ، أو لري زروعهم[٥].

كما وجدت في مدينة القيروان بعض الخزانات التي تمتلئ بالماء عند نزول المطر[٦].

واعتمد أهالي مدينة طرابلس أيضاً على الخزانات سواء للشرب أو للزرع[٧].

كذلك عمل أهالي إفريقية على توفير ماء الري وقت الجفاف "بحفر الآبار" ، فقد ذكر التجاني[٨] أن أهل قرية أجاس بالقرب من قابس قد حفروا بئراً عذبة الماء سالمة من الوباء ، منها يشربون ويسقون زروعهم.

---

(١) التجاني ، الرحلة ، ص ١٥٧.

(٢) التجاني ، المصدر نفسه ، ص ١٤٢ – ١٥٣.

(٣) إلهام دحروج ، قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٠ م ، ص ١١٨.

(٤) البلدان ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٣٤٧–٣٤٨.

(٥) الوزان ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٦٢.

(٦) الوزان ، المصدر نفسه ، ص ٢ ، ص ٩٠.

(٧) الوزان ، نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٩٧.

(٨) مصدر سابق ، ص ١٨١.

و اعتمد أهالي جزيرة جِرْبة في ري زروعهم من الشعير على ماء يستخرج من آبار عميقة[١].

وكان في الضواحي القريبة من مدينة تونس أراضٍ مفتقرة للسقي ، لذلك كان السكان يحفرون آباراً ، ويستخرج منها الماء في قنوات محكمة البناء ، ويوزع ذلك الماء بواسطة آلة مكونة من عجلة (ناعورة) يحركها بغل ، أو جمل ، لري مزروعاتهم[٢].

ومن الوسائل الأخرى التي اعتمدها سكان إفريقية للإفادة من مياه الأمطار هي إنشاء السدود الصغيرة لتخزين مياه الأمطار فتشكل بحيرات صغيرة للاستفادة منها في الري وزراعة المراعي المروية ، وهناك نوع يسمى بالسدود التحويلية التي تستخدم للري ، حيث الأودية الجافة ، وكانت تبنى كحواجز بهدف رفع مستوى المياه ، ومن ثم تحويلها عَبْرَ قنوات تنتشر على ضفاف الوادي إلى الأراضي الزراعية لريها[٣].

ففي عام ٦٢٧هـ/١٢٢٩م قام السلطان الحفصي أبو زكريا يحيى بإنشاء القنطرة الشهيرة على وادي مليانة[٤] للحفاظ على مياه الأمطار وتوفيرها لري الأراضي الزراعية وقت الجفاف.

وبذلك نلاحظ أن المزارعين في إفريقيةَ قد أوجدوا عدة طرق لزراعة الأراضي، ووضعوا عدة حلول لمشاكلات الري ، والانتفاع بالمياه.

وكان العمل الزراعي في إفريقية يقوم على الدورة الزراعية الثلاثية ، فالأراضي بين بور ، وقليب ، ومعمور ، فالبور مع طيبها في ذاتها لا تصلح إلا بالقليب والتزبيل ، أو التسميد ، والقليب : هو حرث الأرض مرتين أو أربع بات حسْبَ الأرض ونوع الزرع أو الغرس ؛ ويبدأ القليب عادةً في يناير ، ويستمر حتى يونيو حيث تترك الأرض معرضة لأشعة الشمس المحرقة ، ورغم أن هذا العمل يبدو شاقاً ومتعباً ، غير أنه لابد منه لأن بعض المحاصيل لا يمكن أن تثمر إلا في أرض القليب كالقمح مثلاً ، وأحياناً نجد

---

[١] الوزان ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٩٣.

[٢] الوزان ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٥.

[٣] إلهام دحروج ، مرجع سابق ، ص ١١٧.

[٤] التجاني ، مصدر سابق ، ص ٩.

الفلاحين يستعيضون عن القليب بزراعة محاصيل تزيد التربة خصوبة ، مثل اللوبيا والفول والترمس.

كما كانوا يحرصون على الإفادة من الأرض ، فيزرعون أكثر من محصول في وقت واحدٍ في نفسها الأرض ، فنجد البقول ، مع الغروس ، واللوبيا مع الحبق ، والسمسم مع الزعفران[١].

وكان الفلاحون يستخدمون المحراث التقليدي ، والفأس ، والمنجل ، وأدوات الزراعة المعروفة في ذلك الوقت ، وتساعدهم الأبقار في عمل الحقل[٢] ، وقد اهتم فلاحو إفريقية بالتزبيل وتسميد الأرض اهتماماً بالغاً وخاصةً في التربة المجدبة التي تقع في بلاد الجريد[٣].

الإنتاج الزراعي:

يتميز الإنتاج الزراعيُّ بإفريقية بتنوع أصنافه ، وذلك على الرغم من الظروف الإنتاجية غير الملائمة ؛ ذلك لأن الفتن والاضطرابات التي شهدتها المنطقة في فترتي الحكم الموحدي والحفصي ، أدت إلى انحسار المساحات المزروعة وتراجعها ، حتى أضحت مقتصرة على النواحي القريبة من المدن والمناطق الآمنة[٤].

ورغم أننا لا ننكر الآثار التخريبية التي قام العرب (الهلالية) والفوضى التي صاحبتهم بفقدان العامل الأمني إلا أننا ننبّه في هذا المضمار لخطورة القراءة الأحادية لبعض المصادر[٥] التي قامت بتعميم تلك الآثار التخريبية للأراضي الزراعية في كامل البلاد طيلة ثلاثة قرون اوزايد.

---

[١] عز الدين موسى ، النشاط الإقتصادى ، ص ١٨٩.

[٢] إلهام دحروج ، مرجع سابق ، ص ١٢٢.

[٣] التجاني الرحلة ، ص ١٦٠.

[٤] محمد حسن ، المدينة والبادية في العهد الحفصي ، ج١ ، ص ٤٣٣.

[٥] لقد أرجع التجاني انحسار المساحات المزروعة في افريقية إلى تخريب العرب فيقول عن غابة الساحل أن زيتونها "أذهب إفساد العرب أكثره ، وغير بعد الاستواء أسطره". وكذلك بالنسبة إلى غابة صفاقس "كانت قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها ، فأفسدها العرب ، فليس بخارجها الآن شجرة قائمة". التجاني ، الرحلة ، ص ٦٥-٦٨. ويقول العبدري: "أن المسافر عندما يخرج من مدينة فاس لا يزال إلى الإسكندرية في خوض ظلماء ... لا يأمن على ماله

ذلك لأن فترات عدم الاستقرار لا يمكن أن تخفي حقبات عرفت فيها الزراعة انتعاشاً وتطوراً[١].

فما أهم المنتجات الزراعية التي ساهمت في النشاط التجاري ؟

اشتهرت بلاد إفريقية بجودة غلاتها من الحبوب ، ومنها القمح والشعير؛ وتغلب زراعتها في المناطق التالية:

منطقة باجة التي امتازت بكثرة قمحها وجودته ، يقول صاحب الاستبصار[٢]: "فإذا أخصبت البلاد لم تكن للحنطة بها قيمة ، وتسمى باجة هرى إفريقية ، فإن بها تمتار جميع البلاد ، عربها وبربرها ، لكثرة طعامها ورخصه".

ويذكر الوزان[٣] أن العرب كانوا يأتون كل عام إلى مدينة الأربس (جنوب مدينة تونس) بأكياسهم يملأونها قمحاً ويعودون بها إلى قراهم في الصحراء دون أن يدفعوا ثمناً للقمح نظراً لوفرته.

واشتهر سهل قسنطينة في البلاد الغربية بخصوبته ، فكثر إنتاج القمح ، ونظراً لأن مناخ قسنطينة قاري فكان ملائماً لخزن الحبوب مدة طويلة دون أن يفسد "والحنطة تقيم بها في مطامرها مائة سنة لا تفسد"[٤].

وكان سهل سوفجين في جهة طرابلس منتجاً للقمح بكثرة فكان يصيب في بعض السنين للحبة مائة حبة[٥].

ولا على نفسه ولا يؤمل راحة في غده". ثم أضاف متحدثاً عن بعض مدن افريقية التي مرَّ بها: "ثم وصلنا إلى مدينة باجة وهي مدينة جرعها الدهر أجاجه ، قد هتكتها الأيدي العادية وفتكت فيها الخطوب المتمادية حتى صارت وهي حاضرة بادية ... وقد حدثت بها أن أهلها لا يفارقون السور خوفاً من العربان". العبدري (أبو عبد الله محمد) ، رحلة العبدري ، تحقيق: محمد الفاسي ، الرباط، ١٩٦٨،ص ٣٧-٣٨.

[١] محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج١ ، ص ٤٣٤.

[٢] مصدر سابق ، ص ١٦٠.

[٣] مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٦٥-٦٦.

[٤] الإدريسي ، مصدر سابق ، ج١ ، ٢٦٥.

[٥] البكري ، مصدر سابق ، ص ٩. التجاني ، مصدر سابق ، ص ٢٥٩.

أما إنتاج الشعير فتركزت زراعته في الأقاليم الشمالية المطلة على البحر مثل مدينة سوسة[١] ومدينة تونس[٢] والمنستير وجيجل[٣].

كما كانت تزرع كميات ليست بالكثيرة من الشعير في جزيرة جِرْبة[٤] ، وجبال بني يفرن ونفوسة في طرابلس[٥].

واشتهرت إفريقية بزراعة البقوليات كالحمص والفول بكميات وفيرة في توزر وباجة[٦].

والكتان الذي احتل مكانة مهمة نظراً لأهميته في صناعة المنسوجات الكتانية وكان يزرع في مدينة بجاية فكان ينبت بها الكتان والقنب الذي ذكر الوزان أنهما صالحان لصناعة القماش الخشن[٧].

كما زرع الكتان في مدينة جيجل[٨].

وامتازت بلاد إفريقية بإنتاج وفير ، ومتنوع ، من التمور ، وأهم مناطق إنتاجها بلاد الواحات (جنوب إقليم طرابلس) [٩] وبلاد الجريد وأهم مدنها (قفصة – توزر – الحامّة– القيروان – قابس – سوسة) [١٠].

وكانت التمور تصدر من بلاد إفريقية بشكل كبير يقول صاحب الاستبصار[١١]: "ومدينة توزرهي أكثر بلاد الجريد تمراً ، ومنها تمتار جميع بلاد افريقية وبلاد الصحراء التمر لكثرته بها ورخصه".

---

(١) الوزان ، مصدر سابق ، ص ٩٣.

(٢) الوزان ، المصدر نفسه ، ص ٧٦.

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٢–٨٤.

(٤) الوزان ، المصدر نفسه ، ص ٩٣.

(٥) الوزان ، المصدر نفسه ، ص ١٠٦.

(٦) مجهول الاستبصار ، ص ١٦٠ ، البكري ، مصدر سابق ، ص ٥٦.

(٧) الوزان ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٠٢.

(٨) الوزان ، المصدر نفسه ، ص ٥٢.

(٩) مجهول ، الاستبصار ، ص ١١١. التجاني ، مصدر سابق ، ص ٢١٤.

(١٠) مجهول ، الاستبصار ، ص ١٥٣–١٥٧. الإدريسي ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٧٧–٢٧٨.

(١١) مجهول ، الاستبصار ، ص ١٥٥.

ويذكر البكري[١] عن توزر "إنتاجها من التمور أخصب الإنتاج بإفريقية ويخرج منها كل يوم ألف حملٍ إلى كافة الجهات".

وكانت بلاد إفريقية تتصدّر بلاد المغرب الأخرى في إنتاج الزيتون ، وأهم مناطق إنتاجه كانت جزيرة جربة[٢] وقفصة[٣] وقابس[٤] وصفاقس[٥] ومنطقة زنزور بطرابلس[٦]. بطرابلس[٦].

وكان زيت الزيتون يتصدر قائمة صادرات افريقية إلى باقي الدول ، كما اشتهرت مدينة قفصة بإنتاج الفستق[٧]. يذكر البكري[٨]: "وقفصة أكثر بلاد القيروان فستقاً ومنها ينتشر بإفريقية ويحمل إلى مصر والأندلس وسجلماسة".

ويعتبر الزعفران من المحاصيل الزراعية التصديرية أيضاً ، وانتشرت زراعته في جبال غريان بالقرب من طرابلس والذي تميز بجودته العالية[٩].

[٢] الإنتاج الحيواني (تربية الماشية):

إن وجود الحيوان وتربيته قد يرتبط ارتباطاً مباشراً بخصوبة الأرض وإنتاجها الزراعي.

وبالنسبة لبلاد إفريقية فإنه كان للتباين والاختلاف في بيئتها الجغرافية دور واضح في توزيع الثروة الحيوانية ، لذلك وجد فيها نوعان من الرعي ، الرعي المختلط بالمناطق

---

(١) مصدر سابق ، ص ١٥٨.

(٢) التجاني ، مصدر سابق ، ص ١٢٢.

(٣) مجهول ، مصدر سابق ، ص ١٥٣-١٥٤.

(٤) الإدريسي ، مصدر سابق ، ص ٢٧٩.

(٥) الإدريسي ، المصدر نفسه ، ص ٢٨١.

(٦) التجاني ، مصدر سابق ، ص ٢١٤.

(٧) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٤٧٨.

(٨) مصدر سابق ، ص ٤٧.

(٩) يذكر الوزان عن زعفران غريان "وهو أحسن بكثير من الزعفران المستورد من أي جهة أخرى في العالم. فإذا كان زعفران اليونان يساوي في القاهرة عشرة دنانير أشرفية (نسبة للسلطان المملوكي في مصر سيف الدين برس باي الأشرف) للرطل فإن زعفران غريان يساوي خمسة عشرة ديناراً أشرفية. الوزان مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٠٦.

الزراعية والتي تتركز في الشمال ؛ والرعي شبه الصحراوي ، والذي يتركز في جنوب إفريقية ، والفرق بينهما أنه في الحالة الأولى يكون في الغالب صاحب الماشية هو المزارع أو صاحب الأرض ؛ بينما في الحالة الثانية لا يقوم صاحب الماشية بمهنة غير الرعي[١].

ولأن المجتمع المغربي بصفة عامة والإفريقي على وجه الخصوص كانت تغلب عليه سمة البداوة فلذلك وجد النشاط الرعوي تقدماً ملحوظًا خاصةً في أواخر العصور الوسطى ، غيرَ أننا لا يمكننا الفصل بين تربية الماشية بالبادية وبين مصالح أهل المدينة بل لقد تأسست علاقة عضوية بين الطرفين على صعيد التسويق الداخلي والخارجي ، فعلاوة على الاستهلاك اليومي لأهل الحضر من لحوم ، وحليب ، ومشتقاته وجلود ، وصوف. فإن المدينة المغربية لعبت دور الوسيط بين المدن التجارية الأوربية والبادية لتسويق الصوف والجلود وبالتالي فقد تحكمت في إنتاج الماشية وتوزيعها بكميات كبيرة[٢].

كبيرة[٢].

أما عن أهم المنتجات الحيوانية في أفريقية والتي ساهمت في النشاط التجاري سواء الداخلي أم الخارجي فكانت الأغنام والماعز اللتين تصدرتا قطاع تربية الماشية لعلاقتهما بالأسواق الخارجية ، فجلد الأغنام والماعز كان بضاعة مطلوبة من قبل الأوربيين ، وتعود أهمية تربية الأغنام لا إلى إنتاج الجلود فحسب بل أيضاً إلى إنتاج الصوف والفروة والتي أيضًا كانت بضاعة مطلوبة في أوروبة. أشار –دي ماس لا تري– (DeMas Latri) [٣] إلى أنه طيلة فترة العصور الوسطى استمرت عملية تصدير تصدير الجلود من إفريقية إلى أوروبة.

ويبدو أن جلود الأغنام قد وجدت سوقاً رائجة على المستويين الداخلي والخارجي فقد ذكر أن جلود الخراف كانت تباع في تونس بسعر خَمْسَةَ عَشَرَ ديناراً في المتوسط لكل قطعة كاملة من تلك الجلود[٤].

---

[١] عز الدين موسى ، النشاط الإقتصادى ، ص ١٩٨.

[٢] محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج١ ، ص ٤٥٤.

[3] Relations Des Chretens, P. 216.

[4] De Mas Latri, Ibid, P. 217.

وأحياناً لا يقتصر ممتهن الرعي على نوع واحد من الحيوانات فكثيراً ما يتربى الأبقار ، والأغنام ، والخيول ، والبغال ، والحمير والإبل في منطقة واحدة[١].

وقد كثرت المواشي ، والأبقار ، والأغنام في مدينة القيروان ومدينة تونس[٢] وجيجل وقسنطينة حيث المراعي الشاسعة[٣].

أما الماعز فقد وجدت بأعداد كبيرة إلى جانب الأبقار والخيل في جبل بجاية لأن السهل والوادي كانا ميدانا الحبوب والبساتين[٤].

ومدينة طرابلس أيضاً كثرت فيها الماعز إلى جانب الإبل ، والأغنام ، والمواشي حتى أصبح لها سوق خاص تباع فيه عند هوارة ببطحائها.

كما وجد المرعى الجيد حول مدينة قابس التي اشتهرت بتربية الإبل[٥] لبيعها للقوافل ، سواء للحج أو التجارة.

وكانت الإبل تأخذ مكانة مهمة في قائمة المواشي الإفريقية إذ تستعمل لنقل البضائع فضلاً عن استعمال القبائل البدوية لها للترحال والغذاء من لحمها ولبنها[٦].

واشتهرت منطقة جنوب طرابلس بتربية الخيول العربية[٧] ، والتي كانت تصدر إلى إلى أسبانيا[٨].

وإجمالاً فإن تربية الحيوانات لها فائدة كبيرة من عدة أوجه في المضمار التجاري ، فهي علاوة على ما يستفاد منها في المعاش ، والتغذية كاللحوم والألبان ومشتقاتها ، تمد الإنسان بالعديد من المواد الأولية الصالحة للصناعة كالصوف ،والوبر والجلد ، بالإضافة

---

(١) الوزان ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٠١ ، حيث ذكر أنه يوجد بمرتفعات بجاية الماعز والبقر والخيل.

(٢) الوزان ، المصدر نفسه ، ص ٩١ ، ٢٦٥.

(٣) الوزان ، نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٥٩.

(٤) التجاني ، مصدر سابق ، ٢٤٥.

(٥) إلهام دحروج ، مرجع سابق ، ص ١٢٩.

(٦) محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج١ ، ص ٤٥٧.

(٧) الوزان ، مصدر سابق ، ص ٢٦٣.

(8) De Mas Latri, Ibid, P. 216.

وهذا الأهم أن هذه الحيوانات تساعد صاحبها على حمل الأثقال ونقل البضائع على طرقات التجارة البرية. قال تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[١] ، وقوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

[٣] الصناعة:

للنشاط الصناعي دور بارز في ازدهار الحياة الاقتصادية بشكل عام ، والنشاط التجاري بشكل خاص. ونعني بالصناعة هنا تصنيع الإنتاج الزراعي وما يتصل به بالإضافة إلى الإنتاج الحيواني (الجلود والصوف) ، واستنباط المعادن وتصنيعها والإفادة من ذلك كله في سد احتياجات المواطنين في مجال البيع والشراء (التجارة الداخلية) والاستفادة من فائض تلك الصناعات في تصديرها إلى خارج البلاد (التجارة الخارجية)[٣].

ويرى ابن خلدون[٤] أن رسوخَ الصنائع في الأمصار ، إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها ، ويستشهد على ذلك بحال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدية من بعدهم وما استكمل لها بعد ذلك من الصنائع في سائر الأحوال.

وأما عن أهم الصناعات التي اشتهرت في إفريقية أيام الحكم الموحدي والحفصي والتي لعبت دوراً في حركة التبادل التجارى على الصعيدين الداخلى والخارجى فهى :

---

[١] سورة النحل ، الآية ٥.

[٢] سورة النحل ، الآية ٧.

[٣] سامية مصطفى مسعد ، الحياة الاقتصادية في إقليم غرناطة أيام المرابطين والموحدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م ، ص ١١٩.

[٤] المقدمة ، مطابع الشعب ، بدون سنة نشر ، ص ٣٦٢.

صناعة الغزل والنسيج[١]: وبلغت صناعته شأناً كبيراً في الحضارة الإسلامية باعتباره كان الممول الأساسي للنشاط التجاري في العصر الوسيط حتى أن البعض نعتها "بحضارة النسيج".

ويرى الوزان[٢] أن تجار القماش في مدينة تونس هم أغنى سكانها.

ويذكر القلقشندي[٣] "وبإفريقية يعمل القماش الإفريقي وهو ثياب رفاع من القطن والكتان معاً ، ومن الكتان وحده. وهو أمتع من النصافي البغدادي وأحسن ، ومنه جل كساوي أهل المغرب".

وكانت صناعة النسيج في إفريقية تختلف من حيث الطابع ، والنوعية من منطقة إلى أخرى حسب توفر المواد الخام والخبرة ، فقد اشتهرت الكثير من مدن إفريقية بصناعة المنسوجات الرفيعة الجودة الحريرية منها والصوفية والقطنية والكتانية[٤].

فمدينة سوسة مثلاً اكتسبت سمعة دولية بمنسوجاتها الفائقة الجودة[٥].

واشتهرت جربة بمنسوجاتها الصُّوفية والتي قال التجاني[٦] في شأنها إنها "اختصت "اختصت بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف التي ليست بإفريقية لما ينسج لأثوابها نظير".

وكذلك مدينة طرابلس وزنزور التي اشتهرت بمنسوجاتها الصوفية (البرانس وملابس البحارة) وكان يوجد بطرابلس وحدها ١٥٠ مصنعاً للنسيج[٧].

---

(١) محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج١ ، ص ٤٧٣.

(٢) مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٧٥.

(٣) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .

(٤) عاشور أبو شامة ، علاقة الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٣٩٣.

(٥) الإدريسي ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٣٠٣.

(٦) مصدر سابق ، ص ١٢٢.

(٧) مارمول كربخال ، أفريقيا ، تعريب : محمد حجى وآخرون ، ج٣ ، دار المعرفة ، الرباط ، ص ١٢١ ، ١٢٤،١٢٧.

وكان بمدينة صفاقس مادة عجيبة تستخرج من البحر وتعرف (بوبر السمك) أو (صوف السمك) تستعمل في صنع الثياب الفاخرة[١].

واشتهرت مدينة تونس بصناعة الزرابي والطربوش المغربي[٢].

وكانت مدينة بجاية تصنع العمائم[٣] بالإضافة إلى صناعة البرانس حيث كان البرنس من أهم السلع الواردة في مركب وصل من بجاية إلى بنزرت حسب وثيقة مؤرخة في عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م[٤].

ويبدو أن صناعة النسيج في إفريقية قد اصطبغت بطابع عائلى مدة طويلة من الزمن ، اضطلعت المرأة منه بدور مهم. فقد وصف الوزان[٥] طريقة الغزل التي تستعملها تستعملها النساء "يجلسن في مكان مرتفع ويرخين المغزل كثيراً إلى أسفل يقعدن مثلاً في نافذة ويتركن المغزل ينزل إلى ساحة الدار ، أو ينزل إلى ثقب السقف بين طابق وآخر ، فيتكون الخيط بواسطة ثقل المغزل ويأتي جيد الانبساط والفتل منتظم الغلظ".

بينما كان نسج الرجال أكثر تنظيماً ، ودقة ، وقائماً على قواعد مهنية وتجارية[٦].

وتجارية[٦].

ولأن بمدينة قابس انتشرت زراعة شجرة التوت ، لذلك ازدهرت تربية دودة الحرير ، وعليه فقد تفوقت قابس في صناعة المنسوجات الحريرية الفاخرة ، فكان يقوم من شجرة التوت الواحدة من الحرير ما لا يقوم من خمس شجيرات من غيرها وحريرها أطيب الحرير وأرقه[٧].

---

[١] القلقشندي ، مصدر سابق ، ج٥ ، ص ١٠٤.

[٢] مارمول ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ١٩ ، ٢٣.

[٣] وقد أشار البيذق إلى العمائم حيث تحدث عن نزول المهدي ابن تومرت في بجاية قائلاً: "وكان – ابن تومرت – ينهي الناس عن الأقراف الزرارية وعمائم الجاهلية ولباس الفتوحات". البيذق ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص١٣.

[٤] صالح بعيزيق ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٤٥.

[٥] مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٧٤–٧٥.

[٦] برنشفيك ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٢٢٢.

[٧] البكري ، مصدر سابق ، ص ١٧. ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٤ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص٢٨٩.

وكان لتفشي ظاهرة الرعي شبه الصحراوي في بلاد إفريقية دورُ في جعل الجلود من أبرز منتجاتها ، فشكلت المصنوعات الجلدية نسبة كبيرة في صادرات بلاد إفريقية ، إضافة إلى الاستهلاك المحلي.

فقد اشتهرت مدينة قابس بإنتاج الجلود (الطرية ذات رائحة زكية) وإلى هذه المدينة ينتسب الوعل (الروي) الذي تصنع منه نعال شديدة الليونة والمتانة وهي عريضة النعل لكي يتمكن لابسوها من تجديد نعال الحذاء عدة مرات(١).

هذا بالإضافة إلى أن توفر المنتجات الجلدية ، قد ساعد على ظهور الصناعات التي تعتمد عليها كصناعة دبغ الجلود.

فقد تحولت قابس من مركز نسيج ، إلى مركز دباغة ، حيث اشتهرت إلى جانب مدينة قفصة بدبغ الجلود ونقشها وزخرفتها(٢).

واشتهرت مدينة القيروان بصبغ جلود الغنم ، والماعز ، وصناعة الملابس الجلدية التي كانوا يبيعونها إلى دول جنوب الصحراء التي لا توجد بها الأقشمة الأوربية(٣).

ونشطت في مدينة بجاية أيضاً صناعة إعداد الجلود المخدومة ، والخام والصناعات المرتبطة بها مثل تحضير مواد الصباغة ، والدباغة نظراً لتزايد طلبات التجار الأوربيين ، ذلك لأنه وطيلة فترة العصور الوسطى استمرت عملية تصدير الجلود بشكل جدير بالاهتمام من إفريقية إلى أوربا(٤).

ومن الصناعات التي اشتهرت في إفريقية ، صناعة الزجاج والخزف في بعض المدن ، فظهرت صناعة أواني الماء من الخزف في قابس وجربة وتونس والتي كانت شديدة البياض وغاية في الرقة(٥).

---

(١) القلقشندي ، مصدر سابق ، ج٥ ، ص ١٠٧.

(٢) الإدريسي ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٧٩. عز الدين موسى ، النشاط الإقتصادى ، ص ٢٢٩.

(٣) الوزان ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٩١.

(4) Mas Latri, Ibid, P. 216.

(٥) ابن أبي دينار ، المؤنس ، ص ١٢.

وكان لجزيرة جربة شهرة كبيرة في صناعة الخزف لانتشار الصلصال الزج حول الجزيرة ، وتميزت بصناعة الألوان الخزفية للزيت والماء ، وكانت تفي بحاجة الاستهلاك المحلي لجزيرة جربة بل وتصدر إلى تونس وطرابلس لحسنها وجودتها[١].

كما كان لانتشار البساتين ووجود الأزهار الفواحة دورٌ في انتشار أجباح النحل فكثر إنتاج العسل ، وكذلك الشمع الذي قامت عليه عدة صناعات وكان أهم المنتجات المصدرة إلى الخارج[٢].

وكان لانتشار الغابات في شمال غرب إفريقية دورٌ في إنتاج الأخشاب لذلك انتشرت في منطقة بجاية صناعة السفن فقد ذكر الإدريسي[٣] قائلاً: "وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي ، لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود ، ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران ، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة" أي مواد أولية كاملة لقيام صناعة السفن والمراكب التي استخدمت بلا شك أنواع منها في النقل التجاري.

وإجمالاً فإن المهن والحرف قد تعددت في المدينة العربية عامة والإفريقية خاصة ، وإن هذا يأتي دليلاً على الدرجة المتطورة لتقسيم العمل ، وفي المدينة الإفريقية في العهد الحفصي فاقت تلك المهن الثلاثمائة مهنة ، منها ثلثان مخصصان للأعمال اليدوية.

وليس هذا فحسب ، بل إن التقسيم المهني ازداد تعقداً بوجود تقسيم "أثني" لتلك الحرف. ذلك لأن الصناعة الواحدة بلغت درجة قصوى من تقسيم العمل ، فانقسمت إلى أحرف صغيرة متعددة ، فقد اقتضت صناعة الصوف مهن الخلاجي واللباد (صنع كباب الغزل) والنسّاج (أو الحائكي) والصبّاغ ، وتنقسم الصباغة نفسها إلى تفرغات جزئية حسب نوع القماش ومواد الصباغة ويوجد إلى جانب الخياطين ، الحشاؤون (حشو القطن)

---

(١) القلقشندي ، مصدر سابق ، ج٥ ، ص ١٠٨.

(2) Mas Latri, Ibid, P. 218.

(٣) مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٦٠.

والفراؤون وغيرهم. وصناعة الجلد أيضاً تتفرغ إلى أقسام عدة فمنهم صناعة الأحذية بأنواعها (الحذاؤون) وصناعة القرب (القرابون) (١) ... وكذا.

وتجدر الإشارة إلى أنه لا يوجد خط فاصل بين الصنّاع أو الحرفيين من جهة وبين أرباب الرّساميل التجارية والمالية من جهة أخرى فغالباً ما قامت عقود شراكة بين الطرفين تنص على صناعة البضاعة وتسويقها في آن واحد(٢).

وبذلك يمكننا القول أنه توجد علاقة مباشرة بين ممارسة الحرفة أو صناعتها وبين بيعها أو تسويقها ؛ لأن أغلب الحرفيين في إفريقية في العصر الوسيط كانوا يمارسون مهنهم في الحوانيت أو الأسواق ؛ وكانت كل سوق مخصصة لمهنة معينة(٣).

ويمكننا القول أن الصناعات التي استعرضناها تبقى نماذج من نشاط صناعي أكدت المصادر على تنوعه ، إلا إنها نماذج كافية للبرهنة على تفرع قطاعاته وتفاعلها مع حركة التسويق الداخلي والخارجي.

[٤] التعدين (استخراج المعادن):

كان الملح أهم مورد معدني في افريقية ، وقد وجدت ملاحات عديدة في مناطق متفرقة أهمها:

ربوة الملح الموجودة في الوطاية شمال غربي بسكرة حيث كان يقطع الملح كالصخر منذ العهد الفاطمي لتزويد الخلفاء الفاطميين بالملح الصالح للاستهلاك(٤).

---

(١) محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج١ ، ص ٤٥٩-٤٦٠.

(٢) لقد وجدت شركات حرفية متنوعة نظمت العلاقة بين صاحب الرأسمال وبين الأجير أو الصانع ، كانت تنعقد بين شخصين أو أكثر كما هو الشأن بالنسبة للشركات التجارية ، وقد فرقت كتب الأحكام بين ثلاثة أنواع الشركة بالأموال والشركة بالأبدان وشركة الذمم وهي أن يتعاون الشريكان في إنجاز عمل جماعي انطلاقاً من مبدأ "تحمل عني وأتحمل عنك". انظر: محمد حسن ، المرجع نفسه ،ج١ ، ص٤٦٣-٤٦٤.

(٣) برنشفيك ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٢٠٩.

(٤) برنشفيك ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٢٣٩. محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج ١ ، ص ٤٧٢ .

وملاحة سبخة تاكمرت بين نفزاوة وتوزر وهي على حد تعبير التجاني[١] "من غرائب الدنيا التي أغفلها المؤرخون وأهمل وصفها الإخباريون ، فإنها أميال في أميال وسطحاً واحد كاللجين المسبوك أو المرمر المحكوك ، يكاد ينفذه البصر لصفائه ...".

وملاحة سبخة رأس المخبز غربي زوارة بطرابلس ، والتي اشتهرت بجودة ملحها ، وأقبل عليها الجنويون والبنادقة وغيرها من السفن النصرانية وفقاً للمعاهدات مع حكام طرابلس[٢]. وقال عنها التجاني[٣] "وهناك السبخة المفضل ملحها على جميع السّباخ ، ومنها يمتار أكثر بلاد النصرانية".

بالإضافة إلي ملاحة لمطة والتي ذكرها البكري[٤] "وهي ملاحة كبيرة وملحها لا يفوقه ملح ومنها يحمل إلى ما جاورها من البلاد".

الحديد: لقد أشار الإدريسي[٥] إلى مناجم الحديد الموجودة في بجاية وعنابة. والإدريسي ، بينما اقتصر الوزان[٦] على ذكر مناجم الحديد في جبال بجاية "وفي هذه الجبال معادن حديد تصنع به سبائك صغيرة تزن الواحدة منها نصف رطل وتستعمل كعملة...".وأشار القزوينى[٧] إلي وجود معدن الحديد في إفريقية ولم يحدد منطقة وجوده.

وتركز وجود الحديد أيضاً في جبال مدينة طرابلس[٨].

وعلى كلٍّ فإن إنتاج الحديد لم يكن كافياً لحاجة الاستهلاك المحلي في إفريقية ، لذلك احتاجت إلى استيراده – وخاصة المصنع منه – من المدن التجارية الأوربية[٩].

النحاس: توفر معدن النحاس في جبال مدينة بجاية[١٠].

---

(١) مصدر سابق ، ص ١٥٥.

(2) De Mas Latri, Ibid, 217.

(٣) مصدر سابق ، ص ٢٠٦ .

(٤) مصدر سابق ، ج١ ، ص ٨٤ .

(٥) مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ – ٢٩١ – ٢٩٢ .

(٦) مصدر سابق ، ج٢ ، ص ١٠٢.

(٧) أثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٤٨ .

(٨) أحمد بك الأنصاري ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، دار ف المحدودة ، لندن ، ١٩٨٤ ، ص١٠.

(٩) برنشفيك ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٢٤٠.

(١٠) العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، معهد العلوم العربية الإسلامية ، فرانكفورت ، ١٩٨٨ ، ص١٠.

كذلك اشتهرت بلاد هوارة بإنتاج النحاس حتى أن نقودها الفضية احتوت على كمية كبيرة منه ، ويبدو أن جزءاً منه كان ينقل إلى القيروان التي اشتهرت بصناعة الصفر منذ العهدين الأغلبي والزيري. وظلت كذلك في العهد الحفصي ، وكان بعض إنتاجها يصدر إلى سائر بلاد إفريقية وبلاد السودان[١].

وقد ورد ذكر قافلة محملة بالنحاس والجلد متجهة من القيروان إلى مرسى المحرس في أواسط القرن ١٤م[٢] ، وذلك ربما للمتاجرة بها مع المدن الإيطالية.

الرصاص: تمّ استخراج الرَّصاص من جبل الرصاص الواقع جنوب مدينة تونس ، وكان يستعمل في غضار الخزف الذي تميزت تونس بصبغه منذ القرون الإسلامية الأولى[٣].

الفضة: ورد ذكر مناجم الفضة في جبال غريان بطرابلس[٤].

وعموماً فإن إنتاج المعادن بصفة عامة في بلاد إفريقية يبدو أنه لم يكن كافياً للإستهلاك المحلى . فكان استيراده من بعض البلاد المجاورة أمراً ملحاً[٥] .

---

[١] محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج١ ، ص ٤٧٠.

[2] Michele Amari, Ibid, 152.

ابن مقديش ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، ج٢ ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨ ، ص٣١٣.

[٣] محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج١ ، ص ٤٧١. القزوينى ، مصدر سابق ، ص ١٤٨ .

[٤] الأنصاري ، مصدر سابق ، ص ١٠. القزوينى ، المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

[5] Mas Latire, Ibid, P 210 .

ابن مقديش ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، ج٢ ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨ ، ص٣١٣.

الفصل الثاني

التجارة الخارجية

- الطرق التجارية الخارجية.

أ) الطرق البحرية.

ب) أهم الموانئ والمراكز التجارية.

ج) طرق القوافل البرية.

- العلاقات التجارية مع الدول المجاورة

أ) مع المشرق

ب) بلاد السودان .

ج) الأندلس.

د) الجمهوريات الإيطالية..

هـ) صقلية.

و) قشتالة وأراغون.

- الرسوم والضرائب الجمركية .

التجارة الخارجية:

كان موقف الموحدين من التجارة الخارجية مشجعاً، رغم أنها أعاقتها بعض المشكلات نظراً لمواقف الموحدين السياسية المتوترة مع أغلب الدول المعاصرة لهم(*)، وبالتالي فقد انعكس الوضع على منطقة المغرب الأدنى (إفريقية وطرابلس الغرب) . وفي العهد الحفصي شهدت التجارة الخارجية تطوراً ملحوظاً، فازدهرت التجارة الأوروبية في حوض المتوسط الغربي وأصبحت الدول النصرانية تخاطب في مراسلاتها ولاة تونس وطرابلس بشكل مباشر بعد أن كان ذلك يتم عن طريق مراكش عاصمة الموحدين.

طرق التجارة الخارجية:

ارتبطت بلاد إفريقية وطرابلس الغرب بصلات تجارية وثيقة مع البلاد المجاورة، وساعد على ذلك وجود شبكة من طرق التجارة البحرية والبرية.

أولاً: الطرق البحرية:

(*) لقد تأخرت التجارة مع بلاد السودان نسبياً عمّا كانت عليه أيام الحكم المرابطي، كذلك كان للحرب الدائمة التي شنها الموحدون على نصارى أسبانيا لا تشجع على التجارة معهم وعبرهم إلى أوربا ولم يتم ذلك إلا في حالات الصلح والهدنة، أما العلاقة مع المشرق فقد اعتراها التوتر أيام الفاطميين والأيوبيين، وتأزمت أثناء ثورة بني غانية من ملوك المرابطين في جزر البليار وحلفاء قراقوش الغزي مملوك بني أيوب والقبائل المتحالفة معهم والذي اتخذ من طرابلس مركز انطلاقة لثورته ومما زاد من توترالعلاقة أن الموحدين يبدو أنه كانت لهم نية مبيته لتملك المشرق ويشير ابن جبير إلي ذلك قائلاً "ومن عجيب ما شاهدناه فى أمر الدعوة المؤمنة الموحدية إنتشار كلمتها بهذه البلاد (مصر وشرقيها من بلاد الحجاز) واستشعار أهلها لملكتها أن أكثر أهلها بل الكل منهم يرمزون لذلك رمزاً خفياً ، وينسبون ذلك لأثار حدثانيه وقعت بأيدى بعضهم . ومن بعض الآثار المؤذنة بذلك عندهم أن بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيقى البناء ، على أحدهما تمثال ناظر إلي جهة المغرب وكان على الأخر تمثال ناظر إلي جهة المشرق فكانوا يرون أن أحدهما إذا سقط أنذر بغلبه أهل الجهة التي كان ناظراً إليها على ديار مصر وسواها " . وبالنسبة لصقلية فقد كانت تحتل مدن بني باديس الساحلية وأجلى الموحدون النورمان عنها وألحقوا بأساطيل صقلية هزائم الأمر الذي ساهم في توتر العلاقة بين الطرفين، للمزيد انظر : المقرى التلمسانى ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج ٣ ، تحقيق : يوسف الشيخ محمد البقاعى ، دار الفكر ، بيروت، ١٩٩٨ ، ص ١٠٥ – ١٠٧ . ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دارالمعارف ، القاهرة ، بدون سنة نشر ، ص ٨١ . الحميرى ، مصدر سابق، ص ١٢١ – ١٢٢ – ١٤٤ – ٣٩٠ . المراكشي، المعجب ، ص٢٢٧ – ٢٢٨ – ٢٣٨ – ٢٦٢.

كان تطور التجارة البحرية في منطقة المغرب الأدنى (إفريقية وطرابلس الغرب) نتيجة غير مباشرة للغزو الهلالي(١)، لما سببه الغزاة من تخريب للمدن والحواضر(٢)، ويؤكد صاحب الاستبصار على هذا القول إذ يقول: "إن على الطريق من القيروان إلى قلعة أبي طويل وهي قلعة حماد... مُدُنًا كثيرة خربتها العرب عند دخولهم بلاد إفريقية"(٣).

وكانت وأهم الطرق البحرية التي ربطت بين إفريقية والبلاد المجاورة لها :-

١- الطريق البحري بين مصر وإفريقية ويبدأ من الإسكندرية إلى طرابلس ثم إلى تونس ومنها إلى بقية موانئ المغرب(٤).

ويذكر ابن حوقل(٥) أن السفن الخارجة من الإسكندرية في طريقها إلى طرابلس تأخذ الطريق المار بكريت وقبرص متجنبة طريق الساحل الإفريقي فيما بين برقة وطرابلس، لأن المنطقة عند خليج قابس(*) غير صالحة للملاحة بسبب الرياح التي تهب فتعوق حركة الملاحة، وكان ميناء طرابلس يصعب رسو السفن فيه "حيث يشتد الموج لانكشاف المرسى ويصعب الإرساء فيه".

ورسم لنا البكرى(٦)طريقاً بحرية يصل بين مرسى المهدية ، ومرسى الإسكندرية ، ماراً بجزيرة قرقنه(*) ثم تسير المراكب إلي مدينة قابس ثم إلي جزيرة جربه ثم إلى مرسى

(١) جورج مارسيه، بلاد المغرب وعلاقتها مع المشرق في العصر الوسيط، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩١ ، ص٣٢٨.

(٢) جورج مارسيه، نفس المرجع أعلاه، ص٢٤٥.

(٣) مجهول ، الاستبصار ، ص١٦١.

(٤) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة : أحمد عيسى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، بدون سنة نشر ، ص٢١٢. حورية عبده عبد المجيد سلام، علاقات مصر ببلاد المغرب حتى قيام الدولة الفاطمية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٤، ص٢٠٩.

(٥) مصدر سابق ، ص٧٢.

(*) وقد ذكر الحميرى عن قابس " ومرساها لا يستر من ريح " ، الروض المعطار ، ص ٤٥١.

(٦) مصدر سابق ، ص ٨٥-٨٦ .

(*) جزيرة قرقنه جزيرة كبيرة فيها أثار قديمة .. وهى تقع قبالة صفاقس . البكرى ، المصدر نفسه ، ص٨٥.

مدينة طرابلس ثم تخرج المراكب إلي سرت ومنها إلى برقة ثم إلى مرسى طبرق ، ثم إلى مرسى السلوم ، ومنها إلي رأس العوسج ثم إلي الكنائس ومنها إلي منارة الإسكندرية.

كما كانت التجارة القادمة من الغرب إلى الشرق التي كان يجلبها تجار البحر تسلك طريق موانئ إفريقية ، ثم الفرما ، ومنها إلى بحر القلزم ثم يبحرون إلى السند والهند والصين وفي طريق العودة يسلكون نفس الطريق(١).

٢- أما الطريق البحرية الرابطة بين بلاد إفريقية وبقية بلاد المغرب (الأوسط والأقصى) فيبدو أنها كانت في كثير من الأحيان امتداداً للطريق البحري نحو المشرق، حيث رسم الإدريسي(٢) جزءًا يصل إلى "مرسى الدجاج"(**) مروراً بدلس قبيل الجزائر في حين أن ياقوت الحموي(٣) يتقدم حتى "جزيرة مزغنّاي"(***) بينما يعطينا عبد الواحد المراكشي(٤) أكمل رسم إذ ينتهي بنا إلى مدينة طنجة، وهذه هي المراحل التي رسمها لنا فمن طرابلس إلى تونس ثم إلى بجاية ثم إلي الجزائر ومنها إلى وهران ثم إلى سبتة و طنجة.

وقد كان هذا الطريق من أكثر الطرق البحرية أهمية أمام التجار المسافرين المسلمين، خاصةً بعد أن استطاعت بيزنطة انتزاع جزيرتي كريت وقبرص من أيدي المسلمين وبذلك زالت الحماية التي كانت توفرها هذه الجزر لسواحل مصر وبلاد الشام، وقد ازدادت أهمية هذا الطريق بعد تحول طرق التجارة الدولية الواصلة إلى الهند والصين

---

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، طبعة ليدن، ١٨٨٩ ، ص ١٥٣-١٥٤. ابن الفقيه، تاريخ البلدان، ص٢٧٠.

(٢) مصدر سابق ، ج ١ ، ص٢٦٧ – ٢٦٨ .

(**) مدينة كبيرة القطر على حصن دائر بها في شرق المغرب الأوسط ، ولها مرسى مأمون وأرض ممتدة وزراعات متصلة ، وإصابة أهلها من زروعهم واسعة وحنطتهم مباركة وسائر الفواكه واللحوم بها كثيرة وتباع بالثمن اليسير ، والتين خاصة يحمل منها شرائح طوباً ومنثوراً إلي سائر الأقطار وأقاصى المدائن والأمصار وهي بذلك مشهورة . أنظر : الإدريسى ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٣) ياقوت الحموى ، معجم البلدان، ج٢، ص ١٤١ .

(***) الجزائرحالياً "وهى مدينة جليلة قديمة البناء فيها أثاراً للأول ، وهى على ضفة البحر ومرساها مأمون به عين عذبة يقصدها أصحاب السفن من إفريقية والأندلس وغيرها ". الحميرى ، مصدر سابق ، ص ١٦٣.

(٤) مصدر سابق ، ص ٢٨٣ – ٢٨٥ – ٢٨٦ . صالح بعيزيق، مرجع سابق، ص١٦٤.

من العراق والخليج الفارسي إلى مصر والبحر الأحمر مما دفع التجار والحجاج المغاربة إلى سلوك هذا الطريق[١].

٣- كما وجدت خطوط بحرية بين بلاد إفريقية والأندلس فكانت السفن تقلع من موانئ تونس وطبرقة وبونة وتنس ووهران تجاه موانئ الأندلس وربما إلى مدينة سبتة[*] لأنها كانت جسر العبور الأساسي إلى الأندلس[٢].

ويبدو أنه كان لرحالة العصور الوسطى فرصة الاختيار بين عدد من الطرق لإتمام رحلتهم من شبة الجزيرة الايبيرية إلى شاطئ شمال إفريقيا وما بعدها[٣] وعلى الرغم من أن هذه الطرق والموانئ لم تتبدل على طول شاطئ المتوسط عبر زمن السيادة الإسلامية، إلا أن شعبيتها قد اختلفت عبر الزمن فمثلاً لم تكن تونس محطة شعبية بالنسبة للسفن الأندلسية خلال القرن العاشر الميلادي، وربما كان هذا بسبب العداوة الأموية الفاطمية قبل عام ٩٦٩م، ولكن الأمر اختلف في القرن الحادي عَشَرَ الميلادي حيث غدت تونس سوقاً مهمة للسلع والتجارة الأندلسيين.

وقد وثّق البكري[٤] في هذا الزمن وصفاً فريداً من الطرق التي تصل بين شواطئ الأندلس والشمال الإفريقي.

ومن الملاحظ أن تلك الطرق قد ازدادت ازدهاراً في ظل النظام الموحدي نتيجة لخضوع المنطقة بكاملها لسلطة واحدة[٥].

ويبدو أن أحوال الطقس كانت تلعب دورًا كبيرًا في تعداد خيارات الطرق نحو الأندلس، فقد يكون عبور البحر في مياه مائجة شاقًا وبغيضًا شتاءًا، ولذلك قد يضطر

---

[١] لويس ارشيبالد، مرجع سابق، ص ٢٥٧ – ٣٣١ .

[*] سبته " مدينة على بحرين ، البحر المحيط و بحر الروم وهو مورد البرّين بر العدوة وبر الأندلس ، وهى مدينة حق وأقلاع" . أبو الفدا ، تقويم البلدن ، دار صادر بيروت ، ١٩٩٥ ، ص ١٣٣.

[٢] الاصطخري، مسالك الممالك، تحقيق : محمد جبر عبد العال ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٤ ، ص٣٣- ٣٤. ابن حوقل ، مصدر سابق ، ص٦٥- ٧٦- ٧٩ .

[٣] أوليفيا كونيستل، التجارة في الأندلس، تعريب، فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٢م، ص٧٣.

[٤] مصدر سابق ، ص ٨٢ -٨٣-٨٤-٨٩-٩٠-٩١-٩٩. أوليفيا، مرجع سابق، ص٥٤- ٧٤.

[٥] أنظر : الملاحق (خريطة رقم ١) .

بعض التجار إلى عبور البحر نحو بر العدوة ثم يتابعون رحلتهم براً بواسطة القوافل إلى المكان المقصود، خاصةً وأن المضائق بين الأندلس وشمال إفريقيا ضيقة جدّاً[١].

أما إذا كان الجو صافياً والملاحة جيدة فيختارون رحلة أطول حسب المكان المقصود من وإلى الشواطئ الطرابلسية والتونسية من جهة ، والأندلس من جهة أخرى، فكان الرحالة البحريون غالباً ما يلتمسون طريقاً طويلاً ولكنه أكثر آماناً فكانت سفنهم تخرج من موانئ الأندلس إلى ساحل المغرب المتوسط ، أو ساحل العدوة (المغرب الأقصى) ومن هناك تسير بحذاء الساحل الإفريقي وترسو عند ثغوره المطلة على البحر المتوسط ، حتى تصل إلى خليج سرت ، ومن هناك تتابع الساحل الليبي وبرقة حتى تصل إلى الإسكندرية[٢].

أهم الموانئ والمراكز التجارية:

تتميز بلاد المغرب الإسلامي بامتداد شواطئها الكبير[٣] ، كما تتميز بتركز عدد كبير من مدنها على السواحل نتيجة للصراع الذي استغرق عدة قرون بين البدو والحضر، فكان احتفاظ المدن الساحلية بمكانتها الاقتصادية أمام المدن الداخلية من أهم سمات الظاهرة الاجتماعية[٤].

---

[١] المراكشى ، مصدر سابق ، ص ٢٨٦ . أوليفيا كونستبل، مرجع سابق، ص٧٢.

[٢] كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي عصري المرابطين والموحين، مركز الإسكندرية للكتاب، بدون سنة نشر، ص٣٥٠.

[٣] أكد على ذلك عدد من الجغرافيين وأسهبوا في وصف إمتداد المراسى وبينوا المسافات بينها . راجع البكرى ، مصدر سابق ، ص ٦ وما يليها . الإدريسى ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٥٠ وما يليها . أبو الفدا ، مصدر سابق ، ص ١٢٢ وما يليها . الأصطخرى ، مصدر سابق ، ص ٣٣ – ٣٤ .

[٤] لقد كونت المدينة مجالاً لتبادل السلع منذ أن عرفت مكة رحلتى الشتاء والصيف اللاتين كانت تستقبل فيهما القوافل الوافدة عليها من اليمن والشام لأن تعمير المدينة يقع بواسطة حركة بشرية ذات إتجاه من البادية إلي الحاضرة لأن التمدن غاية البدوى يجرى إليها بينما لا يتشوف الحضرى لأحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها . أنظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١١. عاشور أبو شامة، مرجع سابق، ص٣١٩.

وعلى ذلك فشواطئ بلاد إفريقية وطرابلس الغرب توفر موانئ كثيرة تختلف في أهميتها وسعتها لاستقبال الملاحة الدولية[١].

وأهم تلك الموانئ الرئيسية هي:

١- **طرابلس:** استمدت مدينة طرابلس أهمية وميزة موقعها الخاص من مينائها الجيد الذي يعد من الموانئ المهمة على ساحل البحر المتوسط ، بسبب سهولة الوصول إليه حيث أنَّ بعضه محاط بصخور طبيعية ، وهي في شكل نصف دائرة من الشرق إلى الغرب، بعضها في مستوى سطح البحر ، وبعضها تحت البحر فالصخور التي تشاهد في جوف البحر على عمق سبعة أو ثمانية أمتار ، يمكن بمصاريف قليلة وخلال مدة يسيرة ، وهذا قد جعل ذلك الميناء منافساً لأروع موانئ البحر المتوسط[٢].

وقد أكسبها موقعها المتوسط على ساحل البحر شمالاً وبرقة والإسكندرية شرقاً ومنطقة فزان جنوباً وتونس غرباً، أهمية اقتصادية قصوى حيث أصبحت مركز التجارة بين كافة المناطق الواقعة في إقليمها ، والمركز التسويقي لمنتجاتها ،وللنشاطات المختلفة[٣].

بالإضافة إلى قرب سواحلها من سواحل إيطاليا وجنوب أوربا ، وقد ترك لنا غالبية الرحالة والجغرافيين وصفاً لمدينة طرابلس يعطي دلالة كبيرة على أهميتها كمركز بحري وتجاري مُهم، فيقول ابن حوقل[٤] في القرن الرابع الهجري. العاشر الميلادي في هذا الصدد واصفاً ميناء طرابلس: "تحط به المراكب ليلاً ونهاراً ،وترد التجارة على مر الأوقات والساعات، صباحاً ومساءً في بلد الروم، وأرض المغرب، بضروب الأمتعة والمطاعم".

---

[١] البكري ، مصدر سابق ، ص٧ وما يليها. الإدريسي، مصدر سابق ، ص٢٨٠ – ٢٨١ – ٢٨٢ – ٢٨٦ – ٢٨٩ –٢٩٠ – ٢٩٧.

[٢] محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة عبد السلام أدهم، محمد الأسطى، دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٩٥م، ص٧٣.

[٣] محمود إدريس علي بك ، مرجع سابق ، ص٥٩.

[٤] ابن حوقل، مصدر سابق ، ص٧٢.

أما البكري[1] فيصف مدينة طرابلس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عَشَرَ الميلادي شائداً بمكانتها التجارية من خلال موقعها المميز على شاطئ البحر وأسواقها الحافلة بكل أصناف البضائع كما وصفها صاحب كتاب الاستبصار[2] في القرن السادس الهجري الثاني عَشَرَ الميلادي بقوله: "بأنها مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر، وبها أسواق حافلة وحمامات كثيرة وبساتين في شرقها وهي كثيرَةُ الفواكه جمّةُ الخيرات، وأكثر أهلها تجار يسافرون براً وبحراً".

أما في منتصف القرن السادس الهجري/ الثامنَ عَشَرَ الميلادى، فقد أشاد الإدريسي[3] أيضاً بمكانة المدينة الاقتصادية ، وبحصانة موقعها على شاطئ البحر، ثم أردف قوله بالأضرار التي لحقت بها من جراء الهجرة الهلالية.

ولا شك أن ذلك قد أَضر بمكانة الميناء التجارية، ومن الطبيعي أن يعود إليه الانتعاش والازدهار التجاري ، مع مجيء الوحدين ثم الحفصيين ، نظراً للاستقرار السياسي وخضوع المنطقة لسلطة سياسية موحدة.

خاصة وأنَّ أحواضها البحرية كانت مجهزة لإصلاح السفن وصناعتها[4].

٢- **تونس**: إن موقع مدينة تونس الجغرافي هيّأها لكي تضطلع بدور مهم في تجارة البحر المتوسط خاصةً مع الأقطار الأوروبية، فهي تراقب مع صقلية التي يفصلها عرضه ١٤٠كلم، الممر الذي يصل حوضي هذا البحر[5].

وبين تونس وبين البحر نحو أربعة أميال وبينها وبين مرساها بحيرة يقال أنَّها كانت كثيرة الجنات ، والمياه ، والزروع طيبة الفواكه فغلب عليها البحر[6]

وتونس على سفح جبل متوسط الارتفاع يعرف بجبل أم عمرو يدور بها خندق حصين، ورغم أن تلك البحيرة تحجب المدينة عن البحر إلا أنها تشكل ملجأ آمناً للسفن

---

[1] مصدر سابق ، ص٧-٨.

[2] مؤلف مجهول، ص١١٠.

[3] مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٩٧ – ٢٩٨ .

[4] مارمول كربخال، مرجع سابق، ص١٢٤.

[5] عبد العزيز الدولاتي، مدينة تونس في العهد الحفصي، تعريب محمد الشيباني، وارسراس للنشر، ص٧٢.

[6] الحميري، الروض المعطار، ص١٤٣، ابن الشماع، مصدر سابق ، ص٣٦.

من الرياح العكسية ، والأمواج العاتية ، وفي ذات الوقت حصناً متقدماً لحماية المدينة من الأخطار التي يمكن أن تأتي من البحر[١].

وبحكم موقع مدينة تونس الساحلي المتوسط في الساحل الجنوبي لحوض البحر المتوسط، غدت تونس في العصر الموحدي مركز جذب مهم سياسي ، وتجاري في آن واحد مجددة بذلك دورها القديم دور الموانئ المغربية بوجه عام في تاريخ العلاقات التجارية[٢].

وقد اكتسبت المدينة أهمية خاصة من حيثُ نشاطُها التجاريُّ سواء الداخلي أو الخارجيّ في العهد الحفصي باعتبارها حاضرة الدولة، فاجتذبت إليها البيوت التجارية الأوربية التي عقد معها السلاطين الحفصيون اتفاقياتهم ، وكانت هذه الاتفاقيات حلقة وصل كبيرة في العلاقات التجارية بين ميناء تونس الحفصية وبين باقي الموانئ المجاورة[٣].

٣- **بجاية:** تقع مدينة بجاية فوق سطح جبل ومطل على ساحل البحر المتوسط على خليج مفتوح على البحر، وقد أتاح لها ذلك ميناءً صالحاً لرسو السفن، " ولها مرسى عظيم تحط به سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم ، وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر ، وبلاد اليمن ،والهند ،والصين وغيرها "[٤] وقد قال قال عنها الإدريسي[٥] "السفن إليها مقلقة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها براً وبحراً مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق".

---

(١) ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٢، ص٦٠-٦١.

(٢) ابتسام مرعي خلف الله ، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، دار المعارف، ١٩٨٥، ص٢٦٨.

(٣) ابتسام مرعي، مرجع سابق، ص٢٦٨، منى سيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص١٢٥.

(٤) مجهول ، الاستبصار ، ص ١٣٠ .

(٥) مصدر سابق ، ج ١ ، ص٢٦٠.

وقال ياقوت الحموي[١] عن موقعها: "إنها مدينة على ساحل البحر ، وإنها بنيت في لحف جبل شاهق في قبلتها جبال".

وذكر الحميري[٢] أن "بجاية مغلقة من جبل قد دخل البحر يضرب فيه، ولها دار لصناعة المراكب وإنشاء السفن وبينها وبين صقلية ثلاثة مجارٍ، وهي مرسى عظيم تحط فيه السفن من كل جهة".

ويتميز ميناء بجاية بحصانته الطبيعية وقدرته على استقبال عدد كبير من السفن على اختلاف أحجامها، بالإضافة إلى وجود الوادي الكبير على مقربة من المدينة الأمر الذي ساهم في حماية السفن[٣].

ونظراً لوقوع بجاية على مقربة من جنوب أوروبة فقد أشتُهِرت بحركة تجارية واسعة ، سواء داخلية أو خارجية بالمدن المحيطة بها، نظراً لموقعها المتوسط للحوض الغربي للبحر المتوسط ولذلك مهما كان الاتجاه داخل الحوض الغربي للبحر المتوسط ؛ فإن الرحلات من ميناء بجاية لم تكن طويلة بحكم موقعها المتوسط فقد كانت الرحلتان بين بجاية والأندلس وبين بجاية وصقلية متساويتين، إذ قال ابن سعيد المغربي[٤] عن المسافة بين بجاية والأندلس "وعرض البحر عند بجاية إلى جهة طرطوشة من الأندلس ثلاثة مجارٍ".

وقال صاحب الاستبصار[٥]: "بين بجاية وصقلية ثلاثة بحار" والمجرى عند ابن سعيد هو البحر والمجرى والبحر عند كليهما يعني اليوم.

وإجمالاً فقد تمتعت بجاية بموقع ملائم متميز بحراً وبراً ، فجعل منها ميناءً آمناً طبيعياً وبشرياً مفتوحاً على البحر ومتصلاً بالبر[٦].

---

[١] مصدر سابق ، ج١، ص٣٣٩.

[٢] مصدر سابق ، ص٨١.

[٣] مارمور ، إفريقيا ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ – ٣٧٧ . عاشور أبو شامة، مرجع سابق، ص٣٢٢.

[٤] كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق:خوان قرنيط، معهد مولاى الحسن،الرباط، ١٩٥٨، ص٧٦.

[٥] مجهول ، ص١٣٠ .

[٦] بعيزيق، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٢.

وقد اشتهرت قيمة ميناء بجاية التجارية خاصة في العهد الحفصي لأنها كانت ثاني أكبر مدينة حفصية بعد تونس(*).

٤- **المهدية:** وهي عبارة عن شبه جزيرة، لأن البحر قد أحاط بها من جميع جهاتها إلا من الجانب الغربى ، وللمدينة مرسى مغلق يتم الدخول إليه من بوابة من سور المدينة جهة البحر ويتم حفظ السفن الصغيرة والمتوسطة الحجم داخل هذا الحوض وإصلاحها ، وللمدينة مرسى آخر ترسو فيه السفن الكبيرة(١) " وللمهدية مرسى للمراكب من عجائب العالم فإنه منقور في حجر صلب ، يسع ثلاثين مركباً ، وكان على المرسى برجان ، بينهما سلسلة حديد من أغرب ما عمل وإذا أرادوا أن تدخل سفينة أو مركب أرسل حراس البحر سلسلة حتى تدخل السفينة ، ثم مدوها كما كانت"(٢).

وقد قال عنها الإدريسي(٣) "المهدية مدينة لم تزل ذات إقلاع وحط للسفن الحجازية القاصدة إليها من بلاد المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم وغيرها من البلاد وإليها تجلب البضائع الكثيرة بقناطر الأموال على مر الأيام وقد قلّ في وقتنا هذا ومدينة المهدية كانت مرسى للقيروان وهي في نحر البحر".

٥- بونة والقل وسكيكدة وجيجل: لمدنية بونة مرسى صغير، ولكنه يعتبر من المراسى الشهيرة وكان موقع المدينة الهام واتصالها المباشر بتونس وقسنطينة جعلا ميناءها وطريقها البري يستقطبان قسماً كبيراً من التجار ، وخاصة في العهد الحفصي الداخلية والدولية وكان أغلب تجارها من الأندلس(٤).

أما القل التي يقول عنها الوزان(٥) إنها أغنى مدينة على ساحل مملكة تونس، وذلك مما يحققه سكانها من تجارة الشمع والجلود التي يتعاطونها مع تجار مدينة جنوة،

(*) أنظر : الملاحق (خريطة رقم ٣).

(١) مجهول ، الاستبصار ، ص ١١٨ . عاشور أبو شامة، مرجع سابق، ص٣٢٠.

(٢) مجهول ، الاستبصار ، ص ١١٨ .

(٣) مصدر سابق ، ج ١ ، ص٢٨١.

(٤) الحميرى ، مصدر سابق ، ص ١١٥ . عاشور أبو شامة، مرجع سابق، ص٣٢٠.

(٥) الحسن الوزان ، مصدر سابق، ص ٥٤.

ويحققون أرباحاً طائلة . وقال الإدريسى[١] : " والقل قرية عامرة وكانت في سالف الدهر مدينة صغيرة عامرة ، والآن هى مرسى وعليه عمارات " . بالإضافة إلى سكيكدة وجيجل فإنها كانت الواجهة البحرية الرئيسة لمدينة قسنطينة التي تحتل مكانة كبيرة في التجارة المغربية وتجارة بلاد السودان، لذلك قام حاكم قسنطينة الحفصي ببناء مخازن في هذه الموانئ ، لحفظ السلع الواردة والمعدة للتصدير[٢].

وقد قال الإدريسي[٣] عن مدينة جيجل "لها مرسيان مرسى منهما من جهة جنوبها وهو مرسى وعر الدخول إليه ، صعب لا يدخل إلا بدليل حاذق، وأما مرساها من جهة الشمال ويسمى مرسى الشعراء فهو ساكن كالحوض حسن الإرساء به لكنه لا يحتمل الكثير من المراكب لصغره وهو رمل".

طرق التجارة البرية الخارجية:

برزت في النصف الأول من القرن السادس الهجري نتائج الغزو الهلالي واضحة، بما أحدثه العرب الهلالية من تخريب لعمران المناطق الداخلية إلا أن الاتجاه نحو الساحل وتعميره أدى إلى ظهور طريق ساحلي في بلاد المغربين الأدنى والأوسط.

كما أن الموحدين لم ينجحوا نسبياً في النصف الثاني من القرن السادس الهجري في إحياء المناطق الداخلية من البلاد الشرقية من المغرب غير أنهم أفلحوا في ضبط الساحل وإنعاشه اقتصادياً[٤].

وعلى أية حال فإن الطرق البرية الرئيسة الرابطة بين إفريقية وطرابلس الغرب من جهة ، وبين بقية البلاد المجاورة لم تتبدل على مر العصور، فهي تكاد تكون نفسها الخطوط التي رسمها البكري في كتابه الشهير "المسالك والممالك" الذي تضمن استقراء ضخماً لمعلومات تمدنا بوصف دقيق للمغرب في القرن الرابع للهجرة ثم أكدها كل من

---

[١] مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

[٢] مارمول، أفريقيا، ج٢، ص٣٨١، ج٣، ص٦-٨.

[٣] مصدر سابق ، ج ١ ، ص٢٦٩.

[٤] عز الدين موسى، مرجع سابق، ص٣٠٨.

الإدريسي وعبد الواحد المراكشي في القرن السادس الهجري أي في العهد الموحدي وابن بطوطة والقلقشندي في العهد الحفصي.

هناك طريقان شرقيان يربطان إفريقية بما يجاورها: أولها الطريق البري الساحلى الذي يربط المنطقة بداية في بجاية وبقية المدن الساحلية (الإقليمية) حتى تصلها بالإسكندرية ونحن إذا تتبعنا الطريق الساحلي لاحظنا أنها الطريق البرية الرابطة بين مدن ومرافئ بلاد إفريقية إلى أن تصل إلى الإسكندرية[١]واعتبرت في بعض المصادر العربية أسرع طريق برية إذ وصفت بالطريق "الجادة" أي السريعة[٢].

ويبدو أن هذه الطريق قد تطورت في العهد الموحدي عندما أصبحت بلاد المغرب بالكامل تحت نفوذ سلطة مركزية واحدة[٣].

وقبل ذلك التاريخ كانت الطريق بين طرابلس والإسكندرية قد خربت واضطربت منذ زحف بني هلال وبني سليم في حدود عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨- ١٠٤٩م وإن الأمن لم يعد إليها حتى بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[٤].

كما أن ابن بطوطة[٥] نوَّه بأمن وسلامة هذا الطريق خلال رحلته عندما سلكه خلال سنتي ٧٢٥ و ٧٢٦هـ/١٣٢٥- ١٣٢٦م وسماها "طريق الساحل" حيث قال "وأشار إلـي أنهم سلكوا الطريق الساحلى من بجاية إلـي الإسكندرية مروراً بتونس،وسوسة، وصقافس، وقابس وطرابلس دون أن يحدث لهم أى مكروه .

---

[١] ابن حوقل، مصدر سابق ، ص ٦٥. البكرى ، مصدر سابق ، ص ٨٣ -٨٤ - ٨٥ .

[٢] ابن أبي زرع، مصدر سابق ، ص ٢٠ - ٢١.

[٣] أنظر : الملاحق ، الخريطة رقم (٢) .

[٤] " أي أن الأمن لم يعد إليها حتى القرن السابع وهي الفترة التي كان يملي فيها المؤرخ كتابه المذكور، سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م إلا أنه نوه بازدهار هذه الطريق قبل ذلك التاريخ حتى أن القوافل كانت مشي فيها ليلاً ونهاراً " عبد الواحد المراكشي، مصدر سابق، ص٢٨٢.

[٥] ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص١٥-١٦.

أما الطريق الشرقي الداخلي فهو يربط بلا شك مدن إفريقية الساحلية مع بقية مدنها الداخلية ولذلك فهي ليست موضوع حديثنا في هذا الموضع، وسوف يأتي ذكرها عند الحديث عن طرق التجارة الداخلية البرية في الفصل القادم "إنشاء الله".

ويبدو أن التجارة البرية مع المشرق قد نشطت بالتوازي للأسباب التالية:

أولاً: ليس في المسلم دائماً أن يقع الاختيار على النقل البحري بحجة اضطراب الأمن على الطريق البرية، فالرحلة البحرية كانت هي أيضاً معرضة للقرصنة واللصوصية والمخاطر الطبيعية ، مثل العواصف وهيجان البحر[١].

ثانياً: للرحلة البرية بعض الخاصيات التي تفتقدها الرحلة البحرية منها المرور بمحطات قد لا تتوقف فيها السفينة أو محطات بعيدة عن ساحل البحر، ومنها التحكم في أوقات انطلاق القافلة بالنسبة للتجار الذين لهم مصلحة ما في التوقف لأن السفن كانت معظمها أوربية وخاصة إيطالية فأصحابها يقررون مدة التوقف[٢].

ثالثاً: كانت القاهرة محطة تجارية برية ضرورية بدليل أن وكيل التجار المغاربة كان يوجد بها[٣].

رابعاً: كان الحج عاملاً منشطاً، إذ كان من الممكن أن تصحب قوافل الحج قوافل تجارية وقد مثلت بعض المحطات بعد طرابلس أهمية خاصة وأهمها : طلميثا والإسكندرية والقاهرة، وقد كانت طلميثا هي أيضًا محطة متميزة[٤]، إذ احتوت على التجار اليهود الذين بلغ عددهم وقت أبي الفداء المتوفي عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١- ١٣٣٢م ما يزيد عن ٢٠٠ يهودي، وقد وصفها بالفرضة الشهيرة، قال إن "المراكب ترسى قبالة قصر اليهود بالقرب منه وتحضر العرب وتبايعهم بالبضائع مقايضة"[٥].

---

(١) بعيزيق، مصدر سابق ، ج١ ، ص١٩٤.

(٢) بعيزيق، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) Goiten (s.d), " le commerce méditerranéen avant les croisades " , Diogéne , N59 , (1967) , P 66 - 68.

(٤) أبو الفداء ، مصدر سابق ، ص١٤٩.

(٥) أبو الفداء، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أما عن الطريق البرية الغربية التي تصل بلاد إفريقية وطرابلس الغرب مع بقية بلاد المغربين الأوسط والأقصى وبلاد الأندلس فهناك طريقان:

أ) الطريق الغربية الساحلية التي تمتد في أغلبها محاذية لساحل البحر المتوسط وهي امتداد للطريق الساحلية الشرقية[١].

ب) الطريق الغربية الداخلية التي تمر عبر الهضاب الوسطى من بلاد المغرب[٢] .

ويبدو أن هذه الطرق الرَئيسة تستدير لتتخذ اتجاهاً معاكساً تماماً عند كلٍ من تونس وفاس، وبذلك نجد أن هذين الطريقين يؤمنان الاتصال بسواحل المغرب ووسطه وجنوبه.

حيث تتجه من الشمال نحو الجنوب تبعاً لاتجاه التضاريس ومراكز العمران وتتخلل السلاسل الجبلية المتجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي منخفضات وفتحات تسلك من الشمال إلى الجنوب لتربط بين المدن الشمالية إلى الجنوب لتربط بين المدن الشمالية والمناطق الصحراوية[٣]، مكونة باتصالها ببعضها البعض شبكة طرق تكونت منها دورة التيارات العظمى للتجارة الدولية[٤].

وينطلق الطريقان البريان الساحلي والداخلي من طرابلس الغرب شرقاً، متجهان نحو الغرب، فيمران عبر مدن ساحلية[*]ويستمران متلازمين إلى أن يفترقا عند قابس فيوازي أحدهما الساحل وينعرج الآخر إلى الدخل ويلتقيان ثانيةً عند مدينة تونس[٥].

ومن تونس تتفرع عدة طرق فرعية، حيث يستمر الطريقُ الساحليُّ في امتداده مع الساحل بينما ينعرج الداخلي قليلاً نحو الداخل إلى قسنطينة ، ويمتد الطريق الساحلي إلى أن يصل إلى بجاية وبينهما سبعون ميلاً في البِّر ، وتسعون ميلاً في البحر ، ويستمر

---

(١) الإستبصار ، ص ١١٠ وما يليها .

(٢) الإدريسى ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٧٧ – ٢٧٨ .

(٣) أبو شامة، نفس المرجع أعلاه، ص٣٠٣.

(٤) نجاة باشا، التجارة في المغرب الإسلامي في القرن الرابع إلى القرن الثامن هـ ، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٧٦، ص٨١.

(*) سيأتي الحديث عنها فيما بعد عند تناول طرق التجارة الداخلية.

(٥) الإدريسي، مصدر سابق ، ج ١ ، ص٢٩٠- ٢٩٢-٣٠٠-٣٠٢.المراكشى،مصدر سابق،ص ٢٨٣ – ٢٨٤.

إلى أن يصل إلى مدينة الجزائر مروراً بتدلس[١] قبيل الجزائر، ثم يمتد محاذياً الساحل إلي أن يصل إلي الحد الفاصل الشمالي بين المغربين الأوسط والأقصى من الشمال ماراً بشرشال، وبرشك وتنس ومستغانم ، ووهران، والمرسى الكبير، وأرشكول وهنين[٢].

ويستمر امتداد الطريق الرئيسي الساحلي من هنين إلى نول لمطة[*] جنوب غرب المغرب الأقصى فيجتاز المدن الساحلية المغربية وأهمها: هنين، تاونت، مليلة، غساسة، بادس، ترغة، تطوان، سبتة، القصر الصغير، طنجة، أصيلا، القصر الكبير أو (قصر عبد الكريم)، العرائش، أنفا، سلا، الرباط، أزمور، مزغان أو الجديدة، أسفي، أغادير، ماسة، إلى أن يصل إلى نول لمطة[٣].

وقد قدر لنا الجغرافيون[**] المسافات الفاصلة بين تلك المدن بالأميال أما الطريق الرئيسي الداخلي نحو المغرب الأقصى فيربط بجاية بتلمسان ، مروراً بالمسيلة وأشير

---

[١] " وتدلس مدينة بالقرب من الجزائر على شرف متحصنة لها سور حصين وديار ومتنزهات ". الإدريسي، مصدر سابق، ج ١ ، ص٢٥٩ .

[٢] وشرشال هي مدينة في المغرب الأوسط في ناحية برشك وهى متحضرة ذات فواكه ورزوع وبينها وبين جزائر مزغناى سبعون ميلاً .

وبرشك مدينة صغيرة على تل وعليها سور تراب على ضفة البحر . وارشكول مدينة فى ساحل تلمسان من أرض المغرب على نهر تافنا يقبل من قبليها ويسير بشرقيها تدخل فيه السفن اللطاف من البحر إلي المدينة وبينهما ميلان وهنين مرسى جيد على البحر فيه بساتين . وبين شرشال وبرشك عشرون ميلاً ، وبين تنس وبرشك ستة وثلاثون ميلاً . أنظر : الحميرى ، مصدر سابق ، ص٨٨ – ٣٤٠ – ٢٦ – ٢٧ . البكرى ، مصدر سابق ، ص ٨٠ . الإدريسي، المصدر نفسه، ص٢٥٧– ٢٥٨.

[*] تقع نول لمطة في بلاد المغرب الأقصى بينها وبين وادى السوس الأقصى ثلاث مراحل ومنها إلي البحر ثلاثة أيام . وفيها جازولة ولمطة ومدينة نول إحدى مدن الإسلام وهى مدينة كبيرة في أول الصحراء على نهر كبير يصب في البحر المحيط ، وعليه قبائل لمطة ولمتونه وإنما سميت نول لمطة لأن قبيلة لمطة يسكنونها. أنظر : الحميرى ، مصدر سابق ، ص ٥٨٤ .

[٣] الإدريسي، مصدر سابق، ص٩١– ٩٢–٩٨، المراكشي، مصدر سابق، ص١٩٩– ٢٠٠ ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٤، ص٣٤.

[**] البكري،صفة بلاد المغرب،الإدريسي ،نزهة المشتاق ، المراكشي، المعجب ، ياقوت الحموي، معجم البلدان.

ومليانة[١]، ومن تلمسان يمتد الطريق الداخلى إلى فاس ماراً بوجدة وإيسلى ، ومنها عبر نهر ملوية إلى تازا، ثم إلي فاس[٢].

ثم يستدير جنوباً نحو كل من تارودنت وسجلماسة[٣] فمن سفرو وتادلة التي يربطها طريق مباشر بمراكش ثم داي، وعند داي ينقسم هذا الطريق إلى قسمين هما: من داي إلى مراكش فأغمات، ثم تارودنت، والثاني من داي إلى شعب الصفا ثم سجلماسة[٤]، ويتفرع من الطريق الرئيسي الداخلي من ناحية الجنوب شبكة من الطرق ربطت بين مختلف مدن وقرى بلاد المغرب، والتي شكلت في واقع الأمر بوابة اتصال بلاد المغرب بجنوب الصحراء وهي من الشرق إلى الغرب.

– اتصال جبل نفوسة في أقصى شرق المغرب بطرابلس على الساحل وذكر الإدريسى أن بينهما حوالى ست مراحل[٥] فضلاً عن اتصاله بغدامس من الناحية الجنوبية الغربية منه[٦]، كما أنه يتصل بوارجلان[*] ويمتد طريق تاهرت[**] إلى سجلماسة[١].

---

[١] ومن أشير إلي المسيلة مرحلتان . الإدريسى ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٥٤ – ٢٥٥ .

[٢] من تلمسان إلى فاس تسع مراحل ومن تلمسان إلى تازا سبع مراحل ومن تازا إلى فاس مرحلتين أو ٦٤ ميلاً، الإدريسي، مصدر سابق، ص٩٩، المراكشي، مصدر سابق، ص٢٠.

[٣] تارودنت هي مدينة السوس الأقصى وهى أكثر بلاد المغرب وأكثرها فواكه وخاصة قصب السكر لذا يحمل منها السكر إلي جميع بلاد المغرب والأندلس وإفريقيا . وسجلماسة مدينة كبيرة عامرة وهي مقصد الصادر والوارد . الإدريسى ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٢٧ . الحميرى ، مصدر سابق ، ص ٣٣٠ .

[٤] تقع أغمات أسفل جبل درن في المغرب الأقصى من جهة الشمال ومن أغمات إلي تارودنت ست مراحل ومن أغمات إلي سجلماسة ثمان مراحل. الإدريسي، مصدر سابق، ج١ ،ص٢٢٦ – ٢٢٧– ٢٢٩–٢٣١ .

[٥] مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

[٦] أبو شامة، مرجع سابق، ص٣١٤.

[*] لقد مثلت مدينة تاهرت التي تقع على الجنوب من تلمسان في المغرب الأوسط مركزاً تجارياً ذا أهمية للتجارة مع بلاد السودان الغربى وكان ذلك منذ إنشائها كعاصمة لدولة بنى رستم ، وليس أدل على ذلك إشتراك بعض أمرائها في التجارة مع بلاد السودان فقد كان عبد الوهاب تاجراً في عهد أبيه عبد الرحمن بن رستم (١٣٥ – ١٧١هـ) وكانت قوافله تتزود على مملكة جاو وأشتغل أفلح بن عبد الوهاب بالتجارة مع بلاد السودان قبل توليه الحكم ، وأثناء ولايته بعث بأحد كبار تاهرت كمبعوث للدولة الرستمية لأحد ملوك السودان الغربى ؛ وكذلك أشتغل ابنه محمد بن أفلح في هذه التجارة . فكانت هناك تسهيلات تجارية بين الطرفين وكفلت لرعاياها التجار الأمان.أنظر :محمود إسماعيل،الخوارج في المغرب الإسلامى،دار العودة، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٢١١ .

وبذلك نلحظ أن الطريقين الرئيسين الساحلي والداخلي ، كما ذكرنا آنفاً يسيران متوازيين حتى تتسع المسافة الفاصلة بينهما عند مدينة فاس، وذلك لميل المدينة نحو الجنوب الغربي عن مستوى مدينة تلمسان، واتجاه سواحل المغرب الأقصى نحو الشمال الغربي ، ويستدير هذان الطريقان نحو الجنوب عند كل من فاس وطنجة، فيستمر الطريق الساحلي إلى نول لمطة على البحر المحيط ، بينما يسير الطريق الداخلي مستمراً إلى تارودنت جنوباً، وإلى سجلماسة ومنها إلى بلاد السودان[٢].

وبذلك نلاحظ أن شبكة الطرقات داخل بلاد المغرب تؤمن اتصال مناطقه ببعضها البعض وتربطها بالطرقات الصحراوية وهي ذات فروع متعددة تضع أمام المسافر إمكانات واختيارات مختلفة.

طرق القوافل البرية مع جنوب الصحراء:

اتصلت بلاد المغرب مع بلاد جنوب الصحراء بشبكة من الطرقات بواسطة ثلاثة محاور رئيسة هي: الجريد من جهة، ووارجلان والزَّاب من جهة أخرى،وسجلماسة ونول لمطة من جهة ثالثة، كانت هذه هي الأطراف الشمالية الثلاثة من طرق القوافل المنبعثة إلى بلاد السودان[٣].

وقد أدت هذه المحاور بدورها إلى أربع محطات كبرى من مدخل الصحراء وهي غدامس ووارجلان وسجلماسة وأغمات ويمكن اعتبار هذه المحطات مداخل رئيسة للصحراء[٤].

١- الطريق عبر غدامس[*]:

[**] وتسمى حالياً بورقلة "وتقع وارجلان في طرف الصحراء مما يلى إفريقية ، وهى بلد خصيب كثير النخل والبساتين ... وبين وارجلان والجريد أربعة وعشرون يوماً ومن بلاد الجريد إلي القيروان سبعة أيام ". الحميرى ، مصدر سابق ، ص ٦٠٠ .

[1] Levtzion , Ancient Ghana and Mali ,London : Methuen and Co. ltd , 1973 , P 36 .

[٢] أبو شامة، مرجع سابق، ص٣١١.

[٣] نجاة باشا، مرجع سابق، ص١٠٢.

[٤] بعيزيق، مرجع سابق، ج ١، ص١٧٩.

تسير القوافل التجارية الذاهبة إلى جنوب الصحراء من المدن الساحلية بإفريقية وطرابلس الغرب إلى أن تصل إلى غدامس، إما عن طريق جبل نفوسة وإما من بجاية إلى قابس عن طريق الطريقين الجنوبية والجنوبية الشرقية وبين قابس وغدامس أربعَةَ عَشَرَ مرحلة[١]، بعد مسيرة سبعة أيام حيث ذكر لنا شمس الدين الأنصاري[٢] هذا الطريق بقوله: "من البلاد المذكورة غدامس... بينها وبين جبل نفوسة سبعة أيام في الصحراء".

ولغدامس ميزة طبيعية ساعدتها لتكون محطة لتجار بلاد السودان تمثلت في وجود عين مهمة للمياه قال عنها أبو الفداء[٣]: "في وسطها (أي غدامس) عين أزلية عليها أثر بنيان روحي عجيب، يفيض الماء منه ويقسمه أهل المدينة بأقساط معلومة وعليه يزرعون"، ومن مدينة غدامس تواصل القوافل رحلتها نحو مدينة غات، ومن غات يتم الوصول إلى تادمكة مروراً بكوكو وتكدا والكانم وبين تادمكة وكوكو تسع مراحل[٤]، ويقول البكرى:[٥] إنَّ المسافة بين تادمكة إلي غدامس أربعون مرحلةً في الصحراء وبذلك تتوضح لنا الطريق هكذا: فمن غدامس تمر القوافل بغات ثم تتوجه نحو تادمكة تمرتبكدا ومنها إلى كوكو والكانم والعكس عند العودة لبلاد المغرب[*].

---

[*] مدينة بالمغرب تتبع إقليم طرابلس في جنوبه ضاربه في بلاد السودان وهي منطقة مأهولة سكانها أغنياء لأنهم يتاجرون مع بلاد السودان . ياقوت الحموي ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ٢٦٨ . الوزان ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

[١] أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١٤٣.

[٢] نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص٢٣٤.

[٣] مصدر سابق ، ص١٤٧.

[٤] ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٦٢٥ – ٦٢٦. البكرى ، مصدر سابق ، ص ١٨٣. وتادمكة مدينة منيعة في بلاد السودان ، وهى أشبه بلاد الدنيا بمكة شرفها الله تعالى وأهلها بربر مسلمون يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء وعيشهم من اللحم واللبن وتجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من أرض السودان ... وبين تادمكة وغانا نحو خمسين مرحلة وبينهما مدن وعمائر للسودان والبربر . وكوكو مدينة مشهورة في بلاد السودان على ضفة نهر منه يشربون وهم يداخلون التجار ويخالطونهم ويبضعونهم بالبضائع على وجه القراض. وأما تدكة فهى مدينة في بلاد السودان جنوب كوكو أهلها مسلمون ولا شغله لهم غير التجارة. للمزيد أنظر :الحميرى،مصدر سابق، ص ١٢٨ – ١٢٩ – ٥٠٢ . ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص ٦٢٦–٢٢٧.

[٥] مصدر سابق ، ص ١٨٢.

[*] أنظر : الملاحق ، خريطة رقم (٤) .

٢- الطريق عبر وارجلان:

تسير القوافل التجارية من وارجلان إلى أن يتم الوصول إلى تمبكتو الواقعة في الحوض الأعلى لنهر النيجر عن طريق توات[١] وقد أشار البكري[٢] إلى ارتباط وارجلان ببلاد السودان، حيث جعلها محطة ضرورية بين تادمكة والقيروان فقال: "إن أردت من تادمكة إلى القيروان فإنك تسير في الصحراء خمسين يوماً إلى وارجلان".

كما كان هناك طريق يصلها بسجلماسة ماراً بتاهرت[٣] ، فهو المسلك الذي سار فيه ابن بطوطة للعودة إلى المغرب الأقصى سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م[٤] كما تناول الإدريسي[٥] ارتباط وارجلان بأودغست وغانة، فذكر أن المسافة من وارجلان إلى أودغشت[*] ثلاثون مرحلة ، وإلى غانة واحد وثلاثين مرحلة. وأشار إلي أن المسافة بين وارجلان وقفصة ثلاثَ عَشْرَة مرحلةً.

فكانت وارجلان على اتصال بالعديد من المراكز التجارية المهمة في بلاد المغرب وهى القيروان بإفريقية في المغرب الأدنى وتاهرت بالمغرب الأوسط وسجلماسة في المغرب الأقصى.

وعلى كل فإن أهم المسالك المتعارف عليها عبر وارجلان كان تتم عن طريق توات ، ثم يسير إلى الحوض الأعلى لنهر النيجر حيث وجدت مدينتا تمبكتو وجو (جوجو) على نهر النيجر[٦].

٣- الطريق عبر سجلماسة:

---

[١] بعيزيق، مرجع سابق، ج٢، ص١٨١.

[٢] مصدر سابق، ص١٨٢.

[3] Levtzion , Ibid , P 36 .

[٤] ابن بطوطة، مصدر سابق، ص٦٢٨-٦٢٩.

[٥] مصدر سابق ، ج ١ ، ص٢٦٩ .

[*] مدينة بين صحراء لمتونة والسودان وهى عظيمة أهنة لكنها صغيرة. الحميرى ، مصدر سابق ، ص ٦٣.

[٦] البكري، مصدر سابق، ص١٨٢.

كان الاتصال بين بلاد الغرب وبلاد السودان يتم أيضًا عبر سجلماسة إذ كانت القوافل تسير من سجلماسة على الطريق المؤدية إلى تغازا ثم إلى أودغشت ومن هناك إلى غانة[١].

وقد تميز موقع سجلماسة بوجوده بين أقصى جنوب بلاد المغرب ومدخل الصحراء، ففيها تعيد التجار إلى بداية الرحلة الصحراوية الشاقة ويأخذون فيها قسطاً من الراحة في طريق العودة من بلاد السودان، كما كانت المدينة موجودة في سهل لا يعطل دخول المسافرين يمر به نهران يوفران الكميات الدنيا من الماء، قال عنها البكري[٢]: "وهي أي سجلماسة على نهرين وعنصرهما في موقع يقال له أجلف تمده عيون كثيرة".

وقد بيّن لنا الجغرافيون المحطات التجارية في بلاد جنوب الصحراء عبر سجلماسة.

فقد ذكر ابن حوقل[٣] أن المسافة من سجلماسة إلي أودغشت شهران ومن أودغست إلي غانة بِضْعَةَ عَشَرَ يوماً .

بينما حددّ البكري[٤] المسافة بينهما بـ بواحدٍ وخمسين مرحلةً ، ورسم أيضاً المسافة المسافة بينهما وبين بلاد غانة وقال إنَّ بينهما مسيرة شهرين إلا أن ابن بطوطة[٥] رسم لنا لنا خلال رحلته سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م المراحل الكبرى إلى بلاد السودان فمن سجلماسة قصد ابن بطوطة تغازا منجم الملح ومنها إلى تاسرهلا وبعدها توجه إلى مدينة إيوالاتن[*].

وكانت المسافة الفاصلة بين تغازا وإيوالاتن صحراوية صعبة المرور، ومر بعد ايوالاتن بعدد من المدن: زاغري، كارسخو، مالي، فنسا، تنبكتو، كوكو التي عاد منها إلى سجلماسة ماراً بتكدا وتوات.

---

[١] ابن حوقل ، مصدر سابق ، ص ٩١. بعيزيق، مرجع سابق، ج ١ ، ص١٨٣.

[٢] مصدر سابق، ص١٤٨.

[٣] صورة الأرض، مصدر سابق ، ص٩١ .

[٤] مصدر سابق، ص١٨١.

[٥] مصدر سابق، ص٦٢٤ وما يليها .

[*] وهى أول عمالة السودان بينها وبين سجلماسة مسافة شهرين . ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص٦٠٨.

وبذلك نلاحظ أن البكري كان يتحدث عن أودغشت وغانة كمقصدين رئيسين لتجار بلاد السودان القادمين من سجلماسة، بينما لم يذكرهما ابن بطوطة بل ركزّ على مالي وتنبكتو وكوكو في طريق الذهاب، وتفسير ذلك أن أودغشت قد تقهقرت منذ احتلالها سنة ٤٤٦هـ، ١٠٥٤م من قبل المرابطين ثم بعدها تقهقرت غانة بعد أن احتلوها سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦- ١٠٧٧م[١]

وخلاصة القول أن الطريق من وادي درعة إلى أودغشت انعدمت في العهد الموحدي والحفصي حيث توسعت دولة مالي سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م التي ورثت غانة وبلغت مالي ذروة مجدها في عصر منسا موسى (٧٠٧هـ- ٧٢٣هـ/ ١٣٠٧- ١٣٣٢م) فشملت حدودها كل المنطقة الواقعة بين تكدا شرقاً والتكرور غرباً وضمت كل المراكز على طرق الصحراء الجنوبي مثل تكدّا، كوكو، تنبكتو، إيوالاتن[٢] وبذلك ربطت الطريق القادمة من سجلماسة أو الذاهبة إليها المحطات الكبرى التالية: ملاحة تغازا، إيوالاتن، تببكتو، كوكو، مالي[٣].

٤- الطريق عبر مراكش أغمات[*]:-

إن طريق الاتصال بين بلاد إفريقية وطرابلس الغرب من جهة ، وبلاد السودان من جهة أخرى ، عبر أغمات قد يكون ضعيفاً وذلك لبعد المسافة بينهما من جهة ولوجود طرق بديلة وهي أقرب وأيسر في الاستخدام من جهة أخرى.

ورغم ذلك توجد إشارات تربط بين مدن بلاد إفريقية ومنها (بجاية) عبر المحور الشمالي وبين مراكش مروراً بفاس عند اندماج أجزاء من طريق الساحل والطريق الداخلية من الشرق إلى الغرب لأن هذا المحور شهد الحركة الدائمة بين المغرب الأقصى وبين مدن إفريقية.

---

[١] بعيزيق ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

[٢] أحمد إلياس حسن، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٧، ص٨٠.

[٣] صالح بيعزيق، مرجع سابق، ج١، ص١٨٥.

[*] تقع أغمات قرب منطقة وادى درعة وهو الوادى الذى يجتمع فيه التجار منها ومن سجلماسة ومن المناطق القريبة منها لينطلقوا بقوافلهم عبر الطريق التجارى المتجه إلي أودغست . الحميرى ، مصدر سابق ، ص٤٦.

إذ مرّ منه محمد العبدري[١] في رحلته سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م وبعد ابن بطوطة[٢] سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م.

ولكن التجار القاصدين بلاد إفريقية وطرابلس الغرب أو القادمين منها غالباً ما كانوا يفضلون طريق غدامس وطريق وارجلان وطريق سجلماسة إن لم يكن لهم مصالح في مراكش.

إن هذه الطرق وغيرها لم تبق ثابتة عبر القرون فهناك دواعٍ سياسية وغيرها عملت على تغيير القوافل لمسالكها من وقت لآخر ولكن الاتجاهات عموماً بقيت ثابتة ما دامت بعض المراكز لم تفقد قيمتها لسبب أو لآخر[٣].

- العلاقات التجارية مع الدول المجاورة-

بلغت بلاد إفريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحدي والحفصي (وخاصةً الأخير) درجة عظيمة من التقدم وأقامت علاقات تجارية واسعة بينها وبين البلاد التي تحيط بها.

١- العلاقات التجارية مع المشرق:

وجدت صلات وثيقة بين أهل المغرب بصفة عامة ، وبين بلاد المشرق،ووجدت رحلات متبادلة بين الطرفين إما التماسًا للعلم في مراكزه المختلفة ، ورغبة في تحصيله على شيوخه في المشرق والمغرب ، وإما سعيًا أو لأداء فريضة الحج[٤].

شهدت العلاقات التجارية بين إفريقية وطرابلس الغرب ، وبين بلاد المشرق في العهدين الموحدي والحفصي ازدهاراً واضح المعالم.

---

[١] العبدرى ، الرحلة ، ص٧-٣٩- ٢٧٦- ٢٧٩.

[٢] مصدر سابق ، ص ٦٠٥ – ٦٠٦ .

[٣] إبراهيم حركات، دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، ١٩٨١، ص٣٠.

[٤] سيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٦٠.

فقد ارتبطت المنطقة مع مصر بعلاقات تجارية قوية رغم بعض التوترات السياسية وقد يبدو ذلك طبيعيًا نظراً لرابطة الجوار الجغرافي ، والدين الإسلامي من جهة، ونتيجة للخطر المشترك الذي هدّد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوربي المتمثل في الحروب الصليبية من جهة ثانية، بالإضافة إلى وقوع مصر على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج إفريقية والمغرب إلى الأراضي الحجازية من جهة ثالثة(١).

ولا شك أن الامتداد الطبيعي لطرق التجارة فيما بين مصر والمغرب دونما فواصل أو عقبات، قد ساعد كثيراً على تنشيط حركة التجارة(٢) فكان هناك الطريق البحري الذي يربط بين موانئ الشمال الإفريقي ومصر عبر البحر المتوسط، والطريق الساحلي الموازي لهذا البحر، ثم الطريق الصحراوي عبر الواحات المنتشرة في أنحاء الصحراء الإفريقية الكبرى(٣).

وقد كانت كلٌّ من الإسكندرية وتونس مركزين مهمين ارتكزت عليهما التجارة العربية الشرقية، فموقع الإسكندرية الفريد على البحر المتوسط عند الطرف الغربي لفرع الرشيد أهَلَّها لأن تكون همزة الوصل بين وادي النيل وصحراء المغرب الشمالية وأقاليمه الساحلية المعاصرة، حيث يمر الطريق القديم الذي يصل بين أقصى المغرب (من سجلماسة في فاس وتازة) عبر الممر الإفريقي إلى تونس ثم طرابلس إلى الإسكندرية ومنها إلى السويس شرقاً فالطريق المؤدي إلى الحجاز(٤).

كما كان لبلاد المغرب تقاليد تجارية مع المشرق أكدها الإدريسي(٥) منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عَشَرَ الميلادي فضرب مثالاً عن بجاية بقوله أنهم كانوا يجالسون تجار المشرق.

---

(١) منى سيد عبد العزيز، مرجع سابق ، ص١٥١.

(٢) أحمد عبد اللطيف حنفي محمد، الدور السياسي والحضاري للمغاربة والأندلسيين في مصر في عصر الدولتين الأيوبية والملوكية، رسالة دكتوراه، جامعة طنطا، ١٩٩٢م، ص٢٤٣.

(٣) راجع ما سبق ذكره عن الطرق التي ربطت مصر بإفريقية .

(٤) ابتسام مرعي، مرجع سابق ، ص٢٦٧.

(٥) مصدر سابق ، ج ١ ، ص٢٦٠.

كما أكدتها بعض المصادر بالنسبة للروابط التجارية البحرية، ففي سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م- ١١٤٩م قدم إلى الشواطئ الإفريقية حسب محمد بن الآبا[١] "مركب للروم" قاصداً بجاية بالتحديد ثم سار بعدها إلى الإسكندرية.

هذا بالإضافة إلى أن القاهرة كانت محطة تجارية برية ضرورية بدليل أن وكيل التجار المغاربة كان يوجد بها[٢].

كما كانت هناك العديد من الشخصيات التجارية التونسية الأصل والتي طاب لها الاستقرار والاتجار في بلاد مصر.

ومنها على سبيل المثال لا الحصر، أبو محمد عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن علي القيرواني الأصل، المصري الدار، وكان يتاجر في التمر والبزر حتى صار يعرف بالابزاري وبالثمار (توفي بالفسطاط سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م)[٣].

بينما اختار أبو مدين شعيب بن يحيى بن أحمد بن محمد بن عطية القيرواني ثم الإسكندراني متابعة تجارة أبية في العطور والنباتات الطبية وبخاصة الزعفران بحيث صار يعرف بابن الزعفراني[٤].

ويبدو أن الرابطة التجارية بين إفريقية الموحدية والحفصية وبين المشرق، قد تمت أو نشطت ضمن إطار العلاقات التجارية مع المدن الإيطالية التجارية[٥]، وذلك لأن بلاد المغرب قد لعبت دورَ الوسيط التجاريّ في نقل تجارة الغرب الأوروبي نحو بلاد المشرق.

ومن الواضح أن الدولة الموحدية قد حاولت من ثغورها المغربية القيام بدور رئيسي لحماية طرق التجارة البحرية في حوض البحر المتوسط الغربي، ورائدها في ذلك القول المأثور الوارد في إحدى الرسائل: "... ويعز من والاه ويذل من عاداه، ويحفظ من تمسك بعهده وذمته وحافظ على صنائعه الجسمية"[٦].

---

[١] ابن الآبار، المعجم في أصحاب القاضي الإمام على الصدفي، ١٨٨٥، ص١٦٧.

[2] Goiten (s.d) "le commerce mediterraneen avant les croisades". P 66-68.

[٣] أحمد عبد اللطيف حنفي، مرجع سابق، ص٢٣٧.

[٤] ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، سلسلة ذخائر العرب ، بيروت ، بدون سنة نشر ، ج٥، ص٢٣١.

[٥] (بيزة- جنوة- البندقية) ابتسام مرعي، مرجع سابق، ص٢٧١.

[6] Michele Amari , Ibid , P 46-47 . رسالة رقم (١٣) مؤرخة في رمضان ٥٩٧هـ / ١٢٠١م .

ومن الواضح أن بعض تلك الرسائل التي تبادلها الخلفاء الموجدون والحفصيون مع المدن الأوربية التجارية تتضمن مادة علميةً أساسية تسلط الضوء على طبيعة العلاقات مع الثغور المشرقية لاسيما الإسكندرية ، كما تبرز الرابطة التجارية بين إفريقية الموحدية والحفصية من جهة وبين بلاد المشرق من جهة أخرى لذلك استعنت باستعراض بعض تلك الرسائل.

وقد حاولت الدولة الموحدية وضع حد لعمليات القرصنة البحرية سواء من جانب المسلمين أو المسيحيين بتوقيع العقوبات على هؤلاء القراصنة[١] ، وذلك بغية تأمين الطريق التجاري عموماً بين المغرب والمشرق، وهذا واضح من خلال ما ورد في إحدى الرسائل بأن معظم ركاب سفن القراصنة التي أُخذت في مرسى مدينة تونس وبواديها، وحجاج مغاربة كانوا قد خرجوا من المغرب متوجهين إلى المشرق عبر الإسكندرية، بالرغم من نفي الرسالة لذلك:"... ولم يكن فيه من أهل الإسكندرية إلا رجل واحد ولم يكن معه إلا شيء يسير"[٢].

كما نشطت العلاقات التجارية بين إفريقية والمشرق في العهد الحفصي ، ويمكن أن نستنتج ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين سلاطين المماليك في مصر والحفصيين في تونس، بحيث قامت الدولة الحفصية بدور الوساطة لدى مصر لصالح التجار الأجانب من أجل تحقيق مطالب تجارية للفرنج الفرنسيين في الموانئ المصرية أسوة بما حصل عليه البنادقة من امتيازات[٣].

مع خضوع هؤلاء للتنظيمات التجارية في مصر ومع تعهد مصر بتوفير الأمن في إطار ماهو من علاقات تجارية[٤].

---

[1] Michele Amari , Ibid , P 66-67 . رسالة رقم (١٩) مؤرخة سنة ٥٦٩هـ.

[2] Ibid , P 83 . رسالة رقم (١١).

[٣] نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص٣٧ . حيث يقول: "وبعد مفاوضات ناجحة استأنف تجار جنوه أعمالهم التجارية في مصر والشام عام ١٤٧٤م وفتحت الوكالة الجنوبية أبوابها وأعيدت لهم فنادقهم بالإسكندرية وبيروت ودمشق، واعتمدت السلطات قناصلهم كممثلين لهم ولتجارهم".

[٤] ابتسام، مرعي، مرجع سابق، ص٣١٧.

ومن الواضح أن القسم الشرقي من الدولة الحفصية يميل في معاملاته الاقتصادية أكثر نحو المشرق، (خصوصاً مع الإسكندرية)[١]، ويعطي ابن خلدون[٢] لهذه الظاهرة الاقتصادية بعداً حضارياً شاملاً فيقول: "... وكان أيضًا حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدولة الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال، ورغم ذلك دون الأندلس إلا أنه تضاعف برسوم ما تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما... فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر... أحوال الأندلس لما أن كثر ساكنها من شرق الأندلس حيث الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال، وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد، إلا أن الصفة إذا استحكمت فقليلاً ما تزول إلا بزوال محلها".

وكما كانت بلاد المغرب واسطة للرابطة التجارية بين بلاد المشرق والمدن التجارية الأوربية، كذلك كانت الرابطة التجارية بين المشرق وبلاد السودان.

فكانت طرق القوافل إلى كانم وغانا من الغرب محل اهتمام خاص من حكام القاهرة الذين اعتمدوا على الذهب المستورد منها لسك دنانيرهم[٣].

ويتحدث ابن خلدون عن علاقة مصر بمملكة مالي عبر تجار الذهب فيتقول معتمداً على رواية شفهية في عصر ماري جاطة بن منسا ملك مالي في النصف الثاني في القرن الثامن الهجري: "... إنه بدر وأسرف واضطر إلى بيع حجر الذهب الشهير الذي كان في ذخيرة مملكة أسرته وهو حجر يزن عشرين قنطاراً منقولاً في المعدن غير

---

[١] أبو شامة، مرجع سابق، ص٤٠٧.

[٢] المقدمة، ص٣٦٢.

[٣] ظلت مالي وغانا يتصدران تجارة هذا الطريق طوال عصر دولتي المرابطين والموحدين حتى ظهور الحفصيين لتظهر في عهدهم مملكة كانم في السودان الأوسط من القرن ١٣م وامتدت سلطاتها حتى فزان، مما أوجد علاقات واسعة بينها وبين الحفصيين في تونس. Roland Oliver , A short History of Africa , London , 1970 , P 91 .

المعالج بالصناعة معرضة جاطة هذا الملك المسرف على تجار مصر المترددين إلى بلده وابتاعوه بأبخس ثمن"[١].

وكان هؤلاء التجار المصريون قد سلكوا الطريق القديم المار بالقيروان وبلاد الجريد وورقلة (وارجلان) وتاهرت وتلمسان وفاس وسجلماسة ولم يقتصر التجار الذين يتعاملون مع تلك المراكز التجارية المؤدية إلى السودان الغربي لتجارة الذهب والمواد الأخرى مثل الملح على تجارة مصر بل تعداهم إلى تجار العراق والشام[٢].

كما سلك ملك مالي كنكن موسى عام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م رحلته إلى الحج طريق القوافل الغربي من منحنى النيجر إلى المغرب عن سجلماسة ومنها إلى مراكش ثم الطريق الشمالي عبر جبال أطلس إلى تونس ثم توقف في القاهرة وهو محمل بأحمال من الذهب[٣] فاستقبله الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر بحفاوة بالغة عند وصوله[٤].

وبذلك نلاحظ أن بلاد المغرب لعبت دورَ الوساطة التجارية بحكم موقعها المتوسط في العلاقات التجارية سواء بين المشرق والمدن الأوربية التجارية أو بين بلاد المشرق وبين بلاد السودان.

ولم يقتصر ارتباط تجارة المغرب ببلاد المشرق على مصر فحسب بل تعداه على بلدان مشرقية أخرى، فكثيراً ما كان يرد من موانئ بلاد المشرق كثير من تجار بلاد الشام محملين بسلع المشرق إلى موانئ بلاد المغرب ومن ضمنها تونس وطرابلس ومن نفس هذه الموانئ كانت تبحر الأساطيل التجارية المغربية بالسلع إلى موانئ الشام[٥].

فقد وصل تجار إفريقية إلى عدن في اليمن وذلك منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادى فقد أورد (Goiten) في إحدى رسائل الجينيزا رسالة بعث بها أحد تجار إفريقية في عدن وهو المدعو إبراهيم بن يُجو إلي أخيه في المهدية أو أى مكان أخر في إفريقية

---

[١] ابن خلدون، العبر، ج٧، ص٤١٨.

[٢] ابن حوقل، صورة الأرض، ص٩٦ – ٩٧ .

[٣] إبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣، ص٧٤– ٧٥.

[٤] المقريزي، الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك، نشر جمال الدين الشبال، القاهرة، ١٩٥٥، ص١١٢.

[٥] عفيفي إبراهيم، مظاهر الحضارة في بلاد المغرب حتى منتصف القرن السادس الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٩٥.

، مؤرخة عام ١١٤٩ م وكان صاحب هذه الرسالة قد فارق أهله في المهدية منذ سنوات ؛ وفي الرسالة يعبر عن قلقه الشديد بشأن مصير أهله في إفريقية بعد استيلاء النورمان عليها عام ١١٤٨ م[١] .

كما ارتبط تجار العراق بعلاقات تجارية نشطة مع بلاد المغرب واتخذ تجار البصرة والكوفة وبغداد من مدينة سجلماسة مركزاً للإشراف على قوافلهم المتجهة إلى بلاد السودان ، لجلب تجارة الذهب والعاج والرقيق[٢].

وقد تنوعت السلع التجارية المتبادلة بين بلاد إفريقية وطرابلس الغرب وبين بلاد المشرق.

فكانت بلاد إفريقية تصدر إلى مصر الفستق القفصي[٣] ، والزيت الصفاقسي[٤] الذي كان تنتجه صفاقس وهو نوع جيد من زيت الزيتون حيث يصفه ابن حوقل بقوله: "ليس بغيرها مثله"[٥] كذلك كان المرجان من أهم صادرات بلاد إفريقية إلى مصر حيث كان يستخرج بكثرة من مدينتي "طبرقة" و"مرسى الخزر"[٦].

والثياب والعمائم السوسية والثياب الحريرية من قابس[٧] وتعود المراكب من الإسكندرية والمشرق محملة بجلود النمور والبقر والواردة من برقة.

كذلك كان يرد إلى مصر من بلاد المغرب ما اشتهرت به من أنواع الكروم والجوز واللوز وأنواع الزبيب والسفرجل[٨] والتين الذي تميز بكبر حجمه ، وحلاوة مذاقه[٩].

---

[١] أمين توفيق الطيبى ، جوانب من النشاط الإقتصادى في المغرب ، ص ١٦١.

[٢] ابن حوقل، صورة الأرض، ص٦١.

[٣] البكري ، مصدر سابق ، ص٤٧، الاستبصار، ص١٥٤.

[٤] البكري، مصدر سابق، ص٢٠، الإدريسي، مصدر سابق ، ج ١، ص٢٨١، الاستبصار، ص١١٦- ١١٧.

[٥] ابن حوقل، مصدر سابق، ص٧٣.

[٦] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩١، ص٢٢٦.

[٧] الإدريسي، مصدر سابق،ج ١ ، ص٢٧٩.

[٨] ابن حوقل، مصدر سابق، ص٩٠ .

[٩] الاصطحزي، مسالك الممالك، ص٣٤.

أما أهم ما كانت تستورده المنطقة من بلاد المشرق فكانت المنسوجات الكتانية من مصر حيث ذاعت شهرة كتان مصر ومنسوجاته الرفيعة المعروفة باسم "الاباطلمون"[١] والمنسوجات الحريرية[٢].

كما كان الورق من صادرات مصر إلى بلدان العالم الإسلامي ومن ضمنها بلاد المغرب بلا شك[٣].

و كانت مصر تصدر إلى بلاد المغرب أنواعًا من إنتاجها الزراعي كالعدس والفول ، واللوبيا ، والعلف ، والبرسيم ، والجزر ، والثوم ، والبصل...[٤] هذا بالإضافة إلى أن مصر صدرت إلى بلاد المغرب التوابل ، والعطور ، والبخور التي كانت تأتي من أسواق الشرق عن طريق ميناء عيذاب ثم منها إلى مدينة الفسطاط ثم إلى مدينة الإسكندرية حيث ينقلها التجار المغاربة إلى بلادهم أو إلى أوربا[٥].

العلاقات التجارية مع بلاد السودان :

ارتبطت بلاد المغرب بصفة عامة في العصر الوسيط بعلاقات تجارية واسعة مع بلاد السودان وقد عادت هذه العلاقات على أهل المغرب بالخير والثراء.

ويبدو أن تلك العلاقات كان جوهرها اقتصادياً بالدرجة الأولى أي أن العامل الاقتصادي والتجاري والسعي وراء الربح كان أهم حافز لعبور الصحراء وتحمل الكثير من التضحيات لما ندره من أرباح.

---

(١) الجاحظ، التبصر بالتجارة، إعتناء : عبد الوهاب التونسى ، ١٩٣٥ ، ص١٠، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٨٩٠، ابن حوقل، مصدر سابق، ص١٤٣، المقريزي، الخطط، ج١، ص١٧٦.

(٢) اليعقوبي، البلدان ، ص٣٣٧.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى ، ج٢، ص٥١٧.

(٤) القلقشندي، نفس المصدر، ج٣، ص٣٤٣-٣٤٤.

(٥) لويس ارشيالد، مرجع سابق ، القوى البحرية، ص٢٥٢.

يقول ابن خلدون: "السلعة التي يتم نقلها من مكان إلى آخر تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الغرر(*) في طريقها، فيقل حاملوها ويعزّ وجودها، وإذا قلت وعزّت غلت أمانها.. ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالاً لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المغازة الصعبة الخطرة..."(١).

وقد كان اكتشاف الذهب في بلاد السودان حدثاً له أهمية كبرى في الحضارة الإسلامية والمنجزات التي تعتز بها، لهذا ترجع العلاقات التجارية للمغرب مع بلاد السودان إلى قرون عدة قبل العصر الموحدي(٢).

فقد كان الاتصال والتفاعل بين الصحراء الإفريقية والأقطار المتاخمة لها منذ زمن ويمكننا أن نضع قضية الزحف الإسلامي الواسع منطلقاً لهذا النشاط، لأن الصحراء الإفريقية لم تكن قنطرة بين الشمال والجنوب فحسب، بل كانت لها أنشطة في الإنتاج بمختلف أنواعه دون النظر إلى الكم والجودة ولو لم يكن الأمر كذلك لكان أثر الصحراء محدوداً في تنشيط حركة التبادل(٣).

خرجت القوافل التجارية من بلاد المغرب عبر النافذة الرئيسة التي تحدثنا عنها، ولذلك ارتبطت بلاد المغرب الشرقية (إفريقية وطرابلس الغرب) عبر زويلة(**) حيث يبدأ الطريق من خليج سدرة المطل على البحر المتوسط بمدينة طرابلس، حيث يعرج البحر كثيراً على الداخل مقرباً المسافة بين الساحل وواحات فزان، التي تمثل محطة طبيعية في قلب الصحراء، ومنها إلى بلاد كواروكوكو(٤).

(*) زويلة مدينة كبيرة قديمة في الصحراء بقرب بلاد كانم في السودان ويقال لها زويله ابن خطاب وكان قد بناها عبد الله بن خطاب الهوارى وسكنها هو وبنو عمه سنة ست وثلاثمائة وهى منسوبة إليه . ومنها يدخل إلي بلاد السودان وبها نخل كثير وتمرها حسن وشرب أهلها من آبار عذبة وإليها يجلب الرقيق ومنها يخرج إلي بلاد إفريقية وغيرها من البلاد . انظر: الحميري، مصدر سابق ، ص٢٩٦.

(١) المقدمة، ص٣٤٩.

(٢) أحمد محمد إسماعيل، دولة الموحدين في عهد ابن يعقوب يوسف، رسالة دكتوراه غير منشورة، الإسكندرية، ١٩٩٨، ص٣٦٩.

(٣) إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص٣٨.

(**) الغرر : التعريض للهلاك .

(٤) اليعقوبي، البلدان ، ص٣٤٥.

فهذا الطريق الشرقي ينتهي عند اليعقوبي بكوار، ومن البديهي ارتباط أكوار جنوباً بإقليم بحيرة تشاد حيث قامت مملكة كانم[١]، وبحكم موقع مملكة كانم في وسط السودان كانت بحاجة ماسة لتصريف منتجاتها واستيراد حاجاتها من السلع التجارية القادمة من الشمال عن طريق القوافل التجارية، ولهذا كانت على اتصال بالشمال الإفريقي طوال العصور الإسلامية، وعن طريق الحركة التجارية القائمة نمت هذه المنطقة وبرز فيها كثير من المراكز تبادلت السلع التجارية مع الشمال، وكان اتصالها بالشمال الإفريقي عبر فزان وغات والواحات الداخلية من أهم العوامل التي أسهمت في ازدهارها وقيامها كإمبراطورية لمع نجمها حتى القرن الثالثَ عَشَرَ الهجري/ التاسع الميلادي، فبسطت نفوذها على كل من زغاوة وبلاد البرنو وبلاد كوار وجزء من بلاد أهير ومنطقة فزان[٢].

وقد حافظت دولة كانم على سيطرتها على الطريق التجاري عبر غدامس رغم المشكلات التي تعرضت لها في القرن الثامن الهجري الرابعَ عَشَرَ الميلادي، وقويت العلاقات التجارية مع المغرب بل ومصر أيضاً[٣].

كما توطدت صلات كانم أيضاً بالدولة الحفصية في تونس[٤]، وكان الحفصيون حريصين على تعزيز هذه العلاقات الطيبة للمحافظة على مكاسبهم التجارية، ويتضح ذلك من موقف الحياد الذي وقفه الحفصيون في أثناء حروبهم الداخلية[٥] ومن المحتمل أن الدولتين دخلتا في حلف؛ لأن كانم أخمدت الثورة التي قام بها أحد أبناء قراقوش على السلطان الحفصي المستنصر عندما قام الملك الكانمي بقتل الثائر ومن معه عندما التجأ إلى فزان[٦].

---

[١] يشير اليعقوبي فيقول: "الزغاوة هم النازلون بالموضع الذي يقال له كانم" . انظر: تاريخ اليعقوبي، ج١، تعليق خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢م ، ص١٦٦.

[٢] أمين توفيق الطيبي، كانم برنو بالسودان الأوسط، علاقات تجارية وثقافية، مجلة البحوث التاريخية، مركز الجهاد الليبي، العدد الثاني ١٩٨٧، ص٧٧، ابن خلدون، العبر، ج٦ ، ص٤٠٦.

[٣] القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص١٢٢.

[٤] أحمد إلياس حسين، مرجع سابق ، ص٥٤.

[٥] أحمد إلياس حسين، نفس المرجع أعلاه، نفس الصفحة.

[٦] التيجاني ، الرحلة ، ص١١١.

كما تمثلت تلك العلاقات أيضاً عندما أرسل ملك كانم عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م رسالة ومعها هدية إلى المستنصر الحفصي، ضمت زرافة أثارت الحيرة والتعجب وابتهج بها العامة لأنها كانت حيواناً جديداً عليهم لم يروه من قبل[١].

وكانت حركة التجارة بين طرابلس الغرب وبلاد البرنو دائمة مستمرة بوصول التجار إلى فزان ومنها إلى البرنو وكانم حاملين معهم الهدايا للسلطان والذي كان يسمح لهم بحرية الإقامة والتنقل في بلاده، وبعد أن يعطوه الهدايا كان أهل برنو يستقبلون التجار بالحفاوة والترحاب، ويقيمون لهم الفنادق والحظائر لجمالهم[٢].

وكان لاتصال منطقة إفريقية عن طريق واحة الجريد بالجنوب ببلاد السودان دور كبير في توثيق العلاقات التجارية حيث كان يتفرع إلى طريقين طريق يتجه نحو منطقة وركلان وكانت هذه المنطقة تتصل تجارياً بأرض السودان عن طريق توات جنوباً واحة الجريد ، وطريق آخر يتجه نحو غدامس[*]ومنها إلى تادمكة، ثم يمر الطريق من غدامس إلى غات حيث كانت غات هي المحطة الرئيسة جنوب غدامس.

ويبدو أن غدامس قد حافظت على مكانتها التجارية حتى عصر الوزان الذي وصف أهلها بالثراء العريض الناتج من تجارتهم مع السودان[٣].

وينبغي أن نشير إلى أن تجار غدامس كانوا يمارسون أعمالهم التجارية وصولاً إلى شواطئ المتوسط، ومن المرجح أن النشاط التجاري قد تركَّز خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين على الموانئ التونسية نتيجة استقرار الأقاليم التونسية في عهد الحفصيين[٤].

---

[١] ابن القنفذ ، مصدر سابق ، ص١٢٠.

[٢] يذكر الوزان أن إقليم البرنو كان يحكمه أمير شديد البأس كان الشعب كله في خدمته يقوده حيث يشاء ولا يفرض عليه أى خراج سوى عشر ما تنتجه الأرض ولا مورد لهذا الملك عدا ما كان يحصل عليه من نهب وقتل الأعداء من جيرانه القاتنين فيما وراء قفر ساو . وأعدادهم كبيرة لا تحصى وكانوا يقطعون هذا القفر مشياً على الأقدام ويجتاحون مملكة برنو بأسرها ولكن الملك الحالى لهذه البلاد جاء بتجار من بلاد البربر ليأتوه بخيل يستبدلونها بعبيد ويأخذون مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين عبداً. الوزان ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .

[*] تعتبر غدامس من المراكز التجارية على أطراف الصحراء، وتقع بين خطي E٣٠.٥ شمالاً و E١٦ شرقاً في دولة ليبيا عند التقاء حدود جامع تونس والجزائر، انظر أحمد إلياس، مرجع سابق، ص٩٠.

[٣] الوزان ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

[٤] محمد عثمان الحشائشي، الرحلة الصحراوية، تعليق محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٨، ص١٧١.

وقد أسهمت مدينة قسنطينة في الجزء العربي من بلاد إفريقية، وهي من المدن الحفصية الهامة في التجارة مع مدينة وارجلان التي تقع في الواحات، والتي يقوم تجارها بالاتجار مع مدن بلاد السودان ومصر والمغرب الأقصى، فأصبح لذلك سوقها من أهم المدن التجارية ومجمع للبضائع والسلع المختلفة، فكانت تخرج إليها القوافل التجارية من قسنطينة محملة بالبضائع مرتين في العالم ليعودوا بالذهب والعبيد[١].

كذلك نشطت العلاقات التجارية بين تجار إفريقية وتجار مدينة تنبكتو التي تعتبر من المراكز التجارية المهمة الواقعة على الطريق التجاري بين واحة الجريد وغدامس إلى مدينة تنست وكذلك بين مدينة طرابلس وأوجلة إلى مدينة جاوة ومنها إلى تنبكتو[٢].

ولذلك انتعشت تجارة مدينة تنبكتو، وأصبح سوقها رائجاً في ظل سلاطين سنغاي، وخاصة عندما أقام تجار جنوة والبندقية على سواحل إفريقية مستودعات لهم تمتلئ بالبضائع والسلع التي يحتاج إليها سكان جنوب الصحراء[٣].

حيث قام تجار إفريقية بدور الوسيط التجاري بين جنوب الصحراء وبين أوروبة.

وقد أشاد الوزان بمدينة تنبكتو وأبدى إعجابه بكثرة دكاكينها المليئة بالتجار والصناع وخاصة دكاكين نساجى أقمشة القطن وذكر أنه تصل إلي تنبكتو أقمشة أوروبا يحملها تجار البربر[٤] .

أما عن أهم السلع المتبادلة بين بلاد السودان وبين بلاد أفريقية وطرابلس الغرب، فكان أهمها الذهب الذي كان أول قائمة الواردات.

شكل الذهب البضاعة الرئيسة المربحة للحركة التجارية لبلاد السودان مع بلاد المغرب، وقد كانت بلاد السودان مصدر الذهب بمقابل رخيص، الشيء الذي أدى إلى نمو حركة تجارية نشيطة تنطلق من بلاد المغرب يمكن أن توصف بـ"الجري نحو ذهب السودان" ورغم أن هناك بضائع أخرى متنوعة ، تتزود بها القوافل المغربية من بلاد

---

[١] الحسن الوزان، مصدر سابق، ج٢ ، ص٥٦- ٦٠ .

[٢] ابن خلدون، ج٧، ص١١٩، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦٦.

[٣] منى سيد عبد العزيز، مرجع سابق ، ص١٤٨.

[٤] الوزان ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٦٥ – ١٦٦ .

السودان إلا أنها لم تشكل أبداً المحرك الأساسي لخروج القافلة نحو السودان بل الذهب كان هو الأساس[١].

وكان الذهب يدخل إلى غدامس من تادمكة التي يقع بها الذهب من بلاد كوغة[*] أكثر بلاد السودان ذهباً[٢].

كما كانت جادو تستقبل الذهب الآتي من بلاد التكرور[٣] ويشير الشماخي إلى أهمية تجارة جبل نفوسة مع بلاد التكرور (مصدر الذهب) فيذكر في ترجمته لميمون بن محمد بن الفضل أحد رجالات الجبل أنه عندما "جاز عليه ركب التكرور قدم من بلاد السودان، أمر بإغلاق الأسواق والبروز للتكرور من أجل الانتفاع بالبيع والشراء"[٤].

كما كان الذهب يدخل إلى إقليم طرابلس من أودغست التي كان يتردد عليها التجار النفوسيون مثل أبي رستم النفوسي فأودغست ذات ذهب وفير حتي أن سكانها يتبايعون به، فهو يخرج منها في هيئة "الذهب الإبريز الخالص خيوطاً مفتولة"[٥].

كما اضطلعت مدينة قسنطينة في العهد الحفصي بدور مهم في تجارة الذهب، حيث يقول عنها مارمول: "....ومدينة قسنطينة ذات موقع ممتاز فوق جبل عال... وتجارتها الأكثر ربحاً في إرسال القوافل إلى نوميديا (الصحراء) محملة بالمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والزيت، وتعود منها بالتبر والتمر والعبيد السود، فهي أكثر بلاد المغرب تجارة في هذه الأشياء"[٦].

هذا إذا أضفنا أن ميناء بجاية كان من الموانئ المهمة في البحر المتوسط والذي يحتوي على أنشط حركة لتجارة البحر المتوسط.

---

[١] صالح بعيزيق، مرجع سابق، ج١، ص١٩٧– ٢٠٦.

[*] مدينة تبعد عن غانه خمسة عشر يوماً تقع على الضفة الشمالية لنهر النيجر وسكانها مسلمون . البكرى ، مصدر سابق ، ص ١٧٩. الإستبصار ، ص ٢٢٢ . الحميرى ، مصدر سابق ، ص ٥٠٤ .

[٢] البكري، مصدر سابق، ج٢، ص١٧٩.

[٣] الإدريسي، مصدر سابق، ج١، ص٢٨١.

[٤] اشماخي، كتاب السير، ج١ ، تحقيق : محمد حسن ، تونس ، ١٩٧٩ ، ص٢١٤.

[٥] البكري، مصدر سابق ، ص١٥٩ .

[٦] مصدر سابق ، ج٣، ص١١.

وهي محطة لتجار الصحراء لأنها مرتبطة بكل المداخل الصحراوية فمن الطبيعي أن تستقطب تجار الذهب من الأوربيين والمغاربة وغيرهم وهي أيضاً كانت سوقاً من أسواق صياغة الذهب [١]وقد وصفها الإدريسى[٢] " وبجاية قطب لكثير من البلاد" .

وإلى جانب الذهب كانت تجارة الرقيق تمثل إحدى السلع التجارية المهمة التي يستجلبها تجار المغرب من بلاد السودان، إذ شكل البحث عن العبيد الدافع الأساسي بعد الذهب وهي أيضاً تجارة مربحة.

وكان الرقيق الأسود يجلب عن طريق بعض المراكز التجارية الصحراوية فقد اشتهرت مدينة زويلة بهذه التجارة فيشير الاصطخري بأن أكثر الخدم السود يأتي من بلاد السودان إلى زويلة ، ومنها يوزع على مختلف البلاد الإسلامية " وهؤلاء الخدم السود أكثرها يقع إلي زويلة"[٣].

ويؤكد كل من البكري وصاحب الاستبصار على جلب الرقيق من بلاد السودان إلى زويلة ، ومنها يخرج إلى بلاد إفريقية وغيرها من البلاد[٤].

كما اعتبر جبل نفوسة في إقليم طرابلس مركزًا مهمًا لتجارة العبيد مع بلاد السودان، فيذكر البكري أن أبا رستم النفوسي كان من تجار أودغست التي كان "بها سودانيات طباخات تباع الواحدة منهن بمائة مثقالٍ أو أكثر"[٥]

كذلك كان الرقيق يُجْلب إلى جبل نفوسة عَبْرَ وركلان، ويفيد الشماخي بمتاجرة أهل الجبل ومنه جبل غريان بالعبيد، فيذكر الشيخ إسماعيل الجطالي "نزل من غريان ومعه عبيدُ أراد بيعهم بمدينة طرابلس"[٦].

---

[١] بعيزيق، مرجع سابق ، ج١، ص٢٠٧.

[٢] مصدر سابق ، ج١، ص٢٦٠.

[٣] مصدر سابق، ص٣٦ – ٣٧ .

[٤] البكري، مصدر سابق ، ص١١ .

[٥] البكري، مصدر سابق، ص١٥٨ – ١٥٩.

[٦] كتاب السير ، ج١ ، ص٨٣ . لمياء شرف الدين، تجارة طرابلس مع بلاد ما وراء الصحراء في العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، ٢٠٠١، ص١٥٢.

أما غدامس فكان تجارها يجلبون العبيد من تكدا فابن بطوطة الذي سافر برفقة قافلة كبيراً للغدامسين، من كوكو إلى تكدا التي يتفاخر أهلها "بكثرة العبيد والحزم ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادراً وبالثمن الكبير"[١].

وقد يستبقى أهل طرابلس جزءًا من أولئك العبيد لاستخدامهم في العمل الزراعي وفي خدمة المنازل والعمل الحرفي أيضاً[٢].

ويبدو أنه في بعض الأحوال قد حاول ملوك السودان عرقلة تجارة الرقيق والتضييق على النخاسين المغاربة الأمر الذي دعا حكام المغرب إلى توجيه لون من العتاب إلى حكام السودان، ويتمثل ذلك في رسالة مؤرخة، من الأمير أبي الربيع سليمان الموحدي[*] جاء فيها: "نحن نتجاوز بالإحسان وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرفق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة؛ والجور لا تعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده، وتردد الجلابة[*] إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التميكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية، لكنَّا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي أن ننهي عن خلق ونأْتي مثله والسلام"[٣].

---

[١] ابن بطوطة، الرحلة، ص٦٩٧.

[٢] الشماخي، كتاب السير، ج١، ص٨٣- ١٧٧- ٢٤٢.

[*] هو سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن كان يلى سجلماسة وأعمالها عند وفاة المنصور وكان قبل ذلك والياً على بجاية غير أن بنى غانية أخذوها منه قبل أن يسترجعها جيش المنصور وقد تميز هذا الوالى بالحزم فهو يعدم قطاع الطرق بين سجلماسة وغانه وقد أرسل رسالة من إنشائه إلي ملك غانة ينكرعليه إعاقة عمل التجار المغاربة ببلاده وقد إنتقده المراكشى بإنتحاله لبعض إنتاج كاتبه المشهور ابى عبد الله محمد بن عبد ربه. أنظر: رسائل موحدية ، ج ١ ، ص ٢٩ . المراكشى ، المعجب ، ص ٢٤٥ . ابن عذارى ، البيان ، قسم الموحدين ، ص ١٧٦.

[*] لم يكن التجار المسلمون المغاربة هم الذين يقومون بجلب الرقيق بل كان يقوم به تجار من تلك البلاد أطلق عليهم (الجلابة) وهم الذين كانوا يقومون بهذا العمل، ويؤكد ذلك القول ما ذكره الإدريسي من "أن أهل المدن الذين يجاورنهم من أجناسهم يسرقون أبناء هؤلاء القوم". الإدريسي، مصدر سابق ، ص٣٣.

[٣] رسائل موحدية ، ج١ ، رسالة رقم (٤٥) ، ص ٢١١.

كذلك كانت مدينة بجاية في العهد الحفصي سوقاً مهمة للعبيد فقد حدثنا الغبريني عن بيع السود في حومة المذبح حيث كان أسرى القرصنة من البيض أقل ثمناً إذ قال: "وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوحش"[١].

وتحدث في موضع آخر عن "بعض السوداوات وأن من غسالات الثياب كانت على رأسها رزمة من الثياب فأخذت لها في الزحام في سوق باب البحر"[٢].

ومن السلع الأخرى التي استوردها المغاربة ومن ضمنهم موحدي وحفصيي إفريقية وطرابلس من بلاد السودان كان الشبّ الذي يكاد يوازي الذهب والعبيد أهمية، ويذكر الإدريسي أن كوار اشتهرت بالشب حتى أطلق عليه الشب الكواري فهو بالغ الجودة كثير الوجود يتجهز منه في كل سنة إلى البلاد بما لا يحصن كثرة ولا يقاوم وزناً ومعاونة لا تنقص كبير نقص"[٣]، وإذا علما بأن تجار إقليم طرابلس كانوا يدخلون بلاد السودان إلى كوّار من ودّان وفزان[٤]، فإنه بالتأكيد كان دخول شبّ كوار إلى هاتين المدينتين الطرابلسيتين بالإضافة إلى دخول هذه السلعة إلى مدينتي غات وزويلة[٥].

كذلك كانت توجد مناجم الشب في المنطقة الواقعة بين غدامس وتادمكة وكان يحمل إلي أماكن كثيرة [٦]، مما يؤكد دخوله عبر الطرق التي ذكرناها إلى مدن شمال إفريقية.

ولم تقتصر السلع الواردة من بلاد السودان إلى بلاد المغرب على الذهب والعبيد والشب بل شملت سلعاً أخرى كالعاج[٧]، وريش النعام الأبيض والأسود[١]، والمسك والعنبر والعنبر الرمادي[٢]، وبعض التوابل مثل الْفُلْفُل الأسود[٣].

---

[١] الغبرينى ، عنوان الدراية ، ص٧٦.

[٢] الغبرينى ، المصدر نفسه ، ص١٧٨.

[٣] الإدريسي، مصدر سابق ، ص٢٩-١١٦-١١٧-١١٨.

[٤] البكري، مصدر سابق ، ص١٣. الإدريسي، مصدر سابق، ص٣١٢.

[٥] لمياء شرف الدين، مرجع سابق، ص١١٥.

[٦] البكري، مصدر سابق، ص١٨٣، الاستبصار، ص٢٢٥ .

[٧] عيسى بن الذيب، التجارة في عصر المرابطين، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة، ١٩٩١ ، ص١٣٨. بعيزيق ، مرجع سابق، ج١ ، ص٢٠٦.

أما عن أهم السلع الصادرة إلى بلاد السودان من بلاد المغرب فكان الملح، وهو البضاعة الرئيسة التي تقع مبادلتها بالذهب لأن الملح ثمين في بلاد السودان لأنهم فى حاجة ماسة إليه، إذ "أن المسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إدامًا لا ديناراً ولا درهماً، إنما يحمل قطع الملح وحليّ الزجاج الذى يسميه الناس النظم"(٤).

ولأهمية الملح كان يستبدّل عادة بوزن مماثل من الذهب فيذكر البكري أن "تجارة أهل كوكو بالملح، وهو نقدهم يحمل إليهم من بلاد البربر"(٥).

ولا شك أن بلاد إفريقية وطرابلس الغرب كانت إحدى أهم المناطق التي يحمل منها الملح إلى بلاد السودان، فطرابلس تتصل بها "سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير"(٦)، كما يفيد التيجاني بأن "بقصر صالح السبخة المفضل ملحها على جميع السباخ"(٧)، وكان هذا الملح يدخل إلى أودغست التي كان يؤمها تجار نفوسة حتى أن عدداً منهم قد استقر بها(٨)، ومنها إلى غانة فيشير ابن حوقل إلى ذلك بقوله: "وحاجتهم (غانة) إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام لهم إلا به وربما بلغ الحمل الملح في دواخل السودان وأقاصية ما بين مائتين وثلاثمائة دينار"(٩).

وكان لملك غانة على حمل الملح "دينار ذهب في إدخاله إلى البلد وديناران في إخراجه"(١٠).

---

(١) بعيزيق، مرجع سابق، ج١، ص٢١٤.

(٢) بعيزيق، المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(٣) بعيزيق، نفس المرجع أعلاه، نفس الصفحة.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص٦١١.

(٥) البكري، مصدر سابق ، ص ١٨٣ .

(٦) البكري، نفس المصدر، ص ٨ .

(٧) التيجاني،الرحلة،ص٢٠٦،يدخل قصر صالح في إقليم طرابلس على اعتبار أنه في الطريق بين غمراس غرباً وجنزور شرقاً،ويبدو أنه نفس المكان الذي ذكره برنشفيك أنه غرب زوارة.برنشفيك،مرجع سابق،ج٢، ص٢٣٩.

(٨) البكري، مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٨ – ١٥٩.

(٩) ابن حوقل، صورة الأرض، ص٩٨.

(١٠) البكري، مصدر سابق، ص ١٧٩.

كما كان التجار المغاربة يشترون الملح من تغازا[١]، ومنها يحمل إلى بلاد مملكة مالي، حيث يبادلونه بالذهب بأثمان مرتفعة تتراوح ما بين عشرين أو ثلاثين مثقالاً وربما تصل إلي أربعين مِثقِالاً في أهم أسواق مالي وتنبكتو وكوكو[٢].

ويبدو أن أسعار الملح قد ارتفعت في آخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي وبداية القرن العاشر الهجري السادسَ عَشَرَ الميلادي، مقارنة بقول ابن حوقل إذ يقول الوزان حوالي سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م أن حمل الجمل من الذهب كان يساوي ثمانين مثقالاً أو حوالي،٢٨٣غرامًا[٣].

ويتفق سعر ليون الإفريقي مع فترة تمركز إمبراطورية سنغاي وسيطرتها على ملاحة تغازا في عهد "اسكيا محمد" سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣- ٩٣٤هـ/ ١٥٢٨م) والمنافسة البرتغالية على سواحل المحيط الأطلسي واكتشاف أمريكا وهذا يعني أن أسعار الذهب في بلاد السودان قد ارتفعت طوال العهد الذي تزامن مع تزامن عهد الدولة الحفصية[٤].

كذلك كان النحاس من السلع التي صدرتها بلاد المغرب إلى بلاد السودان ويوجد مصدره في مدينة تكدّا على طريق القوافل "وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر، وماؤها على معادن النحاس"[٥] ، وقد يأتي أيضاً من المغرب الأقصى في منطقة ايجلي[٦].

وهناك سلع أخرى تأتي بها القوافل من بلاد المغرب إلى بلاد السودان مثل المواد الغذائية كالقمح والسميد[٧]، رغم إنتاجه في بلاد السودان إلا أنه لم يكن يكفي حاجة

---

[١] لم تكن تغازا في أيدي السودان بل كانت بأيدي قبائل بربرية من مسوفة، ابن بطوطة، مصدر سابق، ص٦٠٦.

[٢] ابن بطوطة، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[٣] مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٦٦. بعيزيق، مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٠١.

[٤] بعيزيق، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

[٥] ابن بطوطة، مصدر سابق، ص٦٢٦.

[٦] ايجلي: هي قاعدة بلاد السوس الأقصى التي يعمل فيها النحاس على شكل سبائك ومنها يتجهز إلى بلاد السودان. البكري، مصدر سابق، ص١٦١-١٦٢. الحميري، مصدر سابق، ص٧١.

[٧] الحميري، المصدر نفسه، ص٤٣٥.

الاستهلاك المحلي، فحملته القوافل المغربية نحو السودان بالإضافة إلى التمر والزبيب[١].

ولم تقتصر السلع الصادرة من بلاد المغرب على المنتجات الزراعية فحسب، بل هناك سلع أخرى تأتي بها القوافل من بلاد المغرب ، إما إنتاج مغربي أو أوربي منها الفضة ، والأقمشة ، والملابس والخيول[٢].

فكانت الثياب تمثل سلعةً تجارية مهمة تصدر إلى بلاد السودان وخاصة بالنسبة لتجار جبل نفوسة في إقليم طرابلس[٣] فغزل النسيج وصناعة الأردية كانت مشتهرة بالجبل بالجبل وطيقان الأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية[٤] تخرج منها إلى أودغست التي يتجهز إليها بثياب مصبغة بالحمرة والزرقة[٥] كذلك كانت الخيول من السلع المهمة الصادرة من بلاد المغرب إلى بلاد السودان وكانت تبادل بالعبيد[٦] مثلما يبادل الذهب بالملح.

-العلاقات التجارية مع بلاد الأندلس[*]:

لم تكن العلاقات التجارية بين بلاد المغرب والأندلس وليدة القرن السادس الهجري بل كانت قائمة خلال القرون السابقة، إلا أنها شهدت تطوراً كبيراً منذ التدخل المرابطي في الأندلس، ولما قامت الدولة الموحدية تطورت المبادلات التجارية تطوراً أكبر ، نظراً لانفتاح الموحدين على الحضارة الأندلسية، وعلى المكونات السياسية والفكرية للمجتمع

---

[١] البكري، مصدر سابق، ص١١١.

[٢] بعيزيق، مرجع سابق، ص٢٠٢.

[٣] الشماخي، مصدر سابق، ج١، ص٨١.

[٤] ابن حوقل، مصدر سابق، ص٧٢.

[٥] البكري، مصدر سابق، ص١٥٩.

[٦] الوزان ، مصدر سابق ، ج٢ ، ١٧٦.

[*] إن كلمة الأندلس هي الاسم العربي الذي يدل على أسبانيا المسلمة، ولكنهم ينسون غالباً أن هذا الاسم قد تغير مدلوله خلال القرون، فهو يشمل فيما يقرب من عامي ١٠٢– ١١٢هـ/ ٧٢٠– ٧٣٠م شبه الجزيرة الايبيرية كلها وعلى العكس من ذلك فقد تقلص عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م فلم يعد يدل إلاّ على أقاليم مالقة وغرناطة والمرية كما هي معروفة اليوم، للمزيد انظر بدور شلميطا، صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج٢، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩٨، ص١٠٤١.

الأندلسي واهتمامهم بتشجيع النشاط الاقتصادي، هذا بالإضافة إلى عامل القرب بين سواحل إفريقيا الشمالية والسواحل الجنوبية للأندلس(١).

وقبل العصر الموحدى توجد دلائل على وجود اتصال تجاري بين شمال إفريقية والأندلس، فيشير ابن حوقل إلى متاجرة أندلسية في طبرقة وإلى وجود تجمع تجاري أندلسي في طرابلس(٢).

كما ذكر البكري ظهور تجار أندلسيين في المهدية سنة ١٠٦٠م وقدم المطرق والمسالك المتنوعة والمفصلة لعبورهم القناة بين الأندلس وشمال إفريقيا(٣).

كما تشير المصادر إلى أن بجاية لم تكن سوى ميناء صغير يسكنه الأندلسيون(٤)، الأندلسيون(٤)، وبعد قيام الدولة الحفصية أصبحت بجاية العاصمة الثانية بعد تونس، وبدأت أعداد المهاجرين الأندلسيون إلى المدينة تزداد بكثرة نتيجة لحركة الاسترداد الأسبانية، فكانوا ينزلون بها فرادى أو مع عائلاتهم حتى كونوا بها طائفة على جانب كبير من الأهمية(٥).

وقد جعل الأندلسيين من بجاية إحدى المحطات البحرية التي تمثل توسعهم على الساحل الشمالي الإفريقي(٦)، وفي أواخر القرن الخامسَ عَشَرَ استقر الأندلسيون في المناطق الزراعية حتى يتسنى لهم ممارسة نشاطهم الزراعي وخاصة زراعة البقول التي هي من اختصاصهم(٧).

---

(١) أحمد محمد إسماعيل الجمال، مرجع سابق ، ص٣٧٣.

(٢) أوليفيا كونستبل، التجارة والتجار في الأندلس، ص١٣٧.

(٣) البكرى ، مصدر سابق ، ص ٣٠ .

(٤) البكري، المصدر نفسه ، ص ٨٢.

(٥) أحمد محمد الطوخي، (العلاقات الأندلسية الحفصية) الأندلس الدرس والتاريخ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص٧٣.

(٦) روبار برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٤١٧.

(٧) برنشفيك، نفس المرجع أعلاه، الصفحة نفسها.

وتشير رسائل الجيينزا (*) العائدة إلى الفترة ما بين ١١٣٨- ١١٤٠م أن التجار المسلمين قد وصلوا إلى أسبانيا المسلمة (الأندلس) من الإسكندرية وليبيا[١] ولا شك أن تلك العلاقات التجارية قد استمرت في العهد الموحدي رغم بعض التوترات السياسية، خاصة وأن الأندلس كانت جزءاً من ممتلكات الموحدين ، واستمر التبادل التجاري في العهد الحفصي أيضاً، وقد أورد دوفورك (ديفورك) عدة أمثلة لتجار من بجاية وتونس وتلمسان ووهران بين سنة ٦١٩هـ- ١٢٢٢م / ٤٢٦هـ- ١٥٢٠م قد نزلوا هؤلاء حسب وجهته فمنهم من اتجه نحو برشلونة أو ميورقة[٢].

واستنتج ديفورك نفسهُ أن هذه الأمثلة كافية للقول بأن المغاربة كانوا يذهبون بأنفسهم على موانئ الأندلس أكثر مما كان معتقداً.

ولم تكن المبادلات الاقتصادية بين دول المغرب بصفة عامة وبين بلاد الأندلس تتم بصفتها شخصيات معنوية (عن طريق وزارات للتجارة والمالية) بل بين الأفراد فرادى أو منضمين جماعات في شركات، حيث لم يعثر على اتفاقيات تجارية تمت بين دول المغرب والأندلس، وبذلك فإن المال الخاص كان يعطي لنفسه حرية كبيرة في مجالات الاستثمار بعيداً عن سلطان الدولة[٣].

وكان من أهم صادرات بلاد المغرب إلى بلاد الأندلس بعض المواد الغذائية مثل القمح الذي نقل من تونس إلى الأندلس.

فقد كتب ابن حوقل[٤] في أوائل القرن العاشر أن ميناء طبرقة، كان ميناءً تجارياً ينقل الأندلس من خلاله الغلال، وفي القرن الثانيَ عَشَرَ أكدّ الإدريسي[١] على هذا

(*) عبارة جينزا القاهرة تشير إلى مجموعة من المخطوطات عُثر عليها في الفسطاط (مصر القديمة) في العقد الأخير من القرن التاسع عشر وتم اكتشاف معظمها في غرفة للخزين ملحقة بكنيسة في الفسطاط وبعضها الآخر في مقبرة البساتين القريبة من المدينة القديمة، وقد احتفظ بها في جامعة كمبردج في انجلترا وفي أمريكا ويصل عدد أوراقها الربع مليون ورقة على أقل تقدير وهي مكتوبة باللغة العربية بحروف عبرية، انظر: أمين الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، ج٢، ١٩٩٧، ص١٢٦.

(١) أوليفيا كونستبل، مرجع سابق، ص١٤٤.

(2) Dufourcq (ch.E) , Ibid , P 31 .

(٣) أبو شامة، مرجع سابق، ص٢٠٦.

(٤) مصدر سابق ، ص٧٦ .

الاستيراد المنتظم للأندلس من الحبوب المغربية، وكتب المحتسب ابن عبدون عن مراكب ترسو في ميناء اشبيلية حاملة شحنات من القمح[٢].

كما ذكرت إحدى رسائل الجينيزا أن شحنة من القمح نقلت من إشبيلية إلى طرابلس[٣]. كما تم ذكر وصول مراكب إلى الأندلس محّملة بالقمح التونسي[٤].

ورغم أن الأندلس كانت تنتج القمح إلا أنه ربما كان لا يكفي حاجة الاستهلاك المحلي أو نتيجة للتقدم الحربي المسيحي نحو الجنوب واستيلائهم على مناطق إنتاج الحبوب الأندلسية من أيدي المسلمين وخاصة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي[٥]، كذلك استوردت بلاد الأندلس الفستق من مدينة قفصة[٦]، والتفاح الجيد من جزيرة جِرْبة[٧].

وقد لعبت بلاد المغرب دورَ الوسيطِ التجاريّ في نقل ذهب السودان إلى بلاد الأندلس لاستخدامه في ضرب السكة في غالبية المدن الأندلسية الرئيسة[٨].

ومن ناحية أخرى فإن الأندلس كان يصدر إلى بلاد المغرب بشكل عام ومن ضمنها بلا شك إفريقية وطرابلس الغرب، كل ما يصنع من السلع، وعلى الرغم أن المغرب قد شهد عملية تصنيع كبيرة فقد كانت تستورد من البلاد الأندلسية مصنوعات كثيرة نتيجة للزيادة المستمرة في عدد السكان حيث كان يجلب من الأندلس المصنوعات الجلدية والفخارية والزجاجية[٩] وأدوات الموسيقى[١٠] ، والمصنوعات المعدنية ،وخاصة

---

(١) مصدر سابق ، ص ٨١ .أوليفيا كونستبل، مرجع سابق، ص٢٤٨.

(٢) أوليفيا كونستبل، مرجع سابق، ص٢٤٩.

(٣) أوليفيا كونستبل، مرجع سابق ، الصفحة نفسها .

(٤) أوليفيا كونستبل، المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(٥) أوليفيا، نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٦) البكري، مصدر سابق، ص٤٧.

(٧) التجاني، الرحلة، ص١٢٢.

(٨) أحمد محمد إسماعيل، مرجع سابق ، ص٣٧٣.

(٩) الزهري، كتاب الجغرافيا، تحقيق : محمد حاج صادق ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية ،دمشق ، ١٩٥٨ ، ص٩٣، العمري، مسالك الأبصار، ج٤، ص١٠٨.

(١٠) المقري، نفح الطيب ، ج١ ، ص١٦٨.

المذهبة "ويصنع في مرسيه من الأسرَّة المرصعة ، والحصر الفتانة الصنعة ،وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبه وغير ذلك من آلات العروس والجندى ما يبهر العقل ومنها تجهز هذه الأصناف إلي بلاد إفريقية وغيرها" [١] والوشي المذهب[٢] والبسط (التي يغالى في ثمنها في المشرق)[٣]. وكان يجلب من الأندلس عقار رفيع يسمى يسمى (الجنطيانة) ويحمل إلي جميع الآفاق[٤].

وقد استمرت ظاهرة استيراد المواد المصنعة من الأندلس حتى العهد الحفصي رغم وجود صناعات كثيرة بالبلاد الحفصية، ويفسر ابن خلدون هذه الظاهرة بقوله: "وعلى مقدار عمران البلاد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة... وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة... فهم (أهل الأندلس) على حصة موفورة من ذلك، وحظ متميز بين الأمصار، وإن كان عمرانها قد تناقص"[٥]، ومن المواد الخام الأولية التي كانت تصدرها الأندلس القطن الاشبيلي الذي كانت تعتمد عليه مدن إفريقية في صناعة المنسوجات[٦]، وكان التين المجفف الذي اشتهرت به إشبيلية وشلب ومالقة يصدر إلى بلاد المغرب[٧].

كذلك كان اللوز المالقي يصدر إلى بلاد الروم وإفريقية ومصر[٨] وكذلك كان للمنسوجات الأندلسية شهرة كبيرة في جميع أنحاء العالم في العصور الوسطى[٩].

---

(١) المقري، المصدر نفسه، ج١، الصفحة نفسها ، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٢١٣.

(٢) المقري، مصدر سابق، ج١، ص١٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ج١، الصفحة نفسها.

(٤) المقرى ، المصدر نفسه، ج١، ص١٢٨ .

(٥) المقدمة، ص٣٦٠- ٣٦١.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٩٥.

(٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٨٠- ٢٠٠.

(٨) الزهري، مصدر سابق، ص٩٣.

(٩) كمال أبو مصطفى، مرجع سابق، ص٣٤٢- ٣٤٣- ٣٤٤.

وقامت بلاد المغرب باستيراد الأسلحة من بلاد الأندلس[١] وإن لم توجد إشارة في المصادر إن كانت بلاد إفريقية وطرابلس الغرب من ضمن البلاد المغربية التي استوردت الأسلحة.

العلاقات التجارية مع الجمهوريات الإيطالية:

نشطت العلاقات التجارية بين بلاد إفريقية وبين الجمهوريات الإيطالية في العهد الموحدي[*] والحفصي، وتشهد على ذلك سلسلة المعاهدات التجارية بين الطرفين، وعلى الرُّغم من ارتباط الحركات التجارية مع الأحداث السياسية فقد تطورت العلاقات التجارية

---

(١) عفيفي إبراهيم، أحوال بلاد المغرب الاقتصادية في ظل السيادة الفاطمية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ص١٨٥.

(*) لم تكن العلاقات التجارية بين الطرفين وليدة العصر الموحدي بل وضعت نواتها الأولى في عهد بني زيري في بلاد أفريقية عام ١٠٨٧م عندما استولى الإيطاليون على المهدية وحصلوا من تميم بن المعز الزيري حاكم أفريقية في مقابل الجلاء عنها على وعد بعدم التعرض لسفنهم في المياه الأفريقية، فكان هذا الوعد بمثابة معاهدة غير مكتوبة ارتكز عليها البيزيون والجنويون في إرسال لسفنهم إلى موانئ شمال أفريقيا للتجارة، إلا أن العلاقات انقطعت في عهد يحى بن تميم بن المعز إلى نهاية حكم بني زيري ووقع بلادهم في أيدي النورمان، إلا أن حكام مدينة تونس الخراسانيين قد دخلوا في معاهدات سلم وتجارة مع جمهوريتي بيزا وجنوة فقد أبرم عبد الله بن خراسان معاهدة عام ١١٥٧م مع بيزة تعد أقدم معاهدات التجارة والملاحة المبرمة بين أفريقيا الشمالية وبين بلاد النصارى، انظر: سامي سلطان سعد، أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٥٨، ص١٢٩- ١٣٠ برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٥٤.

طبقاً لمسار معين، وفي شيء من الاستقلال الذاتي وبأفضلية حتى على التفاهم السياسي نفسه(١).

ويبدو أنه كان لموقع بلاد إفريقية المتوسط على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط وباعتبارها أقرب المناطق إلي المدن المتوسطية التجارية ؛ الدور الكبير في توثيق العلاقات التجارية بينها وبين الجمهوريات الإيطالية فضلاً عن وجودها في طريق الذهب الذى رنا التجار إليه بأبصارهم ، فبادروا بعقد معاهدات سلمية وتجارية مع حكام إفريقية(٢).

وكانت جمهورية جنوة أول جمهورية إيطالية تبعث بوفد إلى السلطان الموحدي عبد المؤمن بن علي عام ١١٦١م ، وأبرمت معه معاهدة تقرر فيها دوام السلم بين الموحدين وجمهورية جنوة لمدة خَمْسَ عَشْرَةَ سنةً، كما كفلت حماية التجار والرعايا الجنوبيين والمحافظة على أرواحهم وأموالهم في جميع بلاد الموحدين ومياههم، كما أنها حددت قيمة الضرائب التي تجبى على تجارة الجنوبيين في موانئ شمال أفريقيا بمقدار ٨% من ثمنها، ولكنها استثنت مدينة بجاية الذي يجب أن تكون الضريبة فيه ١٠% لأن ربع هذا المقدار كما تنص المعاهدة يعود ثانية إلى مدينة جنوة(٣).

ويبدو أن سبب هذا الاستثناء يعود إلى أن هناك معاهداتٍ سابقةً عقدت مع جمهورية جنوة لتنظيم تجارتها في مدينة بجاية عندما كانت بجاية تابعة لبني حماد في المغرب الأوسط.

و يروي (سلفاتوري بونو) (٤) خبراً حول علاقات تاجر طرابلس يدعى (أبو يحيى) ومراسله في جنوة (اميكوز وسترو) تسلَّم هذا الأخير مبلغاً من المال وكان عليه أن يحوله إلى شقيق أو ابن يحيى الموجود بصقلية لدواعي العمل، إلا أن قيام بعض الصعوبات

---

(١) سلفاتوري بونو، العلاقات التجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط، ترجمة: عمر الباروني، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، ١٩٨٦، ص٣٠٩.

(٢) القادرى بوتشيش ، الجاليات المسيحية بالمغرب أيام الموحدين ، مجلة الإجتهاد ، العدد الثامن والعشرون ، السنة السابعة ، دار الإجتهاد للأبحاث والترجمة ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص٨٠.

(3) De Mas Latrie , les relations , P 204 .

(٤) مرجع سابق، ص٣١٧.

حالت دون تسليم المال فأرسل التاجر الجنوي لتسديد المبلغ ستة قناطير من النحاس (=٦٥٠ كيلو غرام) لدفع ثمنها إلى الطرابلسى وكان ذلك عام١١٦٦م.

أما جمهورية بيزا فقد وقَّعت هي الأخرى معاهدة مع الموحدين حيث وقع سفيرها عام ١١٦٦م معاهدة مع أبي يعقوب يسوف الموحدي يحصل البيزائيون بموجب هذا الاتفاق على حرية المتاجرة في كامل التراب الموحدي، وسمح لهم بإقامة فندق خاص بهم زويلة وهي الضاحية الكبرى لمدينة المهدية(*)، وفي ظل هذه المعاهدة وسَّع البيزائيون نشاطهم وخاصةً في سواحل المغرب الأدنى في شواطئ قابس،وصفاقس حيث يشحنون منها زيت الزيتون، وكذلك وسعوا نشاطهم بميناء طرابلس[١].

ومع ذلك فقد تعرض البيزيون لصنوف من المضايقات في بعض موانئ إفريقية وطرابلس، وكانت حكومة الجمهورية ترسل للسلطان الموحدي عقب كل شكوى تتلقاها من رعاياها خطاباً تطالبه فيه بإنصافهم ورفع أسباب الشكوى عنهم، فكتبت إليه في ٢٣من أبريل-١١٨١م عن جماعة من التجار البيزيين قد شحنوا مركباً لهم بالقمح من صقلية، وخرجوا بها في طريقهم إلى طرابلس الغرب، وقبل الوصول إليها أحوجهم الماء فاضطروا إلى النزول في مكان قريب منها للتزود بالماء وفجأة وصلت إلى هذا المكان سفينة قادمة من مدينة طرابلس فألقت القبض عليهم واستولت على جميع ما معهم من مال وقمح ثم اقتادتهم إلى المدينة حيثُ زج بهم في السجن[٢].

وفي ١٩ من مايو من نفس العام (١١٨١م) أرسلت جمهورية بيزا رسالة أخرى إلى السلطان أبي يعقوب يوسف ضمنتها الشكوى من عماله من مدينة بجاية لأنهم دأبوا على الحيلولة بين التجار البيزيين وبين شراء الجلود من هذه المدينة[٣].

(*) زيلة المهدية وهى مدينة أخرى غير زويلة بنى خطاب التي ذكرناها آنفاً . متصلة بالمهدية لأن السلطان وخاصته وجنوده يسكنون المهدية والأسواق والناس في زويلة ، وكانت حسنة الشوارع والمباني وأهلها مياسير نبلاء ذوو أفهام ثاقبة وطريقة في المعاملات جيدة . الحميرى ، مصدر سابق ، ص٢٩٦ .

(1) De Mas Latrie , Ibid , P 22 .

(2) Michele Amari , Ibid , P 7 - 9 .

(3) De Mas Latrie , Ibid , P 10-11-12 .

ويبدو أن أموراً أخرى مشابهة وقعت للبيزيين، غير أن أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف كان دائماً يعمل على رفع أسباب الشكوى عنهم، فظلت العلاقات طيبة بين الموحدين وجمهورية بيزا، والدليل على ذلك أن حكومة الجمهورية عملت على إنصاف سفينة لأحد أهالي قفصة عندما علمت أن أحد قباطنتها استولى عليها وهي في طريقها إلى جزيرة مالطة وباعها بحمولتها لشخص يدعى (البرنوبولري) فاستردت هذه السفينة بكامل شحنتها من شاريها وأعادتها إلى صاحبها الأصلي وقامت بإرضاء هذا المشتري بأن وضعت تحت تصرفه منزل القبطان المعتدي حتى يراد له أمواله التي دفعها ثمناً لصفقة السفينة(١)، وفي شهر يوليو في عام٥٨٠ هـ / ١١٨٥م توفي أبو يعقوب يوسف وخلفه في الحكم ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور، فأرسلت له جمهورية بيزا سنة ١١٨٦م السفير البيزي (أطرون بن تدسك) فعقد معه معاهدة في نوفمبر ١١٨٦م، أول رمضان سنة ٥٨٢هـ معاهدة جديدة.

أقر فيها المنصور جميع الامتيازات التي منحها والده للبيزيين من قبل ؛ إلا أنه حددّ لهم أربعة مواقع فقط يتمتعون فيها بحرية التجارة في تونس ،وبجاية ،ووهران وسبتة(*) "وأذن لهم المنصور ... في الوصول إلي بلاد الموحدين أعزهم الله للتجارة فيها والتجهز منها وقصرهم على أربعة بلاد من جملتها وهى سبتة ووهران وبجاية وتونس حماها الله ولم يبح لهم النزول بغيرها ولا الاحتلال بسواها إلا لضرورة من صعوبة البحر ... "(٢) .

(1) De Mas Latrie , Ibid , P 50 .

(*) من الملاحظ أن مدينة المهدية ليست ضمن المدن التي سمح للبيزيين بالمتاجرة فيها أو الإقامة بها وربما أراد المنصور إبعاد البيزيين عن تلك المدينة الهامة خشية أن ينتهزوا فرصة الفوضى التي سادت وقتذاك بلاد أفريقية نتيجة لثورة قراقوش التقوي وبني غانيه، أو ربما كانت المهدية وقت إبرام المعاهدة ١١٨٦م قد خرجت من نطاق دولة الموحدين وأصبحت تحت نفوذ الثائر محمد عبد الكريم الرجراجي الذي تغلب على السلطة فيها وأعلن استقلاله بها، انظر : ابن خلدون ،العبر ، ج٦ ، ص ٢٤٧-٢٤٨ . التيجانى ، الرحلة ، ص٣٥٠ومايليها.

(2) Michele Amari , Ibid , P 17-22 .

أما الموانئ الأخرى فلا تستطيع أن تتردد لها إلا عند الضرورة في حالة الزواج مثلاً، وتأكد الرسم الجمركي في الحدود المعتادة أي ١٠%(١)، وبذلك مارس البيزيون نشاطهم التجاري ووثّقوا أولويتهم التجارية مع إفريقية وخاصة بجاية وتونس.

إلا أنه في عام ٥٩٥هـ / ١٢٠٠م حدث أمر خطير عكر صفو تلك العلاقات حين هاجمت سفينتان من بيزا ونهبتا سفينتين تونسيتين كانتا راسيتين في ميناء حلق الواد بمدينة تونس؛ وهذا العمل القرصني أوجب اتخاذ بعض الإجراءات التونسية وجرى ما نسميه اليوم تبادل المذكرات بين تونس وبيزا، إلا أنه عندما كان يجري البحث بين الطرفين لتسوية الحادث، بعث والى تونس (الأمير أَبو زيد عبد الرحمن بن أبي حفص) إلى التجار البيزيين ببراءات الأمان(*) والدعوة للعودة لاستئناف نشاطهم التجاري، إذ كان الكثير منهم قد ترك تونس خوفاً من الانتقام(٢).

وبذلك نلاحظ أن استقلال البلاد التونسية المتزايد بدأ يتجلى من خلال علاقاتها الخارجية، إذ كانت الدول النصرانية تخاطب أكثر فأكثر ولاة تونس بصورة مباشرة، دون أن ترى نفسها مضطرة إلى مخاطبتهم دوماً عن طريق الخليفة في مراكش، فمنذ ولاية السيد أبي زيد عبد الرحمن حوالي سنة ١٢٠٠-١٢٠٢م كانت سلطة بيزا على اتصال مستمر مع ذلك الوالي ومنظوريه، وقد أرسلت سنة ١٢١١م رسالة إلى الشيخ الوالي أبي

---

(1) Michele Amari , Ibid , P 12 .

(*) ويبدو أن تردد تجار بيزا على أفريقية قد ضعف بعد تلك الحادثة، فاضطر الوالي الحفصي أبا زيد عبد الرحمن إلى تقديم ضمان جديد مؤكداً لهؤلاء التجار على أمانهم بإفريقية "برها وبحرها" وجاء في الرسالة: "بسم الله الرحمن الرحيم ... كتاب أمان وتأكيد إحسان أمر يكتبه عبد الرحمن بن سيدنا أبي حفص... إلى جماعة تجار نصارى بيزا –هداهم الله– وأمن به يسر بهم، وأعذب شربهم.... فليصلوا إلى بلاد أفريقية –حاطها الله– محمولين على سنن الرعاية والعناية محوطين بكانف الكفاية والحماية... وحيث حلّوا من معاقلها وسواحلها وبرها وبحرها في مسالك تجاراتهم وترددهم بها... لا يعترضهم في شيء منها معترض ولا ينعضب لهم هذا الحبل المتين ولا ينغرض إن شاء الله تعالى"، انظر: رسائل موحدية، ج١، ص١٧٦- ١٧٧.

(2) Michele Amari , Ibid , P 29-30 .

محمد عبد الواحد الحفصي للتأكيد على الاستعدادات الطيبة المتبادلة بين أهالي تسكانة وأهالي تونس[١].

وبذلك نلاحظ أن العلاقات التجارية كانت قوية ومتينة بين الطرفين، "فإذا كانت الأحداث من الوزن الذي ذكرناه لم تستطع أن تفك الروابط التجارية إلا لفترة عابرة فإن ذلك يعني أن هذه الروابط كانت محكمة وتشابك المصالح قوياً"[٢].

وتشهد الخطابات المرسلة من تونس عقب وقوع الحادث المُشار إليه على العلاقات الودية والاحترام المتبادل بين التجار التونسيين والبيزيين، فقد كتب التاجر التونسي "محرز القابسي" إلى التاجر البيزي "باتشي بن كورسو" يذكره بدين له عليه يبلغ مائة وثلاثة دينارات ثمنًا لتسع مائة جلدكبش وتسعة قناطير من الصوف، ويقول محرز القابسي في رسالته: "أنت أيها الصديق العزيز لك سمعة طيبة في بلادنا وتتمتع أنت ومن يأتي معك باحترام التجار فلا تعمل إذن ضد ما عرف عنك"[٣].

وفي تلك الآونة كان صراع الموحدين مع بني غانية وقراقوش التقوي قد وصل ذروته في طرابلس وإفريقية، واستطاع يحيى بن غانية أن ينتزع مدينة المهدية عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢- ١٢٠٣م من محمد بن عبد الكريم الرجراجي الذي كان قد انفرد بها عن الموحدين ثم استولى على مدينة تونس وجميع مدن إفريقية الرئيسة وبسط نفوذه على طرابلس أيضاً[٤].

وتجدر الإشارة إلى أن ابن غانية حاول إعادة العلاقات التجارية مع جمهورية بيزا الإيطالية، إلا أن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، لم يعط له المهلة الكافية حيث بادر بالقضاء على بني غانية في إفريقية وطرابلس وعيّن أبا محمد بن أبي حفص حاكماً عاماً على أن يكون مقر إقامته فى مدينة تونس[٥].

---

[١] برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٥٥.

[2] Michele Amari , Ibid , P 48.

سلفاتوري بونو، مرجع سابق، ص٣٢٠ .

[٣] سلفاتوري بونو، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٤] ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢٤٧- ٢٤٨. التيجانى ، الرحلة ، ص ٣٥٠ وما يليها .

[٥] رسائل موحدية، ج١، ص٢٥٦.

ولما كانت تونس هي أهم مركز لتجارة البيزيين في شمال إفريقيا فقد أرسل قنصل بيزا "كومزي دسكونت" إلى حاكمها أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص سفيراً خاصاً ومعه خطاب أعلنت فيه جمهورية بيزا تصميمها على التمسك بمعاهدتها مع الموحدين، وقد كتب حاكم تونس في ربيع الأول سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م رسالة رد فيها على خطاب قنصل بيزا بقوله: "... فعهدكم عند الموحدين مشكور، واستظهاركم بالوفاء مذكور؛ وبحسب ذلكم جرى العمل مع كل من يصل من جهتكم، أو ينتسب إلى حوزتكم في رعي مطالبة ، وتسهيل مآربه ، وحمله على الحفظ ، والحماية على الوجه الأحرى به أعلموا أن ذلكم من جميل الغرض فيكم وحميد النظر لكل من يصل من نواحيكم، إن شاء الله"(١)، ومنذ عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م أخذت الأوضاع في شمال إفريقيا بالتغيير فقد أخذ الضعف والوهن يتخلل دولة الموحدين في مراكش، وبدأت أملاكها تأخذ سبيل الانفصال والاستقلال الذاتي، عندما نبذ حاكم تونس الأمير أبو زكريا الحفصي طاعة الخليفة الموحدي في مراكش "المأمون بن المنصور" وكون لنفسه دولة مستقلة في إفريقية وطرابلس وجزء من المغرب الأوسط.

ولما كانت دولة بني حفص تضم أهم المراكز التجارية في شمال إفريقيا فقد تسابقت الجمهوريات الإيطالية لتجديد الاتفاقات التجارية السابقة مع السلطان الحفصي أبو زكريا، أما هذا الأخير فقد بادر من جهته بتوسيع الضمانات الممنوحة للتجار وسعى لتنمية العلاقات التجارية مع تلك القوى البحرية ، ورأى أن ذلك عامل قوة ومصلحة لدولته(٢).

وكانت البندقية هذه المرة هي السّباقة في هذا المضمار فقد بادرت بالاتصال مع بني حفص لعقد معاهدة تجارية وسلام عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م مدتها أربعون عامًا للحقوق الأساسية المحتملة في حركة الملاحة(٣)، ثم قامت بعدها جمهورية بيزا فأرسلت سفيرها عام ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م وعقد مع السلطان الحفصي معاهدة تجارية مدتها ثلاثون سنة وقد

---

(١) رسائل موحدية، ج١، ص٢٥٦.

(٢) سلفاتوري بونو، مرجع سابق، ص٣٢١.

عبد الناصر جبار، مرجع سابق ، ص ١٧٨ .

(3) Mas Latrie , Ibid , P 83 .

نصت هذه المعاهدة على إعطاء امتيازات تجارية للسلطة في تونس وجميع مناطق الجمهورية وتوابعها شاملة السندات المالية المتنوعة[١] ثم جاء دور جنوة التي أرسلت هي الأخرى سفيرها عام ٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦م لعقد معاهدة مع السلطان الحفصي أبى زكريا مدتها عشر سنوات[٢] فكان بذلك العهد الحفصى فاتحة خير في تاريخ العلاقات التجارية مع المسيحيين. فمنذ عهد أبى زكريا تملكت الشعوب المسيحية العديد من المؤسسات التجارية الدائمة في إفريقية ، يصونها ويرعاها القناصلة ليست فقط لحماية مصالحهم ولكن أيضاً لإدارة مختلف شئونهم .

وتجدر الإشارة إلي أن تلك الاتفاقيات كانت على العموم متشابهة في خطوطها العامة على الأقل ؛ وهي تشتمل على زهاء العشرين مادة بالنسبة لكل اتفاقية، وتمثل نماذج لجميع الوثائق الدبلوماسية المميزة لتاريخ العلاقات الخارجية خلال القرون الثلاث الأخيرة من العصر الوسيط[٣].

وقد لوحظ أن تلك التشريعات من القواعد القانونية والأنظمة والأساليب التقنية التجارية التي تحددت في تلك المعاهدات كانت في جملتها مستوحاة من معايير متسامحة ومبادئ قانونية متقدمة لم تطبق حتى في العلاقات بين الدول الأوروبية ذاتها[٤]، فقد احتوت على ضمانات كفلت للمسيحيين كحماية الأشخاص والممتلكات وضمان الأمن المتبادل للملاحة وحرية تصريف النشاط التجاري دون إعاقة وتحديد مبادئ تعاطي التجارة

(1) Mas Latrie , Ibid , P 83 .
(2) Mas Latrie , Ibid , P 83 .

من الملاحظ أن السلطان أبا زكريا قد منح الجنوبيين امتيازات أقل من الامتيازات الممنوحة لمنافسيهم الآخرين في إيطاليا، ويبدو أن تطبيق الاتفاق المبرم معهم قد استدعى وقتاً طويلاً، إذا أرسلت جنوة سنة ١٢٣٢م خمس سفن حربية إثر الحوادث التي كانت تهدد مواطنيها في تونس، وبعد ذلك بثلاث سنوات على إثر تذليلها للصعوبات التي كانت واجهتها في المغرب الأقصى بمدينة سبتة حاولت جنوة الحصول على اتفاق مع تونس، فوجهت سفارة لكنها اضطرت للعدول عن السفر بسبب ظهور عاصفة ولم يتم إبرام الاتفاق إلا في السنة الموالية ١٢٣٦م، انظر: برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٥٧.

(3) Mas Latrie , Ibid , P 83 .
(4) Mas Latrie , Ibid , P 83-84 .

(١) برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٥٦.
(٢) سلفاتوري بونو، مرجع سابق، ص٣٢٥.

، واستقرار النصارى في دار الإسلام واحتوت على مبادئ متحررة ومتساهله ومشجعه وبذلك كفلت تلك المعاهدات شروطاً أساسية لراحة كلا الطرفين[١].

كاستخلاص أداء الْعُشْر أو نصف العشر باعتباره ضريبة أساسية على أغلبية البضائع والبيع بالمزاد العلني أو بواسطة السماسرة[٢].

وأن للدول الأوربية الحق في تعيين قناصل في المدن المغربية يتمتعون بسلطة قضائية على رعاياهم، وقد منحت المعاهدات في الغالب (الجمهوريات الإيطالية) الإذن بالحصول على فندق خاص وتشير المعاهدات أيضاً إلى إدانة القرصنة والالتزام المتبادل بملاحقتها وقمعها بالقوة وكذلك تقديم المعونة وحماية الغرقى، واحترام السفن والسلع المنكوبة[٣].

وقد استمرت العلاقات التجارية بين بني حفص والجمهوريات الإيطالية نشطة،وتسير بصورة مزدهرة ومثمرة طيلة عهد السلطان أبي زكريا الحفصي؛ وكانت الحركة التجارية البحرية في كل من تونس وبجاية أشد كثافةً من الحركة في الجمهوريات الإيطالية التجارية[٤].

وبعد وفاة السلطان أبى زكريا سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م وخلفه ابنه أبو عبد الله المستنصر[٥]، بادرت الجمهورية الإيطالية الثلاث بإرسال سفرائها إلى مدينة تونس لتغيير معاهداتها وعقد معاهدات أخرى مع السلطان الجديد، فأرسلت جمهورية جنوة سفيرها

---

(1) Mas Latrie , Ibid , P 84 .

(2) Mas Latrie , Ibid , P 85 .

(٣) برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٥٦.

(٤) برنشفيك، المرجع نفسه، ج١، الصفحة نفسها.

(٣) سلفاتوري، بونو، مرجع سابق، ص٣٢٥. ويشير (Mas Latrie) أن قانون إنقاذ غرقى السفن قد تم بالفعل تطبيقه على أراضى الدولة الحفصية في الجزائر وطرابلس وقد طور السلطان الحفصى أبو زكريا وخلافه من بعده تلك الإتفاقيات في تطبيق جميع البنود الخاصة بالغرق والغرقى . أما إذا تعرضت إحدى السفن المسيحية لعاصفة تقذف بها نحو الساحل الخاص بالحفصيين ، فيجب عليهم إنقاذها وحمايتها ولو أن أحد أفراد طاقمها لقى حتفه فيتم إخراجه ويعود مع من تم إنقاذهم من الموت ، وفي حالة غرق جميع أفراد لسفينة يستلزم على هيئة الجمرك إنتشالهم جميعاً وتوصيلهم وبرسالة من جلالة الملك موضحاً بها أسماء الأشخاص وكذلك مقتنياتهم الذى تم إنقاذها وتجميعها . Mas Latrie , Ibid , P 97 .

(٤) برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٦٤.

(٥) الزركشي، تاريخ الدولتين، ص٦٩.

الجنوي "غليوم شيبو" الذي عقد مع السلطان المستنصر الحفصي معاهدة جديدة في عام٦٤٨هـ/١٢٥٠م وقد احتوت المعاهدة على شروط جديدة للتجارة والسلام [١].

وأرسلت جمهورية البندقية السفير "فيليب جيلياني" وعقد مع ناظر ديوان تونس نيابة عن السلطان سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م معاهدة تجارية جديدة مدتها أربعون سنة[٢].

أما جمهورية بيزة فقد ترثيت حتى انتهت مدة المعاهدة التي عقدتها سنة ١٢٣٤م مع السلطان الراحل أبي زكريا الحفصي، وعندئذ أرسلت إلى مدينة تونس السفير البيزي "بارنت فسكنتي" فعقد مع السلطان المستنصر الحفصي سنة ١٢٦٤م معاهدة تجارية جديدة مدتها عشرون عاماً[٣] وقد تضمنت تلك المعاهدات تعهدات عامة للمواقف السابقة وكذلك اختصاصات القناصلة وملكية الكنائس كما تناولت ردع القراصنة وردعهم[٤] .

وفي سنة ٦٦٨هـ- ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م قاد لويس التاسع ملك فرنسا الحملة الصليبية الثامنة والتي قصدت هذه المرة الديار التونسية؛ ومن الطبيعي جدًا أن يعكر هذا الحدث الخطير صفو العلاقات التجارية بين الجمهوريات الإيطالية وبين الحفصيين، بل أدى إلى انقطاعها وإسقاط كافة المعاهدات القائمة بينهما . فقد توتر الساحل الإفريقى بأكمله نتيجة تلك الحملة وظل الرعايا المسيحين أغراباً في جو مشحون بالحرب والحذر والخوف[٥].

إلا أن السلطان المستنصر الحفصي[*] قد تمكن طوال فترة الحملة الصليبية بفضل رباطة جأشه، واعتداله من حماية التجار الأوربيين الموجودين بتونس من غضب الجماهير، ولاسيما الجنويون الذين وضع أسطولهم في خدمة العدو، وقد ساعد ذلك كثيراً

---

(1) Mas Latrie , Ibid , P 129 .
(2) Mas Latrie , Ibid , P 129 .
(3) Mas Latrie , Ibid , P 129 .
(4) Mas Latrie , Ibid , P 130 .
(5) Mas Latrie , Ibid , P 140 .

(*) يشير ابن خلدون إلي استعدادات المستنصر الحفصى للتصدى للحملة الصليبية فيذكر أنه "نادى في الناس بالنذير بالعدو والإستعداد له ، والنفير إلي أقرب المدائن . وبعث الشوانى والسفن للإستطلاع والتعرف على تحركات الصليبين قبل وصولهم وأمر في سائر عمالاته بالإستكثار من العدة ، وأرسل بإصلاح الأسوار وإختزان الحبوب" . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٢٩٢ .

علـى تطبيـع العلاقـات مـع النصـارى، حيـث تـمّ خـلال السـنوات التاليـة تجديـد بعـض الاتفاقيات التجارية بين الطرفين[١].

وبذلك نلاحظ أن الحملة الصليبية على تونس لم تكن سوى عاصفة وقتيه عقبتها فترات من الهدوء والسكينة فبمجرد انتهاء الخطر عاد التجار من جديد يتمتعون بحريتهم في نشاطهم التجارى[٢] .

فبمجرد انتهاء الحملة التي منيت بفشل ذريع وعودة الهدوء إلى إفريقية بادرت الجمهوريات الإيطالية بالاتصال بأبي عبد الله المستنصر السلطان الحفصي لتجديد مواثيقها معه واستئناف التجارة في بلاده[٣]، وكانت جمهورية البندقية هي السبّاقة في هذا المضمار، فأرسلت إلى مدينة تونس سفيرها؛ فأبرم مع السلطان الحفصي أبي عبد الله المستنصر في شهر ذى الحجة ٦٧٠ هـ/ يونية عام ١٢٧١م معاهدة تجارية جديدة مدتها أربعون سنة[٤]، ثم تبعتها في شهر نوفمبر من العام التالي جمهورية جنوة حيث بعثت السفير الجنوي فعقد مع ناظر ديوان تونس وقاضي قضاتها، نائبين عن السلطان الحفصي المستنصر معاهدة تجارية مماثلة في شروطها للمعاهدة السابقة ومدتها أيضًا عشر سنوات[٥].

أما جمهورية بيزا فلا توجد لها معاهدة ترجع إلى هذه الفترة التي أعقبت انتهاء الحملة الصليبية مباشرة.

ولكن من الواضح أنها استأنفت نشاطها التجاري في إفريقية والدليل على ذلك أن أهالي بيزة الذين غادر وإبجاية خوفاً من غضب السكان المسلمين قد رجعوا إليها منذ سنة ١٢٧١م وكانوا النصارى الوحيدين تقريباً الموجودين بتلك المدينة آنذاك[٦] [٧]، ويبدو أن

---

(١) روبار برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٩٤.

(٢) ح . هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، تعريب : أحمد رضا محمد رضا ، ج٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٦١ – ٦٢ .

(3) Mas Latrie , Ibid , P 140 .
(4) Mas Latrie , Ibid , P 140 .
(5) Mas Latrie , Ibid , P 140 .
(6) Mas Latrie , Ibid , P 140 .

(٧) برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٩٦.

العلاقات التجارية بين الجمهوريات الإيطالية وبني حفص ظلت مستمرة طوال الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثالثَ عَشَرَ الميلادي التي أعقبت الحملة الصليبية على إفريقية، فلم يحدث ما يستدعي تغيير تلك المعاهدات رغم حدوث بعض المتاعب والمضايقات التي تعرض لها في سنة ١٢٨٧م بعض التجار الجنوبيين في السواحل التونسية والطرابلسية؛ وقد رفعت حكومة جنوة بعض الشكاوي للحكومة التونسية وتمّ عرضها على السلطان الحفصي أبو حفص عمر (٦٨٣- ٦٩٤هـ/ ١٢٨٤- ١٢٩٥م)[١].

الذي نظر بدوره في أمر تلك الشكاوي، وتمّ في يونيه من عام ١٢٨٧م عقد اجتماع رسمي في قصر السلطان ضمّ قناصل الدول وناظر الديوان وكبار موظفيه ورجال الدين المسيحي، وفيه تمّ التوقيع على عهد تضمن بعض القواعد الجديدة للعلاقات بين جمهورية جنوة والحفصيين[٢].

وقد ظلت العلاقات التجارية مع جمهورية البندقية مستمرةً ، رغم حدوث بعض التوترات إلا أنها سويت عندما عقد السفير البندقي مع السلطان الحفصي أبي عصيدة محمد (٦٩٣- ٧٠٩هـ/ ١٢٩٤- ١٣٠٩م)[٣]، معاهدة تجارية جديدة عام ١٣٠٥م مدتها عشر سنوات[٤] وفي سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م وقعت بين الأمراء الحفصيين حروب داخلية انتهت بتولية أبي زكريا اللحياني (٧١١- ٧١٧هـ/ ١٣١١- ١٣١٧م)[٥] سلطاناً على تونس في حين بويع الأمير أبو بكر المتوكل في قسنطينة وبسط نفوذه على بجاية وغيرها من ثغور القسم الغربي من المغرب الأوسط[٦].

وفي خضم تلك الأحداث بادرت الجمهوريات الإيطالية بالاتصال بالحكومة الحفصية الجديدة لتوثيق علاقاتها التجارية.

---

(١) الزركشي، مصدر سابق، ص١٠٥.

(2) Mas Latrie , Ibid , P 125-127 .

(٣) الزركشي، مصدر سابق، ص١١١.

(4) Mas Latrie , Ibid , P 211-215 .

(٥) الزركشي، مصدر سابق، ص١٢٩.

(٦) ابن خلدون، مصدر سابق، ج٦، ص٣٢٠- ٣٢٨.

فأرسلت جمهورية بيزا إلى السلطان أبي زكريا اللّحياني سفارة عقدت معه في عام ٧١٣هـ/١٣١٣م معاهدة تجارية جديدة مدتها عشر سنوات ، تضمنت الخطوط العرضية لضمان المصالح التجارية للطرفين من أمور البيع والشراء والإقامة والأداءات الجمركية وغيرها[١]، وبعد ذلك بأربع سنوات أرسلت جمهورية البندقية بدورها إلى مدينة تونس سفيرها البندقي (ميكاليتوميكايلي) فعقد مع السلطان الحفصي عام ١٣١٧م معاهدة تجارية جديدة لمدة خَمْسَ عَشْرةَ عاماً[٢] على نفس شروط معاهدة سنة ١٣٠٥ السابقة.

وقد ظلت العلاقة طيبة بين الطرفين، إلا أنه في عام ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م زحف السلطان المريني أبو عنان فارس بن الحسن علي بلاد الحفصيين واستولى على ثغور المغرب الأوسط ثم دخل تونس بعد أن غادرها السلطان الحفصي أبو اسحق إبراهيم إلى مدينة المهدية[٣].

وفي خضم هذه الأحداث الجديدة عملت الجمهوريات الإيطالية على تأمين مصالحها في بلاد الحفصيين ظناً منها أن العهد المريني سوف يطول في تونس، فأرسلت جمهورية بيزا سفيرها المدعو "بطرس باربا" وعقد مع السلطان المريني أبي عنان فارس في أبريل من عام ٧٥٦ هـ/ ١٣٥٨م معاهدةً تجاريةً اعترف بها السلطان المريني بجميع مصالح البيزيين في ثغور شمال إفريقيا الداخلة في دولته[٤].

غير أن العهد المريني لم يطل أمده في إفريقية حيث سَرْعَانَ ما تمكنت جيوش الحفصيين من طرد بني مرين ، وإعادة السلطان الحفصي إلى عرشه[٥].

ومع عودة السلطان الحفصي إلى عرشه أرسلت جمهورية بيزا له خطاباً عامَ ١٣٦٤م عَّبرت له عن مشاعرهم الطيبة تجاهه ، ووقوفهم عند أوامر السلطان ونواهيه،

---

(1) Michele Amari , Ibid , P 86-97 .
(2) Mas Latri , Ibid , P 216-220 .
(٣) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٧١- ٣٧٢. ابن الشماع ، مصدر سابق ، ص ٩٥-٩٦ .
(4) Michele Amari , Ibid , P 309-312 .
(٥) ابن خلدون، مصدر سابق، ج٦، ص٣٧١- ٣٧٦.

فرد عليهم السلطان برسالة طمأنهم فيها عن أحوال البيزيين في تونس وأوضح لهم أن الحكومة الحفصية جادة في رعايتهم وحمايتهم وتمشية أحوالهم على العدل والكرامة[١].

ويبدو أن الجمهورية الإيطالية كانت حريصة تمام الحرص على ضمان مصالحها التجارية في بلاد إفريقية حتى في ظل الانقسامات الداخلية لتلك البلاد، فقد كانت مدينة قسنطينة مستقلة بشؤونها تحت سلطة حاكمها الأمير الحفصي أبي العباس أحمد[٢].

غَيْرَ أن هذا الأمير استطاع في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م الاستيلاء على مدينة بجاية واتخذها مقراً له وأعلن نفسه سلطاناً على الثغور الغربية[٣]، وعندئذ أرسلت إليه جمهورية بيزا السفير "فيليب دلياط" وطلب من أبي العباس أحمد المعاملة الطيبة لمن يفد إلى بلاده من تجار بيزا فرّد عليه الأمير الحفصي بخطاب طمأن فيه الأمير الحفصي التجار البيزيين على أموالهم وأرواحهم ، وأنهم سَيُعَامَلُونَ معاملة حسنةً قائمة على العدل والإحسان والإكرام.

أما جمهورية جنوة فإن تعرضَ سواحلها لبعض اعتداءات القراصنة المسلمين جعلها تتخذ ردَّ فعٍل معاكس ، فسعت في عام ١٣٨٨م لتشكيل حلف إيطالي للرد على اعتداءات هؤلاء القراصنة ، وضرب مراكزهم في شمال إفريقيا[٤].

غير أن جمهوريتي البندقية وبيزا قد امتنعتا عن المشاركة في الحملة ضد إفريقية ، خوفاً على مصالحهما التجارية في المنطقة، فبعد أن وعدت الأولى بتقديم خمس سفن حربية تراجعت عن قرارها للسبب الذي ذكرناه ولم تجد جمهورية جنوة أمامها سوى صقلية التي لم تكن مصالحها التجارية في شمال إفريقيا في أهمية مصالح جمهوريتي بيزا والبندقية بالإضافة إلى أنها كانت لها الرغبة في العودة لاحتلال جزيرة جِرْبة[٥].

---

[١] سلطان سعد، مرجع سابق، ص١٥٣.

[٢] ابن خلدون، مصدر سابق، ج٦، ص٣٧١- ٣٧٦.

[٣] ابن خلدون، المصدر نفسه، ج٦، ص٣٧٨.

[٤] برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٩.

[٥] كان الصقليون قد احتلوا جزيرة جربة سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م وأجلوا عنها عام ٧٤٠هـ/ ١٣٣٥ م. ابن خلدون، مصدر سابق، ج٦، ص٣٠٥- ٣٠٦.

ولذلك رحبت بالاشتراك في الحملة ، وتقدمت بثلاث سفن حربية كبيرة وأعدت جمهورية جنوة من جانبها اثنتى عشرة سفينةً ، وتوجهت السفن الجنوبية والصقلية إلى جزر خليج قابس فاحتلتها ونهبت منها نهباً عظيماً، ثم تنازلت جمهورية جِنوة عن حقها في الغزو مقابل أخذ جزية حربية مقدارها ست وثلاثون أفرنتياً من الذهب، إلا أن الصقليين رفضوا الجلاء عن هذه الجزيرة وعين الأميرال "فنغروي دي كليرمونت" حاكماً عليها باسم الملكة "ماري" ملكة صقلية[١].

ويبدو أن الجنوبيين لم يقتنعوا بتلك النتيجة الهزيلة التي اقتصرت على مكافأة مالية فقط، خاصة وأنها لم تنه من تحرش القراصنة المسلمين على سواحلها[٢] ولذلك وبعد عامين من حملتها الأولى أي في عام ١٣٩٠م فكرت جمهورية جنوة في غزوة أخرى لإفريقية بمساعدة "شارل السادس" ملك فرنسا، وبالفعل تم تشكيل حلف جنوي فرنسي ووصلت سفن الحلفاء إلى ميناء المهدية في شهر يونية ١٣٩٠م وحاولوا الاستيلاء عليها، إلا أن استماتة أهل المدينة في الدفاع عنها أخفق كل محاولاتهم[٣].

فشل الجنويون في محاولتهم للاستيلاء على المهدية حاولوا استعادة علاقاتهم التجارية مع السلطان الحفصي الذي أظهر بدوره ترحيباً ، ولأن إقليم طرابلس كان قد استقل تحت حكم بني ثابت ورفعوا راية العِصْيان على الحكام الحفصيين، وامتنعوا عن دفع الجزية السنوية لهم[٤].

فقد رفض سلطان تونس الحفصي القائم آنذاك وهو أبو اسحق إبراهيم الثاني دفع أي مبلغ مالي إلا أن أبا العباس أحمد بن مكي صاحب قابس قدم ما عنده من المال فأمكنه النصارى من طرابلس فملكها[٥].

فأصبحت إمارته تضم طرابلس وقابس وصفاقس وجزر خليج قابس[١]، وفي ظل هذا الوضع الجديد أرسلت جمهورية البندقية إلى الأمير أبي العباس أحمد بن مكي في

---

[1] Mas Latri , Ibid , P 160.

[٢] برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٢٣٠.

[٣] ابن خلدون، مصدر سابق، ج٦، ص٤٠٠.

[٤] ابن خلدون، المصدر نفسه، ج٦، ص٣٦٩.

[٥] ابن خلدون، المصدر نفسه، نفس الصفحة.

طرابلس سفيرها "برنا بوجيز الدو" فعقد معه في يونية من سنة ١٣٥٦م معاهدة تجارية وضعت فيها أسس العلاقات بين جمهورية البندقية وإمارة طرابلس(٢).

غير أن الروح العدائية التي كان يكنّها أهالي مدينة طرابلس ضد أولئك النصارى منذ الهجوم الجنوي عليها عام ١٣٥٥م قد تسبب في متاعب كثرة للتجار الأوربيين في المدينة، ويبدو أن حاكمها أبو العباس أحمد بن كي وابنه من بعده عبد الرحمن لم يستطيعا أن يكباحا جماح تلك المضايقات للتجار النصارى من قبل الأهالي غير أن الوضع السياسي في المدينة سرعان ما تغير عندما عاد آل ثابت للحكم في المدنية عام ١٣٦٩م(*).

وأصبح التجار الأوربيون وعلى رأسهم البنادقة في عهد بني ثابت يلاقون في مدينة طرابلس وما يجاورها من مدن إفريقية وخاصة قابس وجربة نفس المعاملة الطيبة التي يعاملهم بها الحفصيون في تونس وبجاية وغيرهما من مدن إفريقية(٣)، ومع بداية القرن الخامِسَ عَشَرَ سعت الجمهوريات الإيطالية إلى الحفاظ على أواصر علاقاتها ومصالحها التجارية في بلاد إفريقية ، فقد جدّدت البندقية عام ١٤٠١م معاهدة سنة ١٣٩١م بعد انتهاء مدتها(٤).

وفي أوائل هذا القرن (الخامس عشر الميلادي) طرأت تغييرات سياسية مهمة أدت إلى إقصاء جمهورية بيزا من العلاقات الخارجية لفائدة جارتها ومنافستها جمهورية

---

(١) ابن خلدون، نفس المصدر أعلاه، الصفحة نفسها.

(2) Mas Latri , Ibid , P 222-227.

(*) وصل إلي مدينة طرابلس عام ١٣٦٩م في أسطول من الإسكندرية أبو بكر محمد بن ثابت وهو أحد أفراد أسرة بني ثابت الذين هاجروا إلى الإسكندرية على أثر استيلاء الجنوبيين على طرابلس واستطاع بمساعدة العرب القاطنين في تلك الجهات أن يطرد عبد الرحمن بن مكي من طرابلس ويستعيد عرش أبائه، وقد رحب الحفصيين بعودة بني ثابت بعد أن تعهدوا بإرسال الجزية السنوية لهم، انظر: ابن خلدون، مصدر سابق، ج٦، ص٤٢٣.

(3) Mas Latri , Ibid , P 227.

(٤) برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٢٤٩.

فلورنسا[**] التي عقدت مع بني حفص في عهد السلطان الحفصي "أبي فارس عبد العزيز ٧٩٦- ٨٣٧هـ/ ١٣٩٤- ١٤٣٤م"[١]، معاهدة تجارية عام ١٤٢١م تضمنت إثنين وعشرين بنداً أوضحت حقوق وواجبات التجار البيزيين في إفريقية،ومعاملاتهم التجارية فى الموانئ[٢]، وكذلك دعت جمهورية جنوة عام ١٤٣٣م قنصلها القائم آنذاك "أندي دي ماري" إلى عقد معاهدة تجارية مع السلطان الحفصي في تونس[٣].

وعلى أية حال فقد استمرت العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين إفريقية والجمهوريات الإيطالية بدون أي تغيير يستحق الذكر خلال العهد الحفصي رغم كل التوترات التي كانت تحدث بين الطرفين.

ورغم كثرة المتاعب والمضايقات التي كان يلقاها التجار النصارى في الساحل الحفصي من تحرشات القراصنة، فكان كثيراً ما يتم التغاضي عنها من الطرف الآخر خوفاً على مصالحهم الاقتصادية هناك؛ وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على مقدار المكاسب المادية التي يتحصل عليها التجار النَّصارى في البلاد الحفصية.

وعموماً فإن العلاقات قد استمرت تسير بصورة طبيعية في إطار المعاهدات التي كانت توفر أكبر قدرٍ ممكنٍ من الأمن والأمان ، بالتبادل التجارى ، وحركة النقل البحرى بمختلف أغراضها حتى أواخر القرن الخامسَ عَشَرَ الميلادى حينما بدأت منطقة البحر المتوسط تشهد سلسلةً من التغيرات الجذرية بسبب أفول نجم القوى القديمة في البحر المتوسط وهى بيزنطة ودولة المماليك في مصر والشام والدولة الحفصية في تونس والجمهوريات الإيطالية .

(**) يشير (Mas Latri) إلي تواجد جمهورية بيزا على مسرح العلاقات التجارية مع الحفصيين وذلك ضمن إتحاد مصالحها مع جمهورية فلورنسا في أواسط القرن الخامس عشر الميلادى وذلك ضمن معاهدة سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥ م حيث كان لهم محاسبون ومندوبون في الجمرك التونسى. Mas Latrie , Ibid , P 192.

(١) الزركشي، مصدر سابق، ص٢٣١.

(2) Michele Amari, Ibid , P 137-149. برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٢٤٩ .

(٣) برنشفيك، المرجع نفسه، ج١، ص٢٦٦.

وظهور قوى جديدة في الإمبراطورية العثمانية في الشرق ودولة إسبانيا الموحدة في الغرب[١].

ذلك أن الجمهوريات الإيطالية فقدت مواقعها التجارية في كل من بحر إيجة والبحر الأسود ومدينة القسطنطينية وذلك بعد أن تمكن القائد العثمانى محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م من فتح القسطنطينية والقضاء نهائياً على الدولة البيزنطية ، وهذا بالتأكيد كان له أثره في انحسار النفوذ التجارى للجمهوريات الإيطالية وضعف قوتها الاقتصادية في كل الجهات.

وبالنسبة للدولة الحفصية فقد دخلت مرحلةً من الضعف والتفكك على إثر وفاة السلطان أبو عمر عثمان (٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م) ولم تعد السلطة المركزية تملك أى نفوذ على الأقاليم الداخلية البعيدة بالإضافة إلي عجزها عن توفير الأمن على سواحلها وفي موانئها التي أصبح معظمها مهدداً بالاحتلال من طرف القوى الأجنبية وخاصةً إسبانيا التي كانت تلاحق المسلمين الفارين من بطشها في الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م الذين اختاروا عددًا كبيرًا منهم تونس موطناً جديداً له[٢].

فأصبح البحر المتوسط يواجه إفلاساً خطيراً جداً بسبب نتائج الكشوف الجغرافية، وقبل أن ينتهي القرن الخامسَ عَشَرَ عملت هذه الاكتشافات على تحويل الحركة التجارية من اتجاه الشرق إلى المحيط الأطلسي[٣]، جاء اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من قبل الأوروبين ليأذن بقرب نهاية الحركة التجارية في البحر المتوسط على أن حركة التبادل التجاري بين إيطاليا ودول المغرب بصفة عامة ؛ بالرغم من فقدان أهميتها بالنسبة إلى حجم التبادل العالمي، وبسبب انتقال السيطرة التجارية في المتوسط الغربي إلى أيادٍ أخرى[*] ، فقد تواصلت حتى تقلّب وبمظاهر يحسن اعتبارها.

---

[١] عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢٣٢ –٢٣٣ .

[٢]عبد الناصر جبار ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٣ .

[٣] سلفاتوري بونو، مرجع سابق، ص٣٣٠.

[*] الأسبان والبرتغال.

الصادرات والواردات :-

أما بخصوص البضائع التجارية المتبادلة بين الجمهوريات الإيطالية وبين بلاد إفريقية وطرابلس الغرب فقد تنوعت.

فكانت أهم صادرات بلاد إفريقية وطرابلس الغرب إلى الجمهوريات الإيطالية أولاً وقبل كل شيء تتركز على النتاج النوعي للنشاط المحلي، وخاصة مواد تربية الحيوان والزراعة؛ ومن الصادرات المهمة الصوف والجلود، وكان يصدر في الغالب من طرابلس وتونس وبجاية وأغلب المشترين من بيزا وجنوة(١).

كما كان قصب السكر والذي ازدهرت زراعته بين القرن العاشر ، والثالث عشر الميلادي في المنطقة الساحلية من خليج قابس من الصادرات المهمة إلى الجمهوريات الإيطالية(٢).

كما تولى البنادقة شراء الملح من طرابلس وتونس بامتياز خاص لهم دون غيرهم بموجب معاهدات خاصة، وقد كان يحمل من قصر صالح بالقرب من طرابلس وجزيرة جربة، ويصدر إلى جنوة والمدن الأوروبية الأخرى(٣)، وكان يصدر من بجاية كذلك لحاء يسمى "لحاء بجاية" يحتوي على نسبة جيدة من الحامض الحفصي، تستفيد منه صناعة الدباغة الإيطالية(٤).

ويصدر الزيت الصفاقسي إلى البلاد الأوربية ومن ضمنها إيطاليا(٥) ، وتصدر الماشية إلى جنوة(٦)، كذلك تم تصدير التمور من بلاد المغرب ومن ضمنها بلا شك إفريقية على جنوب إيطاليا(٧).

---

(١) سلفاتوري بونو، مرجع سابق، ص٣٢٦.
(1) Mas Latrie, Ibid , P 216.

(٢) سلفاتوري بونو، المرجع نفسه، ص٣٢٧.
(2) Mas Latrie, Ibid , P 218.

(٣) التجاني، الرحلة، ص٢٠٦– ٢٠٧.
(3) Mas Latrie, Ibid , P 217.

(٤) سلفاتوري بونو، مرجع سابق، نفس الصفحة.
(4) Mas Latrie, Ibid , P 217.

(٥) البكري، مصدر سابق، ص٢٠، الإدريسي، مصدر سابق، ص٢٨١، الاستبصار، ص١١٦– ١١٧.

(٦) عز الدين موسى، مرجع سابق، ص٣٢٧.

(٧) البكري، مصدر سابق، ص٢٠.

كما لعب التجار المغاربة ومن ضمنهم أهالي تونس وطرابلس دور الوسط التجاري في تصدير الإبزرة وتوابل الشرق[١]، وحريره ومصنوعاته[٢] كذلك تم تصدير الذهب الذي كان يَردُ عبر شبكة من طرق القوافل في جنوب الصحراء فلعب فيها التجار المغاربة دورَ الوسيط في ترويجه نحو أوروبة[٣]، بالإضافة إلى كميات متواضعة من العاج[٤]، كذلك تم تم تصدير البلح من طرابلس إلى بيزة والبندقية، والعسل والشمع من تونس ، وبونة ، وقسنطينة ، وبجاية إلى جنوا ، وبيزة ، والبندقية[٥]، والأسماك المجففة وأسماك التونة من سوسة وقد احتكر الجنويون تجارتها[٦].

أما أهم واردات بلاد إفريقية وطرابلس الغرب من الجمهوريات الإيطالية فكان النحاس وكان يأتى من بيزة وجنوة بكميات كبيرة ويصدر جزء منه إلى السودان[٧].

ويأتي بعد ذلك الحديد والقصدير[٨]، وتمّ استيراد السيوف من بيزة[٩] كما تمّ استيراد القطنّ والكتان والحرير من جنوة وبيزا أو عن طريقها إلى المشرق[١٠].

وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجري كثر استيراد الأقمشة من جنوة كذلك كان الخشب من أهم المستوردات من جنوب إيطاليا نحو المغرب الخام منه والمنشور على حد سواء[١١]، ويستخدم أكثره من صناعة وتصليح السفن، فكان خشب الصنوبر يستورد من الغرب المسيحي عن طريق ميناء أمالقي وميناء البندقية[١٢]، وكانت

---

[١] نجاة باشا، التجارة في المغرب الإسلامي، ص٦٤.

[٢] ارشيبالد، القوى البحرية والتجارية في غرب المتوسط، ص٢٠٢.

[3] Mas Latrie, Ibid , P 222 .

[١٠]سلفاتوري بونو، مرجع سابق، ص٣٢٧.

[4] Mas Latrie, Ibid , P 223 .

[١] سلفاتوري بونو، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[5] Mas Latrie, Ibid , P 218 .

[6] Mas Latrie, Ibid , P 216 .

[7] Mas Latrie, Ibid , P 210 .

[٤] سلفاتوري بونو، مرجع سابق، ص٣٢٨.

[8] Mas Latrie, Ibid , P 210 .

[٥] نجاة باشا، مرجع سابق، ص٦٦.

[٩] الزهري، كتاب الجغرافيا، ص٧٨.

[١٠] الزهري، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[١١] سفاتوري بونو، مرجع سابق، ص٣٢٨.

[12] Mas Latrie, Ibid , P 209 .

[٩]نجاة باشا، مرجع سابق، ص٦٦.

السلع الواردة إلى تونس وإفريقية من التوابل بجميع أنواعها ، وتأتي هذه التوابل عن طريق سفن جنوة وبيزا والبندقية والتي تحملها من موانئ أوروبة أو من مستودع التوابل في الهند أو من مصر [١] وكان يتم أيضاً استيراد مواد الطلاء من بيزا وجنوة والبندقية[٢] وتتمثل في في أحجار الشبه ، وعنصر الكبريت ، ويتم استيراد الخرز والأكواب الزجاجية من البندقية[٣].

كذلك يوجد نوع آخر من الواردات رغم تحريم الإسلام لها، وهي الخمور وقد استوردت بكميات كبيرة من جنوة وبيزا إلى تونس وبجاية والمدن التي بها فنادق المسيحيين والتي يسمح فيها بشرب الخمر ، وبيعه جملةً وقطاعيًا بإذن من الملك ومراقبة وكلاء التجار [٤].

العلاقات مع صقلية[*]:

ارتبطت جزيرة صقلية بعلاقات تجارية واسعة مع بلاد إفريقية وطرابلس الغرب إبّانَ الحكم الموحدي والحفصي، ولعل أهم ما كان يشجع ذلك الارتباط هو الموقع الجغرافي للجزيرة، الذي شكّل مثلث تكاد تتساوى أضلاعه ، ويفصله عن البلاد التونسية معبر أطلق عليه معبر صَقَلّيّة وعرضه حوالي ١٢٠ كيلو متر[٥]، ويصفها ابن حوقل[٦] فيقول : فيقول : " وهى جزيرة على شكل مثلث متساوى الساقين زاويته الحادة من غربى الجزيرة طولها سبعة أيام في أربعة أيام . وهى في شرقي الأندلس في لج البحر وتحاذيها من بلاد المغرب بلاد إفريقية وباجة وطبرقة إلي مرسى الخزر " ، ومن الطبيعي أن طرق التجارة بين صقلية وغيرها من الدول ومنها المغرب كانت قاصرة على الطرق البحرية بحكم كونها

---

[١] نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٠٥.

[2] Mas Latrie, Ibid , P 211 .
[3] Mas Latrie, Ibid , P 212-214 .
[4] Mas Latrie, Ibid , P 213 .

[*] " جزيرة في قطعة من البحر الشامي بينهما وبين أقرب برّ من مالطا ثمانون ميلاً، افتتحها المسلمون في صدر الإسلام وغزاها أسد بن الفرات الفقيه أميراً قاضياً سنة اثنتي عشر ومائتين هجرية في عهد الأغالبة، وهي كثيرة الزرع والضرع والفواكه" . الحميري، الروض المعطار، ص٣٦٦-٣٦٧.

[٥] أحمد توفيق المدني،المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، دار الفرجاني، طرابلس، ط٢، ١٩٩٦، ص٩.

[٦] مصدر سابق ، ص ١١٣ .

جزيرة في وسط البحر المتوسط ومما سهل عملية التبادل التجاري بين صقلية والمغرب بصفة عامة والبلاد التونسية بصفة أخص أنهما متوازيان ومتقاربان فبينهما يوم وليلة(١).

وقد نشط التبادل التجاري بين صقلية وشمال إفريقيا منذ الفتح الإسلامي للجزيرة في العهد الأغلبي، حيث كان للسيادة العربية البحرية على البحر المتوسط آثار عظيمة على الحياة الاقتصادية والتجارة في كل أقاليمه، إلا أن أول المنتفعين من هذا التحول هم سكان صقلية ، وسكان شمال إفريقية بصفة خاصة، ونتج عن تلك السيادة زيادة أهمية الدور الذي قام به سكان شمال إفريقية كوسطاء في تجارة المتوسط ، الذين تحكموا في نقل التجارة بين الشرق والغرب(٢)، وقام مسلموا صقلية وسكان المغرب بنقل التجارة الدولية في البحر المتوسط وكثيراً ما كان عرب صقلية يرسلون سفنهم إلى المهدية وسوسة في المغرب(٣).

كذلك في العصر الفاطمي كثيراً ما كان تجاُر المغرب ومنهم التونسيون والطرابلسيون، ما يمارسون التجارة مع صقلية بواسطة وكلاء لهم فيها، وكان أمير صقلية يكلف بتسهيل عملية شراء السلع المشتراة من الجزيرة(٤).

ومن المراكز التجارية المعروفة بين صقلية والمغرب مرسى طرابنش في الساحل الجنوبي وهو صالح لرسو السفن، بسبب موجه الهادي فتكون السفن فيه آمنة إذا اشتد الريح، والسفر منه إلى تونس وإليه لا يتعطل شتاءً ولا صيفًا(٥)، ومرسى الشاقة في صقلية صقلية معمور والسفر إليه من إفريقية وطرابلس لا ينقطع(٦)، ومرسى على الذي يكثر

---

(١) ابن جبير ، الرحلة، ص٢٦٣.

(٢) لويس أرشيبالد، القوى البحرية، ص٢٥٢.

(3) Heyd (W) , Histoiry du commerce du levant au moyen – Âge , Amsterdam , 1959,P49.

(٤) تقي الدين عارف، علاقات صقلية بدول البحر المتوسط منذ الفتح العربى حتى الغزو النورمندى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٩، ص٢٢٢.

(٥) ابن جبير ، الرحلة، ص٢٦٣-٢٦٤..

(٦) الحميرى ، مصدر سابق ، ص ٣٣٦ .

سفر أهل إفريقية إليه وقلعة شكلة التي تبعد عن البحر بثلاثة أميال، وهي عامرة بالأسواق والبضائع ويسافر إليها من بلاد إفريقية[١].

ومن مراكز التجارة المغربية قبل العصر الموحدي ذات الصلة بصقلية مدينة سوسة[٢]، والمهدية وكانت مَرْفًا آمناً للسفن الصقلية[٣]، وصفاقس هي الأخرى كانت تقصدها سفن تجارة صقلية[٤]، وكذلك ازدهرت التجارة البحرية مع صقلية في ثغري قابس وتونس[٥].

وفي مطلع القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي كان حكم النورمان في جزيرة صقلية قد توطَّد، وبدأ النورمان يَرْنُون إلى بسط سيطرتهم على إفريقية منتهزين كما ذكرنا سابقاً ضعف دولة بني زيري ، وانشغال المرابطين في مواجهة قيام الموحدين عليهم ، وضعف الدولة الفاطمية في المشرق ، وقيام الحروب الصليبية[*]وقد تمكن الصقليون بالفعل من السيطرة على غالبية بلاد إفريقية وطرابلس الغرب، ويبدو أن الأوضاع الاقتصادية في إفريقية عقبَ الغزو النورماني لها قد تدهورت إلى حد كبير ، بسبب العبث الذي ألحقه النورمان بساحل إفريقية ، مما جعل الأهالي يلتزمون مدنهم أو ينتقلون بالضرورة إلى الدواخل[٦]، كما أدى احتلال النورمان لإفريقية ولاسيما جزيرة جِرْبة البحرية

---

[١] الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٤٢ .

[٢] البكري، مصدر سابق ، ص٣٥– ٣٦.

[٣] البكري، المصدر نفسه ، ص٣٠.

[٤] البكرى ، نفس المصدر ، ص٢٠.

[٥] تقي الدين عارف، مرجع سابق، ص٢٢٤.

[*] أن النورمان الطامعين في إفريقية كانت تحدوهم إلى ذلك عوامل اقتصادية في المقام الأول، فصقلية وإفريقية ازدهرتا على مرِّ العصور حينما كانت تضمهما دولة واحدة كما حدث أيام القرطاجنيين والرومان والبيزنطيين والعرب، ذلك أن صقلية كانت المصدر الرئيسي للقمح بالنسبة لإفريقية لاسيما في سنوات الجفاف والقحط ، كما أنها كانت تستورد من إفريقية زيت الزيتون وذهب السودان، أمين توفيق الطيبي، دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية، دار اقرأ للطباعة والنشر والتوزيع، ص٦٩– ٧٠ .

[٦] أمين توفيق الطيبي، دراسات في تاريخ صقلية، ص٧٨، ويبدو أن العلاقات بين نورمان صقلية وبين أفريقية قد ظلت مستمرة وطيبة وبقي أغلب السكان المسلمين في الجزيرة تحميهم توجيهات السخاء والتسامح التي طبعت سياسة الملوك النورمان، ويستشهد باستضافة العالم الجغرافي الإدريسي في بلاط الملك رجار الثاني بكل ترحاب وحفاوة . سلفاتوري بونو، مرجع سابق ، ص٣١٨.

إلى عرقلة التجارة البحرية النامية بين مصر وإفريقية،وأصبح التبادل التجاري بين مصر وإفريقية يتم منذ منتصف القرن الحادي عَشَرَ الميلادى في معظمه بحراً بعد أن كان يتم براً عن طريق القوافل قبل الغزوة الهلالية[١]، ومع ذلك فإن العلاقات التجارية قد استمرت بين الطرفين بشهادة مؤرخٍ إنجليزي معاصر متخصص في تاريخ صقلية الذى كان يرى أن رجار الثاني رأى في احتلال مدن ساحل إفريقية أحد الحلول لمشكلات صقلية الاقتصادية والإستراتيجية لأن مدن إفريقية تعتمد على صقلية في استيراد القمح في بعض السنوات ، بالإضافة إلى أن ذهب إفريقية دعم النقد في صقلية وازداد بذلك عدد السفن التجارية المبحرة بين صقلية وإفريقية بدعم من الملك[٢].

وبعد موت رجار الثاني سنة ١١٥٤م ضعفت القبضة الصقلية على إفريقية فحدثت الثورات ضد النورمان في صفاقس وجربة وقرقنة وطرابلس وطردوا النصارى منها بالإضافة إلى استنجاد باقي مسلمي إفريقية بالموحدين الذين تمكنوا من طرد النورمان من المهدية عام ٥٥٥هـ فأنهوا بذلك الوجود النورماني بإفريقية[٣].

وفي ظل الحكم الموحدي بقيت العلاقات بين الطرفين (إفريقية وصقلية) متقطعة لبعض الوقت، وقد يكون ذلك أمر طبيعي، إلا أن المنفعة المشتركة كانت تلح على استئناف العلاقات والتجارة بين الطرفين[٤] ، خاصة وأن الموحدين قد انصرفوا للجهاد ضد ضد الممالك المسيحية في إسبانيا، وإلى التصدي لثورة بني غانية وحلفائهم في شرق المغرب (قراقوش التقوي) فإن هذه الظروف وكذلك المصالح التجارية اقتضت أن يسالموا النورمان في صقلية[٥].

وجاءت فرصة توقيع اتفاقية سلام وتجارة سنة ١١٨١م بين الملك غوليالم والخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدي عندما أرسل الملك الصقلي إلى الخليفة الموحدي ابنته حرَّة ، وكانت قد وقعت أسيرة في أيدي الأسطول الصقلي وهي على ظهر مركب موحدي كان

---

[١] الطيبى ، دراسات في تاريخ صقلية ، ص٧٥.

[2] Smith D.M, Medieval Sicliy , London , 1969 , P 29-30.

[٣] الناصرى، الاستقصاء، ج٢، ص١٣٧، ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٢٣٧.

[٤] سلفاتوري بونو، مرجع سابق ، ص٣١٨.

[٥] الطيبي، دراسات في تاريخ صقلية ، ص٨٢.

ينقلها زوجة لأحد الحكام المسلمين[١]، وظلت الروابط الاقتصادية بين صقلية وتونس مستمرة في عهد فردريك الثاني وأبنائه بالرغم من الخلافات السياسية والدينية، ذلك لأن إفريقية كانت المنفذ الطبيعي لقمح صقلية، الذي غالباً ما كان يستبدل بالعبيد والذهب في إفريقية[٢]، فعقدت بين الطرفين معاهدة تجارية عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م في عهد الشيخ الحفصي أبي إسحاق إبراهيم والي إفريقية [٣].

وفي العهد الحفصي ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م استمرت العلاقات التجارية بين الطرفين فكان لأبي زكريا الحفصي طوال العشر سنوات الأخيرة من ولايته علاقات ممتازة مع جاره فردريك الثاني صاحب صقلية حيث تم الاتفاق بين الطرفين على ضبط الضريبة التي كانت تدفعها سنوياً إفريقية الحفصية لمملكة صقلية، وهذه المدفوعات التي يقوم بها أبو زكريا لا يمكن أن تكتسي أي شكل من أشكال التبعية أو الإهانة إذ تحصل السلطان الحفصي بهذه الصورة على الاعتراف بحق رعاياه في الملاحة والتجارة في البحر مع صقلية[٤].

وبعد وفاة الملك فردريك الثاني عام ١٢٥٠م أي في عهد السلطان أبي عبد الله المستنصر (١٢٤٩- ١٢٧٧) أصبحت صقلية مسرحاً لمعركة طويلة المدى بين أنصار الباب وأنصار ذرية الإمبراطور، انتهت بتنصيب (شارل دانجو) ملكاً على صقلية[*] فلم تكن تلك الظروف لتساعد على إقامة علاقات تجارية منتظمة مع إفريقية غير أن البابا

---

[١] سلفاتوري بونو، مرجع سابق ، ص٣١٨.

[٢] الطيبى، مرجع سابق ، ص٨٣.

[٣] برنشفيك، مرجع سابق ، ج١، ص٥٥.

[٤] برنشفيك، المرجع نفسه ، ج١، ص٦٦.

[*] كان الملك (فردريك الثاني) متهماً عند البابا بعطفه على المسلمين ومحبته للغة العربية والحضارة الإسلامية لأنه من عائلة "هُوهُنشتاوفن" النرمانية فإن البابا كان عازماً على عدم إستمرار سيادة تلك العائلة على صقلية لذلك عمل على تنصيب (شارل دانجو) أخى لويس التاسع ملكاً عليها . فإندلعت بموجب ذلك الحرب بين خلفاء فردريك الثانى وشارل دانجو وكان المستنصر الحفصى دوراً كبير في مساعدة خصوم شارل دانجو سواء في قبوله لهم كلاجئين أو مساعدتهم عسكرياً ليحاربوا ضد شارل دانجو.أنظر: .Mas Latrie ,Ibid , P 134-135 . العروسى المطوى ، مرجع سابق ، ص ١٩٩ .

أينوسان الرابع قد عمد في نوفمبر في عام ١٢٥٤ إلى تعيين موظف جديد على رأس قنصلية صقلية في تونس[١].

وهذا إنّما يدل على مصلحة صقلية الاقتصادية في بلاد إفريقية، بحيث إنَّ كل سلطة تنفرد بتقرير المصير تتبنىّ موقفاً مهادناً تجاه شمال إفريقية لجني مصالحها الاقتصادية وحتى بعد قيام الحملة الصليبية على تونس إلى قادها لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٦٨- ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، أخو ملك صقلية في ذلك الوقت شارل دانجو والتي شارك فيها هذا الأخير، بل أصبح هو المسيطر على الموقف وسيده بعد وفاة أخيه في جراء الوباء الذي انتشر بين جنود الحملة والتي باءت بالفشل الذريع وارتحال الصليبيين من أراضي تونس ، عادت العلاقات التجارية بين الحفصيين وملك صقلية كما كانت سابقاً بعد الصلح الذي عقد بين الطرفين والذي تعهد فيه المستنصر الحفصي،من استئناف دفع الضريبة المستحقة عليه التي تقررت منذ عهد السلطان أبي زكريا الحفصي والتي تأخرت خمس سنوات بحسب القيمة القديمة ويتعهد بأن يدفع له فيما بعد سنوياً ضعف المبلغ الأول[٢]، هذا كما تشير الوثائق إلى وجود بعثات تونسية رسمية لدى ملك صقلية في سنة ١٢٧٤- وأصدر الملك الصقلي شارل دانجو أيضاً أمراً إلى محافظ منطقة بروفانس لمنع القراصنة في مرسيليا ونيس من الهجوم على رعايا ملك تونس[٣].

وفي عام ١٢٨٢م آلت جزيرة صقلية إلى حكم ملك أراجون[*] وفي ظل هذا الوضع الجديد رفضت الحكومة التونسية والتي على رأسها في ذلك الوقت السلطان أبو

---

[١] روبار برنشفيك، ج١، نفس المرجع، ص٧٤.

[٢] روبار برنشفيك، ج١، ص٩٣.

[٣] روبا ربرنشفيك، ج١، ص٩٩.

[*] كان بطرس الثالث (بيدور الثالث) ملك أراجون (١٢٧٦- ١٢٨٥م) متزوجاً من ابنة مانفريد ملك صقلية من أسرة هوهنشاوفن الألمانية، وبعد مقتل هذا الأخير آلت صقلية إلى حكم شارل دانجو عام ١٢٦٦م، أصر ملك أراجون على المطالبة بحق زوجته في جزيرة صقلية وفتكوا بالحامية الفرنسية في الجزيرة سنة ١٢٨٢م ودعو ملك أراجون إلى حكم الجزيرة، وكان بطرس الثالث قد أعدّ حملة في ظاهرها ضد تونس فوجهها إلى صقلية واحتل الجزيرة خلال شهر، وأعلن نفسه ملكاً على بالرمو عام ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م .

أنظر: Francesco Giunta,Aragoneses y catalanes en el mediterraneo,Barcelona,1989, P 22.
Mas Latrie , Ibid , P 145 .

حفص عمر الاعتراف ببطرس كملك لصقلية مما أدى إلي غضب بطرس الثالث (بيدور الثالث) وأراد في سبتمبر ١٢٨٣م إقرار القطيعة بين البلدين، موصياً جميع رعاياه بمغادرة البلاد الحفصية[١].

ومما زاد الأمر سوءًا من توتر العلاقات بين الطرفين، ما أقدم عليه الأراجون في صقلية من خطوة جريئة تمثلت في احتلالهم لجزيرة جربة عام ١٢٨٤م وذلك تعزيزاً لنشاطهم التجاري في غربي البحر المتوسط ، خاصةً وأن الجزيرة في ذلك الوقت تمثل قاعدة ممتازة بالنسبة للتجارة أو القرصنة في البحر[٢].

ولا يمكن تفسير هذه الخطوة الجريئة التي قام بها الملك الأراجوني ضد جربة إلا في إطار العداوة المتواصلة ضد الحكومة الحفصية وستساهم في تعكير العلاقات التي هي كانت متذبذبة من قبل بين الدولتين[٣].

إلا أن ذلك الوضع لم يستمر طويلاً، خاصة وأن الحكومة الحفصية أيقنت أن من شأنه أن يلحق أضراراً جسيمة بالتجارة والجباية في تونس، فبادر السلطان أبو حفص بإرسال بعثة إلى بطرس الثالث (بيدور) للتفاوض معه في شأن السلام ، وتمَّ توقيع معاهدة بين الطرفين عام٦٨٤ هـ/١٢٨٥م تضمنت ضمان استمرار النشاط التجاري بين الطرفين[٤]، كما استطاع ملك أراجون من خلال تلك المعاهدة أن يجبي من السلطان أبي حفص عمر الضريبة السنوية التي كانت تُدفع في السابق للملك شارل دانجو بقيمة ثابتة وهى 33.333 ديناراً بيزنطياً[٥].

---

[١] برنشفيك ، مرجع سابق، ج١، ص١٢٤.

[2] Mas Latrie , Ibid , P 156-157 .

ويرى (Mas Latrie) أن إحتلال جدة من قبل الأراجون والصقليين إنما كانت بدوافع إقتصادية فتلك الجزيرة تتمتع بإمكانيات إقتصادية من تربة خصبة ويوجد بها أشجار النخيل وعنب النبيذ وأشجار الزيتون والمراعى . تلك الثروات الضخمة التي كانت في يوم ما ملكاً للنورمانديين في صقلية إلي أن أسترجاعها منهم الموحدين ولما ظهرت الخلافات بين أفراد أسرة بنى حفص في نهاية القرن الثالث عشر الميلادى فكر المسيحيين في إستعادة إنتصاراتهم في تلك الأراضى . Mas Latrie , Ibid , P 157 .

[٣] روبار برنشفيك، ج١، ص١٢٦.

[4] Mas Latrie , Ibid , P 154 .

[5] Mas Latrie , Ibid , P 155 .

ويبدو أن تلك الضريبة التونسية التي دفعتها السلطة الحفصية إلي صقلية قد تسببت في الكثير من المشكلات وأصبحت مجالاً للنزاع والمنافسة بين ثلاث ممالك هى أراجون ، وصقلية ، ونابولى لأن الملك شارل الثاني ملك أراجون طلب بأحقيته في أن يرث عرش أبيه شارل الأول[1] واختلف الطرفان في أحقية تلك الضريبة. ومن المؤكد أن السلطان الحفصى في تونس قد إفاد من تلك الخلافات من أجل الخلاص من التزاماته المالية من جديد .

ويبدو أن محاولات عديدة قام بها الملك الأراجواني خايم الثاني وأخوه وممثله في مملكة صقلية فريدريك الثالث (١٢٩٥- ١٣٢٧) لاستخلاص تلك الضريبة لصالحهم قد باءت بالفشل[٢].

وقد ساءت العلاقة بين الدولتين (تونس وصقلية) بصورة واضحة خاصة -ولاسيما وأن الصقليين كانوا مسيطرين على جزء من الأراضي التونسية المتمثل في جزيرة جربة والتي من خلالها أصبح تهديد الساحل التونسي أمراً ممكناً جداً[٣]، والدليل على ذلك أنه في عام ١٢٩٤م أن سفناً صقلية قد ألحقت أضراراً برعايا السلطان الحفصي[٤]، وفي عام ٧٠٦هـ/ ١٣٠٧م حاول الشيخ أبو يحيى زكريا بن اللحياني استرداد جزيرة جربة، فحاصر حصن القشتيل بنحو شهرين كاملين إلا أن المحاولة باءت بالفشل لانقطاع الأقوات عن الجند المحاصر[٥].

ولا شك أن تلك المحاولة لاستعادة جزيرة جربة من الصقليين قد أساءت العلاقة بين الطرفين (الصقليين والحفصيين) بالإضافة إلى أعمال القرصنة التي يقوم بها الصقليون الذين وجدوا في صقلية مركزاً لعملياتهم وسوقاً لترويج غنائمهم[٦].

---

[1] Mas Latrie , Ibid , P 155 .
[2] Mas Latrie , Ibid , P 155 - 156.

[٣] الطيبي، دراسات في تاريخ صقلية ، ص٨٨.
[٤] برنشفيك، مرجع سابق ، ج١ ، ص١٣٩.
[٥] التجاني، مصدر سابق ، ص١٢٨. ابن القنفذ القسنطيني، مصدر سابق ، ص١٥٩.
[٦] برنشفيك، مرجع سابق، ج١ ، ص١٥٥.

غير أنه في عام٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م أرسل فريدريك حاكم صقلية إلى السلطان الحفصي أبي عصيدة مبعوثاً للتفاوض معه بشأن الصلح وفعلاً أبرمت معاهدة الصلح في تونس ودفع السلطان الحفصي لمبعوث فريدريك مبلغ وقدره ٨٠٠٠ دينارًا لتسليمه إلى ملك صقلية مقابل قسطين سنويين من "الضريبة" قد تأخر دفعها غير أن فريدريك قد رفض التوقيع على تلك الاتفاقية بسبب غموض أمر تلك الضريبة أهي من حق آل دانجو أم من حقه؟ الأمر الذي تطلب تدخل أخيه ملك أراجونه خايم الثاني والذي اشتغل حكماً في تلك القضية حيث أعلن أن أصل تلك الضريبة غير واضح ، ومع ذلك فقد قرر مراعاة لمصلحة السلم انتقال الحق إلى شارل ملك نابولي ، وترك الحرية للملك فريدريك للحصول أن أمكن ذلك على إتاوة أخرى من السلطان الحفصي[١] وفي عام٧٣٦هـ/١٣٣٥م تمكن الحفصيون من استرجاع جزيرة جِرْبة إلى السيادة الحفصية وتم طرد الحامية الأراجونية الصقلية من الجزيرة[٢] وقد ظلت العلاقة بين سلطة الحفصيين وبين صقلية الخاضعة للحكم الأرراجوني تصطبغ بالعداوة نظراً لطمع الأخيرة في إعادة السيطرة على جزيرة جربة والتحكم منها في الساحل التونسي الطرابلسي بالإضافة إلى أطماعهم في تحصيل تلك الضريبة التي كان يدفعها السلطان الحفصي لصقلية.

وفي عام ١٤٠٩م جرت مفاوضات بين حاكم صقلية مارتن الأصغر وبين السلطان الحفصي أبو فارس إلا أن تلك المفاوضات قد تعطلت بسبب موت حاكم صقلية (مارتن الأصغر) فجأة وحدوث بعض المشكلات الداخلية على تولي العرش[٣].

ويبدو أن المحاولات المتتالية الصقلية الأراجونية للسيطرة على جزيرة جربة والساحل التونسي والتي باءت بالفشل الذريع والتي كان آخرها حملة الفونسوا ملك أراجون (صقلية) عام ١٤٣٢م والتي قيدت بالفشل أدرك بعد عودته إلى صقلية أنه لا جدوى من انتهاج تلك السياسة المعادية ضد الحفصيين ، فحاول تحسين علاقاته معهم فجرت عدة

(1) Mas Latrie , Ibid , P 161-162 .
(2) Mas Latrie , Ibid , P 162 .

(٣) برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٦.

مفاوضات عام (١٤٣٨- ١٤٥٦م) بقصد حماية التجارة بين صاحب أراجون وبين إفريقية إلا أنها تعثرت بسبب أعمال القرصنة التي كانت تلقى تشجيعاً من السلطان الحفصي[١].

وابتداءً من سنة ١٤٧٠م هناك وثائق تبرز عن نشاط مكثف بين الدولة الحفصية وبين مملكتي أرجونه –صقلية لتحسين العلاقة بين الطرفين استمرت فترة من الزمن بداية من عام ١٤٧٠م إلى عام ١٤٧٢م إلى ديسمبر من عام ١٤٧٣م عندما تم إبرام هدنة لمدة سنتين ، وخلال السنوات التالية اتفق الطرفان بتمديد تلك الهدنة لمدة سنتين جديدتين[٢].

وبذلك نلاحظ أن العلاقة التجارية بين الطرفين قد استمرت رغم كثرة المصاعب والتوترات والأطماع النصرانية في إفريقية، غير أن المصلحة الاقتصادية للطرفين غالباً ما كانت تتحكم في سير العلاقة وتؤدي بها إلى التهادن والتحسن.

الصادرات والواردات:

وكانت صقلية تصدر إلى بلاد إفريقية الجوز ، واللوز ، والقسطل ، والفستق والقطن ، والميعة الطيبة السائلة وهي من أعظم الأدوية[٣]، بالإضافة إلى الأخشاب لاستخدامها في أغراض شتى منها صناعة السفن[٤] واستوردت بلاد إفريقية من صقلية السكر أيضًا[٥]، بالإضافة إلى الأطرية التي تصنع في مدينة ثرمة بصقلية وتصدر إلى بلاد المسلمين[٦]، كذلك صدّرت صقلية القمح في كثير من المناسبات[٧]، بل كانت إفريقية المنفذ الطبيعي لقمح صقلية، فقد كان قمح صقلية وجبنها يستبدلان بالعبيد

---

(١) الطيبي، مرجع سابق، ص٩٣.

(2) Mas Latrie , Ibid , P 173-174 . برنشفيك،مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٠٢.

(٣) الزهري، الجغرافية، ص١٣١.

(٤) تقي الدين عارف، مرجع سابق ، ص٢٢٤.

(٥) تقي الدين عارف، المرجع نفسه ، ص٢٢٤.

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٤، الحميري، الروض المعطار ، ص ٣٦٧ .

(٧) سلفاتوري، بونو، مرجع سابق، ص٣٢٦.

والذهب[١]، كما تصدر إلى سائر البلدان الزئبق والحديد والرصاص والمواد الصالحة للصباغة والديباج[٢].

أما صادرت إفريقية نحو صقلية فكان أهمها زيت الزيتون من صفاقس إذ كان التجار الصقليون يقصدون ميناء صفاقس من أجل هذا العرض[٣]، وصدرت إفريقية إلى صقلية الذهب والعبيد[٤] الذي كانت تستورده من جنوب الصحراء وتَّم استبداله بقمح صقلية كما ذكرنا.

العلاقات التجارية مع قشتالة وأراغون(*):

---

(١) الطيبي، دراسات في تاريخ صقلية ، ص٨٣.

(٢) نجاة باشا، التجارة في المغرب الإسلامي، ص٧٠، الزهري، كتاب الجغرافية، ص١٥٩.

(٣) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص٢٠، مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار، ص١١٦-١١٧.

(٤) الطيبي، مرجع سابق، ص٨٣.

(*) لقد ارتبطت نشأة مملكتي قشتالة واراغون وتطورهما بحركة الاسترداد في أسبانيا فكلما زادت وانتعشت هذه الحركة نمت وتطورت قشتالة وأراجون. فقد ظهر تاج أراجون على مسرح السياسة عام ١١٣٧ م بعد زواج بترونيلا الأراجونية من رامون برنجر الرابع كونت برشلونة ما بين عامى ١١٣١ – ١١٦٢م ، وقد دخل رامون في حروب ضد مسلمى الأندلس واستولى على بعض المدن الهامة مثل طرطوشة عام ١١٤٨ م ولاردة وإفراغة عام ١١٤٩م من أيدى المرابطين . وقد اضطلع جاك الأول (الفاتح) ١٢١٣-١٢٧٦م ابن بيدور الثاني بإرساء قواعد التاج الأراجونى وتوسعاته في البحر المتوسط برًا وبحرًا ، فلقد استولى على جزيرة ميورقة أولاً عام ١٢٢٩-١٢٣٠م ، ثم على مملكة بلنسية عام ١٢٣٣-١٢٤٥م .وبذلك لعبت مملكة أراجون الناشئة في القرن الثاني عشر الميلادى الدور الأساسى في تجميع النصارى بأسبانيا وإقامة دولة قوية على ضفاف المتوسط بقطلانيا الأسبانية حول المرسى القتلانى الناشئ ببرشلونة وقد اكتمل ذلك في عهد بيدور الثالث وابنه جاك الثاني (جاك الغازى) باعثى في كيان الدولة القطلانية القوية بحق في أسبانيا . ثم شهدت مدينة برشلونه القطلانية توحداً مع مدينة مرسيليا الميناء المشهور في فرنسا ولقد تم التوحد بعد زواج الأميرة دوس أميرة منطقة البُرفانس الفرنسية بالأمير كونت برشلونه وقطلانية وسردانيا ثم إزدادت شوكة هذه المملكة الناشئة قوة مع زواج حفيد كونت برشلونه من مربّا سيدة منبيليه (الميناء المتوسطى التجارى المزدهر) . للمزيد راجع : محمد محمود النشار، علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، وارعيز للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٧، ص٢٣. عمر سعيدان ، مرجع سابق ، ص٦٧. روسر سالكرو إيمى لوتش ، التوسع الأراجونى القطلانى ، تعريب : إسحاق عبيد ، (ابن خلدون ، البحر المتوسط في القرن ١٤م . قيام وسقوط إمبراطوريات) ، ص١٥٣ .

لقد اتسمت العلاقات بين دولة الموحدين وبين مملكتي قشتالة واراغون بالعداوة والحروب المتواصلة[1]، ولا تتوفر لدينا وثائق تؤكد وجود علاقات تجارية بين الطرفين.

وعندما آلت بلاد إفريقية وطرابلس الغرب للحكم الحفصي المستقل، بدأت تظهر بوادر التقرب والصداقة بين إفريقية ومملكة أرجوانة منذ عهد السلطان أبي زكريا[2].

كما وجدت نشاطات تجارية للتجار القطلونيين في إفريقية ففي عام ١٢٥٢ كان لهم فندق في تونس تم استغلاله لأحد أولئك التجار بصفة قنصل في تونس[3].

وبذلك نلاحظ أن هناك أنشطة تجارية للأراجونيين في إفريقية منذ القرن الثَّالثَ عشر [4]، وهي على كل حال تعتبر فترة متأخرة عن المناطق النصرانية الأخرى، وابتداءً من سنة ١٢٥٦ تعدّدت الوثائق التي تدل على أن الحكومتين قد أصبحتا على اتفاق تام[5]، كما تشير الوثائق إلى سير قنصليات وفنادق القطونيين في تونس وبجاية سيرًا طبيعياً خلال سنتي ١٢٥٧- ١٢٥٨م[6].

وتجدر الإشارة إلى أنه لا توجد أى إتفاقية لأراجون مع الحفصيين سابقة لتلك الفترة رغم تردد تجارها على موانئ إفريقية منذ عام ٦٢٥هـ/١٢٢٧م . غير أنهم لم ينتظروا طويلاً لإنجاز معاهدة تجارية مع السلطان الحفصى . فكان المستنصر الحفصى هو الذى اتخذ سبق المبادرة للتفاوض مع ملك أراجون فكلف أحد سفرائه بتوقيع معاهدة مع الملك الأراجونى آنذاك جاك الأول (الفاتح ١٢١٣-١٢٧٦م) عام ٦٧٠هـ/١٢٧١م .

---

(1) نشبت الحرب بين الطرفين (الموحدين ومملكتي قتشالة وأراغون، مع نشوء المملكتين وذلك نظراً لطموح التوسع الذي سيطر على حكام قتشالة واراغون على حساب ممتلكات الموحدين في أراضي الأندلس، والتي انتهت بموقعه العقاب المشهورة سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢م . الناصرى، الاستقصا، ج٢، ص١٩٩، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس، ص٣٦٨- ٣٦٩.

(2) برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٦٦.

(3) برنشفيك، نفس المرجع، ج١، ص٧٤.

(4) Masia de Ros (Angeles) , la corona de Aragon y los Estads del norte de Africa , Barcalona , 1951 , P 59 .

(5) فقد كوّن بعض الفرسان المسيحين من رعايا ملك أراجونة، جيشاً في خدمة السلطان، برضاء ملكهم، كما تمّ عام ١٢٥٧م تبادل السفراء بينها بصورة ودّية، برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٧٤-٧٥.

(6) برنشفيك، نفس المرجع، ص٧٥.

وقد حررت تلك المعاهدة أولاً باللغة القطلانية ثم ترجمت إلي اللغة العربية بحيث أعطيت نسخة للسفير الحفصى[١].

وقد ظلت المعاهدة سارية المفعول لمدة عشر سنوات ، وأهم ما أكدت عليه حفظ أمن التجار في البحر والسواحل[٢].

ووجد تعاون تجارى واضح لقطالونيين في المدن الساحلية المغربية وقد وجد العديد من البرشلونين في تونس ، ومنذ مطلع القرن السابع الهجرى / الثالثَ عَشَرَ الميلادى بدأت الحركة التجارية القطالونية واضحَة المعالمِ على جميع السواحل المغربية حيث أقاموا في جميع المناطق المعروفة لديهم حتى أن العلاقة التجارية والبحرية الوثيقة أصبحت توضح أهمية الاتجاه الشرقي القطالونى نحو إفريقية[٣] .

كذلك تعددت الرحلات لإفريقيا الشمالية ومن ضمنها **(إفريقية)** في قوانين شرطة مَرْفأ برشلونة وفي القوانين البحرية التي ترجع لعام ١٢٥٨[٤].

وقد ظلت العلاقات قائمة بين إفريقية وبين دولة أرجونة وقشتالة وتدل على ذلك أن الوثائق التي يتراوح تاريخها بين سنتي ١٢٦٠- ١٢٦٨ والتي تمنح بمقتضاها الملك جاك الأول لبعض رعاياه مع لقب قنصل حق استغلال الفنادق الراجعة إلى الأمة سواء في بجاية أو في تونس[٥].

وقد تعرضت العلاقة بين الطرفين إلى بعض التوتر بسبب نشاط عملية القرصنة[*] إلا أنها سرعانَ ما سويت عندما قام الملك خايم بعمليات بيع وتعيين قانونية، تتعلق بالفنادق القطلانية الموجودة في إفريقية[١].

---

(1) Mas Latrie , Ibid , P 140-141 .

(٢) بعيزيق ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص٣١٠ .

(3) Dufourca , L'EsPAGNE CATIANE , EJ , LE MAGHRIB .P 31 .

(4) Masia de Ros (Angeles) , Ibid , P 60 .

(٥) برنشفيك، مرجع سابق، ص٨٢.

(*) في عام ١٢٦٣م سمح الملك خايم لشخصين من أهالي برشلونة، كانا قد تعرضا لبعض التجاوزات في أفريقية الانتقام وتعويض خسارتهما على حساب أهالي أفريقية كما منع أية معاملة تجارية مع هؤلاء، كذلك أثيرت بعض الاضطرابات في صفوف الجالية القشتالية المقيمة في تونس ولذلك رخص الملك خايم القيام بأعمال القرصنة ضد السلطان الحفصي، روبار برنشفيك، مرجع سابق، ج١، ص٨٢.

ومنذ عام ١٢٨٢م وهي السنة التي خضعت فيها جزيرة صقلية المجاورة للأراضي التونسية للسيطرة الأراجوانية في عهد بطرس الثالث (بيدور العظيم) – بدأت الأنشطة التجارية الأراجونية في الأراضي التونسية تأخذ تخطيطاً جديدًا في سياسة السلطة الأراجوانية يرمي إلى تنشيطها والافادة قدر الإمكان من الوضع الجديد(٢).

غير أن عملية احتلال جزيرة جِرْبة وضمها لمملكة صقلية قد ساهمت في تعكير العلاقة بين كل من ملك أرجونة والسلطان الحفصي، ولكن استمرار ذلك الوضع من شأنه أن يلحق أضراراً كبيرة بالتجارة والجباية في تونس، الأمر الذي دفع بالسلطان الحفصي (أبى حفص عمر) إلى إرسال بعثة إلى (بيدور الثالث) ملك أراجونة للتفاوض معه وتمّ بين الطرفين عقد معاهدة١٣ يونيه١٢٨٥م لمدة خَمْسَ عَشْرَةَ سنة احتوت على ثمان وثلاثين مادةً أكدت على أمن التجارة والملاحة والاعتراف بحق القطلونيين في بناء فنادقهم وممارسة شعائرهم الدينية وحق ملك أرجونة في تعيين من يشاء من القناصل في إفريقية(٣).

وعلى الرغم من بعض الأزمات العارضة بين الحين والآخر فإن العلاقات بين الطرفين قد استمرت، فقد تمَّ عام ٧٠١هـ/ ١٣٠١م تجديد المعاهدة بين الطرفين، وحدث ذلك في ظروف طبيعية بعيدة عن أجواء الحملات العسكرية والغارات(٤).

ويبدو أن نشاط عمليات القرصنة الأراغونية قرب السواحل الحفصية قد وترت جو العلاقات(*)، الأمر الذي دفع الملك الأراغواني إلى الدعوة لتجديد المعاهدة سنة (٧٠٨هـ/ ١٣٠٨) لمدة عشرِ سنوات أخرى لطمأنة السلطان الحفصي الذي كثرت احتجاجاته(٥).

---

(١) برنشفيك، نفس المرجع، ج١، ص٨٣.

(2) Masia de Ros (Angeles) , Ibid , P 11-12 .

(3) Antonio De caspmant , Algunos Reyes de Aragony Diferntes Principes Infielis. De Asia y Africa , desde el slglo XIII Hasta el XV , valancia , 1974 , P 40-51.
Josi luis Matrin ,Ibid , P 29 .

(٤) عبد الناصر جبار، مرجع سابق، ص١٨٠.

(*) راجع ما تم ذكره عن القرصنة الأراجونية ضد الحفصيين في الفصل الأول .

(٥) عبد الناصر جبار ، نفس المرجع، ص١٨١.

وتجدر الإشارة إلي أن العلاقات الأراجونية الحفصية قد اصطبغت بطابع من الهيمنة ومحاولة السيطرة ذلك لأن القطلانيين كانوا مترددين في طريقة التغلغل في شئون إفريقية هل عن طريق التجارة وما توفره من أرباح طائلة وما تتطلبه من مُناخ أمنى على البحر ، أم عن طريق القطع والحرب[١] .

وقد حاول الأراجونيون التدخل في شئون إفريقية بشتى الطرق مستفيدين أحياناً من الشرخ الذى حدث في جسم الدولة الحفصية بسبب الفتن والصراعات الداخلية بين أمراء بنى حفص على تولى السلطة . وقد اتضح ذلك جلياً عندما قدم القطلانيون المساعدة لأبى يحيى بن زكريا اللحيانى ليقوم بالثورة والاستيلاء على السلطة بتونس خاصة بعد ادعائه القرابة لهم من جهة أمه النصرانية[*]وتظاهره بالاستعداد للتنصر وتحقيق الحلم المسيحى في الاستيلاء على إفريقية خاصةً بعد فشل الحملة الصليبية عليها عام ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠م . وتمكن ابن اللحيانى بالفعل من افتكاك الحكم في تونس عام ٧١١هـ/١٣١١م غير أن ذلك الوضع لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما زحف عليه السلطان ابو يحيى ابو بكر صاحب بجاية وقتئذ وهزمهم ففر ابن اللحيانى إلي قابس أولاً ثم إلي طرابلس[٢] ، ولم يكتفِ ابن اللحيانى بما حدث له بل استمر في محاولاته لاغتصاب السلطة في تونس وبالفعل فقد تمكن ابنه المدعو (محمد بن ابى ضربة المنتصر) من انتزاع السلطة من جديد في تونس لمدة سنة كاملة (٧١٧ هـ-٧١٨هـ / ١٣١٧-١٣١٨ م) لمساندة العرب وبعض الموحدين[٣] غير أن السلطان أبا يحيى أبا بكر خرج عليه واستطاع طرده ففر أبو ضربة ابن اللحيانى إلي المهدية وامتنع بها بمساعدة النصارى من القطلانيين الذين قدموا إليه كافة المساندة لأنهم وجدوها فرصة للتدخل في أمور إفريقية ولكن السلطان ابا بكر هزمهم وتمكن من تثبيت حكمه على تونس ، واسترجع المهدية من

---

[١] عمر سعيدان ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

[*] أمه أم ولد ، أصلها رومية . اسمها محرم . الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ١٢٩ .

[٢] الزركشى ، مصدر سابق، ص١٣١ – ١٣٢. ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ٣٢٧-٣٢٨.

[٣] الزركشى ، مصدر سابق، ص ١٣٤ .

أبـى ضـربة ومعاونيـه النصـارى[١] ، فكانـت إذاً النزعـة التوسـعية القطلانيـة قـد عاشـت واستقرت نتيجة للغريزة العدائية المتأصلة في قادتها ولكنهم كانوا رغم ذلك في كثير من الأحيـان يتنـازلون عـن تلـك العـداءات ، لأنـهم رأوا ضـرورة إيجـاد مراحـل زمنيـة يعـم فيهـا السلام مع الحفصيين وذلك لتوطيد العلاقات التجارية والمحافظة عليها[٢].

وقد حرصـت مملكـة أراغونـة علـى تجديد معاهداتها مـع الحكومـة الحفصية نظـراً لاستمرار عمليات القرصنة مثلما فعلت عام ٧١٢هـ/ ١٣١٣م ثم سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م وذلك للحفاظ على مكانتها في الأسواق الحفصية[٣].

غيـر أن العلاقـات بـين الطـرفين قـد اضـطربت نتيجـة لتوقيـع أراغـون معاهـدة مـع تلمسان عام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م[*]وعند عودة بجاية للحكم الحفصي تم بين الملك الأراجونى (بيـدور الرابـع) والسـلطان الحفصـى (ابـو اسـحاق الثـاني) ، التوقيـع علـى معاهـدة عـام ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م لمدة عشر سنوات نصّت على إتاوة سنوية طالبت بها أراغوان قيمتها ألفا دينارٍ ذهبية سنوياً[٤].

وقد تكررت المطالـب الأراغونية لتلك الإتـاوة الماليـة بشـيء مـن الإصـرار ، الأمـر الذي زاد من تعكير صفو العلاقات بين الجانبين، وعلى الرغم من ذلك فإن التجارة بين الطرفين لـم تنقطـع بـل استمرت فهنـاك وثـائق أثبتـت أن فنـادق القتلايين التـي تشـتغل فـي بلاد المغرب هي فنادق بجاية وتونس وبونة والقل وتدلس[٥].

---

[١] الزركشى ، المصدر نفسه ، ص ١٣٥-١٣٦ .

[2] Dufourcq , l, spoagne Catalane , P 90

[٣] عبد الناصر جبار، مرجع سابق، ص١٨٢.

[*] عندما استقلت بجاية عن تونس عام ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م سيطر أبو زكريا أمير بجاية على منقطة الزاب وأصبح بنو عبد الواد في المغرب الأوسط يشكلون خطراً جدياً بالنسبة لبجاية فقاموا بهجوماتهم وخاصة مع تولي أبو حمو موسى الأول الحكم دولة بني عبد الواد، بعيزيق، مرجع سابق، ج٢، ص٣١١.

[٤] بعيزيق، نفس المرجع، ج٢، ص٣١٦. عمر سعيدان ، علاقات أسبانيا القطلانية بالحفصيين ، ص١٣٢ وما يليها.

[٥] بعيزيق، المرجع نفسه، ج٢، ص٣١٨.

فكانت إذن التجارة سائرة رغم الوضع الدبلوماسي الصعب واضطراب الأمن في البحر والميناء، وبذلك تعايشت المصالح التجارية مع التناقضات السياسية.

ويصف ديفورك (Dufourcq) وضع العلاقات الأراغونية الحفصية – بعد إشارات متكررة لعمليات من القرصنة النشطة وخاصة من الجانب الأراجونى – قائلاً "..... وهكذا توقفت العلاقات كثيراً وتعطلت الأنشطة الاقتصادية والقنصلية بسبب ذلك السلام المنكسر فهناك السلام جنباً إلي جنب الحروب في الوقت نفسه والعلاقات غير واضحة ... "[١]

ويجب التنويه أنه بداية من النصف الثاني من القرن الرابع عشر قد غيرت اتصالات المسيحيين الأسبان في شبه الجزيرة الإيبيرية وبشكل تدريجى الأهمية التجارية لموانئ شمال إفريقية ، وتطور نظام مسيحى شمالى ليصل الأسواق في البحر المتوسط بأوروبة خاصة وأن قشتالة الشمالية قد تغذت وتربت في ظل الفرص الجديدة في شمال أوروبة جاعلة قشتالة أفضل دليل للمحيط الأطلسى الذى سيطر على الحياة الاقتصادية بعد البحر المتوسط ، وليس هذا فحسب بل إن الموانئ الجنوبية في الأندلس وغرناطة ستصبح محطة نقل بحرى بين شمال وجنوب أوروبة[٢].

ولم تتحسن الأوضاع الدبلوماسية بين الطرفين مع بداية القرن الخامسَ عَشَرَ بل يمكن أن نقول :إنها ازدادت سوءاً وسارت في خط تنازلي بحيث إنها أثرت بشكل كبير على سير العلاقات التجارية، وخاصة مع نشاط عمليات القرصنةِ من قبل الطرفين[٣].

ومن جهة أخرى تجدر الإشارة إلي أن التطوراتِ الدولية التي حدثت في تلك الفترة والتي كان أهمها كما ذكرنا أفول القوى القديمة وظهور القوى الجديدة وعبور القشتاليين والأراجونيين المحيط الأطلسى وحركة كشوف الجغرافية على يد البرتغال واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وسقوط غرناطة أخر معاقل المسلمين في الأندلس وضمها إلي

---

(1) Dufourcq , l, spoagne Catalane , P 113-114-115-166.

(٢) أوليفيا كونستبل ، مرجع سابق ، ص ٣٥٢ .

(٣) بعيزيق، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٠.

أسبانيا كل تلك التطورات أدت إلي تغيير وجه العلاقات بين أوروبة والمتوسط وتحصلت أسبانيا على المنفعة الاقتصادية ولاسيما حركة التجارة ومكاسبها المربحة(١).

وبذلك يمكن القول بأنَّ العلاقات التجارية الأراغونية القشتالية الحفصية قد بدأت بالأفضل وسارت نحو الأسوأ غير أنها لم تنقطع وعاشت طوال العهد الحفصي ضمن جدلية الطموحات السياسية والمصالح التجارية، وأخيراً تغلبت الصعوبات الدبلوماسية فانتكست التجارة الأراغونية القشتالية في الموانئ الحفصية(٢).

وكان من أهم الصادرات القطالونية إلي بلاد إفريقية التحف والأخشاب والمراكب والأقمشة أما واردات إفريقية إلي برشلونة كانت الحبوب والزيوت والتوابل(٣)بالإضافة إلى الذهب والعبيد السود الذين كان يجلبهم تجار إفريقية من بلاد السودان(٤).

الرسوم الجمركية :-

شكلت الرسوم أو الضرائب الجمركية المفروضة على السلع التجارية الواردة والصادرة جزءاً كبير من مداخل الخزينة العامة للدولة في إفريقية خلال العهدين الموحدي والحفصى ولاسيما الأخير.

يتم تحصيل تلك الرسوم في إدارة الجمارك ويسمى الشخص القائم بجمع تلك الرسوم على البضائع الصادرة والواردة (مدير الجمرك) (*) وتقع تلك الإدارة عادةً في الميناء ليتسنى لها

---

(١) أوليفيا كونستبل ، مرجع سابق ، ص ٣٧٣ . وكانت إتحاد مملكتى قشتالة وأراجون من خلال ذلك الزواج الملكى بين فرناندو الثاني (١٤٧٩-١٥١٦م) الأراجونى وبين الأميرة القشتالية (إزبيلا) أثر في تفتح أبواب عصر حديث تضاءلت معه قيمة البحر المتوسط الذى كان مسرحاً لكثير من التوسعات القطلانية الأراجونية. روسر سالكرو أيمى لوتش ، مرجع سابق ، ص ١٥٨.

(٢) بعيزيق مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٢.

(٣) عمر سعيدان ، علاقات أسبانيا القطلانية بالحفصين ، ص ٧٢ .

(4) Dufourcq , Ibid , P 268 .

(*) ويسمى فى بعض المصادر العربية باسم (المشرف على الديوان) وكان يوجد تحت إمرته العديد من الموظفين والمستخدمين مهمتهم مراقبة عمليات البيع في السوق وإدارة الحسابات التي تدون المداخل وتمنح البراءات للذين أدوا ما عليهم من رسوم بالإضافة إلي المترجمين المختارين تحت مسئوليتهم الجمرك ولتسهيل حركة البيع والمعاملات التجارية في الميناء . أنظر : Mas Latrie , Ibid , P 186. برنشفيك ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص٦٧ .

مراقبة دخول وخروج السلع ومعرفة كمياتها ونوعيتها ومن ثمَّ تقيم نسبة الرسوم التي يستوجب علىأصحابها دفعها فكانت إدارة الجمرك في مدينة تونس مثلاً تقع على بحيرة قناة حلق الوادى قرب تونس[١] .

وقد حُددت الرسوم على البضائع الواردة بصفة عامة بـ١٠% من قيمتها وكانت تسمى "العشر "[٢].

غير أن تلك النسبة لم تكن ثابتة وموحدة بالنسبة لكل الدول المسيحية . فقد تمنح إمتيازات لدولة دون الأخرى حسب الظروف ونوعية العلاقات والإتفاقيات فهذه جمهورية جنوة قد تمتعت حسب اتفاقية ١١٦١م بتخفيض الأداءات بنسبة ٤٠% من القيمة المعمول بها ويعنى ذلك أنها تدفع ٦% فقط من قيمة البضائع[٣].

كذلك فإن نسبة الـ١٠% لم تكن تطبق على كل أنواع السلع فقد كان البعض منها يستفيد من التخفيض بنسبة النصف أى ٥% مثل الذهب والفضة فقد نصت معاهدة ملك أراغون (بيدور الثالث) مع السلطان الحفصى أبى حفص عمر عام ١٢٥٨م في المادة الثالثة والعشرين (على خفض نسبة العشر إلي النصف على الذهب والفضة[٤] في حين تستفيد سلع أخرى مثل القمح والشعير من الإعفاء الكامل .

كما نصت على ذلك المعاهدة نفسها في المادة الخامسة والعشرين[٥] وبذلك نلاحظ أن المعاهدات بين إفريقية والدول المسيحية قد اهتمت بمسألة الرسوم اهتماماً كبيراً ووضعت لها قوانين خاصة لتنظيم طريقة استخلاصها[٦].

---

(١) الوزان ، وصف إفريقيا ، ج٢ ، ص ٨٠ . عبد الناصر جّبار ، مرجع سابق ، ص ٢٢٤ .

(2) Michele Amari , Ibid , P 12 . Mas Latrie , Ibid , P 195.

(3) Mas Latrie , relations Des chretiens , P 204 .

(4) Antonio de capmant , Algunos reyes de Aragony , P 46 .

(5) Antonio de capmant , Ibid , P 47 .

(٦) تضمنت المعاهدة المنعقدة بين السلطان الحفصى أى إسحاق الثاني وبين ملك أراغون بيدور الرابع عام ٧٦١ هـ/١٣٦٠م بنداً ينص على أن الرسوم الجمركية التي يدفعها التجار الأراغونيين على السلع بنسبة ١٥% يعود نصفها إلي الخزينة الأرغونية وقد أورد مؤلف المعاهدة الوثيقة رقم ١٤٠ بأرشيف أراغون . عمر سعيدان ، مرجع سابق ، ص ١٥٦-١٥٧ .

ويتسلم التجار الأجانب في الموانئ المغربية بصفة عامة وصلاً للخلاص يسمى (البراء) وإذا لم يستطيعوا بيع بضائعهم يمكن بيعها في أى ميناء آخر تابع للسلطنة دون إعادة دفع تلك الأداءات[١] .

وتجدر الإشارة إلي أنه من مهام موظفى الجمرك إلي جانب استخلاص الأداءات مراقبة حركة البيع والشراء داخل الميناء . وقد أورد (أمارى) في الوثيقة رقم (١٧) تسجيل المبيعات وأثمانها[٢].

كذلك كان إيداع الأموال مُؤَمَّناً في ديوان البحر تأميناً إدارياً ورسمياً ، فقد أشارت الوثيقة رقم (١٩) في وثائق أمارى إلي أن الحاج صدقة لم يتمكن من استخلاص ديونه من الأموال التي تركها التاجر (السير البانو) حتى يصلَ باقى التجار فيأخذو مالهم ويدفعوا مالكم[٣].

وقد بلغت قيمة الرسوم الجمركية من مداخيل الخزينة الحفصية خلال القرن الثامن هـ / ١٤ م حوالى مائة وسبعين ألف دينارٍ ذهباً سنوياً أى ما يقارب ثمانمائة كيلو غرام ذهب وهو ما يعادل ثلث ١/٣ مداخيل الخزينة تقريباً[٤].

وقد نَّوه ابن القنفد[٥] بذلك عند حديثه عن فترة حكم السلطان الحفصى أبو إسحق إبراهيم بن السلطان أبى بكر (٧٥١-٧٧٠هـ/١٣٥٠-١٣٦٩م) فقال "إن أعظم جبايته من سفار البحر" .

تلك هى الرسوم المفروضة على المسيحيين في الموانئ البحرية ، ويبدو أن هناك أساسين لتحديد الرسوم الجمركية على السلع فكانت الرسوم الجمركية المفروضة على

---

(1) Dufourcq , le commerce du maghreb , medieval Avec l'evrope chretienne . in cahiers au crees No 1 . Tunis , 1979 , P 164 .
(2) Michele Amari , Ibid , P 55 .
(3) Michele Amari , Ibid , P 60 .

(٤) عبد الناصر جبّار ، مرجع سابق ، ص٢٢٤.

(٥) الفارسية ، ص ١٧٤.

معـاملات المسـيحيين (هـى العشـر) كمـا ذكرنـا أمـا الرسـوم المفروضـة علـى معـاملات المسلمين فكانت تقدر بـ٢.٥% من قيمة البضائع الواردة[١].

ولم يكن فرض الضرائب مقتصراً على السلطة المركزية فحسب فالمناطق والمدن التي لا يشملها نفوذ الدولة في أوقات ضعفها أو انقسامها يقوم أهل العلم فيها وعدولها بتحصيل تلك الضرائب ، وتصرف في الصالح العام[٢].

وكـان كلُ والٍ جـاهزًا لفـرض ضـريبة بنسـبة مئويـة علـى البضـائع بمنطقـة نفوذه القضائي ، الأمر الذى جعل ابن حزم (١٠٣٥م) يلاحظ تفشى تلك الظاهرة قائلاً " إن أياً يحكم مدينـة أو طريقاً اعتـاد أن يجمـع الضـرائب والمكوس علـى البضـائع".[٣] الأمـر الذى يستخلص منه ان فرض الضرائب كان ظاهرة محلية أيضاً[*] .

فكانت إذن المكوس والضرائب ذات الطبيعة غير الممسوس عليها شرعاً موجودة ومتنوعـة فـى كـل زمـان ومكـان ، فـابن حيـان فـي المقتـبس ينتقد فـرض الضـرائب غيـر الشـرعية وسـمح بالضـرائب الشـرعية وهـى الزكـاة والجزيـة والعشـر[٤] فـي حـين أن ابـن خلدون[٥] وابن أبى زرع[٦] مدحا عصر المرابطين (١٠٦٩ – ١١٤٧ م) بوصفه عصراً ذهبياً على يد يوسف بن تاشفين حيث أعيدت المكوس والضرائب إلي حدودها الشرعية ، إلا أن خلفاءه من الموحدين لم يسيروا على نهجهم بسبب ثقل الضرائب بشكل عام في ظل حكمهم[٧] .

---

[١] الوزان ، ج ٢ ، ص ٧٩ . ويذكر الوزان أن جربه كانت تعطى عشرين ألف "دوبل" من مداخيل الأتاوات والمكس نظراً للتجارة الكبيرة بها إذ يختلف إليها كثيراً التجار الإسكندريون والأتراك والتونسيون . الوزان ، المصدر نفسه ، ص ٩٦ .

[٢] مارمول ، إفريقيا ، ج ٣ ، ص ١٦٤ .

[٣] أوليفيا كونستبل ، مرجع سابق ، ص١٩٩ .

[*] سيأتى ذكر أهم الضرائب المفروضة على البضائع في الأسواق عند الحديث عن التجارة الداخلية في الفصل الثالث.

[٤] أوليفيا كونستبل ، المرجع نفسه ، ص٢٠٣ .

[٥] المقدمة ، ص ٣٤٦ .

[٦] مصدر سابق ، ص ٣٢٦ .

[٧] أوليفيا كونستبل ، المرجع نفسه ، ص٢٠٤ .

وعلى كل فإن كثرة الرسوم والضرائب لا شك أنها تؤدى إلى الكساد التجارى لأن كثرة الضرائب يؤدى إلي ارتفاع الأسعار ، والمستفيد الأول من تلك العملية هى الأجهزة الحاكمة في الدولة ، والتجار الكبار ذوو النفوذ ، بينما تقع أعباء أى زيادات على كاهل المواطنين من ذوى الدخل المحدود(١).

(١) أبو شامة ، مرجع سابق ، ص ٣٤٦ .

الفصل الثالث

التجارة الداخلية

أولاً- طرق التجارة الداخلية:

أ- الطرق البحرية .

ب- الطرق البحرية .

ثانياً: الأسواق:

أ- أنواعها .

ب- أهم السلع المعروضة فيها.

ج- الحسبة والتسعير.

د- الاحتكار .

هـ- ضرائب الأسواق.

التجارة الداخلية

- طرق التجارة الداخلية

ارتبطت بلاد إفريقية بشبكة من الطرق الداخلية، الأمر الذي ساعد على قيام حركة تجارية نشطة بين المدن الداخلية، ويمكن تقسيم الطرق إلى طريقين أساسيين:

أولاً: الطريق الساحلي:

يبدأ من طرابلس شرقاً ويستمر باتجاه الغرب عبر عدة مدن صغيرة على الساحل أهمها: جنزور – زوارة– جرجيس إلى قابس التي تتصل بجزيرةِ جِرْبة بحراً لقربها كثيراً من الساحل(١).

ويستمر الطريق الساحلي نحو مدينة صفاقس، وبين قابس وصفاقس حوالي أربع مراحل(٢) إلى أن يصل إلى مدينة المهدية، ومن صفاقس إلى المهدية نحو ثلاث مراحل(٣) ويتجه الطريق من المهدية إلى المنسيتر ثم إلى مدينة سوسة؛ ومن المهدية إلى سوسة حوالي مرحلتان(٤) ، ثم إلى الحمامات وصولاً إلى مدينة تونس، ومن مدينة سوسة إلى مدينة تونس نحو ثلاث مراحل(٥)، وبين تونس والحمامات مرحلة كبيرة وهذه المرحلة هي

---

(١) تبعد جنزور عن طرابلس بحوالي (١٦) ميلاً، وتقع زوارة على بعد ٦٨ ميلاً جنوب شرق جربة، وتبعد طرابلس عن قابس بنحو عشر مراحل بمحاذاة الساحل، وتبعد قابس عن الساحل بنحو ستة أميال. أنظر: المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،ص ٢٨٣،الإدريسي ،نزهة المشتاق،ص٢٧٩–٢٨٠–٢٩٧.

والجدير بالملاحظة أن تحديد مسافة المرحلة أو مسيرة اليوم قد إختلفت في المصادر. فبينما يقدرها المراكشي بالنسبة للمسافر المجد بنحو أربعون ميلاً. نجد الإدريسي يقدرها بحوالي واحد وعشرون ميلاً. وعلى كل فإن المسألة لا تخضع لقانون ثابت، بل تتوقف على عدة معطيات أهمها: الطبيعة الجغرافية للأرض سهلة أم وعرة، ومدى وفرة المياة، ومدى سرعة وتحمل وسائل النقل المتاحة، وغيرها من العوامل. أنظر المراكشي، مصدر سابق، ص ٢٨٩، الإدريسي، مصدر سابق، ص ٦٣. أبو شامة، مرجع سابق، ص ٣٠٥.

(٢) المراكشي، مصدر سابق، ص ٢٨٣.

(٣) المراكشي، نفس المصدر، الصفحة نفسها.

(٤) المراكشي، المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٥) المراكشي، نفس المصدر، الصفحة نفسها. بينما يقدر ابن بطوطة المسافة بين تونس وسوسة بنحو أربعون ميلاً . مصدر سابق ، ص ١٥ .

عـرض الجزيـرة المسـماة بجزيـرة باشـو وهـي أرض مباركـة وطيبـة وذات شـجر وزيتـون وعمارات[1].

ويستمر الطريق الساحلي في امتداده مع الساحل من تونس إلى بنزرت، فطبرقة، فالقالة ثم مرسى الخزر، ثم بونة[2] إلى أن يصل إلى بجاية مرورًا بشطورة والقل وسكيكده وجيجل[3].

وقد تمكنـا اعتمـاداً علـى مـا أورده عبـد الواحـد المراكشـي[4] مـن رسـم مراحـل هـذه الطريق في العهد الموحدي كما يلي : " طرابلس ، قابس، صفاقس، سوسة، تونس، بني زرت (بنزرت)، بونة، قسنطينة، بجاية".

ونلاحظ أنه ابتعد عن الشريط الساحلي عندما ذكر قسنطينة، وعلل ذلك لقربها من السـاحل إذ قـال: " هـذا مـا علـى سـاحل البحـر أو قريـب منـه مـن مـدن إفريقيـة"[5] إذ أن قسنطينة كانت تبعد عن السحل بمرحلتين أو أكثر[6].

ويبدو أن الطريق الساحلي قد عادت إليه الحياة ، واستتب فيه الأمن مع استقرار الحكـم الموحـدي ، وخضـوع المنطقـة تحـت نفـوذ سـلطة مركزيـة واحـدة بعـد أن خربـت واضـطربت منـذ زحـف بنـي هـلال وبنـي سليم فـي حـدود عـام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م وتجـدر الإشـارة أن الطريـق السـاحلي قـد انـتعش بشـكل ملحـوظ خـلال النصـف الثـاني مـن القـرن السـادس الهجـري، حيـث نجـح الموحـدون فـي ضـبط السـاحل وانعاشـه اقتصـاديًا، وكثـر

---

[1] الأدريسي، مصدر سابق ج ١ ص ٢٩٣.

[2] من بنزرت إلى تونس يوم كبير في البحر أو حوالي ١٧ ميلاً في البر ومن بنزرت إلى طبرقة ٧٠ ميل وبين القالة وبونة ٢٤ ميلاً بحراً بمحاذاة الساحل. المراكشي، مصدر سابق، ص ٢٨٥.

[3] تبعد شطورة عن القل بحوالي ٥٦ ميلاً،ن ومن القل إلى جيجل ٧٠ ميلاً ومن جيجل إلى بجاية ٥٠ ميلاً، ومن بونة إلى بجاية ٢٠٠ ميلاً بحراً على الساحل. انظر: الإدريسي مصدر سابق، ص ٢٦٨-٢٦٩.

[4] مصدر سابق، ص ٢٨٣-٢٨٤-٢٨٥.

[5] المراكشي، المصدر نفسه، ص ٢٨٥.

[6] المراكشي، نفس المصدر، الصفحة نفسها.

استعمال طريق الساحل من تنس إلى طرابلس وازدهرت مدنه تجاريًا خاصةً بجاية وتونس وطرابلس[١] رغم بعض التوترات الداخلية[*].

وظل الانتعاش الاقتصادي الذي شهده الطريق الساحلي خلال فترة الحكم الحفصي. فهذا ابن بطوطة [٢] يصف لنا تلك الطريق خلال سنتي ٧٢٥-٧٢٦هـ/ ١٣٢٥-١٣٢٦م وسماها " طريق الساحل" مشيراً إلى أن الحياةَ والاستقرار قد عادا إليه فعلاً.

والمهم أن طريق الساحل أصبح في العهد الحفصي يمتد من الغرب إلى الشرق من بجاية- جيجل- القل- بونة- مرسى الخرز- بنزرت- تونس- سوسة- المهدية- صفاقس- قابس- طرابلس [٣].

ثانياً: الطريق الداخلية:

تبتدئ الطريق الداخلية من نفس نقطة انطلاق الطريق الساحلية، ويلتقي الاثنان في عدة محطات، ويتميز الطريق الداخلي بتفرعاته المتعددة؛ فهناك فرع يمتد من قابس إلى القيروان ويلتقي مع الطريق الساحلي عند تونس[٤].

وآخر يمتد من المهدية إلى القيروان ثم إلى تونس[٥]. ومن تونس يتخذ الطريق الداخلي مسلكين إلى قسنطينة. فمن تونس إلى باجة ثم بونة ومنها إلى قسنطينة[٦] والثاني

---

[١] عز الدين موسى، مرجع سابق، ص ٣١٠-٣١١.

[*] كان لثورة بني غانية وحليفهم قراقوش التقوي أثر في قلقلة الأمن الداخلي في إقليم طرابلس وإفريقية، وخاصة في عوامل إنتعاش الطريق الساحلي. وعلى كل فإن الموحدين وورثتهم الحفصيين في إفريقية قد بذلوا جهداً كبيراً في التحدي لثورة بني غانية وحليفهم. والعمل على ضبط الأمن الداخلي. وتمكنوا من القضاء على تلك التوترات الداخلية. راجع ما سبق ذكره عن موضوع الأمن الداخلى (في الفصل الأول).

[٢] تحفة النظار في غرائب الأمصار، ص ١٤-١٥-١٦.

[٣] صالح بعيزيق، مرجع سابق، ج ١ ، ص ١٦٠.

[٤] تبعد قابس عن القيروان بنحو أربع مراحل، ومن القيروان إلى تونس حوالي مرحلتين، انظر: الادريسي، مصدر سابق، ص ٢٨٤، الحميري، مصدر سابق، ص ٤٥٠.

[٥] تبعد المهدية عن القيروان بنحو ستون ميلاً . الحميري، المصدر نفسه، ص ٥٦١.

[٦] تبعد بونة عن قسنطينة بنحو خمس مراحل. المراكشي المصدر السابق، ص ٢٨٥.

والثاني من تونس إلى الأربس فقالة ثم قسنطينة[١] ، وهناك فرع آخر يمتد من مدينة قابس على الساحل وصفه لنا المراكشي[٢] " من مدينة قابس المتقدم ذكرها إلى مدينة قفصة ثلاث مراحل ، ومن مدينة قفصة إلى مدينة توزر أربع مراحل".

وقد وجدت جنوب الطريق الرئيسي الداخلي شبكة من الطرق التي ربطت بين مدن إفريقية وإقليم طرابلس الغرب وتجدر الإشارة إلى أن هذه الشبكة كانت محلية بالدرجة الأولى، وتكمن أهميتها في أنها كانت تخدم التجارة الداخلية، وأدت إلى سهولة تنقل التجار بين المدن والقرى، كما أنها كانت من جهة أخرى روافد أساسية للطرق الرئيسة التي ترتادها التجارة الدولية.

فكان جبل نفوسة جنوب إقليم طرابلس يتصل بمدينة طرابلس على الساحل ويبعد بينهما حوالي ست مراحل[٣] ويتصل بغدامس من الناحية الجنوبية الغربية منه[٤].

ووجدت عدة طرق أخرى ربطت بين مدن إفريقية الجنوبية وبين المدن الشمالية مثل الطريق الممتد بورجلة وببلاد قسطيلية (توزر) والتي تتصل بقابس وصفاقس وبجزيرة جربة[٥] وطريق ربطت بين تبسه وقالمة وبونة على الساحل وبين تبسة وكل من الأربس والقيروان إلى تونس[*]، وفرع يربط بين باغاية وقسنطينة وبينهما حوالي ثلاث مراحل[٦].

---

[١] تبعد تونس عن الأربس بحوالي مرحلتين بما يعادل ٦٠ ميلاً وتبعد قالة عن قسنطينة بنحو مرحلتين كبيرتين بنحو يومان كبيران. انظر الإدريسي، مصدر سابق ج ١ ، ص ٢٨١- ٢٩٣.

[٢] مصدر سابق، ص ٢٨٧.

[٣] الإدريسي، مصدر سابق، ج ١ ، ص ٢٩٩ مارمول كربخال، إفريقيا، ج ٣ ، ص ١٧٤.

[٤] تبعد غدامس ع طرابلس مروراً بجبل نفوسة حوالي ٤٠٠ ميل. مارمول، مصدر سابق، ج ٣ ، ص ١٧٣. ومن المعروف أن غدامس كانت بوابة رئيسية في الطرق البحرية إلى جنوب الصحراء الكبرى، وبينهما وبين جبل نفوسة سبعة أيام في الصحراء الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٢٣٤.

[٥] أبو شامة، مرجع سابق، ص ٣١٤.

[*] وبين تونس والقيروان ثلاثة أيام . القزوينى ، مصدر سابق ، ص ١٧٤.

[٦] الأدريسي، مصدر سابق ، ج ١ ص ٢٧٧.

وبين باغاية وتوزر حوالي أربع مراحل[١] ، فكانت باغاية بذلك هي المحطة الرئيسة لتلك الطريق الجنوبية؛ فمن أراد الوصول إلى توزر وما بعدها في المدن الجنوبية ينطلق من الساحل إلى قسنطينة ثم باغاية وقفصة وتوزر[٢].

ومن أراد الوصول إلى تبسة ثم القصرين ينطلق من بجاية ثم قسنطينة، ثم باغاية، ثم تبسة، ثم القصرين. وقد ترتبط الطريق انطلاقاً من القصرين بالقيروان ثم المهدية[٣].

- الأسواق :

انتظمت التجارة الداخلية في مراكز خصصت للبيع والشراء، هي الأسواق وقد جسدت الأسواق عصب الحياة الاقتصادية، حيث يتركز فيها النشاط الصناعي والتجاري والذي يؤدي دورًا مهمًا في حياة المدنية بصفتها عنصراً أساسياً لازدهارها.

والحقيقة أننا قد وجدنا فيما تعكسه الأدبيات التراثية المختلفة من حوليات تاريخية وجغرافية وكتب حسبة ونوازل فقهية ، ما يوضح أهمية الأسواق في الحياة الاقتصادية في مجتمع المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط[*].

وفي العصر الموحدي والحفصي استمر النسق والترتيب المنظم في الأسواق المتنوعة في مدن إفريقية، فكانت الأسواق تتخذ شكل الدكاكين المتلاصقة صفاً متصلاً يقابله صف مماثل، يفصل بينهما ممر معقود سقفه بالآجر أو الحجارة، وأمام صف

---

[١] الإدريسي، المصدر نفسه ، ج ١ ، الصفحة نفسها .

[٢] صالح بعيزيق، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٦٨.

[٣] بعيزيق، المرجع نفسه، ج ١ ، الصفحة نفسها.

[*] الجدير بالذكر أن أول من نظر في تنظيم أسواق التجارة والصناعة في المدائن الإسلامية الكبرى وأمر بترتيبها هوالخليفة الأموى هشام بن عبد الملك . ومن ضمن المدائن التي تمثل أسواقها الترتيب والتنظيم مدينة القيروان ، وذلك في حدود عام ١٢٠ هـ ، وفي العصر العباسى عرفت أسواق القيروان في عهد الوالى العباسى يزيد بن حاتم المهلبى الذى تولى إمارة إفريقية سنة (١٥٥ – ١٧١ هـ) ترتيباً وتنسيقاً حيث جعل كل صناعة في مكانها . فيذكر ابن عذارى أنه : " رتب أسواق القيروان وجعل كل صناعة في مكانها" . ثم طبق هذا النظام على المدن الإفريقية الأخرى مثل تونس وصفاقس وسوسه بالإضافة إلي مدينة طربلس التي عمرت بمختلف أنواع الأسواق فقد وصف ابن حوقل مدينة طرابلس بأنها : "ذات ربض صالحة الأسواق ، وكان في ربضها أسواق كثيرة " . كما أشاد الإدريسى برحابه أسواقها ودقة تنظيمها وجمال شوارعها ونظافتها . انظر : البكرى ، مصدر سابق ، ص ٢٥ – ٢٦ . ابن عذارى المراكشى ، البيان ، ج ١ ، ص٦٨. ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٧٠ . الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٢٩٧.

الـدكاكين توجـد مصـطبة قصـيرة تمتـد علـى كـل مـن نـاحيتي السـوق يجلـس عليهـا المشترون[١].

وقد تدخلت الدولـة الموحديـة فـي بنـاء الحوانيت والدكاكين وكرائها للتجـار ، وكـان عمال الدولـة يتكلفون بالإشراف علـى الكراء، ويثبتون المبلـغ فـي عقود خاصـة يحتفظون بنسخ منها [٢] وكان الهاجس الأمنـي يشكل أولـى أولويات الموحدين فقد حظيت الأسواق وحوانيت التجارة بحماية خاصـة ، حيث عينت الدولـة حرساً خاصـاً مكلفين بالسـهر عليها ليلاً ، ولـم يتـردد هـؤلاء الحـراس فـي الاسـتعانة بكـلاب مدربـة لأداء مهمـتهم علـى الوجـه الأكمـل؛ وفـي حالـة وقـوع سـرقة فـي المجـال الخاضـع لمـراقبتهم كـانوا يتعرضـون لأقسـى العقوبات كالسجن أو الجلد بالسياط ولم يميزوا بين الوالي والرجل العامي[٣].

ولذلك عرفت الأسواق في العهد الموحدي فترات في الازدهار والانتعاش فـي عهود الاسـتقرار كعهـد المنصـور الموحـدي، ممـا جعـل ابـن صـاحب الصـلاة [٤] يقـول بنـوع مـن الاعتزاز : " عمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرابحة ودرت على الناس الخيرات" .

أنواعها :

تكشف لنا المصادر عن عدة أنواع من الأسواق التـي ينتظمهـا المجـال الاقتصـادي في بلاد المغرب الإسلامي بصفة عامة.

---

[١] حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، ج ١، مكتبة المنار ، تونس ، ١٩٦٥ ، ص ٥٨– ٧٢.

[٢] القادري بوتشيش، تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي (الأسواق في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط: تنظيماتها ومعطياتها الإحصائية)، دار الطليعة بيروت، ٢٠٠٢، ص ١٠٢. ويذكر المؤلف أنـه قد تم كراء حانوت في سوق العطارين بتلمسان عند نهاية القرن السابع الهجري بستين ديناراً.

[٣] بوتشيش، نفس المرجع، ص ١٠٤.

[٤] المن بالإمامة، ص ٢٦٦.

فهناك الأسواق اليومية الدائمة والتي زخرت بها مدن بلاد إفريقية. وتنقسم تلك الأسواق إلى قسمين؛ أحدهما للصناعات اليدوية حيث يشتغل فيها أربابها بتحويل المواد الأولية إلى مصنوعات(*).والنوع الآخر الأسواق المعدة لعرض وبيع تلك المصنوعات المحلية، أو المجلوبة من الخارج(١).

ومن الملاحظ أن الدكاكين المخصصة للتصنيع كانت أكثر اتساعًا من دكاكين البيع، لأن العمل في التصنيع يتطلب مكاناً فسيحاً لوضع الآلات والمواد الأولية اللازمة للصناعة، وكذلك لاستيعاب العاملين والذين هم غالباً أكثر عدداً في دكاكين الصناعة عنهم في دكاكين التجارة (٢).

وظهرت في تلك الأسواق ظاهرة التخصص أي بأن تتجمع كل طائفة من التجار في سوق خاصة بها تنسب إليها؛ مثل سوق الحواتين ، وسوق العطارين، وسوق المركاض ، وسوق الكتبيين ، وسوق القماش(**) ، وسوق الصباغين، والسراجين، والحلفاوين ، والبتانين ، والدباغين ، وسوق الغزل(***) ، والقشاشين(****) ، وسوق

(*) كانت تلك الحوانيت أو الدكاكين مخصصة للصناعة والبيع في آن واحد ولذلك لعبت دور له أثر في تجارة إفريقية الداخلية.

(١) حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات ، ج ١، ص ٧١-٧٢.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات ، ج ١ ، ص ٧٢.

(**) لقد كان الحرفيون في مدينة تونس يصنعون قماش بلغ درجة كبيرة من الاتقان يباع بإفريقية كلها بأثمان باهضة لأنه من النوع الرفيع والمتين. كذلك عرفت مدينة سوسة بالعمائم السوسية وبإتقانها لصناعة الكتان.انظر العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص٩٨، الوزان، وصف إفريقيا، ج ٢، ص ٧٤.

(***) تميزت كبريات المدن بوجود سوق الغزل، من ذلك سوق الغزل بمدينة تونس الذي كانت تؤمه النساء بكثرة، وتميز هذا السوق بالتعامل فيه بالفضة نقداً. انظر: البرزلي، جامع مسائل الأحكام، ج ٢، ص ١٣١.

(****)(القشاشين) سوق مختص ببيع الثياب القديمة. انظر: عبد العزيز الدولاتي، مرجع سابق ، ص٦٨.

القلالـين[١] ، وسـوق الحـدادين، وسـوق صـانعي السـلال ، وسـوق النحاسـين ، وسـوق الشماعين[٢] ، وسوق الخزارين والحريريين ، وسوق العزافين[*].

والنوع الثاني من الأسواق الاسبوعية التي كانت تعقد في أيام معينة في الاسبوع حيث يجتمع فيه أهالي القرى في يوم معلوم من الاسبوع بسلعهم لبيعها وشراء ما يلزمهم من حاجات متنوعة[٣].

والسـوق الاسـبوعية كانـت تعتبـر مؤسسـة علـى غايـة مـن الحيويـة، وقـد أثبتـت الشهادات وجودها منذ زمن بعيد وهي مازالت مستمرة إلى يومنا هذا [٤].

ومثل هذا النوع من الأسواق وجد في غالبية مدن بلاد إفريقية، فقد وجد في مدينة صفاقس سوق أسبوعية تعقد يوم الجمعة حيث يجتمع فيه أهالي القرى متخذين لهم فنادق لحفظ دوابهم وأمتعتهم.

كذلك وجد في جزيرة جِرْبة سوق أسبوعية زخرت ببضائع متنوعة . " ويحتشد فيه جميع سكان الجزيرة، ويقصده أيضاً عدد كبير من الأعراب الوافدين من اليابسة سائقين ماشيتهم وحاملين معهم كمية وافرة من الصوف" [٥].

وفي أوائل القرن الرابعِ عَشَرَ الميلادي بالقرب من سوق (زنزور القديم) في إقليم طرابلس كان السكان البربر يقدمون كل يوم جمعة من أقصى المناطق لتبادل منتجاتهم

---

[١] حتى أنه وجدت ضاحية بمدينة تونس عرفت باسم الحريرية نسبة إلى السوق والحريري هو صانع الحرير أما الخزار فهو الذي يتولى نسجه وحياكته. محمد حسن، المدينة والبادية ، ص ٤٧٥.

[٢] ابن عبدون، رسالة في الحسبة، تحقيق : ليفى بروفنسال ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣٣. أحمد بن عامر، الدولة الحفصية، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٧٢، ص٨٩-٩٩.

[*]حيث كان لإنتشار الموسيقى وخاصة الموشحات الأندلسية أثر بالغ الأهمية على صناعة الآلات الموسيقية التي خصص لها سوق شمال غرب جامع الزيتونة في مدينة تونس حيث يوجد زقاق العزافين، وكان معرضاً كغيره لدفع الجباية السلطانية، كذلك وجد في مدينة بجاية مثل هذا السوق لأن أهالي بجاية كانوا ميالين إلى المرح والرقص والموسيقى. انظر: محمد حسن، مرجع سابق، ص ٤٨٨، الوزان، وصف إفريقيا، ج ٢ ، ص ٥١.

[٣] المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٢٥.

[٤] بزنشفيك، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٥.

[٥] الوزان، وصف افريقيا، ج ٢ ، ص ٩٤.

[1] وكذلك ذكر الأدريسي[2] سوق الخميس وسوق الاثنين في منطقة بجاية في القرن الثاني عَشَرَ الميلادي.

وكانت تعقد في مدينة تونس ثلاثة أسواق في أماكن مختلفة كل أسبوع، وكان يتوافد عليها البدو من كافة نواحيها حاملين معهم بضائع الريف [3].

وأقام سكان مدينة قسنطينة سوقاً كل أسبوع في أيام مختلفة كان يقصده عدد كبير من تجار قسنطينة ومدينة القالة[4].

والجدير بالذكر أن الأسواق الأسبوعية كانت غالباً ما تقام عند أبواب المدن ؛ ويؤمها المزارعون والبدو ببضائعهم الريفية التي يبيعونها لاقتناء حاجات بالمدينة، وعادة ما كان يذبح عدد كبير من الماشية[5].

وقد كان يراعي في نصب الأسواق ما يوفر سهولة التموين من جهة ويحترم متطلبات حفظ الصحة أو النظام المعماري بالمدينة من جهة أخرى؛ فانتظمت الأسواق الخاصة بمواد الاستهلاك العادي أو بمواد الترف وبيع الأقمشة أو الثياب الجاهزة قرب السماط الأعظم الواصل إلى جامع البلد [6].

ففي مدينة تونس مثلاً نظمت الأسواق حول الجامع الكبير، والذي يفتح أبوابه على الأسواق المحيطة به كل حسب اتصاله وظيفياً بالجامع.

---

[1] التجاني ؛ الرحلة ، ص٢١٥-٢١٦.

[2] مصدر سابق ، ج١ ، ص ٢٦٢-٢٦١.

[3] محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج ١، ص ٥١٠.

[4] الوزان، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٠٣.

[5] كما كان يقع بأغمات وريكة في العصر الموحدي حيث يذبح أكثر من مائة ثور وألف شاه. انظر: الأدريسي، مصدر سابق، ج١ ، ص ٢٣١.

[6] محمد سويسي، أنماط العمران البشري بإفريقية وجزيرة المغرب حتى العهد الحفصي، مركز النشر الجامعي، تونس، ٢٠٠١، ص ٨٩.

فكان سوق العطارين(*)(حيث تباع العطورات من ماء الورد ، والياسمين والمسك ، والعنبر) يقع قرب جامع الزيتونة، وهو يجاور سوق الفكة (أي الفاكهة حيث يباع العنب المجفف (الزبيب) واللوز ، وحب السمسم والتوابل والبهارات)، ثم سوق الكبابجية (حيث يباع غزيل الصوف والكتان والحرير وخيوط الفضة والذهب الصالحة للطرازة)، ثم سوق القماش (حيث تباع الأنسجة والثياب الجاهزة)(١). وهكذا كانت الأسواق مرتبة داخل المدينة حسب أهميتها طبقة طبقة، بحيث يكون آخرها إلى جانب سور المدينة حيث كانت الأرباض الكائنة في أطراف المدينة مخصصة للبضائع الواردة عليها في الأرياف ومن داخل البلاد، كما جمعت فيها المواد الوسخة أو ذات الروائح الكريهة، حتى تكون بعيدة عن المنازل؛ فربض ابن سعدون بمدينة تونس كان سوق التباين والحلفاء والجنارة، ورحبة الغنم، و " المركاض" المقتبس اسمه من الإسبانية (Mercado) أي السوق الصغيرة أو السُّويقَة حيث تباع الخيل والبغال والحمير(٢).

أو خوفاً من الحريق أو الدخان الذي ينبعث من بعضها الآخر مثل سوق الدباغين الذي وجد في مدينة تونس على الطريق المحيطة بسور المدينة، من جهة البحر؛ وسوق الحدادين الذي وجد بباب المنارة.

كذلك كانت أسواق مدينة طرابلس منسقة مفصول بعضها عن البعض بحسب اختلاف الحرف لاسيما حرفة النساجين(٣).

(*) يقع سوق العطارين في مدينة تونس على طول الطريق المسمى في المصادر (طريق العطارين) وهو نهج جامع الزيتونة حالياً، وكان على راس هذه السوق أمين العطارين الذي اتخذ مقراً له في القرن ٧هـ/ ١٣م خارج باب االمنارة؛ ويعتبر سوق العطارين من الأسواق الحضرية التي يكثر عليها إقبال النساء حسب شهادة الوزان الذي ذكر أن التونسيات " لا يشتغلن بغير زينتهن وعطرهن، حتى أن العطارين هم دائماً آخر من يغلقون دكاكينهم". انظر: ابن الشماع، الأدلة البينة النورانية ص ٩١، ابن أبي دينار، المؤنس، ص ١٤٤، الوزان، مصدر سابق، ج ٢ ، س ٧٨.

(١) محمد سويسي، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٢) نجاة باشا، التجارة في المغرب الإسلامي، ص ٥٢.

(٣) الوزان، مصدر سابق، ج ٢، ص ٩٧.

ووجد في مدينة بجاية عدة أسواق ارتبطت بالميناء الذي شكل حركة تجارية نشطة؛ منها سوق قيسارية الذي احتوى تجارة القماش والبضائع الثمينة مثل الحرير[١]، وسوق الصوافين [٢] وسوق الأسرى بحومة المذبح وخاصة أسرى القرصنة[٣].

وتجدر الإشارة إلى أن مدينة قسنطينة كانت السوق الرئيسة للصوف والحبوب حيث كانت بالنسبة للفلاحين والرعاة الرحل في الهضاب العليا المجاورة، مستودعاً للقمح الذي كان يخزن في دهاليز؛ وكان أيضاً تباع فيها بكثرة التمور والعبيد المجلوبين من الجنوب، وغير ذلك من البضائع المتنوعة محلياً أو المستوردة [٤].

ووجدت أسواق ورحبات خاصة بالحبوب، يطلق عليها سوق (البر) وقد انتقل هذا السوق من مكانه إلى موضع ثانٍ ملك للمخزن بمدينة القيروان في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري؛ وقد أجبر تجار سوق (البر) على إخلاء المكان الأول عنوة[٥].

وإلى جانب الأسواق التي كانت تعقد في المدن وجدت أسواق في البادية التي يقع فيها التبادل بين منتجات الحضر والنتاج الزراعي والبدوي، ويتم فيها تجميع هذا النتاج والتقاء الجماعات البدوية [٦].

وغالباً ما يكون هذا النوع من الأسواق أسبوعية أو موسمية[*]؛ وتجدر الإشارة إلى أن الخارطة العامة للأسواق القروية والبدوية بإفريقية قد شهدت تطوراً إبتداءً من القرن السابع الهجري/ الثالثَ عَشَرَ الميلادي؛ فقد اندثرت أسواق عديدة نظراً لتراجع العمران في

---

[١] بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، ج ١ ،ص ١٢٣.

[٢] برنشفيك، مرجع سابق، ج ١، ص ٤١٦.

[٣] بعيزيق، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٣.

[٤] برنشفيك، مرجع سابق، ج ١، ص ٤١٩. وإن لم ترد إشارات واضحة في المصادر عن وجود أسواق مخصصة لذلك (التمور والعبيد) إلا أن عمليات البيع والشراء لتلك البضائع لابد وأنها كانت تتم في الأسواق، سواء أكانت يومية أم أسبوعية.

[٥] محمد حسن، المدينة والبادية ، ج ١، ص ٤٩٧.

[٦] محمد حسن، المرجع نفسه، ج ١، ص ٥١٠.

[*] ومن أبرز الأمثلة عن الأسواق الموسمية (سوق زاوية أولاد سنان في طرابلس، والسوق المنعقد في توزر. حيث كانت بمثابة معارض تجارية يتجمع فيها عدد كبير من السكان لإجراء العمليات التجارية. التجاني، الرحلة، ص ٢١٤. الوزان، وصف أفريقيا، ج ٢ ، ص ١٤٣.

مناطقها، بينما برزت أسواق أخرى حول التجمعات السكنية المستحدثة وفي نقاط التقاء القبائل[١]. ومن أبرز الأمثلة على ذلك هي كورة رصفة التي ذكرت بها عديد الأسماء الحاملة لكلمة سوق في الحقبة الأولى من العصر الوسيط مثل سوق الحسيني وسوق بدرنة[٢]. إلا أن تلك الأسماء قد انقرضت في العهد الحفصي، وانتصبت أسواق أخرى في القرى والقصور التي تم تعميرها، مثل الجم[٣].

وسواء تعلق الأمر بأسواق المدنية أو البادية، فإنها كانت مجالات لحركية اجتماعية واقتصادية على حد سواء؛ وموقعاً ملائماً للتلاقي الثقافي بين عالم المدينة وعالم البادية، فقد كان التجار الحضر يترددون على الأسواق الريفية لاقتناء الماشية والمنسوجات الزراعية. أما الأسواق الحضرية، فإنها كانت مقصداً أيضاً لأهل البادية؛ لقضاء شؤُون وتوفير احتياجاتهم[٤] والاثنان أديا مهمة في ترويج السلع والبضائع من خلال عمليات البيع والشراء؛ وبالتالي في نشاط الحركة التجارية.

وقد وردت إشارات متفرقة وغير مفصلة عن تنظيم الأسواق داخل مدن إفريقية، فهذا سوق الحواتين بباب البحر كان يضم ثلاثمائة عامل [٥] ، أما دكاكين العطارة في مدينة تونس فقد بلغ عددها سبعمائة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري وتحديداً في عهد السلطان "أبو يحي اللحياني" عام ٧١٠هـ/١٣١١م[٦].

بينما بلغ عددُ الطواحين وقتذاك حوالي مائة وعشرين طاحونة[٧].

وكان العمل يبدأ في الأسواق منذ أن تفتح أبوابها بعد طلوع الشمس ويمتد لساعات متأخرة من النهار، وتكون الأسواق مليئة بالحركة ويكثر فيها صخب المشترين وكانت

---

[١] محمد حسن، المدينة والبادية ، ج ١، ٥١٠.

[٢] محمد حسن، مرجع سابق، ج ١، الصفحة نفسها.

[٣] وهو أعظم حصون إفريقية وأشهرها منذ القدم وشكله مستدير وارتفاعه في الهواء مائة ذراع. التجاني، الرحلة، ص ٥٧-٥٩. إبن خلدون، العبر، ج ٤، ص ١٦٥.

[٤] محمد حسن، مرجع سابق، ج ١، ص ٥١١.

[٥] محمد حسن، المرجع نفسه، ج ١، ص ٤٥٨.

[٦] إبن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص ١٣٦-٢٨٨.

[٧] محمد حسن، مرجع سابق ج ١، ص ٤٥٨.

عادة الأسواق في الأعياد أن تغلق أبوابها ولا تفتح إلا بعد مرور خمسة عشر يوماً من انتهاء العيد[١].

وتجدر الإشارة إلى أنه قد وجدت للطوائف غير المسلمة (أهل الذمة) أسواق مثل سوق الصاغة بمدينة تونس حيث وجد به بعض اليهود حوالي عام١٤٠٠م[٢].

ذلك لأن صناعة المعادن الثمينة من ذهب وفضة تمثل صناعة يهودية قديمة تم توريدها من المشرق إلى المغرب.

وفي وسط عمليات البيع والشراء التي تحدث في سائر أسواق إفريقية حيث يلتقي في تلك الأسواق جنباً إلى جنب أصحابُ البضائع والصناع والحرفيون والفلاحون والخواص والتجار المنتصبون في حوانيتهم الصغيرة والعديد من الزبائن من باعة ومشترين. في وسط ذلك كله نجد فيها شخصًا قويَّ الأثر تتجه نحوه كافة المعاملات، هو السمسار أي القائم بالوساطة بين الباعة والمشترين يمتد نشاطه على سوق أو واحدة ويقتصر تدخله في العمليات التجارية الصغيرة الجارية كل يوم[٣].

وفي غالب الأحيان يقتصر عمله على عمل " الدلال" فيقوم باشهار البضائع للبيع معلناً أثمانها ، ومشرفاً على عمليات المزايدة فيها؛ وتتمثل وظيفته إذن في ربط الصلة بين الباعة (تجار السوق) وبين المشترين (الزبائن) الذين قصدوا السوق لقضاء واقتناء حاجياتهم ولوزامهم. وهو يحاول أن يتدخل في كل معاملة تجري بالسوق، وأن يفسح مجال نفوذه فيها[٤].

أما عن السلع المعروضة داخل تلك الأسواق فقد تنوعت واشتهرت كل منها بنوع معين من المعروضات، فالبعض اختص بالتجارة في الحاصلات الزراعية؛ والبعض في

---

[١] منى سيد عبد العزيز، مرجع سابق، ص ١٢٠.

[٢] برنشفيك، مرجع سابق ج١، ص ٤٤٢.

[٣] نجاة باشا، مرجع سابق، ص ٥٣.

[٤] نجاة باشا، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المنتجات الحيوانية ، والبعض الآخر في المنتجات الصناعية، وبذلك قام هناك نوع من التكامل بين هذه الأسواق بواسطة تبادل السلع بين المدن والقرى(١).

وإلى جانب المواد العادية التي وجدت في أسواق المدن، والتي تباع غالباً إلى أهل البادية؛ احتوت أسواق المدنية على أصنافٍ من البضائع الرفيعة قصد توفيرها إلى الطبقة الاجتماعية الأكثر حضوة كالسلطان والحاشية وكبار القواد؛ وفي حالة انعدام تلك البضائع الثمينة فإن تلك النخبة تستوردها من الخارج(٢).

الحسبة :-

لقد خضعت الأسواق في بلاد إفريقية أيام الحكم الموحدي والحفصي لنظام شديد من المراقبة والتنظيم ومقاومة الغش ، ومنع التدليس ، والإشراف على عمليات البيع والشراء. وكان كل ذلك في يد المحتسب(*).

والحسبة وظيفة من قبيل الوظائف الدينية من باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر. قال تعالى : " ولتكن منكم أمةُ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أولئك هم المفلحون" (٣).

وقال "صلَّى الله عليه وسلم" : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان" (٤).

ويعتبر المحتسب المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية عامة في المدينة وللحياة التجارية والصناعية على وجه الخصوص؛ ولذا فإن نظام الحسبة كان من أوائل النظم

---

(١) عفيفي محمود إبراهيم، مظاهر الحضارة في بلاد المغرب ، ص ١٧٣.

(٢) عبد العزيز الدولاتي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(*) ويبدو أن نظام الحسبة لم يكن بالأمر الجديد في افريقية، فقد عرف هذا النظام في العصور الإسلامية الأولى؛ فقد كانت الحسبة ترجع بالنظر إلى ولاة القيروان، إلى أن تولى سحنون قضاء افريقية عام ٢٣٣ هـ فأصبح ينظر في شؤون الأسواق، وهو بذلك أول من نظر في الأسواق حيث كانت قبل ذلك في يد الولاة دون القضاة؛ فنظر سحنون فيما يصلح من المعاش وما يغش من السلع وكان يجعل الأمناء على ذلك ويؤدب على الغش وينفي في الأسواق ما يستحق ذلك؛ وهو أول من نظر في الحسبة في القضاة، وأمر الناس بتغيير المنكر. انظر، الحبيب الجنحاني المغرب الإسلامي (الحياة الاقتصادية والاجتماعية) الدار التونسية للنشر، ١٩٧٧، ص ٧٠.

(٣) سورة آل عمران، ١٠٤ .

(٤) صحيح البخاري.

الإسلامية ظهوراً؛ وكانت الحسبة عملاً دينياً في بدايته يقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتولاه المحتسب ثم مالم تلبث أن تحولت ولاية الحسبة عن الرقابة الأخلاقية إلى كثير من شئون الحياة العامة إلى أن اقتصرت وظيفتها في الأساس على تتبع المخالفات التجارية في المدن الإسلامية والتعزير أو تنفيذ العقوبة؛ والمعروف أن هذا الأساس لا يخرج بمهمة المحتسب عن صبغتها الدينية في شيء وذلك لأن نظرة الإسلام إلى التجارة تقضي باعتبار المعاملات مهما تكن طبيعتها خاضعة لمجموعة من القواعد مقررة بالسنة (١).

وكان المشكل الذي ينصب عليه اهتمام المحتسب يتجلى في مقاومة عمليات الغش في البيع والعقوبات الزجرية التي كانت تفرض على الغاشين. ومنها على سبيل المثال: طردهم من السوق أو مصادرة بضاعتهم والتصدق بها على الفقراء(٢).

ومن مهام المحتسب النظر في الأسواق وترتيب الصناع كل مهنة في موضعها، ومنع إعاقة الحركة في الأسواق ومنع الغش والتدليس في المعايش وغيرها من المكاييل والموازين ومراقبة الأسعار ومنع الاحتكار (٣) لأن الأوزان والمكاييل معروفة المقدار، فلا يغير التجار منها شيئاً ومن فعل ذلك استوجب العقوبة وأخرج من السوق (٤).

ومن أمثلة الغش في الأسواق: بيع الخبز ناقص الوزن ، وقيام صاحب الفرن بخلط القمح الردئ بالطيب، وخلط العسل الجيد بالردئ، والزيت القديم بالجديد، وخلط اللبن بالماء ، وتبيض الأكسية بالكبريت، ودهن التين بالزيت، وقيام الجزارين بخلط اللحم السمين بالمهزول أو النفخ في اللحم(٥).

(١) كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين، ص ٣٠٩.

(٢) إبراهيم القادري بوتشيش ، مرجع سابق، ص ١٠١.

(٣) إبن خلدون، المقدمة، ص ٢٠١.

(٤) يحي بن عمر، ،النظر والأحكام في جميع أحوال االسوق، نص أستخرجه محمود على مكى وعلق عليه في صحيفة الدراسات الإسلامية ، المجلد الرابع ، مدريد ، ١٩٥٦ ، ص ٣١-٣٢.

(٥) الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ج ٦، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٥٤- ٤٠٩-٤١١-٤١٦.

ومن الغش أيضاً غش الدراهم والدنانير بالنحاس، فلا يحل لأحد أن يغش بها فيعطيها على أنها طيبة؛ ولا أن يبيعها من يعلم أنه يغش بها.

" وإذا ظهرت دراهم مبهرجة فليشتد فيها ويبحث عن أصلها، فإذا ظهر محدثها مفرداً أو متعدداً فليشدد في عقوبته ويطوف به في الأسواق مما يكون نكالاً لغيره وردعاً لهم مما يرى في عظم ما نزل به وحبسه على قدر ما يرى"[١].

ويشترط السقطي في المحتسب أن يبدأ بالترفق والتلطف حتى يستوى من زل ويهتدي من ظل مستنداً إلى قوله تعالى : " فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى" [٢]. هذا إذا لم يخش مع سلوك الترفق فوات التغيير ، أو ظهور الإهانة والازدراء بالمقدم على ذلك، ويكون رفقة غير مانع لذلك، فهذا يلزم المغير تغييره بما أمكن من العنف المفيد للإزالة[٣].

وأما مراتب التغيير فعلى خمسة أنواع: مجرد التنبيه والتذكير والوعظ بما يهز النفس ويميلها إلى تصفية الباطن ، والبعد عن الإثم ومواقع الجرائم، والزجر والتأنيب والإعلاظ بالقول والتقريع باللسان والشدة في التهديد والتغيير بملاقاة اليد بإزالة ذلك المنكر وإذهاب وجوده وإيقاع العقوبة بالضرب بالأيدي" [٤].

وكان المحتسب في العصر الموحدي يعين عن طريق القاضي وبموافقة الوالي[٥].

وقد أولى الموحدون خطة الحسبة عناية فائقة، وتشددوا في مراقبة الأسواق والمحافظة على نظامها ونظافتها، فكان ممثلوهم يراقبون الأسواق للحيلولة دون تراكم الأوحال في الطرقات، ومنع التجار من الجلوس أمام حوانيتهم أو بسط الجلود أو ذبح الأنعام في الممرات، وغير ذلك من الأشياء التي تشوه نظافة الأسواق[٦].

---

[١] الونشريسي ، مصدر سابق، ج ٦ ، ص ٤٠٧ .

[٢] سورة طه ، الآية ٤٤ .

[٣] نجاه باشا ، مرجع سابق ، ص ٦٠ .

[٤] السقطي، في آداب الحسبة ، تحقيق : كولان و ليفى بروفنسال ، باريس ، ١٩٣١ ، ص ٢٢١ .

[٥] ابن عبدون، رسالة في الحسبة، ص ٢٠.

[٦] القادري بوتشيش، مرجع سابق، ص ١٠٢.

والجدير بالذكر أن خطة الحسبة قد بلغت ذروتها في عهد الخليفة الموحدي يعقوب الموحدي (٥٨٠- ٥٩٥هـ) الذي أبدى عناية خاصة بالأسواق والمحتسبين؛ ويحدثنا المراكشي في هذا الشأن قائلا: [١] " وكان (يعقوب الموحدي) قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق، وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم".

كما أن السلطة الموحدية قد حرصت على تعيين أمناء للأسواق لمساعدة المحتسب في مهمته [٢] فأفردت لكل سوق أمين ينظر في أحوال السوق ويراقبه بحسب اجتهاده، وذلك لمعرفة كل كبيرة وصغيرة تحدث داخل الأسواق[٣].

وكان يتم اختيار أمين السوق من بين ثقاة الناس، أو من بين الحرفيين الأكثر اتقاناً للعمل[٤]، ويتولى الأمين فحص البضاعة عند البيع، ومراقبة جودتها ، ومنع الغش فيها؛ وقد تم ذكر أمناء لعديد من المهن بطريقة عرضية وفي مصادر متفرقة بمدينة تونس مثل: أمين العطارين الواقع دكانه خارج باب منارة، أمين الجزارين، أمين سوق السقاطين، أمين سوق الصباغين. وكثيراً ما يرد لفظ الأمين، دون توضيح للمهنة، وفي مواضع أخرى: أمناء السوق والتجار.

وعلى العموم فإنه كان لغالبية المهن أمين خاص بها[٥].

وكان على المحتسب أن يراقب أعوانه (الأمناء) الذين اتخذهم لمساعدته على القيام بمهامه في الأسواق، فلا يكلف منهم دائماً فريقاً بعينه للقيام بالمهام حتى لا يكونوا عرضة للإرتشاء وغض الطرف عن بعض المناكر[٦].

فقد أورد ابن عبدون في رسالته عن الحسبة مجموعة من الحيل والطرق التي كان ينتهجها بعض الباعة في الأسواق وتواطئهم أحياناً مع الأمناء الذين يكلفهم المحتسب

---

[١] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٢٣٦.

[٢] عز الدين موسى، مرجع سابق، ص ٢٩٥.

[٣] القادري بوتشيش ، مرجع سابق، ص ١٠٣.

[٤] ابن عبدون، كتاب الحسبة، ص ٢٤٤، محمد حسن، المدينة والبادية ، ج ١، ص ٥١٣.

[٥] محمد حسن، المرجع نفسه، ج ١ ، ص ٥١٤.

[٦] نجاه بشا، مرجع سابق، ص ٦١.

بمساعدته؛ إذ فطن إلى الإغراءات التي تقدم لهم على شكل رشوة تجعلهم يغضون الطرف عن بعض الانحرافات في طرق البيع، وأوصى المحتسبون بعدم إخبار أعوانه بوقت خروجهم لمراقبة الأسواق حتى يكون عنصر المباغتة عاملاً من عوامل كشف عمليات الغش والتدليس[١].

ولا شك أن مثل تلك الانحرافات كانت تحدث أيضاً في أسواق إفريقية في العصر الموحدي والحفصي.

ذكرنا أن المحتسب كان يعين من قبل القاضي؛ وهو يتبعه بالنظر، وفي ذلك ما يثبت صفته الشرعية. غير أنه بعد أن حدثت الحركات الانفصالية، واستقل الأمراء في الولايات عن السلطة المركزية؛ صارت وظيفة المحتسب ذات صبغة سياسية ترتبط مباشرة بسلطة الأمير [٢].

وينطبق ذلك على العهد الحفصي في إفريقية، عندما استقلت عن الحكم الموحدي في مراكش، حيث تغيرت وظيفة الحسبة؛ ولم تعد ذات قيمة تذكر، فقد تحول النفوذ الحقيقي إلى " قاضي الجماعة"[*]. الذي كان ينظر في كل المسائل المتعلقة بالمحتسب

---

[١] ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص ٩

[٢] ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠١.

[*] يعتبر قاضي الجماعة من أبرز رجال الدولة، فهو الممثل لأعلى سلطة دينية في كامل البلاد، إذ كان يسمك بمقاليد مصلحة القضاء والشعائر الدينية، وبالنسبة إلى إفريقية فقد كان بالإضافة إلى ذلك يقوم بدور الحاكم المدني. ويساعده في بعض القضايا البعض من الموظفين، وقد كان جميع قضاة الجماعة تقريباً، في العهد الحفصي من أبناء البلد، فكانوا خلال القرن الثالث عشر أصيلي تونس والمهدية وصفاقس وتوزو وقابس وطرابلس. وتجدر الإشارة إلى أنه ابتداءاً من عهد السلطان الحفصي أبي بكر، خلال الربع الثاني من القرن الرابع عشر أصبح قاضي الجماعة لا يتعرض إلى

من تهيئة عمرانية وأحكام السوق (أسعار ومكاييل وموازين..) وإصلاح النقود والتثبت من وزنها... وغير ذلك.

وأصبح المحتسب في الواجهة الخلفية؛ ولم تتعرض له المصادر الحفصية طيلة فترة أواخر العصور الوسطى إلا نادراً.

وقد كان في كل الأحوال تحت سلطة القاضي الذي يقوم بتعيينه بموجب عقد يرد فيه " اشهد الفقيه القاضي بمدينة كذا فلان أنه قدم فلاناً على النظر في الحسبة بالمدينة المذكورة، والقيام بمصالحها وتفقد مكاييلها وموازينها، والبحث عمن يغش المسلمين فيها ويمنع تلقي السلع والأضرار بالاحتكار، وإجراء الغش في المبيعات كلها، والأحداث في طرقات المسلمين وأمره بالمعروف وحمل الناس عليه وأمره بالحكم في ذلك كله بالحق... " [١].

واقتصر دور المحتسب على ردع الحرفيين عند غشهم؛ أو عند رفض أحدهم أن يبيع بضاعته للناس وحل النزاعات الحاصلة بين أصحاب الصنائع والعوام دونما التحكم في البيع المخصص للأعيان؛ فكان صغار التجار (الباعة) كثيراً ما يتعرضون إلى ضغوطات أعوان المحتسب والعامل ، فيحملونهم عيوب بضاعة ينتجونها كالخبز مثلاً، فيما يغضون الطرف عن أصحاب الأفران لأنهم مقربون من المخزن يدفعون وظائف للعمال [٢].

ويبدو أنه شيئاً فشيئاً بدأت الحسبة تنفصل عن خطة القضاء؛ ولم تعد تابعة لها؛ وتراجعت مهامها وأصبحت في كثير من الأحيان من مهام قاضي الجماعة وأعوانه. مثال على ذلك تدخل قاضي الجماعة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر

العزل من قبل السلطان بل يبقى مباشراً لمهامه إلى أن تدركه المنية. انظر: برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١٥-١١٨-١١٩.

[١] محمد حسن، المدينة والبادية ، ج ١، ص ٥١١.

[٢] البرزلي، فتاوى جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ، ج ٣، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ٢٠٠٢ ، ص ١٨٧.

الميلادي بقطع الطواحين المستحدثة في أسواق مدينة تونس لقلي الحبوب فأضر دخانها بالسكان. الأمر الذي استدعى تدخل قاضي الجماعة وأمر بقطعها[١].

أو في كثير من الأحيان لا يقوم المحتسب بأي عمل، إلا بعد موافقة قاضي الجماعة، مثل الذي قطع دور الدبغ داخل المدينة وحولها إلى خارج الأسوار، وقام آخر لإزالة مصب للمياه المستعملة بدرب النشار بباب سويقة بمدينة تونس؛ ولكن كل ذلك بعد أن وافق قاضي الجماعة[٢].

وتجدر الإشارة إلى أنه وإن تخلى المحتسب عن الكثير من المهام وتناقص عدد أعوانه في الأسواق؛ إلا أن هذا لم ينه عمله بشكل مطلق، فقد جلس المحتسب وسط الأسواق الكبرى في إفريقية على استعداد تام لحل النزاعات وفضها.

التسعير:

أما عن أسعار السلع داخل الأسواق، فلم تكن ثابتة لأنها لم تكن بمنأى عن الأحداث السياسية ، والظروف الطبيعية السائدة آنذاك؛ فكانت ترتفع تارة وتنخفض أخرى وفقاً لنظرية العرض والطلب. ففي أيام الرخاء يكثر النتاج ، ويفيض عن الحاجة فتنخفض الأسعار أما في أوقات الشدة فيقل الإنتاج ولا يفي بحاجة السكان فترتفع الأسعار[٣].

فكان مثلاً متوسط سعر القفيز من القمح في إفريقية يساوي خمسين درهماً، والشعير أقل من ذلك، وغالب سعر لحم الضأن كان كل رطل بدرهم، وأنواع اللحوم الأخرى أقل منه في الثمن؛ وثمن الدجاجة درهمان[٤].

إلا أن تلك الأسعار قد ارتفعت وحدث الغلاء، فسجل سعر القفيز من القمح ثمانية دنانير من الذهب، وذلك في عام ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م عندما مرت تونس بظروف سياسية قاسية ووقوعها في يدي بني مرين، وأيضاً عندما إجتاح الوباء والأمراض مدينة تونس [١].

---

[١] محمد حسن، المدينة والبادية ، ج ١، ص ٤٩٦.

[٢] البرزلي، مصدر سابق، ج ٣ ، ص ٢٩٢– ٢٩٣.

[٣] عفيفي محمود إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٧٤.

[٤] العمري، مسالك الأبصار، ص ٦، القلقشندي، صبح الأعشي، ج ٥ ص ١١٥.

وفي عام ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م ارتفعت أسعار بعض المواد الغذائية في إفريقية إذ وصل سعر قفيز القمح إلى أربعة دنانير، والشعير أقل من ذلك، فشكا الناس من قلة الطعام وغلائه للسلطان الحفصي آنذاك" أبي عمر وعثمان" ، فأمر السلطان بأن يخرج من المخزون كل يوم ما يصنع منه ألف خبزة، وتفرق على الفقراء في تونس، فابتدأ بتفريقها في ثالث ربيع الثاني ودام إلى رجب حتى كثر الطعام الجديد ورخص ثمنه(٢).

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا من هو المسئول عن ضبط أسعار البضائع؟ أو كيف يتم ضبط سعر البيع المسموح به؟

لقد اختلف علماء العرب في مسألة تحديد الأسعار؛ فأهل السنة(٣) وقفوا موقفاً سلبيًا من التسعير مفضلين حرية الأسعار؛ وذلك خلافاً للمعتزلة الذين نادوا بتدخل السلطة لتحديد الأسعار، فيما ذهبت كتب الحسبة (٤) إلى ضرورة تسعير المواد الأساسية للتغذية، مع التركيز على أمر أساسي وهو شرعية العمليات التجارية في البيع والشراء؛ وقد توصل المازري منذ القرن الثاني عَشَرَ الميلادي إلى الربط بين السعر ومدى توفر البضاعة وعدد المستهلكين وحاجاتهم، وهو ما يعبر عنه بقانون العرض والطلب (٥).

أما ابن خلدون فيرى أن تحديدَ السعر مرتبط بعدة معطيات أهمها: تكلفة الإنتاج للبضاعة، وذلك يتحدد بمقدار الربح الفائض عن سعر التكلفة ويشترط فيه أن يكون كافياً لتوفير الكسب؛ لأن استدامه الرخص في عرض السلع إنما يؤدي إلى فساد الربح وكساد

---

(١) ابن أبي دينار، المؤنس، ص ١٣٦-١٣٩.

(٢) الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ٢٩٩.

(٣) لقد أنكر مالك بالمدينة التسعير على الناس، ورآه من التحكم والظلم؛ ومن قول الرسول " صلى الله عليه وسلم" : " السوق بيد الله يخفضها ويرفعها ولكن مروهم ليخرجوا متاعهم إلى البراز وليبيعوا كيف أحبوا" وسئل مالك عن صاحب السوق يريد أن يسعر على الناس السوق فيقول لهم : " إما بعتم بعسر ويسميه لهم وإلا قمتم. قال: لا خير في هذا" . نجاة باشا، مرجع سابق، ص٢٤.

(٤) يذكر الونشريسي أن المحتسب هو الذي يتولى تسعير الخضر والفاكهة في الأسواق، ويفرض ذلك على أصحابها، إذ انه كان من المعتاد أن يشتري الباعة تلك المنتجات الزراعية من أصحاب المزارع والبساتين دون سعر محدد، ثم يقوم صاحب السوق بتحديد السعر بعد أن يعرف قيمة ما اشتروه ولا يدعهم يتشططون على الناس في الأرباح. انظر: المعيار المعرب، ج ٥، ص٨٣-٨٤-٨٥ .

(٥) محمد حسن، المدينة والبادية، ج ١ ، ص ٤٩٨.

السوق وتعود التجار عن السعي وفساد رُعُوس أموالهم، وكذلك الغلاء المفرط يؤدي إلى النقص في البيع وتبعاً لذلك، قرر ابن خلدون أن معاش الناس وكسبهم يكون في المتوسط[١].

وبذلك نلاحظ أن تحديد السعر حسب رأي ابن خلدون مرتبط بقانون العرض والطلب، ولا يخضع لأي ضغوطات من السلطة الحاكمة إنما هو نتيجة لحرية المنافسة في السوق الذي كان يلعب دور موازنة الأسعار ومعادلتها بطريقة تلقائية[٢].

الاحتكار:

وبغية تنظيم عمليات البيع والشراء في الأسواق، والحرص على سيرها سيراً حسناً. تصدت الدولة لعمليات الاحتكار التي كان يقوم بها بعض التجار؛ حيث كانوا يعمدون إلى إخفاء البضائع وتخزينها حتى تفقد في السوق، فيشتد الطلب عليها ويرتفع ثمنها، خاصة في أوقات الكوارث والأزمات[٣].

ويشير الونشريسي [٤] إلى وجود ظاهرة احتكار السلع بالأسواق المغربية فيذكر أن بعض التجار الجشعين يلجأون إلى احتكار الطعام في السوق مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار والإضرار بالناس.

ويقول يحي بن عمر [٥] في هؤلاء المحتكرين " إذا احتكروا الطعام، وكان ذلك مضراً بالسوق: أرى أن يباع عليها فيكون لهم رأس مالهم والربح يؤخذ منهم ويتصدق به أدباً لهم وينهوا عن ذلك، فإذا عادوا كان الضرب والطواف والسجن لهم".

إذن فالاحتكار الذي يسبب الضرر هو محرم في الشريعة الإسلامية " فبائع الطعام ينتظر به غلاء الأسعار هو ظلم عام وصاحبه مذموم في الشرع قال "صلى الله عليه وسلم": من احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره" [١].

---

[١] ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٥٨.

[٢] محمد حسن، مرجع سابق، ج ١ ، ص ٤٩٩.

[٣] القادري بوتشيش، مرجع سابق، ص ١٠٣.

[٤] المعيار المعرب، ج ٦ ، ص ٤٢٥.

[٥] أحكام السوق، ص١١٤.

وقد وجدت ظاهرة الاحتكار في أسواق إفريقية في فترة العصور الوسطى فكان القصابون (الجزارون) أو بالأحرى تجار الماشية يمارسون احتكاراً واضحاً في مهنتهم تلك؛ فقد خضعت المهنة إلى تنظيم عمودي قاعدته السفلى الرعاة، وأعلاه السلطان، فمنذ العهد الزيري انفرد تاجر السلطان بشراء الماشية من السوق ثم يقوم بتوزيعها على " فقراء" الجزارين لذبحها مرابحة[٢].

وقد ظل هذا الاحتكار قائماً في العهدين الموحدي والحفصي في إفريقية: إذ انفرد بعض الجزارين باشتراء المواشي برحبة الغنم بتونس، فيما منع بقية الناس، وهذه العملية كانت تحظى بموافقة ضمنية من السلطان بل أكثر من ذلك : فقد شارك كل من السلطان والقصاب في النهب المنظم الذي تعرضت له البادية، وهو أخذ إتاوة على الرعاة يطلق عليها شاه العادة [٣].

وقد قال البرزلي [٤] في شأنها : "ومثله في القيروان يجعل جزارًا مشهورًا يده على شاه أو شياه يقال لها: شاة العادة يلزمها من المخزن أضعاف ما يلزم غيرها، فلا يقدر أحد أن يزيد فيها حتى يأخذها من البدوي بما يشتهي من بخس الثمن".

ومن الطرق الأخرى الدالة على ظاهرة الاحتكار، هي أن الجزارين يتلقون الغنم المقبلة في البادية في الطريق لاقتنائها بأسعار غير مرتفعة[٥] وليس الغنم فحسب بل عمد تجار الحضر إلى تلقي السلع الأخرى الوافدة عليهم في البادية قبل وصولها إلى السوق وإنزالها منهم، فيشترونها بأبخس الأثمان ثم يبيعونها في السوق بأثمان مرتفعة بغية تحقيق ربح أكثر [٦].

---

[١] نجاة باشا، مرجع سابق، ص٢٢.

[٢] محمد حسن، المدينة والبادية ، ج ١ ، ص ٤٨٥.

[٣] محمد حسن ، المرجع نفسه، ج ١ ، ص ٤٨٦.

[٤] جامع مسائل الأحكام، ج ٣ ، ص ١٧٤.

[٥] محمد حسن، المدينة والبادية ، ج ١ ، ص ٤٨٦.

[٦] البرزلي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٣٢-٢٣٣-٢٣٤.

كذلك تعرضت أسواق العطارين في إفريقية إلى ظاهرة من ظواهر الاحتكار، ذلك أن بعض العطارين غالباً ما كانوا يتلقون بعض السلع الواردة عليهم من المدن الأوروبية قبل وصولها إلى الأسواق، فيتحولون رأساً إلى فنادق النصارى لاقتناء تلك البضائع.

إلا أن الإقبال الشديد على المواد المستوردة قد أضر ببقية العطارين المتواجدين في السوق، فعملت تلك النخبة المتضررة من احتكار الأقلية على تقديم شكوى إلى قاضي الجماعة(*)عمر ابن عبد الرفيع(**)(٧٤٩-٧٦٦هـ/ ١٣٤٨-١٣٦٤م) الذي أجبرهم على الامتناع عن ذلك وألزمهم هذا الأمر كتابياً بشهادة الفقية ابن عرفه(***).

ومن المستبعد أن نعتقد أن القاضي (عمر بن عبد الرفيع) قد أراد بهذه الصورة الدفاع عن مصالح النصارى؛ ألم يكن يخشى انخفاض الأسعار انخفاضاً مجحفاً بالنسبة للتجار الذين في حوزتهم كميات كبيرة من البضائع؟

ولكن يبدو أن القاضي (عمر بن عبد الرفيع) قد اهتم بالامتثال إلى قواعد الشريعة دون الاهتمام بأسباب ذلك النهى، أو بالانعكاسات الاقتصادية لتلك الطريقة(١).

وهذا على كل حال يعطينا صورة واضحة عن شرعية المعاملات التجارية في العهد الحفصي وامتثالها- أحياناً- لقواعد الشريعة الإسلامية.

(*) في تلك الفترة كانت مهنة المحتسب ليست بذات شأن وأصبح تسيير غالبية الأمور في الأسواق بيد قاضي الجماعة.

(**) تولى خطة القضاء بنوع من الاحتيال حيث أنه بعد أن توفى قاضي الجماعة محمد بن عبد السلام عام ٧٤٩هـ دفع ابن عبد الرفيع بنفسه إلى خالد بن تساسكرت في بيوتان تونس وخدم في بلاط السلطان الحفصي أبي بكر يحي- وقال له إن توسطت لي في خطة القضاء فأنا أوليك عدلاً تونس فإحتال ابن تاسكرت في توليه ابن عبد الرفيع قاضي الأنكحة أولاً ، ومن المعروف أن قاضي الأنحكة هو الذي يتولى قضاء الجماعة فولاه السلطان. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ١٨٠.

(***) الفقيه العالم محمد بن محمد الورغمى التونسي المعروف بإبن عرفة كان له حظوة في الدولة الحفصية وكان إمام وخطيب بجامع الزيتونة. توفى عام ٨٠٣هـ. ابن القنفذ، الفارسية، ص ١٩٧-٢٩٠.

(١) برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٥٥.

ضرائب الأسواق:

لم تكن ضرائب أو قبالات الأسواق(*) في إفريقية أمراً مستحدثاً في العهدين الموحدي والحفصي، إنما عرفتها المجتمعات العربية الإسلامية منذ العهود السابقة(**).

وتجدر الإشارة إلى أن الدولة الموحدية قد حرصت في بادئ أمرها، على الالتزام بأحكام الشرع الإسلامي في جباية الضرائب؛ ويبدو ذلك جلياً من خلال الكتب التي أرسلها الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي للبلدان التابعة للدولة الموحدية وذلك للنظر في مصالح المسلمين، خاصة بعد أن وصلته المظالم التي ظهرت في الولايات والقبالات أو الضرائب المجحفة التي اشتهرت في الأسواق؛ فأمر بكتابة كتاب إلى الطلبة والأشياخ والحفاظ يأمرهم فيه بالمعروف وينهى عن المنكر [٢].

(*) وردت كلمة الضرائب في غالبية المصادر التاريخية تحت اسم قبالات أو مكوس والمكس (مفرد) وهو رسم يدفعه التجار والحرفيون في الأسواق ومتولى تلك الوظيفة يسمى " مكاساً" واعتبر فقهاء الإسلام أن رسم المكس من الرسوم التي لا يجيزها الإسلام وغير موجود في الشريعة الإسلامية. وكذلك وردت تلك الضريبة تحت اسم اللزامات جمع اللزمة وهو مصطلح قد ذكر لأول مرة في العهد الحفصي. برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢ ، ص ٢٤٩. أبو شامة، مرجع سابق، ص ٣٤٣. محمد حسن، المدينة والبادية، ج ١ ، ص ٥٤٥.

(**) استعملت قبالات الأسواق في العهد الأغلبي في افريقية ممثلة عبء ثقيلاً لم يقع التخلص منه إلا في عهد إبراهيم بن أحمد حيث ذكر إبن عذارى: " رد إبراهيم بن أحمد المظالم وأسقط القبالات وأخذ العشر طعاماً وترك لأهل الضياع خراج منه" . وفي العهد الفاطمي شمل نظام القبالة أغلب الأسواق مما أدى إلى تذمر أهل المالكية من ذلك حيث ذكر ابن حوقل " أن جميع بلاد المغرب في أيام بني عبيد الله كان يعمل بالأمانة من غير ضمان، حتى تقبلت برقه، وليس بجميع المغرب ضمان غيرها" وفي مراكش فرض على بن يوسف بن تاشفين نظام القبالات على أغلب الأسواق. انظر ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ، ص ١١٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٤. الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي ، ص ٨٠-٨١-٨٢.

(٢) إبن عذاري، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص ٣٧-٣٨.

ومعنى ذلك إسقاط المغارم والقبالات وغيرها من وظائف الجباية المخالفة للشريعة الإسلامية [١].

غير أن تلك الإجراءات لم تكن في واقع الأمر سوى شعارات قصد منها ترسيخ دعائم الدولة ربما لكسب الرأي العام لمحاباة دولة وليدة، بالإضافة إلى الأساس الديني الذي قامت عليه دعوة الموحدين بزعامة المهدي بن تومرت .

ذلك لأن الأموال المجبية لم تكن كافية لسد حاجات الدولة الموحدية المتزايدة، خاصة وأن الجيش الموحدي ازداد عدده ، واتسعت رقعة نفوذه في المغرب والأندلس مما إضطرت الدولة إلى البحث عن موارد جديدة لتغطية النفقات المتزايدة[٢].

ولذلك اهتم الموحدون بالنظام المالي بوجه عام في الدولة؛ وخصصوا لنظام الضرائب فيه ديواناً خاصاً عرف " بديوان المجابي" في جميع الولايات، ويسمى صاحبه متولى المجابي وتقوم مهمته أساساً على تحصيل الضرائب بمختلف أنواعها ومن ضمنها ضرائب الأسواق؛ وكان له عمال في المدن والقرى يساعدونه في أداء مهمته[٣].

وكانت الدولة تعمل على فرض ضرائب جديدة، ومكوس على مختلف أنواع المعاملات من البيع والشراء؛ بالإضافة إلى الصادر والوارد. فكانت إذن الضرائب تفرض على أبناء الأمة كلما احتاجت الدولة إليها[٤].

ويشير الونشريسى[١] أن هناك ضريبة تسمى مغرم الأسواق وكانت تجبى من التجار والباعة والصناع بالأسواق، وكان أصل وضعها كما يقول: " عن اتفاق من أهل الحل والعقد قديماً لكون بيت المال عاجزاً أو قاصراً عنها..".

---

[١] صالح فياض أبو دياك، النظام المالي عند الحفصيين، مجلة الدراسات التاريخية، العدد ٢١-٢٢، السنة السابعة، إشبيلية للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٦م، ص ٩٢.

[٢] يرى ابن خلدون أن الدولة تكون في أولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده، فيكون خراجها وانفاقها قليلان فيكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم. ولكن لا تلبث أن تنغمس في الحضارة والترف. فيكون لذلك خراج أهل الدولة... وتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية في العطاء والسلطان من النفقة، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي هي في جملتها. ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥٠.

[٣] أبو دياك، مرجع سابق، ص ٩٣.

[٤] أبو دياك، المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

ويضيف أن تلك المغارم (أي مغارم الأسواق) " يجب حفظها وأن يولي لقبضها وتصريفها في مواضعها الثقات والأمناء..".

وفي العهد الحفصي- الذين سلكوا مسلك الموحدين- استمر العمل بالقبالة (الضريبة) وشملت شتى الحرف والتجارات، وكانت تتمثل في أن يتولى الجابي أو المتقبل التزام المالي الموظف على الأسواق، فيسلم المبلغ المطلوب للمخزن (بيت المال) على أن يؤخذ من التجار والحرفيين مبلغاً أكثر ارتفاعاً، وعادة ما يقع تكليف أحد الحرفيين أو التجار لجمع المال وتسليمه للمتقبل(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن المتقبلين والمستفيدين في هذا النظام الجبائي ينتمون عادة إلى أهل المخزن (بيت المال) والمقربين منه أو إلى كبار الحرفيين والتجار والمضاربين من سكان البلاد أو من الأجانب(*).

وتشير إحدى النوازل إلى فئة كانت تجلس عند أبواب المدن في العصر الحفصي لجباية ضريبة تسمى مكس الباب، وكان بعض قضاة تونس يحصلون على رواتبهم من ذلك المكس(٣).

وكان هناك ضريبة تعرف باسم حقوق الأرض " أو المكس" وهو رسم يحصل على الأماكن التي تشغلها بضائع التجار حين تطرح للبيع في الأسواق، أو على دكاكينهم في

---

(١) المعيار المعرب ، ج ٥، ص ٣٢.

(٢) محمد حسن، مرجع سابق، ج ١ ، ص ٥٤٥.

(*) لجأت الدولة الحفصية أحياناً إلى الاستعانة ببعض خبراء هذه المهنة من الأندلسيين، لممارستهم إياها في بلادهم، و يبدو أن مثل تلك الوظائف قد أخذت – أحياناً- طابعاً أسرياً يورثها الأب للأبن؛ مثل أسرة بني سعيد القادمين من قلعة يحصب الواقعة بالقرب من غرناطة، والمعروفين ببني أبي الحسن، فقد استخدمهم الحفصيين في وظائف الجباية، وظلت متداولة بينهم وبين الموحدين، غير أن الحفصيين قد طوروا اسلوب الاختيار في التعيين فلم يقصروها عليهم، بل أفسحوا المجال لغيرهم من عمال الجباية ممن اتصفوا بالكفاية، وأظهروا من حسن الأعمال ما يسترعي الانتباه. أبو دياك، مرجع سابق، ص ٩٤ – ٩٥.

(٣) الونشريسي، المعيار المعرب ، ج ٦ ، ص ١٥٢. وقد ظهرت تلك الضريبة في العهد المرابطي حيث يفتح الجلاس محلاتهم ويتخذون دلالون فيها وينزلون التجار الغرباء عندهم، فكانوا بمثابة وسطاء بين الدلال والتاجر، فكلما جاء أحد ليشتري السلعة الواردة زاد الجلاس عليه حتى يبلغ السعر أكثر مما حدده الدلال، فيتقاسم الجلاس والدلال الزيادة، ويرى السقطي منع هؤلاء الجلاس في الجلوس في الأسواق، وقد أوقف الموحدون هؤلاء الجلاس عن العمل في التجارة، غير أنهم ظهروا مجدداً في افريقية في العصر الحفصي. عز الدين موسى، مرجع سابقن ص ٢٨٥.

الأسواق؛ حيث إن الدولة كانت مالكة لتلك الأماكن دون منازع سواء أكانت خالية أو بدكاكينها[١].

وبالإضافة إلى المكوس والمغارم التي يدفعها التجار عند أبواب المدن براً وبحراً وفي الأسواق كانت للجباة مبالغ مالية يفروضونها على المبيعات لأنفسهم[٢]. وهناك جباية يدفعها الوافدون على المدن من أهل البادية وغيرهم عند أبواب المدن تعرف باسم ضريبة الفائد وهي كالتالي:-

الحبوب	درهمان/ القفيز.
الزيت	٣ بيزا/ الجرة
الغلال	٥.٥ دراهم/ القنطار
السمك	نصف دينار/ القارب
الصوف	٥.٢٥ بيزا أي ما يعادل دينار للقنطار [٣].

وإجمالاً فإن الضرائب الموضوعة على المبيعات في إفريقية في العصر الحفصي، في الأسواق كانت عديدة، ولذلك ظهر نوع من الامتعاض والتذمر في طبقات الشعب وبتشجيع من بعض رجال الدين. فكان الإمام ابن عرفة يطلق على ضريبة (المكس) نوع من الاحتكار ، مثل احتكار بيع الصابون[*]وقد ذهب به الأمر، إلى اعتبار تأجير الساحات العمومية والأسواق من قبيل الغصب[٤] ، ولذلك تقدمت العامة في القيروان خلال القرن الثالثَ عَشَرَ الميلادي بشكوى للقاضي من تلك الضريبة التعسفية، فحكم

---

[١] ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٥٠. أبو شامة، مرجع سابق، ص ٣٤٣.

[٢] أبو شامة، المرجع نفسه، ص ٣٤٤.

[٣] محمد حسن، المدينة والبادية، ج ١، ص ٥٤٠.

[*]كانت دار الصابون حكراً على بيت المال، وقد كان المتولون لهذه الدار يتحكمون في اقتناء المواد اللازمة لصناعة الصابون من رماد يأخذونه على اختيارهم بمقابل زهيد، وجير يحملونه من أربابه بالإكراه بسعر بخس، باستثناء الزيت الذي كان يشترونه بعسر السوق وبعد طبخ هذه المواد وتحويلها يباع الصابون بأسعار مشطة حتى لجأ الناس إلى اقتنائه من خارج مدينة تونس بطريقة سرية لأن السلطة تفرض على الناس عدم صناعته وشرائه من دار الصابون. محمد حسن، المدينة والبادية ، ج ١ ، ص ٥١.

[٤] برنشفيك، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٩.

القاضي أنه لا وجود للمكوس في الشريعة الإسلامية، ولذلك أساءت معاملة " الماكس" الذي يقوم بجمع ضريبة المكس (١).

ويبدو أنه نتيجة لتفاقم تلك الضرائب المجحفة في إفريقية عمل السلاطينُ على الغائها لمرات متكررة نخص بالذكر تلك المحاولة التي قام بها السلطان أبو فارسِ عبد العزيز (٧٩٦-٣٣٧هـ/ ١٣٩٤- ١٤٣٤م). الذي يذكر لنا الزركشي (٢) أن من مآثره ما ترك من المجابي لوجه اللهَ سبحانه وتعالىَ أي أنه رفع الضرائب غير الشرعية وخصص بعض الضرائب للأعمال الخيرية ومنها:

- مجبي سوق الدهانه(*)وكان قدره ثلاثة ألاف دينارًا ذهبًا في كل عام، إذ كان كل من اشترى شيئاً من أنواع الأمتعة واللباس يغرم نصف عشر الدينار.
- مجبي سوق العطارين وقدره مائتنان وخمسون ديناراً ذهباً.
- مجبي رحبة الماشية وقدره عشرة آلاف دينار ذهباً.
- مجبي فندق الخضرة وقدرة ثلاثة آلاف دينار ذهباً.
- مجبي فندق الملح وقدره ألف دينار ذهباً ونصف الألف.
- مجبي فندق البياض(**)وقدره ألف دينار ذهباً.
- مجبي سوق القشاشين وقدره مائة دينار ذهباً.
- مجبي سوق الصفارين (النحاس) وقدره خمسون ديناراً ذهباً.
- مجبي سوق العزافين وقدره خمسون دينار ذهباً.
- مجبي سوق الصابون وقدره ستة آلاف دينارًا ذهبًا ، وأبيح للناس صنعه بعد أن كان مقصورًا على الدولة، متوعداً فاعله بالعقوبة المالية والبدنية.

---

(١) برنشفيك، المرجع نفسه، ج ٢ ، الصفحة نفسها.

(٢) تاريخ الدولتين ، ص ٢٣٦.

(*)وقد ورد في بعض المراجع باسم الرهادنة أو الدهانة وهم باعة الأقنعة والملابس المتجولون، وهو اصطلاح قديم مسمى به في أكثر المدن التي بها أسواق.أبودياك، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(**) البياض يعني الفحم وهذه الكلمة من الأضداد، وهي تسمية لا تزال قائمة في تونس، وفي بعض مناطق طرابلس الغرب إلى الوقت الحاضر.

غير أن تلك المكوس كانت تظهر من جديد إنْ عاجلاً أو آجلاً تحت ضغط الاحتياجات المالية [1].

إذ أشار برنشفيك في القرن الخامسَ عَشَرَ كانت أسواق العاصمة (تونس) تدر على السلطان أبي عمرو عثمان (٨٣٩-٨٩٢هـ/ ١٤٣٦-١٤٨٨م) أموالاً طائلة، وذلك لأن السلطان كان يتمتع بحق ملكية الأسواق، وذلك لتبرير المكوس التي توظفها الدولة عليها[2].

ولا شك أن إرهاق التجار في الأسواق بالضرائب يؤدي إلى الكساد التجاري ولا يشجع على العمل والإنتاج والبيع والشراء، وقد مرت بالفعل على أسواق إفريقية فترات كساد تجاري وذلك حينما أمر بعض سلاطين بني حفص بفرض ضريبة على الأسواق والصناع والتجار وتعسفوا في جمعها مما أثقل كاهل التجار، حيث نجد في أواخر دولتهم أن كثيرًا من هذه الأسواق قد خربت وأغلق كثير من دكاكينها[3].

ولنا الحق في هذا المجال أن نذكر سمة ميزت النظام الجبائي الحفصي عن بقية الأنظمة الجبائية، ويرجع ذلك إلى ما اتسمت به التجارة في غالب الأحيان في ازدهار في ظل الأمن والاستقرار اللذين تمتع بهما البلاد. نظراً لعدم قيامها بحروب خارجية، مثلما كان الحال في الدولة الموحدية من قبلها[4].

---

(١) برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٤٩.

(٢) برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢ ، ص ٢٥٠.

(٣) الوزان، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٩١ .

(٤) أبو دياك، مرجع سابق ، ص ١٠٣.

الفصل الرابع

وسائل التعامل التجارى

١- النقد :

أ – النقد الموحدي.

- الدينار الموحدي.
- الدرهم الموحدي.

ب- النقد الحفصي.

- الدينار الحفصي.
- الدرهم الحفصي.

١- المقايضة .

٢- الصكوك والسفاتج.

٣- المكاييل والموازين.

٤- الشركات التجارية .

وسائل التعامل التجاري

عرفت أسواق إفريقية في أثناء الحكم الموحدي والحفصي أنواعًا من التعامل التجاري، سواء أكان التعامل بين تاجر وآخر أو بين تاجر ومستهلك.

وقد كانت التقنيات التجارية التي يستخدمها أهل إفريقية تتم بالبساطة ولا تتخذ شكل التعقيد، إلا بالنسبة للمعاملات الخارجية مع البلدان الأخرى، وخاصة مع النصارى فقد عرفت هذه الأخيرة تقنيات في التجارة الأوربية، يبدو أنه قد أدخلها التجار والأعوان النصارى أو اليهود والساهرون على الحركة التجارية بين إفريقية وأوربة[١].

وعموماً فإن أهم وسائل التعامل التجاري كانت :

أولاً: النقد :

يعكس لنا النقد أو العملة المتداولة في بلاد ما الأوضاع الاقتصادية بالبلاد، فهي توضح مدى التقدم والاستقرار الذي تنعم به وذلك برسم صورة لطريقة التعامل بين أفراد الشعب، و عن طريق قيمتها نستطيع أن نقف على مدى رواج التجارة أو تدهورها؛ لأنه عن طريق قيمة العملة وقوتها الشرائية نستطيع أن نتوقف على مدى قوة النظام الاقتصادي في دولة ما وحظها في الرفاهية والتقدم. ويعرف ابن خلدون[٢] السكة بأنها" النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يدخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عدد.... ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك، ونقش فيه نقوش خاصة فيوضع على الدينار بعد أن يقدر ويضرب عليه بالمطرقة؛ حتى ترسم فيه تلك النقوش، وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة والحاكمة" .

أراد ابن خلدون أن يشير إلي المعنى المحدد للختم أو النقش في سك العملات الذهبية والفضية . فمفهوم "الختم أوالنقش" ينطوى على فكرة وضع الشكل أو العلامة على قطعة

---

(١) برنشفيك، مرجع سابق ، ج، ٢ ، ص ٢٥٣.

(٢) المقدمة ، ص ٢٠١ .

المعدن المصقولة ، والمقصود بها في هذه الحالة نقوش بارزة تسعى إلي إضفاء الشرعية على القطعة المعدنية في نظر الدولة التي قامت بإصدارها والمتعاملين بها ، كما يعطيها المصداقية كمخزون للقيمة ، ووحدة للثروة ووسيلة للدفع .
فالقيمة الاقتصادية للعملات وأهميتها تتمثل في تلك الوظائف كما أن نقش أو حفر الشعارات وسيلة للتعبير عن بعض الرسائل ذات الطبيعة السياسية أو الدينية أو الدعائية(١).

وبذلك نلحظ أن ضرب العملة باسم السلطان كان علامة رئيسة من علامة الحكم؛ ولذلك كان النظر في السكة لحفظ النقود التي يتعاملون بها في الغش والتدليس من أهم مشكلات السلطة الحاكمة.(٢)

ولذا فإنه كان من الضروري إلقاء الضوء على العملة النقدية المتداولة في إفريقية أيام الحكم الموحدي والحفصي.

كانت العملة المتداولة في بلاد المغرب أيام الحكم الموحدي تقوم أساساً على المعدنين الدينار أو المثقال الذهبى والدرهم الفضي(٣). ويبدو أن الموحدين قد عمدوا أول حكمهم (قبل استقرار حكمهم السياسي في المنطقة) إلي سك عملة ذهبية على الطراز المرابطي المعروف بشكله الدائري، والذي تتوسطه كتابات منقوشة بالخط الكوفي، وربما يعود السبب في شروع الموحدين في إصدار نقودهم على الطراز المرابطي خلال فترة الحكم الانتقالي إلى تخوفهم من إجراء إصلاح نقدي سريع، في وقت كانت العملة المرابطية لا تزال تحظى باحترام الناس وثقتهم(٤).

ولكن بعد أن استتب حكم الموحدين في بلاد المغرب، عمد الخلفاء الموحدون إلي سك عملات ذهبية وفضية خاصة بهم مختلفة السك والوزن بتعاقب عهود خلفائهم.

---

(١) البرتو كانتو جارثيا ، ابن خلدون والعملة ، قريب:لمياء الأيوبى،(ابن خلدون ، البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات) ،مكتبة الإسكندرية ، ٢٠٠٧م ، ص٢٤٠ .

(٢) صالح بعيزيق، بداية في العهد الحفصي، ج ١ ، ص ٢٦٦.

(٣) عز الدين موسى، مرجع سابق ، ص ٢٩٨.

(٤) احمد محمد الجمال، دولة الموحدين في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٨، ص ٣٦١.

وكانـت العمـلات التـي سـكها الموحـدون تختلـف فـي شـكلها عـن مجموعـة العمـلات الإسـلامية(*)، فرغم أن الدنانيرالموحديـة قد احفظـت بشـكلها الـدائرى إلا أنهـا نقش عليهـا شكل مربـع أمـا الـدراهم الموحديـة فقد امتـازت بشـكلها المربـع أو المركن[١] " ولمـا جـاءت دولة الموحدين كان ممن سّن لـهم المهدى اتخاذ السكة (الدرهم مربع الشكل) وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع فـي وسطه ويمـلأ من أحد الجـانبين تهليلاً وتحميداً من الجانـب الأخر كتب في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده "[٢].

ويبدو أن هذا التغيير في نمط أو شكل النقود في العهد الموحدى كان جزءاً من سياسة الدولة الموحدية التي ترمى إلي التميز عن إسلافهم[٣].

كـذلك مـن الخصـائص التـي اختصـت بهـا السـكة الموحديـة، هـي إغفالهـا لـذكر تـاريخ الضـرب[٤] ولا المكـان الـذي سكت فيـه؛ أمـا تـاريخ الضـرب فـلا وجـود لـه، وهـذا السـلوك مختلف تماماً للسنن والتقاليد التي أتبعتها النقود الإسلامية منذ ظهورها[٥].

ويبدو أنـه نتيجة لاختفاء البيانـات الكاملـة التي علـى العمـلات الموحديـة فقد جرت العادة أن تنسب العملة إلى الخليفة الحاكم الذي أمر بضربها.

الدينار الموحدى :-

يمكـن تقسـيم الـدينار الموحـدي حسـبما ورد فـي المصـادر التاريخيـة إلـى: الـدينار المؤمني الـذي ينسـب إلـى الخليفة عبد المؤمن بن علـى[١]، والـدينار (اليوسفي) نسـبة إلـى

(*) كانت العملات الإسلامية تتخذ الشكل المدور.

(١) ابن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة ، تحقيق: حسين مؤنس، منشورات المعهد المصري بمدريد، ١٩٦١، ص١١، ويذكر ابن يوسف الحكيم أن أول من ضرب العملة المركنة هو أبو عبيد الله المهدي بن تومر، غير ميزانه من الثابت أن المهدي لم يضرب نقوداً بل أول من ضرب العملة المربعة هو عبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٣٣ .

(٣) البرتو كانتو جارثيا ، مصدر سابق ، ص ٢٤٣ .

(4) Lavoix Henri, Catalogoue Des Monnaies Musulmanes de la Bibiotheque nationale de Paris , 1891, P 544 .

(٥) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات، ج ١ ، ص ٤٥٥.

الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[٢]. والدينار (اليعقوبي) نسبة إلى الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور[٣].

وبالنسبة للدينار المؤمني الذي يعتبر أول المسكوكات الموحدية، فقد قام الخليفة عبد المؤمن بن على بسكه سنة ٥١٧هـ/ ١٢١٣م، رغبة منه في توحيد العملة والقضاء على الفوضى النقدية بسبب تعدد قطع النقد واختلاف أوزانها في بلاد المغرب الإسلامي بعد سقوط دولة المرابطين، بهدف تسهيل عملية التبادل التجاري، ومسألة استخلاص الضرائب[٤].

وقد كتب عبد المؤمن اسم المهدي (بن تومرت) على عملته[٥] في صيغة ظلت مستعملة في العملة الموحدية حتى أيام إدريس المأمون تاسع خلفاء الموحدين الذي أنكر إمامة المهدي وأمر بإزالة اسمه من العملة وإسقاط اسمه من الخطبة عام ٦٢٣هـ/ ١٢٢٨م، وأزال من السكة عبارة "المهدي إمامنا" فحلت بعد ذلك محلها عبارة "القرآن إمامنا"[٦].

وكان الدينار المؤمنى يزن حوالي ٢.٣٢جرام، أي ما يعادل ٤٢حبة شعير وقطره بين ١٩،٢٠ملم، ويعتبر وزن الدينار المؤمني ضئيلاً أمام الدينار المرابطي، وكذلك كان يزن نصف الدينار اليعقوبي الذي سكه ابنه فيما بعد، وربما يعود السبب في خفض وزن الدينار المؤمني من قبل الخليفة عبد المؤمن إلي إمكانية تغطية احتياجات جميع دور الضرب التي أنشأها الخليفة عبد المؤمن، مما تحتاجه من معادن نقدية. فاضطر إلي

---

[١]حيث يذكر ابن جبير أن الخليفة عبد المؤمن بن علي، عندما هزم أسطول الفرنج (صقلية) في مدينة المهدية قد سجد (عبد المؤمن) شكراً لله تعالى، وفرق في غزاه الأسطول أثنتى عشر ألف دينار مؤمنيه. رحلة ابن جبير ، ص ٣٤٩.

[٢] الناصري، الأستقصا، ج٢ ص١٥٧.

[٣] ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٨٢.

[٤] أحمد إسماعيل الجمال، مرجع سابق، ص٣٦٣.

[5] Lavoix , Ibid , P 536 .

[٦] ابن يوسف الحكيم، مصدر سابق ، ص ١٤٥.

خفض وزن الدينار، لقلة ما تتوفر عليه الدولة من مادة الذهب[١].وحتى سيتوفي متطلبات جميع دور الضرب.

غير أن هذا الوزن لم يلبث أن تغير بعد الإصلاح النقدي الذي أحدثه الخليفة يعقوب المنصور فتضاعف وزن الدينار وأصبح حوالي ٦٤و٤جرام،أي ما يعادل ٨٤ حبة من الشعير الوسط[٢]، ولذلك عرف الدينار الموحدي عند النصارى الأوربيين باسم "دوبلة" (Dobla)[٣]؛ وقد أشار ابن عذارى إلي أن المنصور قد ضاعف وزن الدينار حتى يتناسب مع ضخامة الدولة وثروتها حيث قال:"فرأى (أي المنصور) أن الدينار القديم يصغر عن مرأى ما ظهر بالمملكة من المنازع العالية، وأن جرمه يقل عما عارضه من المناظر الفخمة الجارية فعظم جرمه ورفع قدره بالتضعيف وسومه، فجاء من النتائج الملوكية، والاختراعات السرية، جامعاً بين الفخامة والنماء والطيب وشرف الانتماء"[٤].

ويبدو أن المنصور قد عمد إلى تغيير وزن الدينار حتى يكون معادلاً للعملات الأجنبية المتداولة آنذاك، كالدينار الأيوبي الذي كان يضرب في مصر، حيث كان الدينار المؤمني الموحدي يعادل نصف دينار مصري في ضرب صلاح الدين الأيوبي[٥].

والجدير بالذكر أن الظروف المحيطة بالخليفة المنصور كانت ملائمة لإجراء هذه الإصلاح النقدي، فقد كانت أحوال الدولة الاقتصادية لا بأس بها لأن المنصور عندما ولي الحكم:" وجد الملك قد تمهد والمال قد توفر"[٦].

---

[١] ذلك لأن الموحدين لم تتوفر في أول دولتهم فرصة الحصول على ذهب السودان، كما كان متوفراً للمرابطين، ويبدو أنهم أخفقوا في استخراج الذهب من باطن الأرض المغربية، غز الدين موسى، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

[٢] ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٨٢.

[٣] صالح بعيزيق، مرجع سابق، ج ١ ، ص ٢٦٧، وقد وردت هذه التسمية في عدد في الرسائل والمعاهدات بين الموحدين وأوربا.

[٤] ابن عذاري، مرجع سابق، قسم الموحدين، ص ١٨٢.

[٥] عز الدين موسى، مرجع سابق ، ص ٣٠٤.

[٦] ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٤٣.

ولاشك أن هذا الإجراء المالي المهم كان له أثر في تدعيم قيمة الدينار مما كان له أثره في تحسين الحالة الاقتصادية في بلاد المغرب بصفة عامة[1]وبلاد إفريقية بصفة أخص.

وكان الدينار الموحدي يحتوي على كتابتين مركزية وهامشية، فقد كان مركز الوجه يحيط به مربع أو أكثر، ويحيط بالمربع من الخارج دائرة أو أكثر، وتلامس الدائرة المربع في زواياه مكونة من أربع مناطق نقشت بها كتابات الهامش[2]، فهذا مثال على نقود يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٨م) مركز الوجه: بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله وحده ، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، المهدي إمام الأمة.

أما الهامش في (الوجه) فكتب عليه : إلهكم اله واحد – لا إله إلا هو الرحمن الرحيم وما بكم من نعمة فمن الله – وما توفيقي إلا بالله.

واحتوى مركز الظهر: القائم بأمر الله الخليفة أبو محمد عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين.

وفي الهامش: أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين[3].

وعبارة الحمد لله، التي نقشت بالسطر الثاني في مركز الوجه تقوم على محورين مهمين: المحور الأول هو الأهمية الاجتماعية لتلك العبارة وتعبيرها عن حالة الهدوء والأمان التي كانت تعيشها دولة الموحدين في فترة هذا السلطان، أما المحور الثاني فهو ارتباط ظهور هذه العبارة على الأرجح بتطور اقتصادي في نظام النقد الموحدي كما أكد ذلك المؤرخ " أبن عذراي".

---

[1] كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي عصر المرابطين والموحدين، ص ٢٣١.

[2] رأفت محمد النبراوي، النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس هـ وحتى نهاية القرن التاسع، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٢٧١.

[3] النبراوي، نفس بالمرجع أعلاه، نفس الصفحة ، صالح بن قربة ، انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحى في القرون الوسطى (الغرب الإسلامى والغرب المسيحى) في القرون الوسطى ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ١٩٩٥ ، ص ١٨٧-١٨٨.

كذلك كانت تلك العبارة (الحمد لله وحده) تمثل العلامة الخاصة بالسلطان أبي يوسف يعقوب (أول من وضعها) وهو أول حاكم من خلفاء الموحدين يتخذ لنفسه علامة؛ وقد استمرت هذه العبارة تسجل بصورة مستمرة على نقود الموحدين بعد ذلك مما يحملنا على القول بأنها تمثل طابعاً عاماً للسكة الذهبية الموحدية منذ عهد أبي يوسف يعقوب المنصور حتى سقوط الدولة(١).

وعموماً فإن النقوش العامة للنقود الموحدية كانت متشابهة إلي حد كبير في جميع عهود خلفاء الموحدين.

وإلي جانب ذلك فقد قام الموحدون بسك أجزاء الدينار، فظهر نصف الدينار، وكان يزن ١.٦٦جم تقريباً ، أي ما يعادل وزن الدينار العادي أو نصف الدوبلة(Dobla)؛ بالإضافة إلي ربع الدينار(٢).

- الدراهم الموحدية (النقود الفضية):-

كان الدرهم الموحدي عبارة عن صحيفة رقيقة من معدن الفضة، اتخذت شكلاً مربعاً، وتتراوح مقاسات أضلاعه بين ١٢×١٣مم و ١١×١٣مم، وقد تنقص أو تزيد تبعاً لطريقة القص التي تخضع لها(٣).

وكان وزن الدرهم الموحدي المربع يتراوح بين ١.٥٠ غ و ١.٤٠ غ (٤)وبلغ قطره حوالي ١٥ملم ، إلي ١٦ ملم، في حين يزن نصف هذا الدرهم حوالي ٠.٧٥ جرام، ويتراوح قطر ١١ إلي ١٣ ملم(٥).

---

(١) عاطف منصور رمضان ، الكتابات غير القرآنية على النقود الإسلامية في المغرب والأندلس، مكتبة زهراء الشرف، القاهرة ٢٠٠٢، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٢) كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي،ص ٣٢٠.رأفت محمد النبراوي، مرجع سابق ، ص ٢٧١.

(٣) صالح بن قربة ، إنتشار المسكوكات المغربية ، وأثرها على تجارة الغرب المسيحى في القرون الوسطى (الغرب الإسلامى والغرب المسيحى في القرون الوسطى) ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ١٩٩٥ ، ص١٨٤.

(٤) صالح بن قربة، المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

(٥) أحمد محمد إسماعيل الجمل، مرجع سابق، ص٣٦٥.

وينسب البعض[١] ابتكار الدرهم المربع إلي المهدي بن تومرت، غير أنه من المستبعد أن يكون المهدي قد سكَّ نقوداً على الإطلاق[٢].

ويمتاز الدرهم الموحدي بنقوشه الجميلة التي تتألف من كتابتين مركزيتين على الوجه والظهر وتتألف كتابة الوجه من ثلاثة سطور متوازية بالخط النسخي الموحدي، والظهر وتتألف كتابة الوجه من ثلاثة سطور متوازية بالخط النسخي الموحدي، وقد كتبت بالحفر البارز فنقرأ على :

مركز الوجه : لا إله إلا الله الأمر كله لله لا قوة إلا بالله

وعلى مركز الظهر: الله ربنا محمد نبينا المهدي إمامنا[٣]

وعبارة (لاقوه إلا بالله) هنا استخدمت على دراهم الموحدين الفضية كشعار سياسي من حيث إن القوة والتأييد بيد الله سبحانه وتعالىَ[٤].

وكانت دراهم الموحدين تخلوا من أسماء الخلفاء، ولكن أحياناً تحمل مدن الضرب وأحياناً تخلو منها، وعموماً فقد عثر على مجموعة من النقود الفضية المضروبة في مدن (بجاية – تونس – جربة – تلمسان – الجزائر – رباط الفتح – وتطوان – وطرابلس – وفاس) [٥].

وقد قام الموحدون بضرب أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب، وقد سهل ذلك على الناس التعامل التجاري واتسعت مبيعاتهم[٦].

وكان وزن الدرهم المؤمني نصف درهم النصاب (الدرهم الشرعي)[٧].

---

[١] ابن خلدون، المقدمة، ص٢٣٣. إذ قال :" ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل". ابن يوسف ، الدوحة المشتبكة، ص١١، إذ قال "صاحب الدرهم المركن هو أبو عبد الله المهدي القائم بأمر الموحدين وكانت الدراهم قبل ذلك كلها مدورة فأمر المهدي أن تكون مركنة".

[٢] كمال السيد أبو مصطفى، وتاريخ الأندلس الاقتصادي، ص ٣٢١.

[٣] صالح بن قربة، مرجع سابق، ص ١٨٥.

[٤] عاطف منصور ، مرجع سابق ، ص ١٨٥.

[5] Lavoix , Ibid , P 536 - 544 .

[٦] عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٧٥.

[٧] المراكشي،، نفس المصدر أعلاه، ص ١٩٣. ووزن الدرهم الشرعي ٢.٩٧٥ غرام وعند تقسيم هذه النسبة على تعطينا وزن الدرهم المؤمني ($\frac{2.975}{2} = 1.49$) غرام.

وتجدر الملاحظة إلي أنه يعود الفضل للموحدين في توحيد عملة المغرب الإسلامي لأول مرة في التاريخ، وقطعوا التعامل بالعملات السابقة ؛ ومن ثم خلصوا المغرب من مشكلة اختلاف النقود وتعددها؛ فمنذ البداية كانت الدنانير والدراهم الموحدية تضرب في جميع عواصم الولايات(١) .

ونلاحظ أن الموحدين قد امتنعوا عن سك قطع نقدية من معدن النحاس، وربما يرجع السبب في ذلك إلي نظرتهم لمعدن النحاس، الذي لم يكن يعتبرونه من المعادن النفسية كالذهب والفضة(٢).

والجدير بالذكر أن النقود الموحدية قد لاقت انتشارًا في بلدان غرب أوروبة تبعاً لانتشار الموحدين في أسبانيا وازدياد النشاط الاقتصادى في تلك الفترة ، وإقبال الأوربيين على النقود المغربية في التداول والتبادل والصرف لجودة عيارها ، وجمال نقوشها ، ومم يدل على الانتشار الواسع للنقود الذهبية والفضية الموحدية تلك النماذج التي عثر عليها في أماكن متفرقة من الغرب المسيحى(٣).

فكانت التجارة مع الغرب المسيحى تقوم على السكة الذهبية الموحدية فعندما يدخل التجار المغاربة إلي بلدان الغرب المسيحى يحملون معهم العملة المغربية لتصرف هناك ، فكانت إذاً العملة المغربية ذات الشهرة الدولية هى أساس وحدة النقد في التجارة هناك (٤).

كما تم ذكر استخدام العملة الموحدية في إبرام المعاهدات التي عقدت بين بيزة وفلورنسا وأمراء المغرب(٥) .

<u>النقد الحفصي: -</u>

لقد افتدت الدولة الحفصية من أول ظهورها إلي آخر عصرها سنن الموحدين في سبك مسكوكاتهم شكلاً وكتابة(١).

---

(١) صالح بن قربة ، مرجع سابق، ص ١٩١ .

(٢) أحمد محمد إسماعيل الجمال، مرجع سابق، ص٣٦٥

(٣) صالح بن قربة ، مرجع سابق، ص ١٨٧ .

(٤) صالح بن قربة ، المرجع نفسه، ص ١٩٢ .

(5) Lavoix , Ibid , P 8 -9 .

- الدينار الحفصي:

كان الدينار الحفصي عامة وريث الدينار الموحدي الذي أنشأة الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٠هـ/١١٨٤-١١٩٤م)، ولدينا أمثلة للدنانير الحفصية تؤكد صحة ذلك القول.

كان أول دينار حفصي الدينار الذي ضربه السلطان أبو زكريا أول سلاطين بني حفص، وعلى وجه التقريب من سنة ٦٢٥هـ-٦٢٧هـ لأنه حرص على ذكر اسم الخليفة الموحدي الأول عبد المؤمن بن علي في مربع الوجه الأول، ويفهم من ذلك نوع من التبعية للدولة الموحدية، على الرغم من بَدْء خطوات الاستقلال عنها، أو يمكن أن يكون نوعاً من الاتصال بالدولة الأم دون الاعتراف بخليفتها القائم أو المعاصر لتاريخ سك تلك العملة(٢).

وبعد أن وطدّ الحفصيون أقدامهم بإفريقية في حدود عام ٦٢٧هـ(٣) ، ضرب أبو زكريا الحفصي ديناراً اكتفى فيه بنقش اسم المهدي فقط، وهو تقليد سيستمر في الغالب الأعم في نقد الحفصيين الباقي إبان الدولة الموحدية، وبعد سقوطها، وإلى آخر سلاطين الحفصيين قرب منتصف القرن العاشر الهجري(٤).

وكانت النقوش الموجودة على دينار أبي زكريا الحفصي تعكس مدى ما وصلت إليه الدولة من قوة فنجدها فد نفش عليها: الشكر لله – والمنة لله – والحول والقوة بالله.
وعلى دائرة أحد وجهي دينار آخر :
آمنت بالله – وما بكم من نعمة فمن الله(٥).

وقد نجد بعض الاختلاف في العبارات المكتوبة على نقود بقية سلاطين بني حفص، ففي أيام (المستنصر بالله الأول ابن أبي زكريا الحفصي، ٦٤٧-٦٧٥هـ/١٢٤٩-

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات من الحضارة العربية التونسية، ج ١ ، ص ٤٥٥.

(٢) طاهر راغب، قراءة لعملات الحفصيين الأولى، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٢٢ ، مدريد ، ١٩٨٣ – ١٩٨٤ ، ص ١١٨-١١٩.

(٣) الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ٥٥.

(٤) طاهر راغب، مرجع سابق، ص١١٩.

(٥) الزركشي، مصدر سابق، ص ٦٩.

١٢٧٧م)[١]. أضاف إلي العبارة السابقة (الشكر لله – والمنة لله والحول والقوة بالله)، عبارة (المستنصر بالله – المؤيد بنصر الله – أمير المؤمنين).

وفي وسط المربع: " أبو عبد الله محمد بن الأمراء الراشدين"[٢].

ويبدو أنه قد أضاف ذلك النقش بعد أن وصلته بيعة الحرمين سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، فتسمى بأمير المؤمنين، وأمر أن يذكر ذلك في الخطبة، ويطبع على (السكة)[٣].

وقد يتجاوز الدينار الحفصي العيار الشرعي بقليل أو ينقص عنه ولكنه في غالب الأحيان يحوم حول ٤.٧٢غرام من الذهب، فكان ذا عيار مستقر طوال العهد الحفصي[٤]. ولم يتضرر عيار الدينار الحفصي بالاضطرابات السياسية أو الآفات الطبيعية، إذا لم تصلنا دنانير ذات عيار منقوص طوال العهد الحفصي، وكلها لا تبتعد عن ٤.٧٠ غرام[٥]، وحتى عند تعرض بني حفص للسيطرة المرينية عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م[٦]، ضرب في إفريقية ديناراً مرينياً عبر تعبيراً واضحاً عن السيادة المرينية على دولة بني زيان في المغرب الأوسط، وممتلكات بني حفص في تونس

---

[١] حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات، ج١ ، ص ٤٥٦-٤٥٧.

[٢] الزركشي، مصدر سابق، ص ٧٠، ٧١.

[٣] الزركشي، المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

[٤] صالح بعيزيق، مرجع سابق، ج ١ ، ص ٢٦٧.

[٥] صالح بعيزيق، مرجع سابق، ج١، ص٢٦٧، وقد أورد لنا بعيزيق أمثلة لدنانير حفصية ضربت في فترات اتصفت بظروف صعبة، مثل دينار ضرب في عهد المستنصر الحفصي، في مدينة بجاية وعياره ٧.٤٠غرام، وفي مدينة تونس وعياره ٤.٧٤غرام، أثناء ظروف سياسية صعبة وهي الحملة الصليبية الثامنة على تونس وحدوث وباء سنة ٦٦٩ه/ ١٢٧٠م. ودينار آخر ضرب في عهد أبي حفص عمر في بجاية وعياره ٤.٧٣٠ غرام في تونس وعياره ٤.٧٥غرام أيام ثورة الدعي أحمد بن أبي عمارة وتعرض أفريقية لقحط عام ٦٧٩هـ/١٢٨١م، ودينار ثالث ضرب في عهد أبي العباس أحمد الفضل في ببجاية وعياره ٤.٧٥غرام، أثر الاحتلال المريني، وطاعون عام ٧٥٠ه/١٣٥٠م.

[٦] الزركشي ، تاريخ الدولتين، ص١٧١. ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، ص١٧٠.

وطرابلس، والدليل على ذلك أن النقود التي عثر عليها في تلك الفترة؛ كانت تحمل شعارات سجلت على نقود بني مرين وبنى زيان وبني حفص ونفس تلك النقود ضربت في مدن بجاية وتلمسان وتونس والجزائر وطرابلس وسجلماسة وفاس أيام الحكم المريني فيها[١].

وعلى كل فإن الدينار المريني لم يدخل الاضطراب، لأن عياره مقارب لعيار الدينار الحفصي، وإن كان الأخير يتصف بزيادة طفيفة[٢].

وكذلك لم يختلف عيار الدينار الحفصي في أية ولاية تابعة لبني حفص أيام انفصالها عنها، فالدينار المضروب في بجاية حافظ على عيار الدينار الحفصي، حتى أيام انفصالها عن الدولة الحفصية عام ٦٨٤هـ/١٢٨٦م تحت حكم " أبى زكريا" الملقب (بالمنتخب لإحياء الدين)[٣].

وبالنسبة لحجم الدينار الحفصي فقد تراوح قطر الدينار الحفصي بين ٣٠.٢٥مم وقد يصل إلي ٣١مم ، وقد ينزل أحياناً إلى ٢٠مم ، ولكنه يبقى دائماً بنفس الوزن؛ كالدينار الذي ضرب ببجاية في فترة أبي فارس قطرة ١٨٠مم ، أو ذلك الذى ضرب في طرابلس في عهد أبي عمرو عثمان قطرة ١٧٠مم فقط[٤].

وبذلك نلحظ أن الدينار الحفصي قد حافظ على تراث الدينار الموحدي بكل أمانه[٥]، ولم نعرف إصلاحاً يخص العملة الذهبية الحفصية بإحداث دينار جديد، ولا يعني ذلك أنه لم يتعرض لظاهرة الغش، بل يبدو أنه كان أقل عرضة لذلك، ويبدو أن السلطة قد اختارت دائماً قطع الدينار المغشوش ، والمحافظة على الدينار الذهبي بعياره الشرعي، وفي ذلك يحدثنا البرزلي عن تفشي الغش في العملة الذهبية الحفصية (الحمية) نسبة إلي الحامة في بلاد الجريد، ولكن السلطان مر بقطعها، واقتصرت دائرة التعامل بها

---

[١] عاطف منصور، مرجع سابق، ج١، ص ٢٧٢.

[٢] بعيزيق، مرجع سابق، ج١ ، ص ٢٧٢.

[٣] ابن القنفذ، الفارسية، ص ١٥٥. بعيزيق، مرجع سابق، ج١ ، ص٧٢.

[٤] بعيزيق، مرجع سابق، ج١، ص ٢٧٠.

[٥] برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢، ص٧٣.

على المنطقة التي ضربت بها، وضبطت مع ذلك قيمتها إذ يقول البرزلي[١]:" وكذا جري في الذهب (الحمية) كانت أولاً غش وصار يتفاوت غشه، فأمر بقطعه لعدم ضبط غشها، وخوف ذهاب رؤُس أموال الناس، فقطعت وصارت سلعة كسائر السلع بتونس والمعاملة بها من ناحية الوضع الذي ضربت فيه لم تزل ولكنها على حساب نسبتها الأميرية الجيدة في الطيب".

والجدير بالذكر أن الدينار الحفصي كان أقوى عملة ببلاد المغرب والأندلس في تلك الفترة؛ وتعود قوة الدينار الحفصي إلي وزنه الذي يتراوح بين ٤.٥٠غرام، ٤.٧٠غرام، وربما يعود ذلك التقارب في الوزن إلي درجة نقاوة النقود، بالاضافة إلي طبيعة وحجم الحركة التجارية التي هي من العوامل التي تحدد نشاط حركة النقود المتعامل لها في التبادل التجاري، لكنها لا تحدد بالضرورة كمية النقود التي تقوم دور السكة بضربها[٢].

وقد أشار أبو الحسن على بن يوسف الحكيم[٣] إلي الدينار الحفصي مستدلاً به مع مجموعة من الدنانير الأخرى حيث قال: "جرت العادة واستمر العرف في امام دار السكة أن تؤخذ ذهوب خمسة تتخير من أطيب النقود كاليعقوبي والحسوني والحفصي والسبتي والمردنشي ويتثبت في طوابعها حتى تعلم أعيانها بالاختبار الصحيح وتجمع وتسبك بمحضر شاهدي دار السكة...." .

وتجدر الملاحظة أن الدينار الحفصي كغيرة من دنانير الممالك الإسلامية المنبثقة عن الدولة الموحدية، قد بقى دوماً وأبداً بدون أي تغيير في الوزن، عمل جيدة الصنع ومرتفعة العيار[٤].

---

(١) البرزلي، نوازل، ج٢٩، ص٣٨.

(٢) أبو شامة، مرجع سابق، ص٣٨٠، ويذكر ابن خلدون أن كمية النقود التي تقوم دار السكة بضربها، إنما يحددها حاجيات المجتمع وازديادها. انظر: ابن خلدون ، المقدمة، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٣) الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، ص١٢١، وقد أشار المحقق د.حسن مؤنس في الهامش إلي تعريف تلك الدنانير ، فالدينار اليعقوبي هو الدينار المنسوب إلي أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني والسبتي منسوب إلي ستبة، والحسوني التي هي في الأصل (حسومي)، وردت في الأسبانية (SOLIDOS HAZUMIES) أي دينار حسومي والحفصي. إنما المقصود به الدينار الحفصي الذي نحن بصدد الحديث عنه. والمردنشي ، نسبة إلي ابن مردنيش في الأندلس .

(٤) برنشفيك ، مرجع سابق، ج٢ ، ص ٧٤.

لذلك اكتسب الدينار الحفصى ثقة المتعاملين مع الدولة الحفصية وتجلى ذلك في أنه كان عمله التعامل على المستوى الرسمى ، وفي الميدان التجارى فكانت المطالب المالية الإراغونية كلها بالدينار الذهبى وأهمهما مقدار ١٢٠٠٠ دينارًا مقابل كراء السفن الإراغونية التي استعملتها مدينة بجاية فى حروبها ضد الهجوم التلمسانى سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م[١] وفي الميدان التجارى . لنا أيضاً أمثلة منها أسعار الجلود والصوف الذى بيع إلي تجار بيزة أو الديون المتبقية عندهم وكانت موضوع الرسائل التي أوردها أمارى (Michel Amari) [٢] وكلها بيعت بالدينار الذهبى سواء أيام الموحدين أو الحفصيين .

- الدراهم الحفصية (النقود الفضية) :-

كان الدرهم الحفصي في بداية عهده درهماً موحدياً بكل خصائصه من حيث العيار ، والحجم ، والشكل ، والنصوص ، والتقسيمات.

إذ كان وزنه مساوياً لحوالي١.٥٠غرام، وكانت أجزاؤه وأصنافه هي القيراط وهو نصف الدرهم، وربع الدرهم، والخروبة وهي ضعف الدرهم[٣].

والدراهم الحفصية كانت مربعة الشكل مثلها مثل الدراهم الموحدية، وهي خاصية حافظ عليها الدرهم الحفصي طوالَ عهود بني حفص؛ وهناك خاصية أخرى حافظ عليها الدرهم الحفصي، وهي النصوص المرسومة عليها فهي عبارات تتكرر ولا تتغير إلا قليلاً مثل " لا إله إلا الله – الأمر كله لله لا قوة إلا بالله" هذا في مركز الوجه أما الظهر: " الله ربنا – محمد رسولنا – المهدي إمامنا"[٤]،

وأحياناً يحتوي على ذكر المدينة التي سك بها، دون ذكر تاريخ الضرب، ولكن الدرهم الحفصي لم يدرج – خلافاً للدينار– اسم السلطان ما عدا في فترة متأخرة خلال

---

[١] بعيزيق ، مرجع سابق ،ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

[2] Michel Amari , Ibid , P 50 -52 , 55 , 56 – 57.

[٣] صالح بعيزيق، مرجع سابق، ج١٩ ، ص ٢٧٢.

[٤] حسن حسني عبد الوهاب، ورقات ، ج١ ، ص ٤٥٧.

القرن العاشر الهجري /السادسَ عَشَرَ الميلادي[١]، وقد أورد صالح بيعزيق[٢]، مجموعة من الدراهم الحفصية التي وجدت في البنك المركزي التونسي في قسم (النقود العربية)، يتراوح عيارها بين ٣٠.١وغ ضربت في مدن حصية مختلفة وهي بجاية وعدد القطع (١٢)، وبونة (٧) قطع، وقابس(٥) قطع، وقسنطينة (قطعتان)، وجربة (قطعة واحدة).

والجدير بالذكر أن الدراهم الحفصية قد تعرضت للغش مما أدى إلي انحطاطها وعدم استقرارها، ولذلك أدخلت على الدرهم الحفصي إصلاحات للرفع من قيمته، فمنذ النصف الثاني من القرن الثالثَ عَشَرَ، كان متداولاً درهم جديد له قيمة مرتفعة إلي جانب الدرهم القديم الذي كان له نفس الوزن ولكنه فقد خمس قيمته بسبب ارتفاع مزيجه[٣] .

ويذكر ابن فضل الله العمري[٤]عن ذلك فيقول:" ومعاملتها (الدولة الحفصية) من الدراهم نوعان: أحدهما يسمى القديم والآخر الجديد، ووزنها واحد، ولكن نقد الجديد خالص ونقد القديم مغشوش (مخلوط) بالنحاس للمعاملة؛ وإذا قيل درهم ولم يميز يراد به العتيق، وتفاوت ما بينه وبين الجديد أن كل عشرة عتق بثمانية جدد[٥]،وفي مصطلحهم أن كل عشرة دراهم من العتيق دينار، وذلك لأنه حدث التعامل النقدي بدينار فضي غير ملموس يحسب به فقط[٦]سمي بـ(دينار الدراهم) أو "دينار عشري الصرف" مساوٍ لعشرة دراهم عتيقة.

وقد أورد ابن قنفذ[٧] عند حديثه عن الأمير(أبي إسحاق ابن السلطان الحفصي أبي أبي العباس أحمد) أمير قسنطينة " أنفق (الأمير أبو اسحاق في حروب خاضها) في شهر شعبان من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وثمانين ألف دينار دراهم جديدة".

---

(١) بعيزيق، مرجع سابق، ج١ ، ص٢٧٣.

(٢) بعيزيق ، مرجع سابق ، ج١، ص ٢٧٣.

(٣) برنشفيك، مرجع سابق، ج٢، ث٧٤.

(٤) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأغشي، ج٥ ، ص ١٣٦، ويكر البرزلي أيضاً أن كل ٤٨درهماً جديداً تساوي ٦٠درهم قديمة.جامع مسالك الأحكام (نوازل) ، ج٣ ، ص١٨٠.

(٦) القلقشندي، مصدر سابق، ج٥ ، ص١٣٦.

(٧) الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص١٨٧.

وهذا يعني إمكانية احتساب الدينار الفضي بالدراهم الجديدة مع مراعاة المعادلة في الصرف[١].

إلا أنه خلال فترة حكم السلطان أبي عبد الله محمد المنتصر (٨٣٧-٨٣٩هـ/١٤٣٥-١٤٣٧م)[٢]، تعرضت الدراهم الجديدة للغش والاضطراب، ولذلك عندما تولى السلطان أبي عمر وعثمان (٨٣٩-٨٩٣هـ/ ١٤٣٧ -١٤٨٨م) جدد ضرب الدرهم الفضي وأطلق عليه اسم "الناصري" وجمعه "نواصر" وهو يساوي ثلاثة أضعاف الدرهم الجديد، وجزَّأه إلي عدة أقسام هي الخمسي وهو خمسة أسداس الدرهم $\frac{5}{6}$ والخروبة وهي أربعة أسداس الدرهم $\frac{4}{6}$، وإلي قفصي وهو القيراط، يعني $\frac{1}{6}$، وسار الحفصيين من بعده على نفس النهج[٣].

وبذلك نلاحظ أن النقد الفضي الحفصي(الدراهم) كانت عرضة للغش والفساد، وكثيراً ما كانت السلطة الحفصية تقاوم تزييف العملة، بخلاف النقد الذهبي الذي ظل كما ذكرنا ثابتاً نسبياً ولم يتعرض للتزييف، وقد يرجع ذلك إلي ما أشار إليه (ديفورك) من خلا وثائق الأرشيف الأرغوني- أن قيمة الفضة في الربح الأخير من القرن السابع الهجري في الدولة الحفصية كانت تتناقص تدريجياً بالنسبة لقيمة الذهب، ويفسر ذلك بورود كميات متزايدة من الفضة من الدول المسيحية على الدولة الحفصية[٤].

وزيادة على نقدي الذهب والفضة، ضربت في الدولة الحفصية فلوساً من النحاس؛ وقد استحدثها السلطان الحفصي(المستنصر بالله) عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م، لضرورة المبادلات التجارية والمشتريات البسيطة، ويحدثنا الزركشي عن ذلك قائلاً[٥]: "وفي سنة ستين وستمائة في ربيع منها صنع الحندوس، وهي فلوس النحاس بتونس ليتصرف الناس بها؛ وقطعت في شوال من السنة المذكورة". وكلمة (الحندوس) تعني (السوداء).

---

(١) صالح بعيزيق، مرجع سابق، ج١، ص٢٧٤.

(٢) الزركشي، تاريخ الدولتين، ص٢٦٠.

(٣) حسن حسين عبد الوهاب، ورقات ، ج١ ص ٤٥٩-٤٦٠برنشفيك، مرجع سابق، ج٢ ص، ٧٤. صالح بعيزيق، ج١، ص ٢٧٦.

(4) Dufourcq , l , espagne catalane , P 270 .

(٥) تاريخ الدولتين، ص٨٠.

ويبدو أن التجربة سَرْعَانَ ما فشلت ، لأن تلك الفلوس النُحاسية كانت تخلق الكثير من الخلافات بين المتعاملين بها؛ ربما لدخول الغش والفساد بها، وضربها ناقصة الوزن؛ الأمر الذي دعا السلطان إلي عقاب من قام بغشها وعمل على إفسادها، وأصبح وجودها مشكلة ونتج عنه اضطراب في البيع والشراء، فانتهى بها الأمر إلي إلغائها في نفس السنة من شهر شوال[١].

ثانياً: المقايضة:

لم تقتصر طرق استخلاص الثمن في التعامل التجاري على البيع نقداً، وإنما استخدمت طريقة المقايضة. وهي مبادلة أشياء بأشياء أي معاوضة سلعة بأخرى[٢]وهي عملية مركبة (بيع وشراء في ذات الوقت) وغالباً ما تتم بين التجار في الأسواق البعيدة[٣] .

والجدير بالذكر أن البيع بالتقاضي قد استخدم في بلاد المغرب بصفة عامة وبلاد إفريقية بصفة خاصة. في مجال التجارة الخارجية والداخلية (أي داخل أسواق المدن والبادية).

ولعلَّ أشهر تجارة من هذا النوع كانت مع بلاد السوادن، حيث إنها استخدمت بكثرة، إذ كانت التجارة مع السودان تقوم على المقايضة[٤] والتي أطلق عليها اسم التجارة

---

[١] حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات ، ج١، ص٤٥٨-٤٥٩. أبو شامة، مرجع سابق، ص ٣٦٢. صالح أبو دياك، مرجع سابق، ص١٠٠.

[٢] الونشريسي، المعيار، ج٥، ص ٢٣٨.

[٣] أبو شامة، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

[٤] البكري، مصدر سابق ، ص١٧٣.

الصامتة[*]، حيث كان يتم مقايضة الملح والنحاس من بلاد المغرب بالذهب من بلاد السودان[١].

واستخدم أيضاً نظام المقايضة داخل أسواق مدن إفريقية حيث كان سوق الربع في تونس يتعامل فيه مع البدو الريفيين البيع بالتقاضي أما في بقية الأسواق فكانت تستعمل الطريقتين (أي البيع نقداً وبالتقاضي)[٢].

ويذكر الونشريسي أن نظام المقايضة قد انتشر في القرى المغربية على وجه الخصوص، حيث جرى العرف بها على بيع الطعام (الحبوب) بالعصير (أي الزيت)، ويضيف أن من عادات الفقراء بالمغرب، أنهم في سنوات القحط والجدب يحتاجون إلي الأقوات والأطعمة ويشترونها بالدين إلي وقت الحصاد، فإذا حل الأجل وعجزوا عن سداد الدين بالدنانير، يضطر الدائنون إلي الحصول منهم على جزء من المحصول مقابل قيمة الدين[٣].

وقد أورد مثالاً أن رجلاً اشترى قمحاً من آخر لأجل بثمن محدد، فلما جاء الأجل أخذ الدائن زيتاً عوضاً عن ثمن القمح[٤].

واستخدم تجار مدينة قسنطينة نظام المقايضة في بعض معاملاتهم التجارية، حيث كانوا يستبدلون الزيت والحرير والأقمشة المصنوعة محلياً بالتمر والرقيق مع صحراء نوميديا[٥].

---

[*] ويبدو أن المقايضة في افريقية مع بلاد السودان كانت قديمة حيث يذكر هيرودوت: أن القرطاجايين أشاروا إلي ممارستهم للتجارة الصامته على الساحل الأفريقي وراء أعمدة هرقل (جبل طارق) حيث يضعوا بضائعهم على الساحل ويطلقون دخاناً يعرفة الموظنون ثم يختفون، ويأتي مواطنو السودان، ويضعون أمام سلع القرطاجنيين الذهب ثم يختلون، فإن لم يقبل أحد الطرفين بما وضع أمام بصناعته لم يأخذ ما عرض عليه له حتى يزاد وهكذا تتم المبادلة دون أن يتقابل الطرفان. أنظر: أحمد حسين، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى، ص١٧٠.

[١] ابن بطوطة، الرحلة، ص ٦٠٦ .

[٢] البرزلي، نوازل، ج٣ ، ص٢٤٥-٢٤٦-٢٤٧.

[٣] المعيار المعرب، ج ٥، ص ٢٣٨، ج١٠ ، ص٤٣٦.

[٤] المصدر نفسه، ج٥، ص ٨٩ ، ج١٠، ص٤٣٦.

[٥] الوزان، وصف افريقيا، ج٢ ، ص٥٦.

- ثالثاً: الصكوك والسفاتج والحوالات:

لقد أشارت المصادر التاريخية[١] إلى استخدام الصكوك منذ عصر صدر الإسلام، كوسيلة للتعويض عن دفع النقود، وهو أمر خطي يدفع بواسطة مقدار معين من النقود إلي الشخص المسمى فيه[٢].

وشاع استخدامه في العصر الأموي، وكثرت الإشارات في العصر العباسي إلى استعمال الصك كوسيلة لدفع المال على المستويين الرسمي والشعبي[٣]، ويعتبر الصك وثيقة ائتمان مضمونة لتقرير الديون واستيفائها، ويجري تحرير الصك بدقة ، حيث يدرج فيه اسم صاحبه ومقدار المبلغ الواجب الدفع رقما وكتابة ، وموعد الدفع ، وكانت الصكوك تصرف أما عند الصيارفة أو في بيت المال[٤]

واستخدمت الصكوك في بلاد المغرب منذ وقت مبكر ، حيث يذكر ابن حوقل[٥] أنه شاهد في مدينة اودغست (جنوب المغرب الاقصى) صكا بقيمة اثنين وأربعين ألف دينار بين تاجرين مغربيين.

ولابد أن استعمال الصكوك قد شاع في باقي أجزاء المغرب بما فيها بلاد إفريقية، وإن كانت تتم غالباً بطريقة بدائية، إذ أكد برنشفيك [٦] انعدام أرباب"البنوك" المحليين بالمفهوم المتطور الذي تكتسبه تلك العبارة، لكنه لم ينف تماماً وجود تلك العمليات المصرفية، ولكنه ذكر أنها كان يقوم بها اليهود والنصارى وخاصة في المعاملات التجارية مع الخارج، إذ أن من الواضح أصحاب رؤُس المال والتجارة أو الوكلاء من النصارى ، سواء في مدينة تونس ذاتها، أو بمناسبة تجارتهم مع تونس؛ قد استعملوا الطرق الأوربية

---

[١] البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٢٣، ص٢٩. ابن قتيبة، المعارف، المطبعة الإسلامية، مصر، ١٩٣٤، ص٢٤،

[٢] ابن منضور، لسان العرب المحيط ، ج٥ ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، ص ٣٦٨.

[٣] عسي بن الذيب، التجارة في عصر دولة المرابطين ص٣٦١.

[٤] أبو شامة ، مرجع سابق، ص ٣٦٣.

[٥] صورة الارض ، ص ٢٥٨.

[٦] مرجع سابق، ج ٢ ، ص ٢٥٨

الرائجة أنذاك (العهد الحفصي) مع تطويرها في كامل الحوض الغربي للبحر المتوسط مثل الصرف ، والصك ، والتأمين ،وتأسيس الشركات.

ويبدو أن الأوضاع المالية قد تردت في مطلع القرن السادسَ عَشَرَ بسبب اضطراب الأوضاع الداخلية ، واحتلال الأجانب للبلاد ، فهذا ليون الأفريقي (الوزان) الذي كتب في بداية القرن السادسَ عَشَرَ كتابه (وصف إفريقيا) ينفي وجود تلك الخيرات المالية لسكان بلاد المغرب حيث أشار قائلاً "[١] لم يكن لهم (المغاربة) خبرة كبيرة بشأن تصريف البضائع، حيث لم يكن لهم أرباب مصارف أو بنوك؛ ومن باب أولى و أحرى لم يكن لهم شخص قادر على تصريف العمليات من مدينة إلي أخرى، فالذي يرغب في ممارسة التجارة يتعين عليه أن يكون دائماً بالقرب من بضاعته وأن يحملها معه إلي أي مكان آخر".

- السفاتج أو الحوالات[*]:-

السفتجه كلمة فارسية (سفته، أي ورقة)، ويذكر ابن منظور كلمة سفاتج من "سفتج" أي الخفيف والسريع، ومن القول : سفتج فلان لفلان النقد، أي عجله[٢].

وتستعمل السفاتج أو الحوالات للدفع في بلاد أخرى، وهي أن يعطي تاجر مالاً لمن له مالُ بالبلد الذي يريد أن يسافر إليه بأسعار ذلك البلد، ويأخذ منه سفتجة ليستظهرها لمن عنده المال في ذلك البلد، وتساعد هذه العملية على تأمين المال للطرفين: الدافع والقابض، وحمايته من غرر الطريق ومخاطره[٣].

---

[١] وصف إفريقيا، ج١، ص٨٨.

[*] تذكر الروايات التاريخية أن استخدام السفاتج أو الحولات، قد ظهر منذ العهود الأولى للإسلام، حيث كان" الزبير بن العوام" يأخذ الورق من التجار ويكتب لهم سفاتج إلي أفرع بمكة من البصرة والكوفة فيأخذوا منه أجود من ورقهم، كما كان "عبد الله بن عباس" يأخذ الورق "بمكة" من التجار والمسافرين على أن يكتب لهم إلي الكوفة ليأخذوا مثل ورقهم. انظر: الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، القاهرة، ١٨٩٧، ص١٣٥.

[٢] ابن منضور، لسان العرب، ج٤ ، ص ٦٠٦ .

[٣] أبو شامة، مرجع سابق، ص٣٦٣. محمد حسن، المدينة والبادية ، ج١ ، ص٥٢٥.

والجدير بالذكر أن نظام السفاتج أو الحوالات كانت تستخدم في التجارة مع البلدان النائية[١]، وكان الصرافون هم الذين يقومون بتحويل السفاتج إلي نقود مقابل خصم من المبلغ المحول، كما كان هذا النظام يسمح بتحويل الديون من أشخاص إلي آخرين، ويسهل أداء الديون بين التجار دون تنقلهم شخصياً، ويحدد أجل السفاتج وفق اتفاق الأطراف المعنية، ويمكن صرفها دفعه واحدة، أو على دفعات حسب اتفاق تلك الأطراف أيضاً[٢].

إذ كان يتعامل في الحوالة الواحدة من ثلاثة إلي أربعة أشخاص هم: "الساحب" وهو الذي يحررها، ويسلمها مقابل مبلغ مالي أو بضائع، والحامل" وهو الذي يستلمها من الساحب، و"المسحوب عليه" وهو الذي يتلقى الحوالة في البلد الآخر ويتكفل بدفع المبلغ المدون على الحوالة، و " المستفيد" وهو الذي يتسلم المبلغ المدون على الحوالة من المسحوب عليه، وإذا كان الحامل ينتقل بنفسه إلى البلد الآخر فيكون هو المستفيد في نفس الوقت [٣] .

والجدير بالذكر أن نظام الحوالة على الصيارفة هذا، قد لقي معارضة من بعض فقهاء المالكية واعتبروها رِبَا [٤] .

ورغم ذلك فإن نظام السفاتج أو الحوالات ظل مستعملاً طيلة العصر الوسيط حيث اشترط الفقهاء لجواز العملية أن يتم الدفع للغريم (وهو المحال أو المنتفع بالمال) بحضور المحيل وبقبول الأطراف المعنية التي ذكرناها [٥] وقد استخدمت السفاتج أو الحوالات في إفريقية وظل معمولاً بها حتى القرن التاسع هـ/ الخامس عشر الميلادي[٦].

---

[١] نجاة باشا، مرجع سابق، ص ١١٠،

[٢] الونشريسي، المعيار، ج٥ ، ص ٨٨-٨٩.

[٣] الونشريسي، المعيار ، ج ٩ ، ص ٨٧ . أبو شامة، مرجع سابق، ص ٣٦٤.

[٤] الونشريسي، نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٣١٥- ٣١٦.

[٥] محمد حسن ، مرجع سابق، ج ١ ، ص ٥٢٥.

[٦] محمد حسن، المرجع نفسه، ج١ ، الصفحة نفسها.

ومما لـه دلالـة واضـحة علـى ذلـك مـا أشـارت إليـه رسـائل (الجينيـزة) عـن وجـود سفتجة بمبلـغ مـائتي دينـار محولـة من أحد تجار طـرابلس إلـى تـاجر بالفسـطاط[١]؛ كذلك أشـار " جـوتين" إلـى وجـود العديد مـن السفاتج محولـة بـين مدينـة تـونس وبـين بغـداد فـي العراق [٢].

كذلك من الأمور الدالة على استعمال تجار العهد الحفصـي لنظام الحوالات العقد الذي أورده ابن رشد: " أحال زيد عمر بعشرة دنانير المحالة له عليه من سلف صـحيح على بكر في عدد مثلها صفة وقدراً ، ترتيب لـه عليه في معادلة صـحيحة حل أجلها، أو تحل في وقت كذا حوالة صـحيحة رضي بها المحيل والمحال. وبرئت بذلك ذمة المحال عليه من دين المحيل براءة صـحيحة، وذلك بمحضر المحال عليه، وإقراره بصـحة ترتيب العدة الموصوفة قبله من الوجه المذكور إلى الأجل المذكور فيه. شهد على إشـهاد المحيل والمحال عليه بما فيه عنهم من أشـهدوه بـه فـي صـحتهم وجواز أمرهم وعرفهم بتاريخ كذا" [٣]

وأشـارت إحـدى النـوازل أن رجـلاً كتـب لصـهره بمدينـة قفصـة بإفريقيـة وصـية بـأن يتسلم مبلغاً من المال من شخص فأحاله الأخير على شخص آخر [٤].

<u>رابعاً: الموازين والمكاييل:</u>

تعتبر المكاييل والموازين من الأمور وثيقة الصلة بالحياة الاقتصـادية ، وبموضـوع التجارة على وجـه التحديد، خاصـة وإنها تظهر مدى مرونـة التبادل التجاري، ويمثل نظام المكاييل والموازين عنصراً أساسياً من عناصر تبادل السلع إلى جانب النقود [٥].

---

[١] عيسى بن الذيب، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

[2] Gitien : Bankers and accounts from the elevenc 6 century a. Din (J.E. S.H. 01 Vol Ix part I.II. , 1966. P29.

[٣] محمد حسن، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٢٦.

[٤] كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاقتصـادية والدينيـة والعلميـة في المغرب الإسلامي في خلال نـوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الاسكندرية للكتاب، ١٩٩٦، ص ٨٨.

[٥] برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢ ، ص ٢٥٩.

ومن أهم الوحدات الوزنية المستخدمة في إفريقية " الأوقية"[*]البالغ وزنها ٤٨ و ٣١ غرام[١].

و " القنطار" ويساوي في إفريقية ٥٠.٤ تلغ أي ما يساوي ١٦٠٠ أوقية[٢] إلا أنه بالنسبة إلى بعض المواد مثل الفواكة الجافة أو الأقمشة ، يقتضي العرف المعمول به في التجارة أن يسلم البائع ١٠٢ أو ١٠٥ أو ١١٠ رطلاً، بالنسبة للقنطار الواحد، وذلك للرفع من وزن القنطار من ١ إلى ٥ كغ تقريباً[٣].

" والرطل" وكان يوجد عدة أنواع من الأرطال بحسب نوع المادة الموزونة.

فهناك الرطل " العطاري" وهو يستعمل لوزن الذهب والمواد الثمينة والمعادن المختلفة ويساوي (١٦ أوقية) [٤].

وهناك الرطل ذو ثماني عشرة أوقية البالغ وزنه (٥٦٧ غرام)، وكان مستعملاً لوزن الفضة ويسمى الرطل " السوقي" ويبدو أنه كان مستعملاً لوزن المواد الغذائية [٥].

والنوع الثالث الرطل " الشرعي" ويساوي (١٢ أوقية) أو حوالي ٣٨٠.٨ غرام أي ما يساوي ١٢٨ درهماً من دراهم الكيل [٦].

وقد كان النوع الأول من أنواع الرطل وهو " العطاري" الأكثر استعمالاً ورواجاً في إفريقية وخاصة في العهد الحفصي، لاسيما في المعاملات التجارية مع الخارج[٧].

أما بالنسبة للذهب والمواد الثمينة، فقد استخدم الموحدون ومن بعدهم الحفصيون في إفريقية وحدة وزنية هي " المثقال" البالغ وزنة ٤٠.٧٢ غرام، وقد عرفوا به عملتهم

---

[*] أجمع العلماء على أن الأوقية تساوي أربعين درهماً بالوزن الشرعي. على جمعه، المكاييل والموازين الشرعية، دار رسالة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٥.

[١] برنشفيك ، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٦٠. نجاة باشا، مرجع سابق ، ص ٨٩.

[٢] نجاة باشا، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[٣] برنشفيك ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٢٦١.

[٤] أبو شامة، مرجع سابق ، ص ٣٣٦ . برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢ ، ص٢٦١.

[٥] أبن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة ، ص ١٤٣.

[٦] أبو شامة، مرجع سابق، ص ٣٣٦.

[٧] برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٦١.

الذهبية (الدينار) وتساوى ثلاث أوقيات ، عشرون مثقالاً (ديناراً) أي أن الأوقية تضم ستة دنانير وثلثي الدينار [١].

كذلك تم استخدام الدرهم المتطابق مع قطعة الفضة الذي كان يعادل ما يقرب من الجزء العشرين إلى الواحد والعشرين من الأوقية [٢] أي حوالي ١.٥٠ غرام كما ذكرنا آنفاً.

والجدير بالذكر أنه كان كثيراً ما يتم اللجوء في العادة لضبط الوزن بصورة دقيقة إلى " حبة الشعير"[*] والتي كانت تساوي ٠.٠٥٩غ [٣].

فكان دينار الكيل يساوي (٢٤ قيراط أو ٨٤ حبة شعير [٤]

ودرهم الكيل يساوي وزنه خمسون وخمس حبة شعير [٥]

والقيراط يساوي " ثلاث حبات" ، والحبة " أربع أرزات" ، والأرزة " أربع سمسمات" والسمسمة" أربع خردلات" ، والخردلة " أربع من أوراق النخالة" ، وفي ورقة النخالة" أرفع ذرات" والذرة جزء من ألف وأربعة وعشرين جزء من حب الشعير[٦].

أما المكاييل فقد كانت تستخدم للسوائل والحبوب وتختلف من منطقة إلى أخرى، فبالنسبة للحبوب وجميع المواد الجافة استعملت في القيروان" القفيز" الذي كان يساوي ١٨٧.٥٨ لتراً أو (١٦ ويبة) و " الويبة" تساوي " ١١.٧٢ لتراً" ، وتنقسم " الويبة" بدورها إلى ١٢ صاع ، والصاع يساوي حوالي ٠.٩٨ لتراً أو " ١٢" مداً [٧].

---

[١] ابن يوسف الحكيم ، مصدر سابق، ص ١٤٧.

[٢] نجاة باشا، مرجع سابق، ص ٨٩.

[*]لقد عمد اليهود إلى استغلال حبات الشعير المستخدمة للوزن في عمليات الغش والتدليس، حيث أن بعضهم قد استخدم حيلة خبيثة في وزن الذهب والفضة فجعل حبات شعير يزن بها لنفسه من الناس وأخرى يزن بها فيبيع للناس. أما الأولى فقد غرس في جوفها أطراف من إبر الحديد بعد أن رطبها بالماء ثم جففها، فكان هذا اليهودي إن قبض لنفسه وزن بالتي فيها أطراف الإبر، وإن وزن لغيره وزن بالتي لا إبر فيها، وقد ظلت مثل هذه الحيلة متداولة بين التجار اليهود حتى القرن الثامن هـ / الرابع عشر م . انظر: أبي يوسف الحكيم، مصدر سابق، ص ١٢٥.

[٣] نجاه باشا، مرجع سابق، ص ٨٩ .

[٤] إبن أبي يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص ١٤٦. والقيراط يزن ٠.٧٥ غرام.

[٥] أبي يوسف الحكيم، نفس المصدر أعلاه، الصفحة نفسها.

[٦] نفس المصدر، ص ١٤٦– ١٤٧.

[٧] برنشفيك، مرجع سابق ج ٢، ص ٢٦٢. أبو شامة، مرجع سابق،، ص ٣٣٧. نجاة باشا، مرجع سابق، ص ٨٩.

أما القفيز في مدينة تونس فأصبح يساوي ابتداءً من القرن الثالث عشر " الوسق الشرعي" أي " ١٧٥.٩٢" لتراً أي ما يعادل عشر صحفات، (والصحفة) هي الويبة وتشمل الصفحة ١٢ مداً حفصياً [١].

وفي مدينة طرابلس كان القفيز أثقل من قفيز مدينة تونس، إذ كان قفيز طرابلس يساوي حوالي ٢٥٢ لتراً، ويتجزأ إلى عشر " برشلة" (وهي وحدة قياسية تساوي أكثر بقليل من ١٢.٥ لتراً) ؛ أما بجاية فلم يستعملوا القفيز لكل الحبوب ، بل استخدموا " الفنيقة" التي تساوي حوالي ٧٢ لتراً. وأما مدينتا القل وقسنطينة، فكان المكيال الأكثر استعمالاً بالنسبة للحبوب يتمثل في " الثمنة" أي ثمن القفيز، الذي كان يساوي في القل من ٣ إلى ٢٣ لتراً؛ وفي قسنطينة حوالي من ٢٠ إلى ٦٩ لتراً [٢].

وأما كيل السوائل فكان " المطر" هي الوحدة العادية للكيل.

وكان مطر تونس وجربة يساوي ١٧.٥ لتراً [٣] واستعملت وحدة أخرى لكيل السوائل وخاصة لكيل الزيت وهى الجرّة " التي كانت تساوي في تونس من ٥٠ إلى ٥٣ لتراً [٤].

كذلك يجب الإشارة إلى المكاييل اليدوية (أيدي البشر)، والتي كانت استخدمت بكثرة برغم عدم دقتها وأهمها " القبضة " (قبضة اليد) و " الحفنة" (حفنة اليد) [٥].

وإلى جانب تلك الموازين والمكاييل التي ذكرناها؛ فقد استخدمت أيضًا بعض الوحدات القياسية (المقاييس) التي استعملت في بعض المعاملات التجارية لقياس الأطوال أهمها: الذارع [٦] ، وكان الذارع السائد في مدن إفريقية أيام الحكم الموحدي والحفصي

---

[١] برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢ ، ص ٢٦٢.

[٢] برنئشفيك، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٦٢.

[٣] نجاة باشا، مرجع سابق، ص ٨٩.

[٤] نجاة باشا، نفس المرجع، ص ٢٦٢ . برنشفيك مرجع سابق ج ٢، نفس الصفحة، ابن فضل الله العمري. مسالك الأمصار، ص ٢٢٨.

[٥] برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢ ، ص ٢٦٣.

[٦] الذراع: هو بسط اليد ومدها، وأصله من الذراع وهو الساعد، وهو ما بين طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى . على جمعة، مرجع سابق، ص ٣٣.

يتمثل في " الذراع العربي" البالغ طوله ٠.٤٨ متراً، واستمر العمل به في تونس طيلة العصرين الموحدي والحفصي، وينقسم الذارع إلى عدة أجزاء [١] على أن أصغر جزء فيه يتمثل في الإصبع ويساوي ٠.٠٠٢ متر، والشبر ويبلغ ٠.٢٤ متر والقامة وتساوي من ١.٦٥ متر إلى ١.٧٠متر[٢].

كذلك استخدم في إفريقية وحدة قياسية إيطالية، وخاصة في مجال التجارة الخارجية، وهي " الكانة" (Canna) ، وكانت تستخدم لقياس الأقمشة المستوردة من إيطاليا مثل الشبكة أو الأقمشة الصوفية، ويبدو أن تلك الوحدة القياسية لم تكن ثابتة، حيث كانت تختلف من منطقة إلى أخرى ، فكانت (كانة) تونس أطول من (كانة) (أنكونة) و " كانة" طرابلس أطول من " كانة" البندقية إذ يبلغ طولها ٢.٢٠ متراً [٣].

---

[١] برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢ ، ص ٢٦٣.

[٢] نجاة باشا، مرجع سابق، ص ٨٨.

[٣] برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٦٣.

الشركات التجارية :

الشركات التجارية هي اتفاق بين طرفين يلزم بالعقد، يتم بمقتضاه خلط وسائل الإنتاج من رأسمال وغيره، والعمل(الجهد)[١] ويتقاسم الشريكان الربح على أساس مدى المساهمة في الشركة [٢].

وتجدر الإشارة إلى أن الشركات التجارية كانت بمثابة الضمان والتأمين للعمليات التجارية، ذلك لأن التجارة أضحت في بعض الأحيان مخاطرة وخاصة في الحقبات التي يسود فيها الاضطراب الداخلي والقطع والقرصنة في البحر؛ وقد كان الخوف هاجساً كبيراً لدى البحار المتنقلين من بلد إلى آخر، إلا أن الشركة في التجارة قد خفضت من وطأة الخسائر الناجمة عن عدم استتباب الأمن، وإن لم تكن قد منعت المحظور إلا أحياناً قليلة، وأحياناً أخرى كانت تنتهي نتيجة للخلافات التي تحدث بين الشركاء[٣].

وعموماً فإن الشركات التجارية قد تنقسم إلى أقسام أهمها:-

١- شركة القراض أو المقارضة وأحياناً يطلق عليها شركة المضاربة[*].

وهي أن يقوم رجل بإقراض رجل آخر مالاً ليعمل به على وجه القراض نظير جزء من الربح، وكان هذا النوع من الشركة يستلزم إبرام عقد بين الطرفين، يشهد عليه بعض الشهود العدول[٤].

ويذكر أن نظام القراض " أو المقارضة" قد انتقل إلى بلاد المغرب والأندلس من الشرق الإسلامي عن طريق التجار البنادقة منذ القرنين الرابع ، والخامس الهجريين العاَشَرَ والحادي عَشَرَ الميلاديين[٥].

---

[١] محمد حسن، المدينة والبادية ، ج ١، ص ٥٢٧.

[٢] الونشريسي، المعيار، ج ٨ ، ص ١٨٩.

[٣] ابن بطوطة، الرحلة، ص ٢٠. محمد حسن، المدينة والبادية ، ج ١، ص ٥٢٧.

[*] المضاربة من الضرب في الأرض للتجارة، أو الضرب بالمال أي السفر به. البرزلى ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص ٤٤٠ .

[٤] الونشريسي، مصدر سابق، ج ٦ ، ص ٥٦٢.

[٥] أبو شامة ، مرجع سابق ، ص ٣٥٠ .

ويبدو أن ضمان الربح كان من الدوافع الأساسية التي جعلت التجار يتحملون السفر ويضربون في الأرض، فتعاظمت رؤُءُس أموالهم ويصبحون من تجار الجملة ويشتغل لديهم دائماً عمال بالتجزئة، ولا يغامرون بأنفسهم وبكل أموالهم على الطرق المحفوفة بالمخاطر. فيبقون في بلادهم بينما يتحمل غيرهم مخاطر الطرق ضمن القوافل وعى متن السفن في البحار [١].

ويعتبر نظام المقارضة من الأنظمة السهلة والبسيطة؛ فهو عبارة عن اشتراك بين الأشخاص والمصالح من حيث إنشاء شركة مؤقتة [٢].

ولأن المجتمعات الإسلامية سواء في المشرق أو في المغرب كانت تحترم التعاليم القرآنية التي تحرم تحريماً باتاً القرض بالفائدة أو (الربا) ولذلك رأوا في نظام شركة المقارضة البديل المقنع والمربح في آن واحدٍ ، والذي سد الباب أمام التعامل بالربا [٣].

ولشركة المقارضة أنواع: إما أن يقرض أحد الطرفين مالاً لأحدهم الآخر على أن يسافر به للتجارة، ويكون الربح بينهما مناصفة، وكان هذا العقد أكثر شيوعاً من غيره [٤].

وإما أن يسلم التاجر الكبير البضاعة للتاجر العامل لتوزيعها إما داخل البلاد، أو خارجها مقابل أجره محددة وهنا اعتبر العامل بمثابة الأجير لا الشريك[٥].

ولقد وجد هذا النوع في إفريقية في العهد الحفصي.

وهناك نوع آخر من شركة القراض تمثل في تسليم التاجر أموالاً لصاحب مركب على أن يقتني بضاعة من بلاد أخرى، وهي عملية لا تخلو من المخاطر والصعوبات: مثل مخاطر القرصنة، وقد وجد هذا النوع من الشراكة في إفريقية خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عَشَرَ الميلادي عندما منع السفر إلى صقلية في فترات التوتر رغم حاجة الناس إلى الأقوات في فترة الشدة.

---

[١] الونشريسي، المعيار، ج ٩، ص ١١٦– ١١٨.

[٢] أو شامة، مرجع سابق، ص ٣٥٣.

[٣] برنشفيك، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٥٧.

[٤] البرزلي، نوازل، ج ٣ ، ص ٤٤٠–٤٤٢. الونشريسي، المعيار، ج ١٣، ص ٢٠١.

[٥] البرزلي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٤٠.

ومنذ تلك الفترة تعود أهل إفريقية على استيراد الحبوب من جزيرة صقلية وفق الطريقة التالية: وهي أن يسلم مجموعة من التجار الدنانير المختلفة (مرابطية، طرابلسية، مهدوية وغيرها) إلى صاحب المركب، بعد أن يعيد صاحب السكة ضربها، ويزيد عليها وزناً من الفضة، وعند وصول الحمولة، واستيفاء أجرة صاحب المركب يتم اقتسامها بين التجار، وهي عملية لا تخلو من صعوبات لاختلاف جودة الحبوب وقلة الحمالين وغيرها [١].

ويشير البرزلي[٢] إلى مثال لشركة القراض في إفريقية في العهد الموحدي خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. يتلخص في شركة قراض بين تاجر من مدينة تونس، وشريك له سافر إلى الاسكندرية ، محملاً بالمُرْجَان والحرير. وبعد بيعها في مصر ، اقتنى بثمنها الكتان وبعض أنواع الأقمشة والنيل والقرنفل، وعند رجوعه إلى تونس ، باع النيل بسوق الصباغين بتونس، وكان جزء منه بيع تقاض، أما شريكه بتونس فإنه انصرف إلى تجارة الحبوب. والوثيقة هي عبارة عن محاسبة للمقارض بعد موت شريكه وانتهاء عقده.

وقد تحدث خلافات عديدة في هذا النوع من الشراكة بين الشريكين أي بين صاحب الرأسمال والعامل المقارض، وذلك بسبب حرص صاحب رأس المال على أمواله من الأخطار المتوقعة في الأسواق غير الآمنة، والاطمئنان على أمواله؛ وهناك مثال على تلك الخلافات في إفريقية خلال القرن الثامن الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وهو ما ذكره لنا البرزلي [٣].

حيث يروي أنه تولى المقارض مقايضة البضاعة بالماشية في البادية، ويبدو أنه قد توغل في البادية فسلم الماشية لمن يرعاها هناك، فلما حوسب من صاحب المال، ادعى أن الماشية هلكت ولم يحقق منها ربحاً يذكر.

---

[١] الونشريسي، المعيار، ج ٨ ، ص ٢٠٤ – ٢٠٥ . البرزلى ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص٤٣٤.
[٢] مصدر سابق ، ج ٣، ص ٤٤٧–٤٤٨ .
[٣] المصدر نفسه ، ج ٣، ص ٤٤٩–٤٥٠ .

وكانت شركات القراض تحصل بين صفاقس وتونس وطرابلس، بمبالغ متفاوتة، وكانت عرضة لحركات القطع التي يقوم بها القراصنة النصارى(١).

أما الأنواع الأخرى من الشركات كانت شركات:

المفاوضة(*) والعنان(**) ولم نجد بين أيدينا ما يشير إلى استعمال أهل إفريقية في العهدين الموحدي والحفصي لهاتين الشركتين.

وبالإضافة إلى ما تقدم من أنواع الشركات، فقد نشأت شركات جماعية وذلك لتلطيف الضرر أي نسبة الخسائر للزيادة في الربح؛ منذ القرن الثاني عَشَرَ الميلادي (السادس الهجري) وتتميز تلك الشركات بتنوع أعضائها فقد كانوا أشخاصاً في مختلف الأوساط ومن عامة الأديان فمنهم رجال البلاط، وطبقة التجار في المدن والمسلمون والنصارى واليهود. وأبرز مثال على تلك الشركات (الشركات الميورقية أو البرشلونية) والتي كانت تضم يهوداً يقطن البعض منهم في المغرب والبعض الآخر بكتالوينا.

ويذكر أن جاك الغازي(***)رخص في عام ١٢٧٠ المسلم إبراهيم بن خلف وهو من رعاياه في بلنسية ، أن يشتري مركبًا كاملاً أو سهماً منه على ملك أحد رعاياه المسمى (برناط ماسو) وأن يستعمل هذا المركب في التجارة بشركة من يختاره من النصارى أو من مسلمي تونس أو بجاية، وتشمل رعاية الملك وحمايته عامة الشركاء المزمع الجمع بينهم وكل البضائع المحمولة على هذا المركب (٢).

---

(١) البرزلي، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ .

(*) وهي الإشتراك في رأس المال، والعمل على أن يكون الربح بقدر ما أخرج كل واحد منهما، وقد يسافر طرف ويتولى الثاني التصرف في الأعمال في بلده. البرزلى ، مصدر سابق ، ج٣ ، ص٤٣٨.

(**) العنان من عن له الأمر أي يكلفه وشركة العنان هي اشتراك التجار في تكليف أحد الأعوان أو الوكلاء للسفر وجلب البضاعة، ويتحصل هذا الأجير (الجلاب) على أجرته فضلاً عن المصاريف التي تخصص له عند السفر للإقامة والطعام واللباس. محمد حسن، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٢٧.

(***) أو جاك الثاني (العتيد) ابن الملك بيدور الثالث ملك أراجون . تولى الحكم بعد أبيه وكان شاباً طموحاً عمل على توطيد أركان مملكته التي ضمت (برشلونة ومرسيليا ومنبيليه) وشهدت مملكته قوة بحرية وتجارية كبيرة في الحوض الغربى للبحر المتوسط وهدد شمال إفريقية كما ذكرنا سابقاً . Mas Latrie , Ibid , P 142. عمر سعيدان ، مرجع سابق ، ص ٦٩ .

(٢) نجاة باشا، مرجع سابق، ص ٧٤– ٧٥.

الفصل الخامس

المؤسسات التجارية

- **الفنادق.**

- القناصل ودورهم في خدمة التجار.

- **وسائل النقل التجارى :-**

١- السفن التجارية (البحرية) .

٢- القوافل التجارية (البرية).

المؤسسات التجارية :-

ارتكزت التجارة في إفريقية سواء البحرية أو البرية على هياكل ومؤسسات ضرورية؛ أدت دوراً واضحاً في عملية التبادل التجاري. تمثلت في محاور أساسية:

- الفندق الذي أدى الدور البارز في تنظيم التجارة ورواجها ؛ وما احتواه من التمثيل الأجنبي الذي تمثل في القنصل وأعوانه.
- السفن التجارية التى مثلت مؤسسة الاستقبال والنقل البحري.
- القوافل البرية عبر الصحراء التى مثلت مؤسسة النقل البري.

الفنادق: (*)

الفندق عبارة عن مؤسسة متعددة الصلاحيات تضم بداخلها عدة منشآت ، منها سكنية لإقامة التجار ، وأخرى لتخزين السلع ؛ ومكاتب لتنظيم الفندق وتيسير الشئون العامة للجالية(١).

حيث كان فى بلاد إفريقية لكل جنسيةٍ فندق خاص بها لا يشاركها فيها أحد ؛ ويذكر ماس لاتري(٢) أن الفنادق كانت مخصصة لسكن المسيحيين ، وأن عملية البيع والشراء كانت تتم تحت رقابتهم. وتكون هذه الفنادق على شكل أحياء فى وسط المدينة أو خارجها ، وإن كانوا يفضلوا غالباً أطراف المدينة بعيداً عن المدن الآهلة بالسكان العرب(٣) ، حيث أقاموا حيّاً بأكمله كان يطلق عليه اسم "حي التجار"(٤). وفى الغالب يعرف اسم الفندق باسم النازلين فيه(٥).

وتجدر الإشارة إلى أن الفندق كمؤسسة خاصة بقومية من التجار الأجانب هو تطور للمدلول الذى تشكل فى إفريقية والمغرب الأوسط خلال الفترة الإسلامية الأولى بشكله البسيط. إذ كان عبارة عن مبنى مكون من أفنية صغيرة ومخازن ودكاكين وغرف

(*) عّرف ابن منظور الفندق قائلاً: "والفندق بلغة أهل الشام خان من هذه الخانات التى ينزلها الناس مما يكون في الطرق والمدائن ... ". ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، ص ٧٢ – ٧٣ .

(١) عبد الناصر جبار ، بنو حفص والقوى الصليبية في غرب البحر المتوسط ، ص ٢٠٧.

(2) Mas Latrie: Les Relations Des Chiretiens Ibid , P. 90.

(3) Mas Latrie , Ibid , P. 89.

(4) Andreas Gimenez Soler , Ibid , P 40 .

(٥) عيسى ابن الذيب ، التجارة فى عصر دولة المرابطين ، ص ١٥٠.

للتجار وغرف للاستحمام دون أن تكون هناك أماكن للحيوانات المخصصة للركوب. ثم تطور مفهوم الفندق عند التجار الأوربيين ليستجيب لنمط حياتهم وطموحاتهم ومصالحهم ؛ فأصبح الفندق مقر القنصلية وبالتالى المقر (الدبلوماسي) الذى يمثل الدولة والجالية ويحل مشكلاتهم[١].

لذلك صار الفندق مركبًا كاملاً احتوى على وظيفتي التنزيل والتخزين للسلع الواردة عن طريق البحر بالإضافة إلى أنماط الحياة المختلفة ، فاحتوى على كنيسة لأداء لشعائر الدينية ، وفرن لإعداد الطعام للنزلاء ومدافن لدفن الموتى ؛ بالإضافة إلى وجود محلات لتقديم الخدمات الضرورية الأخرى ، مثل محل لخياطة الملابس ، وآخر لصناعة الأحذية وثالث لبيع الخمور ، بالإضافة إلى وجود محلات لدباغة الجلود والفراء[٢]. ووجد محلان خاصان لملاحظة ومراقبة المحال الأخرى ، إذ كانت اللوائح تنظم وتراقب البضائع واستخدامها وبخاصة أمور الكيل والميزان ومراجعة الحسابات وتسجيلها عن طريق دائرة البيع ، كما تمَّ منع تربية الخنازير داخل الفندق أو السماح بالأعمال المخلّة بالأَخلاق فيه[٣].هذا بالإضافة إلى وجود الحمامات والحانات[٤] والسجون.

ولعل وجود مثل تلك الخدمات والمرافق داخل الفندق يوفر له نوعاً من الاستقلالية عن المدينة ، وأصبح أصحاب الجالية يمارسون حياتهم داخله دون تدخل السلطة المحلية ، بإدارة القنصل وجمع من الموظفين ويحيط به سور عند كل الجاليات، فكان الفندق سوقاً تجارياً تباع وتشترى داخله بضائعهم أو البضائع المحلية ، وتعقد فيه الصفقات التجارية[٥] التجارية[٥] ، فكان الفندق المسيحى فى بلاد المغرب شكلاً من أشكال المدينة[٦] بما احتواه من خدمات تكاد تكون متكاملة.

---

(١) صالح بعيزيق ، بجاية في العهد الحفصي ، ج١ ، ص ٢٤٢.

(2) Mas Latrie , Ibid , P. 90.

(3) Mas Latrie , Ibid , P. 9.

كالسماح للعاهرات بالإقامة فى الفنادق.

(٤) عيسى بن الذيب ، مرجع سابق ، ص ١٥٠.

(٥) بعيزيق ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٤٢.

(6) Mas Latrie , Ibid , P. 89.

وقد تأسست فنادق مختلفة خاصة بكل طرف من الأطراف التجارية الأوربية المتوسطية المتعاملة مع بلاد إفريقية الساحلية ؛ من الجنويين والبيزيين والبنادقة ، بالإضافة إلى القتلانيين الإراغونيين ؛ فضمت مدن إفريقية الساحلية فنادق لكل الجاليات المسيحية المتعاملة مع الشمال الغربي الإفريقي[١]. فانتشرت الفنادق فى مدينة المهدية[٢] ومدينة تونس الذى ذكر الوزان أن "للبنادقة والجنويون والقتلانيون فنادق وملاجئ خاصة"[٣] ، وطرابلس وبونة وصفاقس[٤] ، ووجد في مرفأ قابس فنادق كثيرة بالقرب من حي قشلة البحر[٥]. وكان للتجار القتلانيين الأراجون فنادقهم الخاصة التي بناها لهم السلاطيين الحفصيين وكانت لهم مخازنهم الخاصة وكتابهم ومترجموهم[٦]

وفى مدينة بجاية وجدت عدة فنادق[٧] فقد سُمحَ للبيزيين بإقامة فندقهم الدائم منذ معاهدة عام ٦٣١هـ/١٢٣٤م[٨] وكذلك للجنويين منذ معاهدة عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م[٩].

وقد نصت أحد بنود المعاهدة التي عقدت عام ٧١٣هـ/١٣١٣م بين جمهورية بيزا والسلطان الحفصى أبو زكريا اللحيانى أن يكون للبيزنيين في كل بلد لهم من البلاد

---

(١) عقد الأمير أبو محمد عبد الله بن اسحق بن غانية مع سفير جمهورية جنوه معاهدة تضمنت أحد بنودها حماية التجار الجنويون والمحافظة على أراوحهم وأموالهم فى البر والبحر ووعد بإعطائهم فندقاً وحماماً وفرناً وكنيسة فى الجهة التى يرغبون فيها من ممتلكاتهم فى بلاد إفريقية. سامى سلطان سعد ، مرجع سابق ، ص١٤٣. كما ورد فى المعاهدة التى عقدت بين ملك أرجونة بيدور وبين السلطان الحفصي عمر أبي حفص عام ١٢٨٥م اعتراف السلطان الحفصي بحق الصقليين والقطالونيين فى بناء فنادقهم في أية بلدة يختارونها في إفريقية. برنشفيك ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ١٢٦.

(٢) ورد في معاهدة سنة ١١٦٦م بين أبي يعقوب يوسف الموحدي وبين جمهورية بيزا أنه باستطاعة البيزيون فتح فندق خاص بهم فى مدينة المهدية. انظر : Mas Latrie: Ibid : P22

(٣) الوزان ، وصف إفريقيا ، ج٢ ، ص ٧٤.

(٤) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٣٦٦-٣٨٩-٣٩٠.

(٥) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٤٥٠ . إلهام حسين دحروج ، مرجع سابق ، ص ١٤٧.

(٦) عمر سعيدان ، علاقات أسبانيا القطلانية بالحفصيين ، ص ٩٩.

(٧) الوزان ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص ٥٠.

(8) Mas Latrie , Ibid , P. 31-37.

(٩) بعيزيق ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٤٣.

الساحلية في بلاد إفريقية لنزولهم فيها للتجارة فندق يختصون به بتجارتهم ولا يشاركهم في سكانه غيرهم من النصارى ويحتوى الفندق على كنيسة ومدفن لموتاهم ، وفرن يختصون به وحمام يختصون به يوماً في الأسبوع(١).

كما كانت توجد فنادق فى بعض المدن الداخلية المهمة مثل قسنطينة (٢) ، أما باقى المدن الأخرى الأقل أهمية مثل جيجل وسكيكدة فكانت توجد بها مكاتب تجارية دائمة غير خاضعة للضرائب ، بالإضافة إلى امتلاكها أمكنة مميزة لتخزين السلع(٣).

وللفندق وظائف متعددة أهمها الوظيفة الاقتصادية ، إذ جعل أصلاً ليكون مؤسسة دائمة لخدمة المصالح التجارية ، فهو مخزن للسلع ويتم الخزن مقابل أداء يدفع للقنصل ؛ وهو سوق تجارية للبضائع الموردة ومورد للعائدات المالية المتأتية من كراء المحلات والفرن ؛ إلى جانب الأداءات الموظفة على العقود التجارية (٤).

وله وظيفة سياسية ؛ لأنه مقر القنصل الذى أُعتبر ممثلاً رسمياً للدولة أو المدينة، وأيضاً له وظيفة دينية لأنه احتوى على مبنى الكنيسة الخاصة بالجالية(٥).

وذكرنا أن الفنادق غالباً ما تقع خارج المدينة ؛ ففى مدينة تونس مثلاً يقع مجمع الفنادق بها خارج أسوار المدينة على بعد نصف ميل من باب البحر (٦).

وفى مدينة قابس أقيمت الفنادق فى أرباضها وفي الغابة من حولها (٧) فشكلت بذلك نوعاً من التجمع المدني الصغير أو ما يقال له "ربض"(٨).

ولما كان لكل جالية مسيحية فندقها الخاص بها ، فإن كل فندق كان منفصلاً عن الفندق الآخر بواسطة حوائط حجرية من التراب المدكوك(١). ولكل فندق بابه الخاص به؛

---

(1) Michele Amari , Ibid , P88.

(٢) عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢٠٨.

(3) Mas Latrie , Ibid , P. 92.

(٤) صالح بعيزيق ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٤٣.

(5) Mas Latrie , Ibid , P. 47.

(٦) الوزان ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٧٤.

(٧) إلهام دحروج ، مرجع سابق ، ص ١٤٧.

(٨) الوزان ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٧٤.

والذي يمتاز عادة بالمتانة والصلابة ويقوم بالحراسة عليه (بوابون أو أمناء) غالباً ما يكونون من المسلمين ويخضعون لسلطة القنصل[٢].

ويبدو أن السبب الرئيسى لقيام ذلك الفصل التام والحراسة المشدّدة يعود إلى تلك النزاعات القائمة باستمرار بين الدول الأوروبية ؛ بالإضافة إلى المنافسة القوية بين التجار لعقد الصفقات التى ينتج عنها حساسية شديدة بينهم تجعل كل جالية حريصة كل الحرص على إحاطة جوانب حياتها داخل الفندق بقدر من السرية والكتمان[٣].

ومن الأسباب الأخرى لتلك الحراسة المشددة للفنادق أنها كانت مخازن للسلع والبضائع التجارية ، ولذلك يجب حمايتها وحراستها حفاظاً عليها من السرقة والنهب[٤].

أما بالنسبة لمسألة صيانة وإصلاح الفنادق فإنها على ما يبدو كانت تخصم من الرسوم الجمركية ، أو من ثمن إيجار بعض المحال التجارية ، ففى عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م كان القنصل العام فى البندقية يفرض على قنصل تونس أن يستخدم جزءًا من العوائد فى استئجار بعض المحلات فى إصلاح وتنظيم الفندق[٥].

والجدير بالذكر أن الفنادق كعقار ليست ملكاً للدولة التى يسكنها تجارها ، بل إن الملكية الفعلية للعقار تعود إلى الدولة صاحبة الأرض أي إلى الدولة الموحدية ومن بعدها الحفصية في بلاد إفريقية ، فبمجرد ترك التجار للفندق فإنه يعود وبجميع مرافقه للدولة صاحبة الأرض [٦].

وكانت الفنادق تسمى أحياناً باسم البضائع التى تخزن فيها مثل فندق الصوف المغزول ، وفندق القمح ، وفندق الفحم ، وفندق الخضرة[*] ، وفندق الملح [١] ، وفندق الرماد الذي يقع فيه تبييض الغزل وتنظيفه [٢].

---

(1) Mas Latrie , Ibid , P. 89.

(٢) عيسى بن الذيب ، مرجع سابق ، ص ١٥٠. عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢٠٩.

(٣) عبد الناصر جبار ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

(٤) عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢٠٩.

(5) Mas Latrie: Ibid . P. 91.

(٦) عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢١١.

(*) ويسمى بفندق البقل وهو مخصص لإيداع البقول والخضر ، ويوجد قرب باب سويقة. ويوجد فندق ثان للبقل في القيروان . راجع : محمد حسن ، المدينة والبادية في العهد الحفصي ، ج١ ، ص ٥٥٠.

ويرى ماس لاتري[٣] أن أغلب تلك الفنادق والمنشآت الرئيسة تقع في تونس ، والمهدية ، وبجاية ، وذلك في القرنين السابع والثامن الهجري / الثالث عشر والرابع عشر الميلادي ؛ الفترة الأكثر نشاطاً ونجاحاً للتجارة المغربية بشكل عام.

القناصل ودورهم في حماية التجار :-

يعتبر الفندق المؤسسة التي احتوت على ممثلين لبلادهم ، ويأتي على رأس أولئك القنصل ثم نائبه وكاتب الحسابات وغيرهم من الموظفين [٤].

وتجدر الإشارة إلى أن التمثيل القنصلي أو وجود القناصل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود التجار ، لأن التجارة في بداية الأمر كانت أقرب إلى الأعمال الحرة التي يقوم بها التجار بعيداً عن رقابة الدولة وسيطرتها غير أنها تحولت بمرور الوقت أو بالأحرى تطورت وأصبح النشاط التجاري يقوم تحت مراقبة وسيطرة الدولة عن طريق التمثيل القنصلي [٥].

وصار التجار يمارسون نشاطهم التجاري ، بينما تقوم الدولة بالاهتمام بالجوانب الأخرى بواسطة القنصل الذي يعد المشرف على مصالح الجالية التابعة لبلده حيث يدافع عن قضاياهم ، ويضع الحلول المناسبة للصعوبات التى يواجهونها ويقوم على حماية أملاك التجار الحاضرين والغائبين أمام الجمارك وأمام الدولة الإسلامية التى يقيم بها[٦].

وكان للقنصل وَحْدَهُ الحق في النظر في القضايا المدنية والجنائية عن طريق الاطلاع على المحاضر الخاصة برعاياه[٧].

إذ كان يتولى الحكم في القضايا الخاصة بطرفين من التجار المسيحيين التابعين لبلده ؛ ولكن قضايا التجار من جنسيات مختلفة فكانت تناقش بوضوح وعلناً في بعض

---

(١) الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص ٢٣٦. إلهام درحوج ، مرجع سابق ، ص ١٤٧.

(٢) محمد حسن ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٥٠.

(3) Mas Latrie , Ibid , P 90.

(٤) صالح بعيزيق ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٤٤.

(٥) عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢١٣.

(٦) عيسى بن الذيب ، مرجع سابق ، ص ١٥٢.

(7) Mas Latrie , Ibid , P. 86.

الأوقات. أما إذا وقع خصام بين مسلمٍ ومسيحى فالأمر يختلف ، فإذا العربي المسلم هو المدعى بالحق على المسيحي فكانت شكواه توضع أمام القنصل المسيحى ، أما إذا كان الأمر عكسيًّا ، أى إذا رفع تاجرُ مسيحىٌّ قضيةً على مغربي مسلم فإن القاضي المسلم هو الذي يتولى القضاء[١].

وبذلك نلاحظ أن القنصل هو الممثل الرسمى للسلطة في العاصمة ويمارس سلطته على كافة التجار الذين يحملون نفس جنسيته ، فهو الذي يحكم بينهم في النزاعات كما كان عليه إرسال العدل ؛ فباسم الشعب ، وباسم الحاكم كان يحكم القنصل ويدير الحياة والأنشطة في الفندق حيث يعيش التجار ويخزنون بضائعهم[٢].

ويعتبر القنصل أولاً الواسطة بين التجار وبلادهم وبينهم وبين السلطة الحاكمة في البلد الذي يقيمون فيه.

فهناك مراسلات للقناصلة إلى بلدانهم لإخبار سلطاتهم ببعض المشكلات التي يتعرض لها تجارهم ؛ منها رسالة قنصل مرسيليا والتجار عام ١٢٩٣م [٣] والتي تشكو سوء معاملة أمير بجاية لهم.

ورسالة أخرى من نائب القنصل الأراغواني إلى الملك خايم الثاني عام ١٣١٦م يخبره فيها عن نتائج مقابلة مع السلطان الحفصي أبي يحيى زكريا بن اللحياني تبين أن مشاغل القناصلة هي الدفاع عن التجار لدى السلطة الحفصية ، إذ كانت مسألة احترام المعاهدات التجارية من أهم محاور تلك المقابلة [٤].

ومن المهام المنوطة لنواب القنصل إدارة شئون إخوانهم المهاجرين وتوطين العدل بينهم ، وعلى الصعيد الاقتصادي جرد البضائع بعد موت مالكها وتجميع الميراث والدفاع عن السياسة العامة للموارد المنتظرة ، أو الحاضرة أمام الجمرك وحكومة المسلمين[٥].

---

(1) Mas Latrie , Ibid , P. 87-91.
(2) DuFourcq: L'espagne Catalane et Le Maghib , Ibid , P. 70.
(٣) بعيزيق ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٤٦.
(٤) بعيزيق ، المرجع نفسه ، ج١ ، نفس الصفحة.
(5) Mas Latrie, Ibid , P. 86.

ولنواب القنصل الحق في منع أو رفض مرور أى فرد – مسلم كان أم مسيحى– مشبوه فيه أو غير مصرح له من قبل القنصل ، إلا إذا اصطحب أحد المترجمين أو موظفي الجمرك[١].

وتجدر الإشارة إلى أن تعيين القنصل يتم في الغالب من قبل أعلى السلطات فى بلاده ، وهذا يعنى أنه الممثل الرسمي – كما ذكرنا – الدائم للبلاد لرعاية مصالح تجارها[٢]. أما مدة بقاء القنصل في منصبه فليست بالمدة الطويلة ؛ فهى تتراوح بين سنة وسنتين بالنسبة للبندقية ، وسنتين كاملتين بالنسبة لكل من جنوه وبيزا وأراغوانة[٣].

وكان قناصلة بلاد إفريقية يتمسكون للغاية باحترام مكانتهم ومنزلتهم الخاصة ، فقد كان بجانبهم أحد القساوسة والعديد من الخدم ، أحدهم مختص بالكتابة ، وكان من الضروري تدبير حصانين على الأقل لهم ، وكانت التقاليد منذ القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادي تعطيهم منزلة خاصة وامتيازات متزايدة وحقيقية في معاملاتهم التجارية العامة ، وكانت تعد بمثابة جزء من الحقوق بخصوص حرية الملاحة فى دولة معينة[٤].

ومما يؤكد أهمية مكانة القنصل فى إفريقية ما يشير إليه ماس لاتري Mas Latrie[٥] أنه كان للقناصلة القطالونيين ولزمن طويل الحق في الإشراف على إيرادات الجمارك العربية في تونس وبجاية.

وتجدر الإشارة إلى أن القناصلة كانوا يتقاضون مرتباتهم من جزء من مداخيل الفندق التي تأتي بدورها من الرسوم التي يدفعها التجار مقابل الخدمات التي تقدم لهم ، مثل استغلال المرافق العامة كالملاحة والمخازن والفرن بالإضافة إلى تحرير العقود وحمايتهم من خلال تمثيلهم لدى السلطات الإسلامية [٦].

---

(1) Mas Latrie , Ibid , P. 91.

(٢) بعيزيق ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦.

(3) Mas Latrie, Ibid , P. 88.

(4) Mas Latrie, Ibid , P. 88.

(5) Mas Latrie: Relations, P. 88.

(٦) عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢١٦.

ومما تقدم نلاحظ أن مهامَّ القنصل تمثلت في مجال تمثيل بلاده أساساً في حماية التجارة ومصالح بلاده ، وكان له صلاحية التعامل مع أعلى سلطة في إفريقية مادام قد أُعتبر ممثلاً لأعلى سلطة في بلاده.

وسائل نقل السلع التجارية :-

[١] السفن:

تعد السفن التجارية دعامة أساسية من دعائم التجارة باعتبارها وسيلة رئيسة لنقل البضائع التجارية من بلاد إلى أخرى ؛ فبدونها لا يمكن للتجارة أن تقوم ولا أن تتطور وتزدهر.

وقد اهتم الموحدون بإنشاء أسطول بحري(*) وبذلوا جهوداً قصوى لتنميته ، ومما ساعدهم على بناء سفن كثيرة تعدد دور الصناعة فى المغرب والأندلس بشكل عام منذ أمويي قرطبة وعبيديي إفريقية حيث قامت دُور صناعة السفن في المهدية وتونس(١).

كما أشار البكرى(٢) إلي وجود دار صناعة للأساطيل في مدينة طرابلس .

فقد حَبَتْ الطبيعة بلاد إفريقية بالمقومات الضرورية للقيام بدور بحري مهم ؛ ذلك لأن شكل الساحل التونسي ووضع البلاد الجغرافي(**) وامتداد سواحلها متصلة بسواحل المغربين الأوسط والأقصى وكثرة خلجانها جزرها البحرية الحامية للسواحل بالإضافة إلى

(*) يقول ابن خلدون عن الأسطول الموحدي في خلافة يوسف بن عبد المؤمن: "وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه". ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص ٤٥٧.

(١)عز الدين موسى ، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ١٩٩١ ، ص ٢٦٦.

(٢) مصدر سابق ، ص ٨٥ .

(**) يبدو أن القوى البحرية القديمة أدركت أهمية موقع البلاد التونسية ولذلك أسس الفينيقيون – بحكم اشتغالهم بالملاحة والتجارة – قاعدة قرطاجنة البحرية والتي أثبتت دورها الهام في غرب المتوسط لسنوات طويلة. حليم أحمد إبراهيم ، البحرية الإسلامية في غربي المتوسط عصر الموحدين ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، ١٩٩٩م ، ص ٨١.

موقعها لجغرافي في حوض المتوسط حتمّ عليها القيام بهذا الدور وتقرير مصيرها البحري بثقة تامة[١].

هذا بالإضافة إلى أن شاطئ إفريقية يمتاز بالهدوء التام ، ويكاد يكون خاليًا من التيارات البحرية ، الأمر الذى جعل السفن لا تجد فيه صعوبة سواء عند الإبحار من الميناء أو الرسو على الشاطئ [٢] مما جعل البحر مجالاً حيوياً لنشاط السكان الاقتصادي والاجتماعى.

ويبدو أن كل تلك العوامل مهدت لظهور واستعمال أسطول بحري في أهم الموانئ مثل تونس وبجاية ، وخاصة الأخيرة لأنها قريبة من غابات منطقة القبائل والتي جهزت بترسانات لصنع السفن وبدور صناعة ، فاستطاعت إنتاج السفن منذ عصر بنى حمّاد [٣].

وقد أشار ابن خلدون[٤] إلى الأسطول البجائي قائلاً: "يصنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال الرجال ، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة".

إلا أننا نبقى نتسآل عن وجود أسطول تجاري في إفريقية؟

تشير المعطيات التي بين أيدينا أن هناك سُفُنًا تجارية في بلاد إفريقية. فقد ورد عن "البيان المغرب"[٥] أن مركباً بجائياً أقلع من الإسكندرية سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م ببضائع عظيمة لها شأنها، وأثمان للتجار ، وهدية من صاحب الديوان المصري إلى الأمير الحمّادي يحيى بن عبد العزيز (٥١٨هـ/١١٢٤م- ٥٤٧هـ/١١٥٢م) وأن الأمير الحسن صاحب المهدية (٥١٥هـ/١١٢١م-٥٤٣هـ/١١٤٨م) أخذه وأمر بتفريغه.

---

[١] حليم أحمد إبراهيم ، المرجع نفسه، ص ١٨٦.

[٢] حليم أحمد إبراهيم ، مرجع سابق ، ص ١٨٧.

[٣] برنشفيك ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٩٤.

[٤] العبر ، ج٦ ، ص ٩٠٢-٩٠٥.

[٥] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣١٢.

وإن كانت هذه الفترة سابقة للعهد الموحدي في إفريقية ، غير أن ذلك يدل على أن هناك سُفنًا تجارية في المنطقة قامت بدور مهم في توطيد العلاقات التجارية مع الدول المجاورة.

وتفيد الرسالة المؤرخة في ٧٠٧هـ/١٣٠٧م بأن سفينة ميورقية استولت في شوال من عام ٧٠٢هـ/مايو ١٣٠٣م في ساحل بنزرت على جفنين(*) للمسلمين ، الأول "كان قد وصل من بجاية موسقاً بالبدن والبرنس قيمته أربعون ألفاً" ، والثاني صغير للبونيين "قيمته بما فيه خمسة آلاف دينار" (١).

فالرسالة تتحدث بوضوح عن مركبين تجاريين ، الأول لتجار من بجاية والثاني لتجار من بونة.

غير أن ما تجدر ملاحظته والإشارة إليه أنه في غالب الأحيان كان يلجأ تجار إفريقية إلى استخدام أو اكتراء السفن الأوروبية لنقل سلعهم إلى الموانئ الأوربية وأحياناً بين الموانئ الإفريقية ذاتها (٢).

وفي حقيقة الأمر تبدو هذه القضية مثيرة للجدل والنقاش !!!

فقد يعود سبب اكتراء السفن الأوروبية إلى نقص مادة الخشب بشكل عام في بلاد إفريقية ، بالإضافة إلى صعوبة استيرادها من البلاد الأوروبية نظراً للقيود التى وضعتها

(*) إن كلمة جفن ومركب وسفينة تطلق على سفن تجارية كبيرة أو صغيرة ، بينما تطلق الحرابي والطرائد والأغربة والمحرقات على السفن الحربية. بعيزيق ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١١٥.

(١) صالح بعيزيق ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٣٦.

(٢) عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢٢٨.

فقد تمّ في عام ١٣٠١م نقل شحنة من القماش من تونس إلى بونة ثم القل على متن سفينة من ميورقة بسعر بلغ ٤٠٠ دينار ذهب أى ما يعادل اثنين كيلو ذهب. انظر Dufourcq: Commerce, P. 175

وفى عام ١٣٠٨م اقترح جاقموا الثاني ملك أراغوان على السلطان الحفصي ببجاية كراء مراكب مقابل ٥٠٠ دينار ، وقبل السلطان الاقتراح وأبرم معه عقد كراء سنة ١٣٠٩م كما اتفق الملك الأراغواني مع سفير تونس أن يكون ثمن الكراء بـ٧٥٠ دينار في الأشهر الأربعة الأولى ح على أن ينزل إلى ٥٠٠ دينار في الأشهر التالية. انظر عمر سعيدان ، علاقات أسبانيا القطالونية بالحفصيين في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر م ، سوسه ، ٢٠٠٢ ، ص ٧٦.

الكنيسة(*)، هذا إذا أضفنا التراجع النسبي للبحرية العربية الإسلامية بشكل عام وخاصة في أواخر العهد الحفصي في إفريقية [١].

وقد اهتم بعض الباحثين الأوربيين بتلك القضية (اكتراء السفن الأوروبية) وبنوا عليها تصورات أخرجتهم في كثير من الأحيان عن الموضوعية ، ومن بين هؤلاء ديفورك (C.E.Dufoureq) الذى تصور أن اعتماد الحفصيين على سفن الأوربيين يعود إلى أنهم كانوا يفضلون استخدام سفنهم في القرصنة بدلاً من التجارة ، وهذا تصور بعيد عن العقل والمنطق .. إذ كيف يمكن أن يترك الحفصيون التجارة ليمارسوا القرصنة؟ وهم الذين التزموا في كل المعاهدات بحماية السفن الراسية في موانئهم والسفن القادمة لهم[٢].

وأوجد ديفورك تفسيراً آخر لاستئجار بعض تجار إفريقية لسفن الأوربيين ، حيث ذهب إلى القول بأن بعض الفقهاء أفتى بمنع ذهاب المسلمين إلى أرض الكفار حتى لا يقعوا تحت سلطة قانونهم أو يودعوا أموالهم هناك ، ومما لا شك فيه أن هذا أيضاً تفسير مخطئ لأنه من الثابت وجود تجار مسلمين قد ذهبوا إلى أوروبة[٣].

ويبدو أن تفضيل التجار لاستخدام السفن الأوربية خاصة في أسفارهم البعيدة إلى سواحل أوربا كان له أسباب بعضها اقتصادية وأخرى أمنية.

حيث إن حاجة الأوربيين إلى المواد الثمينة المتمثلة في الذهب والعبيد أجبرتهم على الخروج بأنفسهم للبحث عنها فتواترت رحلاتهم ، وتعددت سفنهم المتوجهة نحو موانئ المغرب بصفة عامة ، ولذلك فإن كثرة رحلات الأوربيين إلى موانئ المغرب وفرت

(*) لقد حرمت الكنسية بصراحة وبشكل قاطع هذا النوع من التجارة (تجارة السفن) مع العرب من سوريا ومصر فقط وليس مع غرب إفريقية ، فقد استمرت عملية بيع السفن والاعتمادات البحرية بطول الساحل الإفريقي. انظر: Mas Latrie: Relations, P. 214.

[١] محمد حسن ، المدينة والبادية ، ج١ ، ص ٤٩٠.

لقد آلت السيطرة على الملاحة في البحر المتوسط إلى المدن الإيطالية منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، بعد أن كانت السيادة البحرية في القرنين السابقين للدول الإسلامية في الأندلس والمغرب والمشرق.

أمين توفيق الطيبي ، مرجع سابق ، ص ١٠٤.

[٢] عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢٢٨.

[٣] صالح بعيزيق ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٣٨.

على التجار المغاربة حاجتهم إلى سفن تذهب بعيداً فكانوا يستطيعون بيع سلعهم للأوربيين في موانئ بلاد المغرب ذاتها.

وهناك عامل أمني قاد تجار إفريقية إلى اكتراء جزء من حمولة السفن الأوربية حتى يضمنوا عدم اعتداء القراصنة الأوربيين على بضائعهم لأنها على متن سفن أوروبية[١].

هذا إذا أضفنا أن طول الشريط الساحلي في إفريقية في العهد الحفصي والبالغ حوالي ألفي كم والذي امتد من طرابلس شرقاً إلى مدينة الجزائر غرباً جعل التجار الحفصيين يعانون وباستمرار من نقص في وسائل النقل البحرى ويدفعهم إلى تعويض هذا النقص بتأجير سفن الأوربيين والذين كانت سواحلهم موزعة على عدة دول لكل منها أسطولها الخاص ، مما يجعل نسبة السفن إلى السواحل في صالح السفن ويترك لأصحابها إمكانية كبيرة لاستغلالها في النقل التجاري سواء على مستوى محلي أو دولي[٢].

كان مالكو السفن يقومون بتأجيرها إلى التجار الذين يدفعون مبلغاً محدداً ثمناً لتوصيلهم وبضائعهم حيث يشاءون ولا مانع من ركوب غيرهم من التجار وذلك بعد إبرام عقد إيجار جديد ، إلا أن كل سفينة من هذه السفن أو قادة السفن إنما هي عناصر ثابتة تقريباً لكن التجار دائماً كما كانوا يطلبون تجديد أو تغيير السفينة وطاقمها في كل رحلة تجارية تخص كل مجموعة منهم[٣].

وكانت عمليات تأجير السفن لتاجر أو عدد من التجار تتم عن طريق التفاوض في الموانئ حيث يجتمع التجار مع أصحاب السفن ، وإذا تمّ الاتفاق مع ربان السفينة على كراء قسم منها لنقل سلعة معينة ، وحدث أن هذا القسم لم يمتلئ بالبضائع فإن التاجر كان يدفع أجر القسم المتفق عليه بالكامل دون نقصان ؛ أما التاجر فلا يدفع أجر ركوبه، كما يحق له اصطحاب أحد مساعديه[٤].

---

(١) صالح بعيزيق ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٣٩.

(٢) عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢٢٩.

(3) Dufourcq: L' espagne catalane le Maghrib, P. 55.

(4) Dufourcq , Ibid , P. 45.

ولم يكن الكراء هو الطريقة الوحيدة لاستخدام السفن الأوربية بل قد تكون السفينة ملكية مشتركة بين مغربي وأوربي ، بأن يبتاع التاجر المغربي جزءاً منها. وأبرز مثال على ذلك عندما اشترى تجار من تونس وبجاية سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧٠م جزءاً من سفينة أراغوينة بترخيص من ملك أراغونة [١]. وفي عام ١٣٢٧ م أشترى أحد المغاربة من أحد الأراجونيين جزءاً من مركب بمائة وخمسة وسبعين ديناراً من الذهب[٢].

وفي واقع الأمر أن الملكية المشتركة للراكب تؤدى إلى تقليل حجم المسئولية عما يمكن أن ينجم من مخاطر ، والجدير بالذكر أن أحد الملاك يمكنه أن يمتلك أسهماً أكثر كثيراً من غيره من الملاك ، وبذلك تختلف نسبة توزيع العائد من إيجار المركز وفقاً لحصة كل مشترك[٣].

وتجدر الإشارة إلى أن البلاط الأرغواني غالباً ما يستغل سياسة كراء المراكب للتجار المسلمين المغاربة للتغلغل في البلاد المغربية والسيطرة على تجارتها وتحقيق المداخيل الطائلة ، وكان يعمل على أن يحقق من كل مركب يكتريه للحفصيين ربحًا لا يقل عن ٢٥٠ دينارًا ذهبًا ، وهو على كل حال ثمن مرتفع خاصة إذا علمنا أن الدينار الحفصي كان يساوى فى الثلث الأول من القرن الرابعَ عَشَرَ الميلادي حوالي عشرين سوردي برشلوني ، أى ثمن بناء مركب عادي حسبما يتضح من كشوف حسابات الأرشيف الأراغواني[٤].

والجدير بالذكر أن أسعار كراء السفن كانت متباينة فقد أشار (ديفورك Dufourcq)[٥] إلي أنه تم في عام ١٢٥٧ م استئجار مركب من برشلونة إلي تونس بمبلغ وقدره ثلاثمائة دينار ، بينما تم في عام ١٢٧٣م تأجير مركباً قطع نفس المسافة بسعر أربعمائة وخمسين دينارًا . وفي عام ١٢٧٤م استأجر مركبٍ قطع نفس المسافة أى

---

(١) بعيزيق ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٣٩.

(2) Dufourcq , Ibid , P. 171.

(3) Dufourcq , Ibid , P. 55.

(٤) عمر سعيدان ، مرجع سابق ، ص ٧٦.

(5) Ibid , P. 171-172.

من برشلونة إلي تونس بألفين وأربعمائة دينار ويبدو أنه كان لحجم وسعة المركبة دوراً مهم في تحديد إيجار المركبة.

ونستطيع أن نستنتج مما تقدم أنه قد وجد أسطول تجاري في بلاد إفريقية تركز نشاطه على الملاحة الساحلية ، وأن الاختيار الأفضل بالنسبة للمسافات البعيدة تمثل في استعمال السفن الأوربية بما في ذلك الرحلات الطويلة بين الأقطار الإسلامية البعيدة في البحر المتوسط كانت تتم بواسطة سفن أوربية حيث إن المواصلاتِ بين موانئ إفريقية وبين مملكة غرناطة والإسكندرية كانت تتم على متن سفن أوربية[١].

وقد كانت الرحلات التجارية على متن السفن غالباً ما تخضع لعدة شروط منها ما يتعلق بالأحوال الجوية ، ومنها ما يتعلق بالمواسم التجارية. إذ تكونت لدى التجار إثر تجاربهم خبرة لا بأس بها بأحوال البحر والتيارات المساعدة على الملاحة ، لذا فإن السفن كانت بصورة عامة تنطلق فى فصول الاعتدال من شهر مارس إلى شهر نوفمبر. وهذا أدى بمرور الزمن إلى نشوء المواسم التجارية التي تتوافق مع الفترة المناسبة لتنقل التجار عبر أسواق البحر المتوسط ولذا فإنه من النادر أن يحدث اختلاف بين البحارة أصحاب السفن والتجار حول توقيت الرحلات[٢].

أما بالنسبة لأنواع السفن التجارية ومواصفاتها ، فإن معظم السفن التجارية المتوسطية مزودة بالأشرعة وتميل إلى أن تكون مدورة ومزودة بصاريين أو ثلاثة ، ونشر فوقها أشرعة مربعة أو مثلثة ، ذات مؤخرة ضخمة مرتفعة ومعقوفة ومجذاف توجيه خلفي[٣].

وكانت الأشرعة المثلثة مألوفة الاستخدام من قبل العرب والمسيحيين فى البحر المتوسط زمن العصور الوسطى وذلك لأن فائدتها كبيرة كقوة دفع للرياح[٤].

وقد كان في مقدمة السفن الجنوية الكبيرة صارٍ عليه أَشرعة وكان على كل من الصواري الأخرى شراعان ، وكان يحتفظ في مركب كبير بأربعة أو سبعة أشرعة فى

---

(١) الونشريسى ، المعيار المعرب ، ج ١ ، ص ٢٤٣. برنشفيك ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٢) عبد الناصر جبار ، مرجع سابق ، ص ٢٣١.

(٣) أوليفيا كونستبل ، التجارة والتجار في الأندلس ، ص ٦٣-٦٩.

(٤) أوليفيا ، نفس المرجع ، ص ٦٣.

أحجام مختلفة ، لمواجهة الأنواء البحرية ولاستعمالها كبديل في حالة العطب من الأسفار البعيدة ، كما كان يحتفظ بقطع إضافية من أقمشة الأشرعة على سبيل الاحتياط.

وكانت الأشرعةُ مصنوعةً من القطن ، وأجودها من صنع في جنوة ومرسيليا وكان يحتفظ عادة بشراع متينٍ مصنوع من المشمع لاستعماله عند هبوب الرياح العاصفة[١].

والجدير بالذكر أنه كان لاختراع الأشرعة ذات الصاريين فائدة كبيرة للسفن المتوسطية ، حيث أفاد عنصر السرعة ، الأمر الذي أدى إلى خدمة جديدة تمثلت في البريد حيث أصبحت المراسلات تصل مع السفن كل شهر[٢].

ويبدو أن السفن التجارية كانت تتميز بسعتها وكبر حجمها ؛ بالإضافة إلى التسهيلات المتوفرة في تلك المراكب ، وقد حدثنا ابن جبير[٣] عن المركب الجنوي الذي أقلَّه من عكا إلى صقلية أنه أشبه بمدينة جامعة للمرافق فكل ما تحتاج شراؤه يوجد من خبز وماء ومن جميع الفواكه كالرمان والسفرجل والبِطيخ السندي (الدلاع) والكمثرى والشاه بلوُّط (القسطل) والجوز والحمص والباقلاء (الفول) نيّاً ومطبوخاً والبصل والثوم والتين والجبن والحوت ... وغير ذلك من المبيعات على متن المركب.

ويذكر لنا المسعودي[٤] أن معظم مراكب البحر المتوسط تشد بواسطة مسامير ، الأمر الذي يختلف عن مراكب البحر الأحمر (الحبشي) التي كانت تشد بواسطة الليف وطليت بالشحوم والنورة (الكلس) لأن ماء البحر الأحمر يذيب الحديد ، فترق المسامير في البحر وتضعف.

وعموماً فان تصميم المسيحيين والمسلمين للمراكب التجارية في البحر المتوسط قد احتفظ بمشابهات ولدت من ميراث مشترك.

---

(١) أمين توفيق الطيبي ، (المصطلحات البحرية والمعلومات الملاحية في رحلة ابن جبير) ، بحوث ودراسات في تاريخ المغرب ، ص ١١٥-١١٦.

(2) Andres Gimenez Soler , Ibid , P 171 .

(٣) رحلة ابن جبير ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ص ٢٤٨.

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤ ، ص ١٦٣. ويبدو أن هذا الرأى رغم أنه منطقياً إلا أنه غير سليم من الناحية العلمية لأن درجة الملوحة بين البحرين الأحمر والمتوسط لا تختلف إلا بنسبة قليلة . محمد عبد الغنى الأشقر ، تجار الكارم والكارمية زمن سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ، ١٩٩٧، ص ٢٤٥ .

[٢] القوافل:

تعد القوافل من أقدم وأشهر الوسائل في نقل البضائع في الطرق البرية حتى العصر الحديث.

وتجدر الإشارة إلى أن القوافل التجارية تحتاج منذ بداية انطلاقها إلى بعض الأنظمة ، حتى يستطيع التجار إيصال بضائعهم بأقل الخسائر إلى أماكن بيعها ، وخاصة أن المسافات شاسعة وتفتقر إلى الوسائل التى يحتاجها التجار في تنقلاتهم[١].

ولم يَفُتْ القائمون بهذه المهمة أن يضعوا لها قوانين خاصة بها تنظمها للإفادة منها[٢] ، وأهم تلك النظم والقوانين ما يلى:

- عدد الجمال: قد يصل عدد الجمال المشاركة فى القافلة التي تنطلق عبر المسافات البعيدة إلى ثلاثةِ آلافِ جملٍ محملة بمختلف السلع ، ولكن عادة ما يقدر متوسط عدد القافلة الواحدة بألف جمل[٣]. أما القوافل التي تسير في الطرق الفرعية فقد يصل عدد الجمال فيها أحياناً إلى العشرين أو الثلاثين جملاً ، وذلك لأن الأخطار تكون أقل بكثير من الطرق الرئيسة حيث المغاراتُ التي تفتقر إلى الكثيرِ من احتياجاتهم[٤].

---

(١) علي حامد خليفة ، المراكز التجارية الليبية وعلاقاتها مع ممالك السودان الأوسط ، جمعية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية ٢٠٠٣ ، ص ٨٠.

(٢) جبريل أبو بكر علي ، طرق القوافل وأثرها في تقوية العلاقات الثقافية بين ليبيا وجيرانها جنوب الصحراء ، ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي ، كلية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية ، ١٩٩٥م ، ص ٨٣.

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٤٠٥.

(٤) امطير سعد غيث ، التأثير الإسلامي في السودان الأوسط ، دار الرواد ، بنغازي ، ١٩٩٦ ، ص٨٣.

- يقوم رجال خبراء بتهيئة القوافل وإعداد المسافرين نفسياً ، نظراً لقساوة الطريق وبعد المسافة حيث تصل مدة السفر في بعض الرحلات الصحراوية إلى ثلاثة أشهر[١].
- يجب اختيار الوقت المناسب لانطلاق القوافل بسبب اختلاف العوامل الطبيعية في الصحراء من فصل إلى آخر كارتفاع درجة الحرارة صيفاً وشدة برودته شتاءً ، وعموماً فإن أنسب الأوقات التي تسير فيها القوافل إما في بداية الخريف أو في بداية فصل الربيع عندما تكون العوامل الجوية مناسبة لسير القوافل ، وذلك لحاجتهم للماء اللازم[٢].غير أن أنسبها على الإطلاق كانت قوافل الربيع حيث يجتمع تحت قيادتها أكبر عدد من المشاركين لأنها تقطع أطول المسافات من الشمال إلى الجنوب والعكس[٣].

وعلى الرغم من وجود تلك الاحتياطات لاختيار الوقت المناسب لسير القوافل فان الأمر لم يخلُ من وجود العديد من الصعوبات والمشكلات ،وأبرزها مشكلة المياه،حيث إن المناطقَ الصحراويةَ المغربيةَ لا أنهار فيها ، وآبارها قليلة متباعدة وأغلبها ذات نسبة ملوحة عالية ، مما أدى إلى اضطرار التجار إلى تخصيص عدد من جمال القافلة لنقل قرب الماء[٤]،بالإضافة إلى أن تجار الكثير من القوافل كانوا يُموّلون حفر الكثير من الآبار،كما كان يتم حفرها بالجهود الذاتية لسكان ومرتادي تلك المناطق من القبائل[٥].

ويشير ابن خلدون[٦]صراحة عند حديثه عن بلاد السودان بقوله:"وفي البلاد الصحرواية إلى وراء العِرق الغربية في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب،وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل

---

(١) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٣١٢.
(٢) علي حامد خليفة ، مرجع سابق ، ص ٨٢.
(٣) جبريل أبو بكر ، مرجع سابق ، ص ٨٤.
(٤) الحسن الوزان ، وصف أفريقيا ، ج ١ ، ص٧٥.
(٥) الوزان ، المصدر نفسه ، ج ١ ، الصفحة نفسها.
(٦) العبر ، ج ٧ ، ص ١١٩.

بالحفر إلى حجارة صلبة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها ، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها عن الماء فينبعث فيهم زبره".

- التكشيف: (*) وهو رجل ضروري يقوم بمهمة الدليل في مرحلة صعبة من الرحلة الصحراوية ويجب أن يتمتع بخبرة ومعرفة شاملة بأماكن الآبار، ويكون قادراً على معرفة الطريق وسط الرمال الكثيفة ، وقد يكون هذا الرجل من جماعة الطوارق ساكني المنطقة(١).إذ أن قسوة الطبيعة الصحراوية جعلت الطرق غير ممهدة بالإضافة إلى اختفاء آثار القوافل في المناطق الرملية والصخرية ، الأمر الذى يستلزم وجود أدلاء عارفين بالصحراء وعلامات الاستدلال لمرتادي هذه الطرق(٢)،فكان قائد القافلة يعتمد اعتماداً كبيراً على الكشاف لضمان وصول البضائع لأصحابها(٣).
- لابد للقوافل التجارية لتؤمن سلامة وصولها أن تقدم ضمانات أمنية تحقق لها السلامة من قطاع الطرق حتى تصل أحمالها كاملة بأقل الخسائر،ولذلك غالباً ما

(*)ويعرف ابن بطوطة التكشيف: "اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة ، فيتقدم إلى ايوالاتن يكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربع ، ومن لم يكن له صاحب بإيوالاتن كتب من شهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك ولربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعمل أهل ايوالاتن بالقافلة فيهلك الكثير منهم". ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ص ٦٠٧.

(١) صالح بعيزيق، مرجع سابق،ج ١،ص ١٩٩ . جبريل أبو بكر علي،مرجع سابق،ص ٨٤.

(٢) عاشور أبو شامة ، مرجع سابق ، ص ٣٣٠.

(٣) جبريل أبو بكر علي ، مرجع سابق ، ص ٨٤.

تجد التجار يحرصون على مهادنة القبائل القاطنة في الصحراء[**] ويقدمون الهدايا لرؤساء تلك القبائل[١].

كذلك يجب التنويه إلى اهتمام بعض القبائل القاطنة قريباً من الطرق التجارية بأمن تلك الطرق محاولتها تنظيم ذلك[٢] فكان هناك من القبائل من اختص بمهمة خفارة القوافل التجارية (أمن وحراسة القوافل) مقابل بعض البضائع المتنوعة . ويشير ابن حوقل إلى ذلك عند حديثة عن القبائل البربرية القاطنة بين أوغست وسجلماسة[*] قائلاً[٣] : " ولهم لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل وحمل ومن الراجعين بالتبر من بلاد السودان وبذلك قوام بعض شئونهم " .

كذلك ذكر ابن بطوطة[٤] في أثناء رحلته في بلاد السودان أن هناك قبائل بربرية مهمتها خفارة القبائل فيشير" ثم سافرت من كوكو إلي تكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين ... ثم وصلنا إلي بلاد بردامه ، وهى قبيله من البربر لا تسير القوافل إلا في خفارتهم".

ولم تكن مهمة البحث عن الضمانات الأمنية تخص القائمين على الأعمال التجارية وحدهم ؛ بل حرصت السلطات التي تقع داخل نفوذها هذه الطرق على إقامة علاقات

(**) ومن أهم تلك القبائل (شرطة وسمسطة وبنو مسوفا) " المقيمين بقلب البر على مياه غير طائلة لا يعرفون البُر ولا الشعير ولا الدقيق وفيهم من لم يسمع بها إلا بالمثل وأقواتهم الألبان وفي بعض الأوقات اللحم" . ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩٨ .

(١) عبد الفتاح مقلد بكر ، سلطنة البرنو حتى سنة ١٨٠٨م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٨٥.

(٢) سعود بن حمد الخثلان ، دور التجار المسلمين في رواج التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، المجلد الخامس ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٩٢ ، ص ٥٨.

(*) لو نظرنا إلى المنطقة الواقعة بين المراكز التجارية في شمال إفريقية وبين ممالك السودان الأوسط نجد أن الطوارق هم الذين يسيطرون على هذه المنطقة

(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

(٤) مصدر سابق ، ص ٦٢٥ .

حسنة مع بعضها وتبادلت السفارات فيما بينها ، وأبرز مثال على ذلك حرص سلاطين مملكتي الكانم والبرنو على أن تكون علاقتهم حسنة مع الدولة الحفصية[١].

- ومن الأمور المهمة التى يقوم بها تجار القوافل هي دفع الإتاوات اللازمة في العديد من المراكز التجارية التي يمرون بها أو التي يبيعون فيها بضائعهم،وكانت عادةً ما تدفع كسلع يحتاجها سكان تلك المناطق،فكان الطوارق مثلاً يحصلون على مقادير من القمح مقابل خدماتها التي يقدمونها للتجار التي يقدمونها للتجار مقابل مرورهم[٢]،وقد أشار ابن بطوطة[٣]إلى ذلك بقوله:"ووصلنا إلى بلاد هكار وهم طائفة من البربر لا خير عندهم ولقينا أحد كبرائهم ، فحبس القافلة حتى غرموا له أثواباً وسواها".

وابن حوقل[٤] عند حديثه عن مدينة إجدابيا بقوله:"وواليها القائم بما عليها...وله وراء ما يقبضه للسلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان"

تلك هى الأنظمة التى تتبعها القوافل التجارية في رحلاتها عبر الصحراء ومن خلالها تصل القوافل محملة بمختلف البضائع الواردة والصادرة.

---

[١] ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ٥٢ .

[٢] علي حامد خليفة ، مرجع سابق ، ص ٨٥.

[٣] تحفة النظار ، ص ٣٠٦.

[٤] صورة الأرض ، ص ٧٠.

الخاتمـــة

وبعد . فقد تناولت الدراسة موضوع التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب أيام الحكم الموحدى والحفصى وتم الوصول إلي عدة استنتاجات أهمها :-

- لعب الموقع الجغرافى لبلاد إفريقية وطرابلس الغرب والإمكانات الاقتصادية دوراً جوهرياً في نشاط عملية التبادل التجارى ، ليس على الصعيد الداخلى فحسب بل أتاح لها ذلك الموقع أن تقوم بدور الوسيط التجارى بين المشرق والمغرب ، وبين دول البحر المتوسط وبلاد السودان .

- إن القبائل العربية الهلالية والسليمية قد أثرت في موضوع الأمن الداخلى بشكل مزدوج فكانت مصدر استقرار سياسى ، إذا أحسنت السلطة الحاكمة استغلالها ، ومن ناحية أخرى كانت مصدر فوضى إذا كانت السلطة الحاكمة غير قادرة على كبح جماحها . ذلك لأن الإنحلال القبلى الموجود داخل تلك القبائل وعدم إئتلافها وجد فيه حكام البلاد فرصة ثمينة للسيطرة على بعض القبائل ، واستغلال البعض منها على البعض الأخر ، واستعالمهم أيضاً في ضرب الثوار وكذلك في العمليات العسكرية الخارجية .

وإن ما تواترته المصادر المختلفة[١] من إشارات وآراء تحمل القبائل العربية مسئولية التخريب والعيث وزعزعة الأمن ونعتهم بأبشع النعوت . ورغم ما يوجد فيها من صحة ، إلا أنه لا يمكن أن نحمل العرب المسئولية كاملة عن قلقلة الأمن ؛ بل إن ضعف السلطةالمركزية في الدولة وصراعات البيت الحاكم على السلطة كلها مع بعضها البعض تكاتفت وأدت إلي بروز الفتن والاضطرابات واستقلال الولايات الطرفية عن جسم الدولة كما حدث مع بجاية في الغرب وطرابلس في الشرق .

- أكدت الدراسة إلي أن تصاعد نشاط القرصنة من قبل الجانبين الأوروبى والحفصى في إطار استراتيجى دفاعى وهجومى ، وإطار انتفاعى مادى ونشاطها بدافع الطموحات السياسية إلا أن المصالح التجارية ثبتت أمام تلك الطموحات السياسية ومشكلات القرصنة

---

(١) يقول العبدرى عن مدينة سوسة عندما مر بها خلال رحلته المغربية أنها كانت " خلاءاً وقفارا مثل كل مدن الساحل بسبب العرب" أنظر : العبدرى ، الرحلة ، ص ٢٣٧-٢٣٨.

وأورد ابن خلدون في مقدمته فصل بعنوان "فصل في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب" أنظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٨ - ١١٩ .

، فاستمرت الحركة التجارية لكل التجار بدون انقطاع وتحملوا ردود الفعل والأضرار اللاحقة بهم .

– إن الموارد الطبعية من زراعة ، وإنتاج حيوانى ، وصناعى حاولت أن تواكب حركة النشاط التجارى قدر المستطاع فكانت المواد الخام الزراعية والحيوانية تصدر إلي المدن الأوروبية التجارية (مثل الصوف والجلود و الكتان والتمر و الزيت) مقابل إغراق سوق مدن إفريقية بمصنوعات تلك المدن التجارية الأوروبية.

وقد أدى الإنتاج الصناعى دوره في حركة التسويق الداخلى وربما عجز عن سد الإحتياج المحلى أحياناً ، الأمر الذى نتج عنه تباين كبير بين الصادارات والواردات.

– إن العلاقات التجارية بين إفريقية والمشرق كانت داخلة في دائرة معاملات الأوروبين مع المشرق ، وإن مدنَ بلاد إفريقية كانت إحدى حلقاتها ونفس الدور لعبته مع بلاد السودان لأن تجارة إفريقية مع السودان كانت تربطها بضاعتان رئيسيتان قادمتان من بلاد السودان هما الذهب والعبيد إلي جانب بضائع أخرى متنوعة . ومن أجل تلك البضائع تحمل التجار عناء ومشقة الرحلة عبر الصحراء ، وخلقت المصالح آليات للتبادل شملت محطات متعددة ومجالات جغرافية واسعة: البحر المتوسط ، والمغرب ، و الصحراء وبلاد السودان ، وكانت موانئ مدن إفريقية حلقة رئيسة في هذه الآليات ؛ ومحطة محورية بين تلك المجالات ترتبط فيها المعاملات والمصالح . لذلك لعبت موانئ مدن إفريقية طيلة فترة الحكم الموحدى والحفصى دور الوساطة التجارية لتسويق بضائع السودان لتجار البحر المتوسط لاسيما حوضه الغربى .

– إن شبكة الطرق التى تناولتها الدراسة سواء الداخلية أو الخارجية البحرية منها والبرية . أدت بالدرجة الأولى وظيفة اقتصادية ؛ فهى فقد كونت البنية الأساسية للحركة التجارية لأنها ضمنت الاتصال بين مواطن الإنتاج والأسواق الداخلية والخارجية.

– أكدت الدراسة إن الإيطاليين قد ركزوا على تدعيم مصالحهم التجارية في إفريقية رغم حدوث بعض التوترات بين الحين والأخر ؛ فنجدهم يبادرون بإصلاح الوضع والإسراع بتحسين العلاقات والعمل على عدم انقطاعها . وحتى جنوة التي أبدت مواقف عدائية تراجعت بعد الإغارة على مدينة المهدية سنة ٧٩٢ هـ/١٣٩٠م تراجعاً نهائياً ولم تتردد

الجمهوريات الإيطالية من أجل ضمان الحركة التجارية من تقديم التنازلات بين الحين والآخر ؛ ولذلك بقيت تجارتها مستمرة مع الدولة الحفصية إلي نهاية القرن التاسع الهجرى / الخامسَ عَشَرَ الميلادى رغم فترة التقلبات ومشكلات القرصنة .

– بينما نجد الوضعَ مختلفًا مع قشتالة وأراغون . فقد اصطبغت العلاقات غالباً بالتوتر والانقطاع أحياناً ، ذلك لأن أراغون هدفت إلي بسط الهيمنة السياسية وفرض الحضور التجارى فرضاً ، وغالباً ما كانت قشتالة وأراغون تتفاوض مع سلاطين إفريقية من موقع الشعور بالتفوق خاصة مع بروز المسألة المالية بين الدولة الحفصية وأراغون بشأن الضريبة السنوية التي كانت تقوم بدفعها الحكومة الحفصية إلي ملك صقلية والتي رأت حكومة أراغون أن لها الحقَّ في الحصول عليها بعد ضمها لصقلية وقيامها باحتلال جزيرة جَرْبة التونسية عام ١٢٨٤م تعزيزاً لنشاطها التجارى في غربى البحر المتوسط .

– ومع ذلك فقد تبين أن النشاط التجارى في موانى إفريقية لم ينقطع طيلة العهدين الموحدى والحفصى سواء بمساهمة كل الأطراف الأوروبية أو بغياب البعض منها . وأن الإيطالين قد استمروا دون غيرهم يمارسون تجارتهم في تلك الموانئ حتى في أشد وأحْلك الأزمات ، لأن الأهداف التجارية عندهم كانت أولى من غيرها .

– أثبتت الدراسة أن الدور الذى لعبه الموحدون والحفصيون من بعدهم في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب على المستوى الاقتصادى يعد من أخطر الأدوار بين أمم البحر المتوسط ، وقد كانت موانئهم من أهم المراكز التجارية ومحطات العبور من كل الاتجاهات وكذلك عبر الصحراء التي كانت أهم مصدر للذهب .

– لقد أدت الأسواق بأنواعها مهمة اقتصادية واجتماعية ؛ فعلاوة على أنها كانت مكان للبيع والشراء مما ساهم في حركة الرواج التجارى . كانت أيضاً عالمًا ملائمًا للتلاقى الثقافى بين نسيج مجتمع إفريقية من حضر وبدو .

– أكدت الدراسة أن النظام النقدى كان قوامه عملة ذات خصائص ومواصفات مضبوطة ومقننة . لذلك أثبتت العملة الموحدية والحفصية ولاسيما الدينار الذهبى قوتها واستقرارها بالداخل والخارج فلم ينحط الدينار الذهبى في الأسواق الخارجية وحافظ على مكانته ، لذلك لم يشكل تفوق ذهب قيمة بعض العملات الأخرى خطرًا عليه .

– كـان نشـاط الحركـة التجاريـة فـي مـوانئ بـلاد إفريقيـة وتنـافس الأوروبـين فـي تـدعيم علاقـاتهم التجاريـة مـع السلطة الموحديـة ومـن بعدها الحفصية ؛ أدى إلـي دعـم هيـاكلهم ومؤسسـاتهم التجاريـة ، لذلك كثر تأسيس الفنـادق في الموانئ التونسية والطرابلسية ، وقد أدت الفنادق مهامَّ متنوعة من مأوى للتجار ، ومخازن للسلع ، وسوق تجارية للبيع والشراء ، ومكـان لإقامـة القناصـل ، والمسـئوليين عـن رعايـاهم والنـاطق الرسـمى لـبلادهم أمـام السلطة الموحدية والحفصية .

– كـان لوسـائل النقـل التجـارى سـواء البحـرى (السـفن) أو البـرى (القوافـل) تقنيـات ونظـم وِجِبَ على التجار اتباعها لسلامة رحلاتهم التجارية .

– وختامـاً فـإن التغييرات التـي شـهدتها منطقـة البحـر المتوسـط علـى الصـعيد الـدولى فـي أواخـر القـرن العاشـر الهجـرى / الخـامسَ عَشَـرَ المـيلادى مـن ضـعف القـوة القديمـة فـي المنطقـة (بيزنطـة – المماليـك) وظهـور قـوة جديـدة فـي المنطقـة (العثمـانين – الأسـبان) بالإضـافة إلـي ظهـور حركـة الكشـوف الجغرافيـة واكتشـاف طريـق رأس الرجـاء الصـالح وانـدثار أهميـة الحركـة التجاريـة فـي البحـر المتوسـط وعلـى الصـعيد الـداخلى فـإن ضـعف وتفكك الدولـة الحفصية أواخـر القـرن الخـامسَ عَشَـرَ المـيلادى كل ذلـك أدى بـلا شكٍ إلـي انحسار وضعف الحركة التجارية في منطقة البحر المتوسط .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :-

- **القرآن الكريم**
- **صحيح البخارى**
- **ابن الأثير** : أبو الحسن على (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م)
- **الإدريسى** : أبى عبد الله محمد بن محمد بن إدريس الحسينى (ت٥٦٠هـ/١١٦٤)
نزهة المشتاق في إختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- **الإصطخرى** : أبى اسحق إبراهيم محمد الفارسى (ت النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) .
المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جبر عبد العال ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م .
- **الأنصارى** : احمد بن على حسين النائب الأوسي (ت١١١٣هـ/١٧٠١م).
المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، لندن ، ١٩٨٤ .
- **البرزلى** : أبى القاسم بن أحمد البلوى التونسى (ت ٨٤١ هـ/١٤٣٨ م).
جامع مسائل الأحكام ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ٢٠٠٢ م .
- **ابن بطوطة** : أبو عبد الله محمد اللواتى (ت ٧٧٩ هـ/١٣٧٧ م).
تحفة النظار في عجائب الأسفار ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، بدون سنة نشر .
- **البكرى** : أبو عبيد الله (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م)
المغرب في ذكر بلاد المغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٨٥٧م .
- **البيذق** : أبى بكر على الصنهاجى (ت أواخر القرن السادس الهجرى).
أخبار المهدى بن تومرت ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ،١٩٧١ .
- **البيرونى** : أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠ هـ/١٠٤٨م)
الآثار الباقية عن القرون الخالية ، مكتبة المثنى ، بغداد ،١٩٢٣

- **التجانى** : أبى عبد الله محمد بن محمد (ت أوائل القرن الثامن الهجرى).
رحلة التجانى ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ١٩٨١ م .
- **الثعالبى** : ابن منصور عبد الملك بن محمد إسماعيل (ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧م).
الإعجاز والإيجاز ، شرح : اسكندر أصاف ، المطبعة العمومية ، مصر ، ١٨٩٧م .
- **الجاحظ** : أبو عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)
التبصر بالتجارة ، اعتناء عبد الوهاب التونسى ، ١٩٣٥ .
- **ابن جبير** : ابى الحسن محمد بن احمد (ت ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م).
رحلة ابن جبير ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون سنة نشر .
- **ابن حجر العسقلانى** : أحمد (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) .
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٣ .
- **الحشائشى** : محمد عثمان
الرحلة الصحراوية ، تعليق ، محمد المزوقى ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٨ م.
- **الحميرى** : محمد بن عبد المنعم (ت ٨٦٦ هـ / ١٤٦٣ م).
الروض المعطار في خبر الإقطار ، تحقيق : احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- **ابن حوقل** : أبى القاسم بن حوقل النصيبى (ت أواخر القرن القرن الرابع الهجرى)
صورة الأرض ، مكتبة دار الحياة ، بيروت ،بدون سنة نشر .
- **ابن خرداذبة** : أبو القاسم عبيد بن عبد الله (ت حوالى ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م).
المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ م
- **ابن الخطيب** : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد السليمانى (ت٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) .
الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق،عبد الله عنان ، مكتبة الخانجى،القاهرة ، ١٩٧٧ .
- **ابن خلدون:**أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، مؤسسة جمال للطباعة ،بيروت ١٩٧٩ م

–

المقدمة ، مطابع الشعب ، بدون سنة نشر .

– **ابن خلكان** : أبو العباس شمس الدين أحمد (ت٦٨١ هـ /١٢٨٢م) .

وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٢م .

– **ابن أبى دينار** : أبى عبد الله محمد بن ابى القاسم القيروانى (ت ١٠٩٢ هـ).

المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ، تحقيق : محمد شمام ، المكتبة العتقية ، تونس ، ١٩٦٧ .

– **ابن أبى زرع** : أبى الحسن على (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٥ م).

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٩٠ .

– **الزركشى** : محمد بن إبراهيم اللؤلؤى (كان حياً سنة٨٩١٤ هـ/١٤٨٨م)

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق : الحسين اليعقوبى ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٩٨ .

– **الزهرى** : أبو عبد الله محمد (ت ٥٥٦ هـ/١١٦٠ م)

كتاب الجغرافيا ، تحقيق : محمد حاج صادق ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٥٨ .

– **السراج** : محمد بن محمد الأندلسى السراج (ت ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦ م).

الحلل السندسة في الأخبار التونسية ، تحقيق : محمد حبيب الهيلة ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٠ .

– **ابن سعيد المغربى** :

كتاب بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق : دكتور خوان قرنيط ، معهد مولاى الحسن ، الرباط ، ١٩٨٥ .

– **السقطى** : أبو عبد الله محمد بن أحمد المالقى الأندلسى (عاش في القرن ٦هـ)

في آدب الحسبة ، تحقيق : كولان وليفى بروفنسال ، باريس ، ١٩٣١ م .

- **الشماخى :** أبو العباس أحمد
كتاب السير ، تحقيق : محمد حسن ، تونس ، ١٩٧٩ .
- **ابن الشماع :** أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ م)
الأدلة البيِّنة النوارنية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق : الطاهر المعمورى ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس ، ١٩٨٤ .
- **ابن صاحب الصلاة** : عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الباجى (ت ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م)
المن بالإمامة مع المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، تحقيق : الهادى التازى ، بيروت ، ١٩٦٤ م .
- **ابن ابى الضياف** : أحمد
اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تحقيق : لجنة من كتاب الدولة للشئون الثقافية ، تونس ، ١٩٦٣ .
- **العبدرى** : محمد (ت ٦٨٨هـ/١٢٩٠م)
الرحلة المغربية ، تحقيق : محمد الفاسى ، الرباط ، ١٩٦٨ م
- **ابن عبدون** : محمد بن أحمد التيجى (ت القرن السادس الهجرى)
"رسالة في القضاء والحسبة" منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق / ليڤي بروفنسال ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- **ابن عذارى** : محمد المراكشى (ت القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى)
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : محمد إبراهيم الكتانى وآخرون ، دار الثقافة ، المغرب ، ١٩٨٥ .
- **على بن يوسف** : أبو الحسن على بن يوسف الحكيم (ت القرن ٨ هـ / ١٤م)
الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة ، تحقيق : حسين مؤنس ، منشورات المعهد المصرى بمدريد ، ١٩٦١ م.

- **ابن العماد الحنبلى :** أبو الفلاح عبد الحق (ت ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨م)
شذرات الذهب في أخبار في ذهب ، سلسلة ذخائر العرب ، بيروت ، بدون سنة نشر .
- **ابن عمر :** يحيى (ت ٢٨٩ هـ/٩٠٢م)
أحكام السوق " نص استخرجه محمود على مكى وعلق عليه في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد ٤ ، مدريد ، ١٩٥٦ م .
- **العمرى :** شهاب الدين ابن فضل الله (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، معهد العلوم العربية الإسلامية ، فرانكفورت ، ١٩٨٨ م .
- **الغبرينى :** أبو العباس أحمد (ت ٧١٤ هـ / ١٣١٥ م) .
عنوان الدراية فيمن عرف في العلماء في المائة السابعة ببجاية ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- **أبو الفداء :** عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١م)
تقويم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، بدون سنة نشر
- **ابن قتيبه :** الدينورى (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)
المعارف ، تصحيح وتعليق ، محمد إسماعيل عبد الله الصاوى ، المطبعة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٣٤ م .
- **القزوينى :** زكريا بن محمد (ت ٦٨٢ هـ/١٢٨٣م)
آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت ، ١٩٩٥ .
- **القلقشندى :** أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)
صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٨ م .
- **ابن القنفد :** أبو العباس أحمد بن حسن بن على بن الخطيب القسنطينى (ت٨١٠هـ/١٤٠٧م)
الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلى وعبد المجيد التركى ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨ م .

- **مجهول** : (ت القرن ٦ هـ / ١٢ م)
الاستبصار في عجائب الأمطار ، تحقيق : سعد زغلول عبد الحميد ،دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ م .
- **المراكشى** : محى الدين عبد الواحد (ت القرن ٧ هـ / ١٣ م)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، دار الفرجانى ، طرابلس ، ١٩٩٤ م .
- **المسعودى** : أبى الحسن على بن الحسن (ت ٣٤٦هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، شرح وتقديم : مفيد محمد قميحه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤ م .
- **المقدسى** : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٣٧٨ هـ/٩٩٧ م)
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩١ م
- **ابن مقديش** : محمود
نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق : على الزواوى و محمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨ م .
- **المقريزى** : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١م)
الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك ، نشر : جمال الدين الشبال ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .
- **المقرى التلمسانى** : أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م)
نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : يوسف محمد البقاعى ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٨ م .
- **ابن منظور** : جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ/١٣١١م)
لسان العرب ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م
- **الناصرى** : أبو العباس أحمد الناصرى (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٦ م)
الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصرى ، محمد الناصرى ، دار الكتاب ، دار البيضاء ، المغرب ، ١٩٥٤ م .

- **النويرى :** شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١م)
نهاية الأدب في فنون الأدب ، تحقيق : حسين نصار ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .

- **الوزان :** الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقى (ت بعد ٩٥٧هـ/١٥٥٠م)
وصف إفريقيا ، ترجمة : محمد حجى ، محمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

- **الونشريسى :** أبو العباس أحمد بن يحي (ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م)
المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، دار المغرب الإسلامى ، بيروت .

- **ياقوت الحموى :** شهاب الدين أبى عبد الله (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)
معجم البلدان ، ٥ أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥ م .

- **اليعقوبى :** أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)
البلدان ، بيروت ، ١٩٦٠ م .

—

تاريخ اليعقوبى ، تعليق : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢م.

ثانياً : المراجع العربية والمعربة :-

- **أبو مصطفي ، كمال السيد :**

تاريخ الأندلس الإقتصادى عصرى المرابطين والموحدين ، مركز الإسكندرية للكتاب ، بدون سنة نشر .

- ـــــ

جوانب من الحياة الإقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامى من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسى ، مركز الإسكندرية للكتاب ، ١٩٩٦م.

- **إسماعيل ، محمود :**

الخوارج في المغرب الإسلامى ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٦ م .

- **أشباخ ، يوسف :**

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة : محمد عبد الله عنان ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

- **بن عامر ، أحمد :**

الدولة الحفصية ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٧٢ م .

- **بن قربة ، صالح :**

إنتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحى في القرون الوسطى (الغرب الإسلامى والغرب المسيحى خلال القرون الوسطى) جامعة محمد الخامس ، المملكة المغربية ، الرباط ، ١٩٩٥ م .

- **بن رمضان ، عاطف منصور :**

الكتابات غير القرآنية على النقود الإسلامية في المغرب والأندلس ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م .

- **باشا ، نجاة :**

التجارة في المغرب الإسلامى من القرن الرابع هـ إلي القرن الثامن هـ ، منشورات الجامعة التونسية ، ١٩٧٦ م .

- **برنشفيك ، روبار :**
إفريقية في العهد الحفصى ، جزءان ، تعريب حمادى الساحلى ، دار الغرب الإسلامى ط ١ ، ١٩٨٨ م .
- **بوتشيش ، إبراهيم القادرى :**
الأسواق في المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط تنظيماتها ومعطياتها الإجتماعية (تراث الغرب الإسلامى) ، دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠٢ م .
- **تود ، مابل لومس :**
أسرار طرابلس ، ط١ ، دار الفرجانى ، طرابلس ، بدون سنة نشر .
- **جارثيا ، البرتوكانتو :**
ابن خلدون والعملة ، تعريب : لمياء الأيوبى ، (ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر الميلادى قيام وسقوط إمبراطوريات) ، مكتبة الإسكندرية ، ٢٠٠٧م..
- **جمعة ، على :**
المكاييل والموازين الشرعية ، دار رسالة ، القاهرة ، ٢٠٠٢م .
- **الجنحانى ، الحبيب :**
المغرب الإسلامى ، الحياة الإقتصادية والإجتماعية ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٧ م .
- **الجوهرى ، يسرى :**
شمال إفريقية دراسة في الجغرافيا التاريخية و الإقليمية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٦ م .
- **حسن ، محمد :**
المدنية والبادية بإفريقية في العهد الحفصى ، جزءان ، جامعة تونس الأولى، ١٩٩٩ م.
- ــ
التجار والحرفيون بإفريقية بين القرنين السادس والتاسع الهجرى (المغيبون في تاريخ تونس الإجتماعى) ، المجمع التونسى ، ١٩٩٩ م .
- **خلف الله ، ابتسام مرعى :**
العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامى ، دار المعارف ، ١٩٨٥ م .

- **خليفة ، على حامد :**
المراكز التجارية الليبية وعلاقاتها مع ممالك السودان الأوسط ، جمعية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية ، ٢٠٠٣ م .
- **المدنى ، أحمد توفيق :**
المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، دار الفرجانى ، طرابلس ، ط٢ ، ١٩٩٦م .
- **الدولاتى ، عبد العزيز :**
مدينة تونس في العهد الحفصى ، تعريب : محمد الشيبانى ، دار سراس للنشر ، تونس، ١٩٨١ م .
- **الزاوى ، الطاهر أحمد :**
ولاة طرابلس الغرب من الفتح العربى إلي نهاية العهد التركى دار الفتح للطباعة ، بيروت ، ١٩٧٠ م .
- **سالم ، السيد عبد العزيز ، العبادي ، أحمد مختار :**
تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٩م .
- **سعيدان ، عمر :**
علاقات أسبانيا القطالونية بالحفصيين في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر الميلادى ، سوسة ، ٢٠٠٢ م .
- **سويسى ، محمد :**
أنماط العمران البشرى بإفريقية وجزيرة المغرب حتى العهد الحفصى ، مركز النشر الجامعى ، تونس ، ٢٠٠١ م .
- **شلميطا ، بدور :**
صور تقريبية للإقتصاد الأندلسي (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس)
مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨ م .

- **الطيبى ، أمين توفيق :**

دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٩٧ م .
- ـــ
دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية ، دار أقرأ للطباعة والنشر ، بدون سنة نشر.
- **الطوخى ، أحمد محمد :**
العلاقات الأندلسية الحفصية (الأندلس الدرس والتاريخ) ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٤ م .
- **عامر ، أحمد :**
الدولة الحفصية ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٧٢ م .
- **عبد الوهاب ، حسن حسنى :**
ورقات في الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، ٣ أجزاء ، مكتبة المنار ، تونس ، ١٩٦٥ م .
- ـــ
خلاصة تاريخ تونس ، دار الجنوب للتشر ، تونس ، ٢٠٠١ م .
- **عزاوى ، أحمد :**
رسائل موحدية ، مجموعة جديدة ، جزءان ، منشورات كلية الآداب ، جامعة القنيطرة ، المملكة المغربية ، ١٩٩٥ م .
- **على ، جبريل أبو بكر :**
طرق القوافل وأثرها في تقوية العلاقات الثقافية بين ليبيا وجيرانها جنوب الصحراء ندوة التواصل الثقافى بين أقطار المغرب العربى ، كلية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية ، ١٩٩٥ م .
- **غلاب ، محمد السيد : وآخرون**
جغرافية العالم دراسة إقليمية ، مكتبة الإنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩م .
- **الغناى ، مراجع عقيلة :**
قيام دولة الوحدين ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازى ، ليبيا ، ١٩٨٨م.
- **غيث ، امطير سعد :**

التأثير الإسلامى في السودان الأوسط ، دار الرواد ، بنغازى ، ١٩٩٦ م .
- **فهمى ، نعيم زكى :**
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .
- **كونتسبل ، أوليفياريمى :**
التجارة والتجار في الأندلس ، تعريب : فيصل عبد الله ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط١ ، ٢٠٠٢ م .
- **كريخال ، مارمول :**
إفريقيا ، تعريب : محمد حجى وآخرون ، دار المعرفة ، الرباط .
- **لوتش ، روسر سالكرو إيمي :**
التوسع الأراجونى القطلوني ، تعريب : إسحاق عبيد (ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابعَ عَشَرَ قيام وسقوط امبراطوريات) ، مكتبة الإسكندرية ، ٢٠٠٧م.
- **لويس ، أرشيبالد :**
القوى البحرى والتجارية في حوض البحر المتوسط ، تعريب : أحمد عيسى مكتبة الأنجلو المصرية ، بدون سنة نشر .
- **مسعد ، سامية مصطفي :**
الحياة الإقتصادية والإجتماعية في إقليم غرناطة أيام المرابطين والموحدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .
- **المطوى ، محمد العروسى :**
السلطنة الحفصية تاريخها السياسى ودورها في المغرب الإسلامى ، دار الغرب الإسلامى ، ١٩٨٦ م .
- **مارسيه ، جورج :**
بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق في العصر الوسيط ، تعريب : محمود عبد الصمد هيكل ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩١ م .
- **مؤنس ، حسين :**

وثائق المرابطين والموحدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٩٧ م.

- **موسى ، عز الدين :**

النشاط الإقتصادى في المغرب خلال القرن السادس الهجرى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٣ م .

- ــــ

الموحدون في المغرب الإسلامى ، تنظيماتهم ونظمهم ، دار الغرب الإسلام ، بيروت ، ١٩٩١ م .

- **ناجى ، محمود :**

تاريخ طرابلس الغرب ، تعريب : عبد السلام أدهم ، محمد الأسطى ، دار الفرجانى طرابلس ، ١٩٩٥ م .

- **النبراوى ، رأفت محمد :**

النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس الهجرى وحتى نهاية القرن التاسع الهجرى ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ٢٠٠٥ م .

- **النشار ، محمد محمود :**

علاقة مملكتى قشتالة وأراغون بسلطنة المماليك ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٩٧ م .

- **هايد . ح :**

تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، جزءان ، تعريب : أحمد رضا محمد رضا ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

<u>ثالثاً : الدوريات :-</u>

- **أبو دياك ، صالح فياض :**
النظام المالى عند الحفصيين ، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد – ٢٢ السنة السابعة ، اشبيلية للنشر ، دمشق ، ١٩٨٦ م .
- **بوتشيش ، إبراهيم القادرى :**
الجاليات المسيحية بالمغرب أيام الموحدين ، مجلة الإجتهاد ، العدد الثامن والعشرون ، السنة السابعة ، دار الإجتهاد ، بيروت ، ١٩٩٥ م .
- **بونو ، سلفاتورى :**
العلاقات التجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا في العصر الوسيط ، تعريب : عمرالبارونى ، مجلة البحوث التاريخية ،العدد الثاني ، مركز جهاد الليبين ، طرابلس ، ١٩٨٦ م .
- **حركات ، إبراهيم :**
دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول ، مركز جهاد الليبين ، طرابلس ، ١٩٨١ م .
- **الخثلان ، سعود بن حمد :**
دور التجار المسلمين في رواج التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربى ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، المجلد الخامس ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٩٢م.
- **راغب ، طاهر :**
قراءة لعملات الحفصيين الأولى ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٢٢ ، مدريد ، ١٩٨٣ – ١٩٨٤ م .
- **الطيبى ، أمين توفيق :**
كانم وبرنو بالسودان الأوسط ، علاقات تجارية وثقافية ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الثاني ، مركز جهاد الليبين ، طرابلس ، ١٩٨٧ .

شرف الدين ، لمياء :

تجارة طرابلس مع بلاد ما وراء الصحراء في العصر الوسيط ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الثاني ، مركز جهاد الليبين ، طرابلس ، ٢٠٠١ م .

رابعاً : رسائل جامعية :-

- **إبراهيم ، عفيفى :**
مظاهر الحضارة في بلاد المغرب حتى منتصف القرن السادس الهجرى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ م .
- ـــ
أحوال بلاد المغرب الإقتصادية في ظل السيادة الفاطمية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧ م .
- **إبراهيم ، حليم أحمد :**
البحرية الإسلامية غربى البحر المتوسط عصر الموحدين ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة طنطا ، ١٩٩٩ م .
- **أبو شامة ، عاشور :**
علاقة الدولة الحفصية مع بلاد المغرب والأندلس ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩١م .
- **بعيزيق ، صالح :**
بجاية في العهد الحفصى ، جزءان ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة تونس ، ١٩٩٥ م .
- **بكر ، عبد الفتاح مقلد :**
سلطنة الرونو حتى عام١٨٠٨ م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ م .

- **بن الذيب ، عيسى :**

التجارة في عصر المرابطين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠م .

- جبار ، عبد الناصر :

بنو حفص والقوى الصليبية في غربى المتوسط ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ،١٩٩٠ م .

- الجمال ، أحمد محمد إسماعيل :

دولة الموحدين في عهد أبى يعقوب يوسف ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٨ م .

- حسين ، أحمد إلياس :

الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٧ م .

- دحروج ، إلهام حسين :

قابس منذ الغزة العلاقية حتى قيام الدولة الحفصية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٠ م .

- سعد ، سامى سلطان :

أسس العلاقات الإقتصادية بين الشرق الأولى والجمهرويات الإيطالية من ١١٠٠ – ١٤٠٠ م ، رسالة ماجستير غير منشوة ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ م .

- سعيد ، محمد :

القبائل الهلالية والسليمية وعلاقتها بالدولة الحفصية ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة تونس ، ١٩٨٧ م .

- سلام ، حورية عبده عبد المجيد :

علاقات مصر ببلاد المغرب حتى قيام الدولة الفاطمية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٤ م .

- الأشقر ، محمد عبد الغنى :

تجارة الكارم والكارمية زمن سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ، ١٩٩٧م .

- **عارف ، تقى الدين :**

علاقات صقلية بدول البحر المتوسط منذ الفتح العربى حتى الغزو النور مندى ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة القاهرة ن ١٩٧٩م.

- **عبد العزيز ، منى سيد :**

الحياة الإقتصادية والإجتماعية في الدولة الحفصية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات والبحوث الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦ م .

- **على بك ، محمود إدريس :**

طرابلس الغرب منذ الهجرة الهلالية إلي بداية العهد العثمانى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٨ م .

- **محمد ، أحمد عبد اللطيف حنفى :**

الدور السياسى والحضارى للمغاربة والأندلسيين في مصر عصر الأيوبية والمملوكية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، ١٩٩٢م .

المراجع الأجنبية :-

1) Amari (Michael) ,
Idiplomi Arabi Del R. Archivio Fiorentinno , Fiorentinno , v, I Fir enz , le monnier , 1863.

2) Acats Del ,
II Coloquio Hispano – Tunecino , MaDrid , 1973

3) Andreas Gimenez Soler ,
Laedad Media en lacorona

4) Antorio De Capmant , t De Montp Alau ,
Algunos Reyes De Aragony Dleerf nets principes infielis De Asia y Africa , Des De el Siglo XIII Hasta el xv , Valencia, 1974

5) Dufourcq (ch . E) ,
L,espagne catalane et le Maghrib aux XIII et xIv siecles , Paris , 1966.

6) ———————— , Le Commerce du maghreb , medieval Avec l'errope chretienne . in cahiers du ceres no . 1 Tunis , 1979 .

7) Francesco Giunta ,
Aragoneses y Catalanes , en el Mediterraneo , Editorial Ariel , S.A. Barcelone , 1971.

8) Goiten (S.D) ,
" Le Commerce méditerranéen avant les croisades " Deiogene , N59 , 1967.

9) Jose Luis Martin ,
La peninsula en Edad Media , Editorial Teide –Barcelona.

10) Levtzion ,
Ancient Ghana and Mali , London , 1973 .

11) Lavoix : Henri ,
Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibiotheque nationale de Paris , vol.2 (Espagne et Afrique) Paris , 1891.

12) Mas Latrie (De) ,

Les Relations Des chiretiens Aves les Arabes De l'afrique septentrionale Paris , 1866.

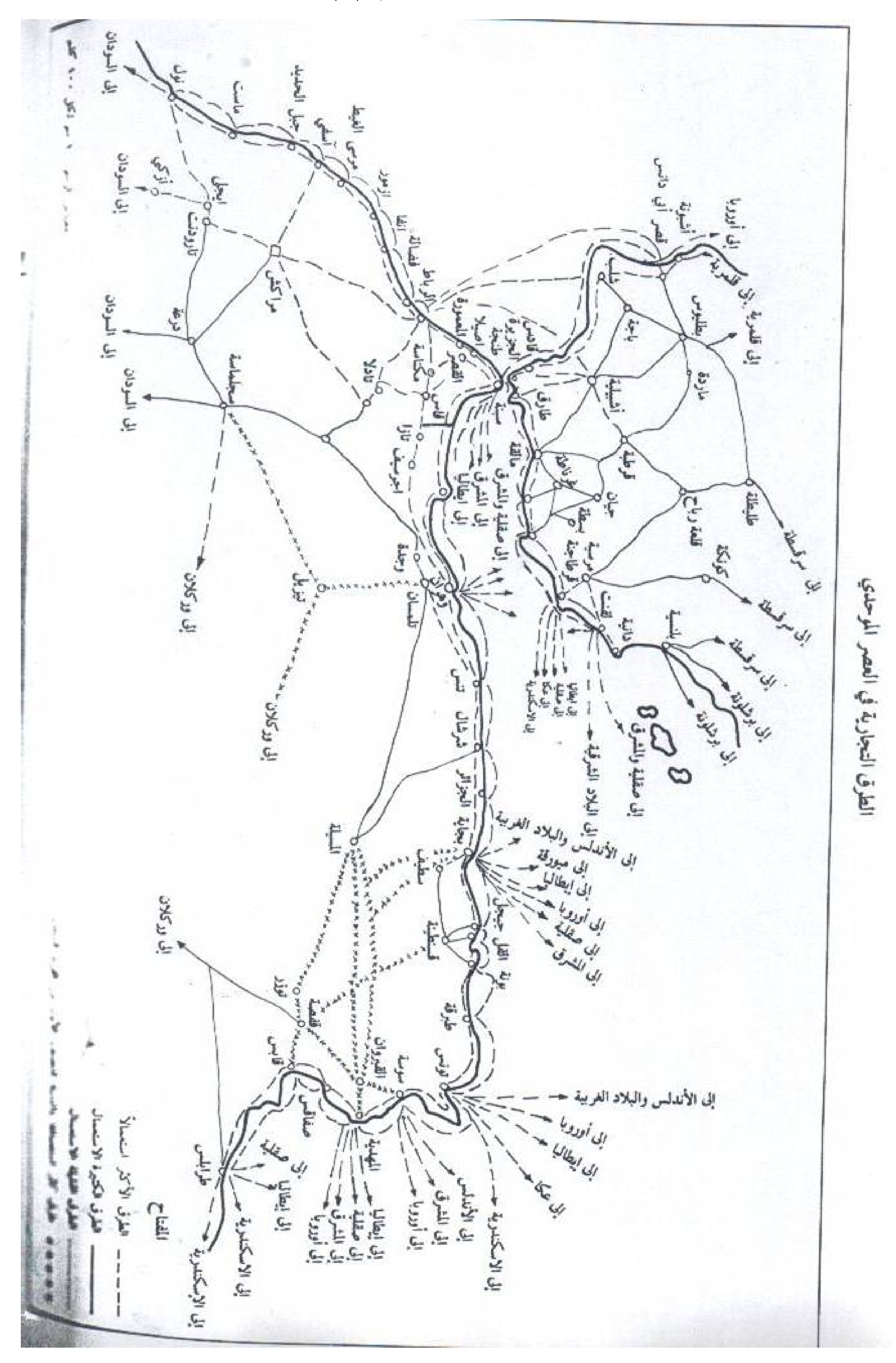
13) Masia de Ros (Angeles) ,
la corona de Aragony los Estads del norte de Africa , Barcalona , 1951 .

14) Ronland Oliver ,
A short History of Africa , London , 1970 .

15) Heyd (W) ,
Histrie du commerce du levant au moyen – Âge , Amsterdam , 1959.

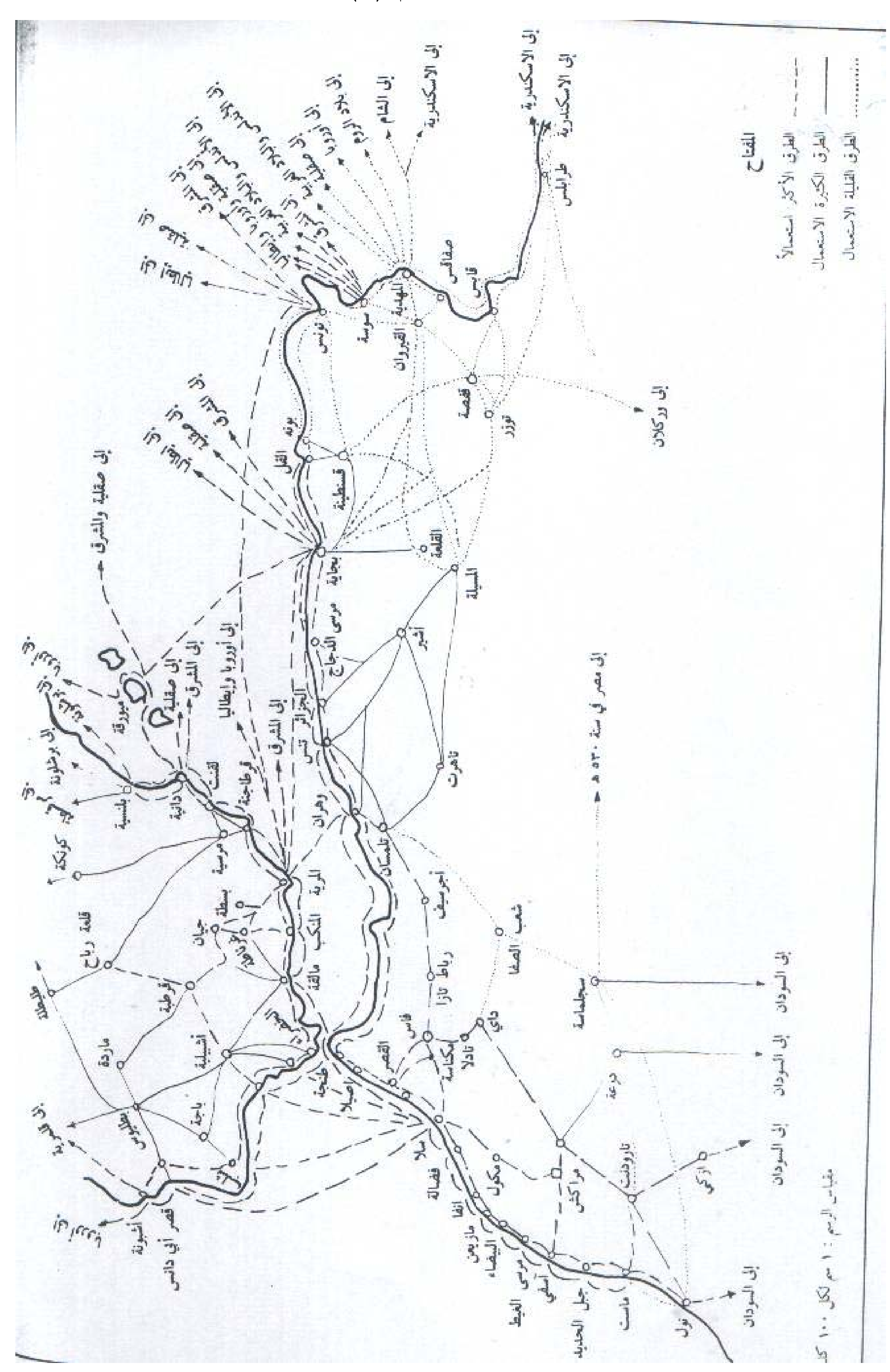
16) Smith (D.M) ,
Medieval Sicliy , London , 1969 .

خريطة رقم (١)



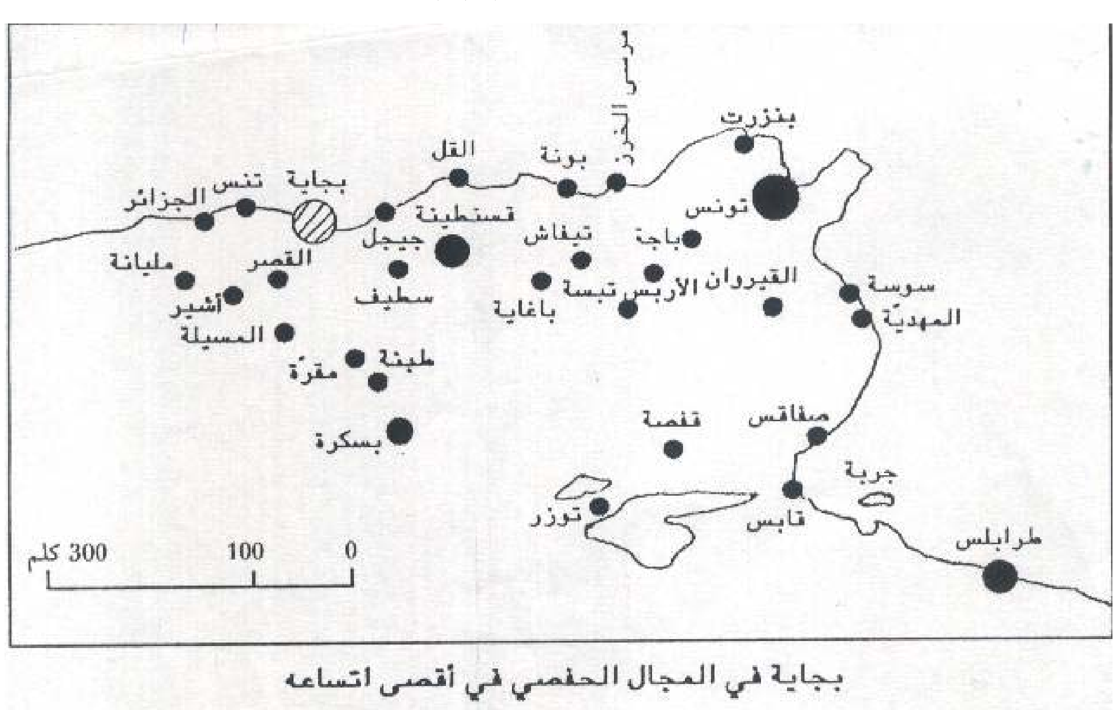
المرجع : عز الدين موسى ، النشاط الاقتصادي ، ص٣١٠

خريطة رقم (٢)



المرجع : عز الدين موسى ، النشاط الاقتصادى ، ص٣٠٩ .

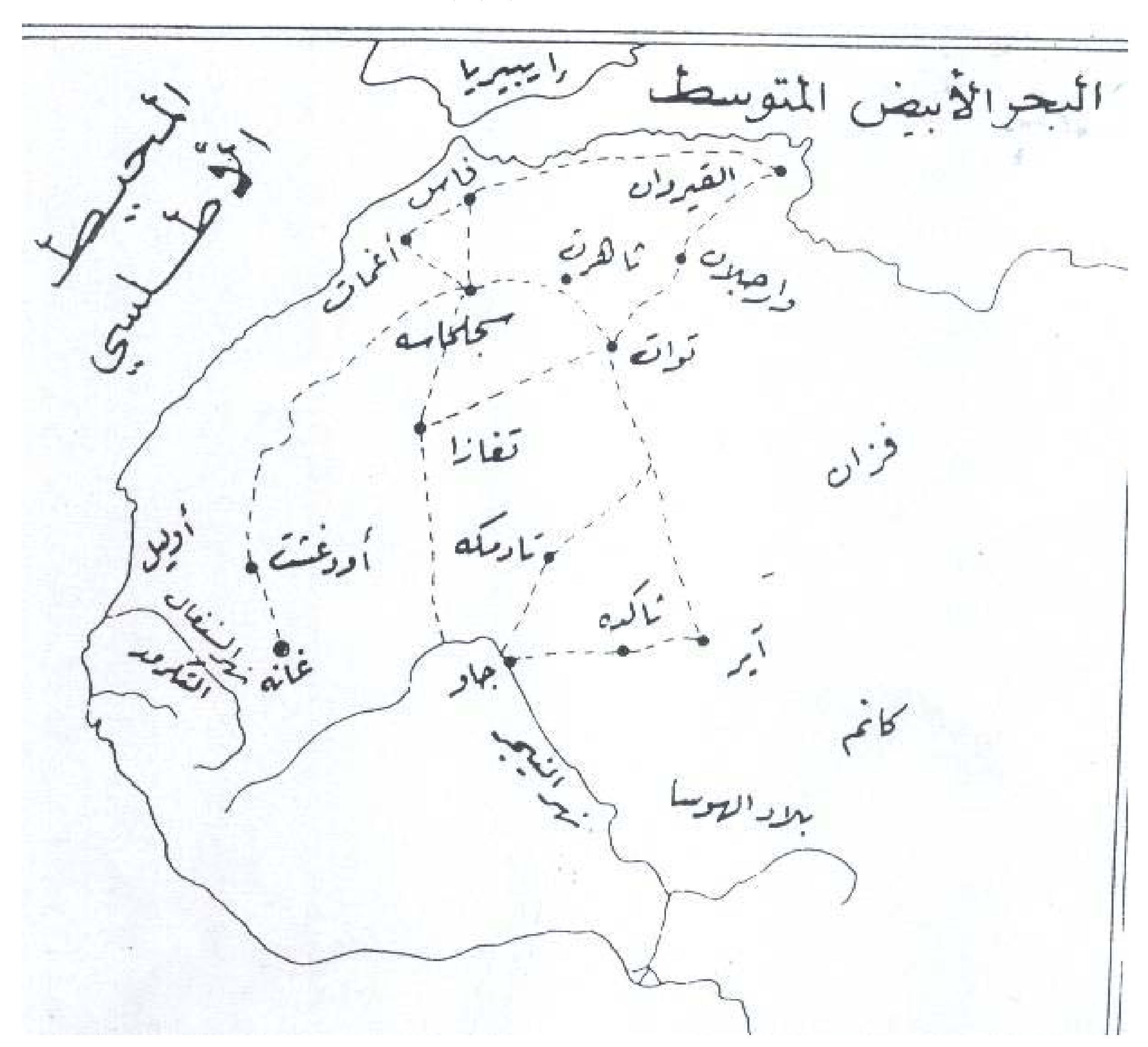
خريطة رقم (٣)



بجاية في المجال الحفصي في أقصى اتساعه

صالح بعيزيق ، مرجع سابق ، ج١ ، ص١٠٦ .

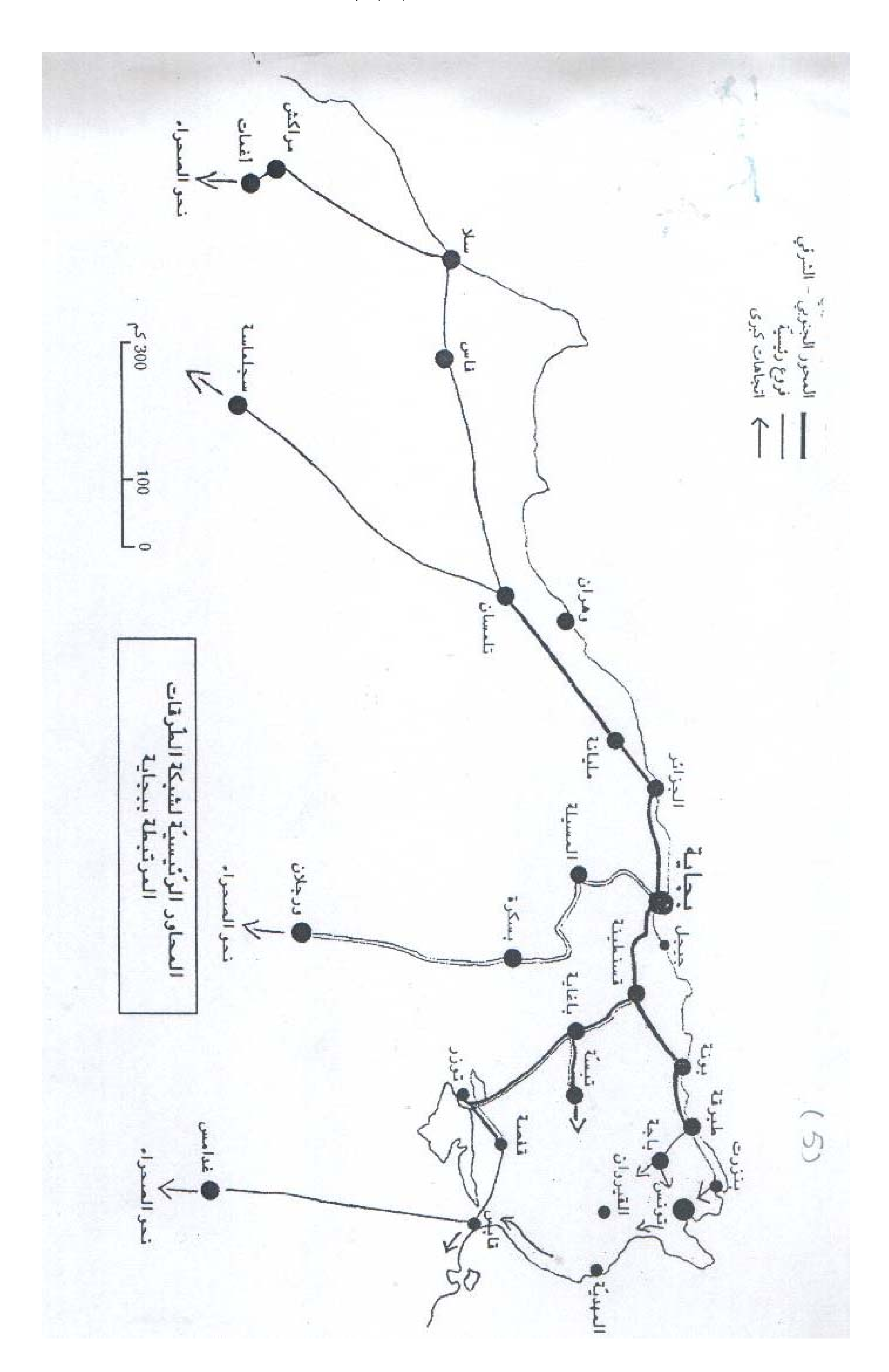
خريطة رقم (٤)



المراكز التجارية على الطريقين التجاريين : الشرقى والذى يربط المغرب الأدنى بثنيه النيجر والغربى والذى يربط المغرب الأقصى بغانة.

المصدر : سعود بن حمد الخثلان ، دور التجار المسلمين في رواج التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربى ، ص ٦٢ .

خريطة رقم (٥)



المرجع : صالح بعيزيق ، بجاية في العهد الحفصي ، ج ١ ، ص١٧٨ .

خريطة رقم (٦)

القل
بجاية
القصر
سطيف
قسنطينة
القلعة
المسيلة
مقرة
نقاوس
باغاية
طبنة
بسكرة
الطّريق الجنوبيّة
1/2 500 000
100 50 0
----- في العهدين الحمادي والموحدي إلى بداية القرن 7/ 13
—— في العهد الحفصي
وارجلان

المراجع : صالح بعيزيق ، بجاية في العهد الحفصي ، ص١٧٥.

خريطة رقم (٧)

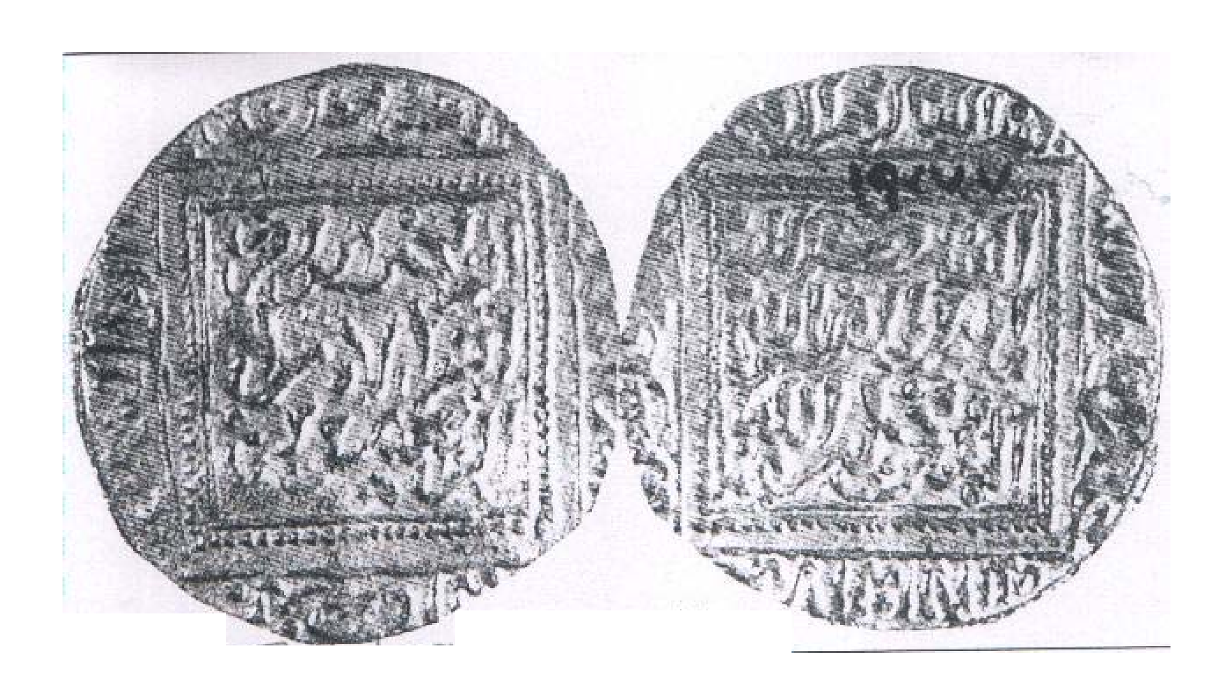
قرطاج
الاصنام
طنجة
القيروان
تاهرت
تلمسان
سوس
طرابلس
غدامس
المغرب الاسلامي

المرجع : العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، ص ١٢٦ .



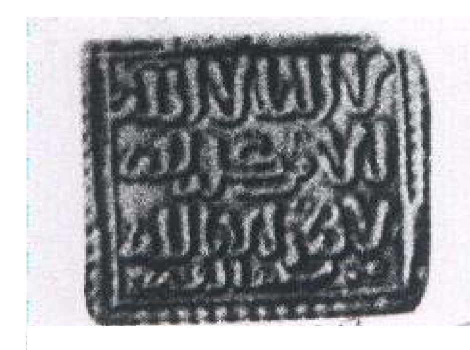
درهم موحدى من القرن الثاني عشر

المرجع : البرتو كانتو جارثيا ، ص ٢٤٣ .



دينار حفصي باسم أبي يحي أبي بكر الثاني يحمل عبارة الشكر لله

المرجع : عاطف رمضان ، مرجع سابق ، ص ٤٣٠ .




درهم موحدي ضرب مالقة




دينار حفصي باسم أبي زكريا يحي الأول




دينار حفصي باسم أبي عبد الله محمد المستنصر بالله

المرجع : رأفت النبراوى ، مرجع سابق ، ص ٣٨٠ .



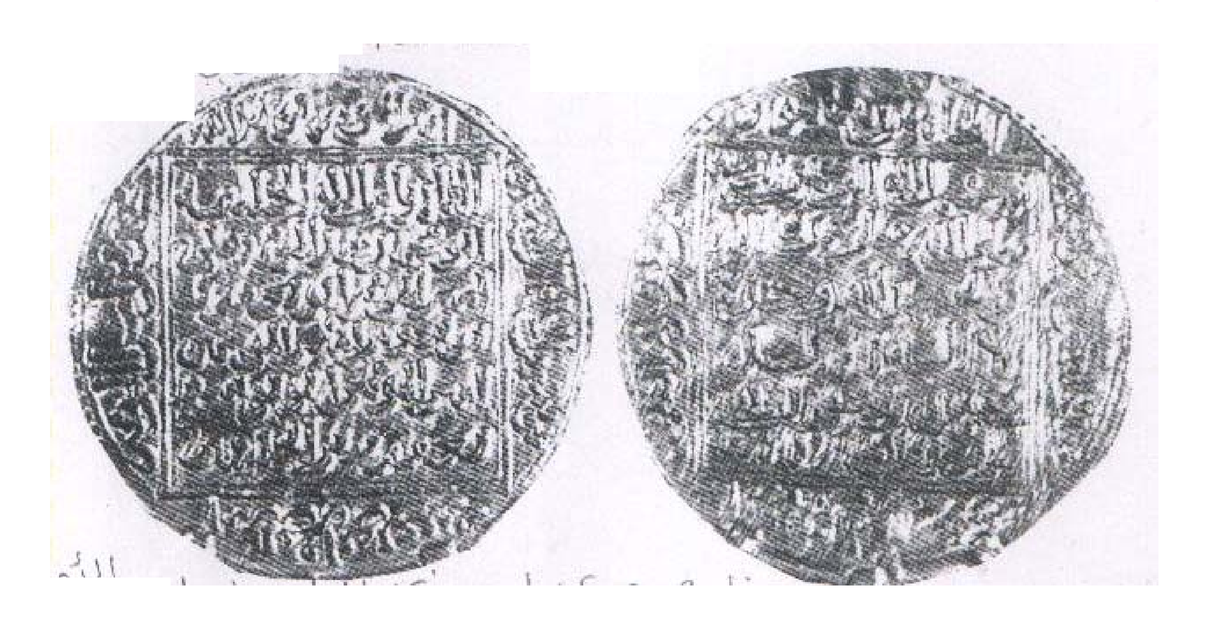
دينار موحدي باسم الخليفة أبي يعقوب يوسف

دينار موحدي باسم الخليفة أبي عبد الله محمد الناصر

المرجع : رأفت النبراوى ، مرجع سابق ، ص ٣٧٩ .



دينار موحدي باسم عبد الله محمد الناصر يحمل عبارة (الحمد لله وحده)

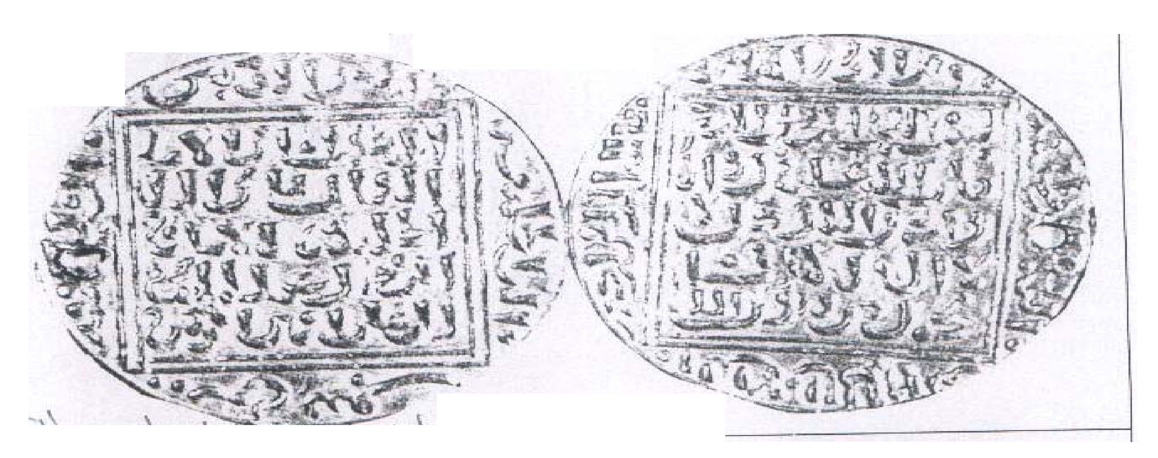


دينار موحدي باسم أبي العلاء إدريس الأول يحمل عبارة (الحمد لله وحده)

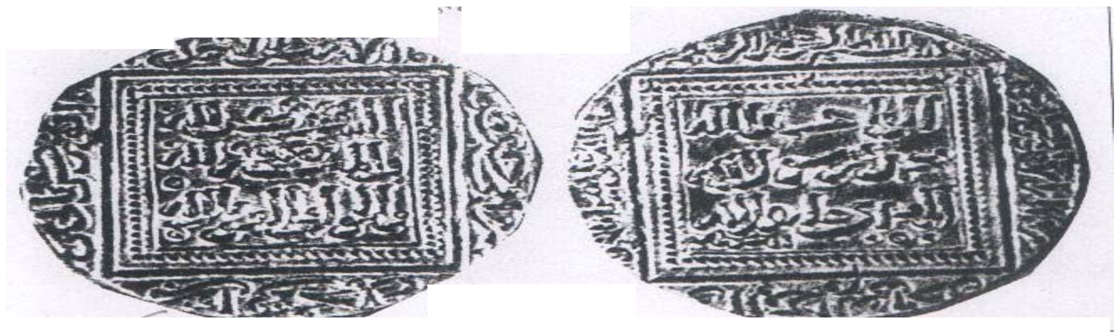
المرجع : عاطف منصور رمضان ، مرجع سابق ، ص ٤٣٥ .



دينار موحدي باسم أبي حفص عمر المرتضى ضرب سبتة يحمل عبارة (الحمد لله وحده)

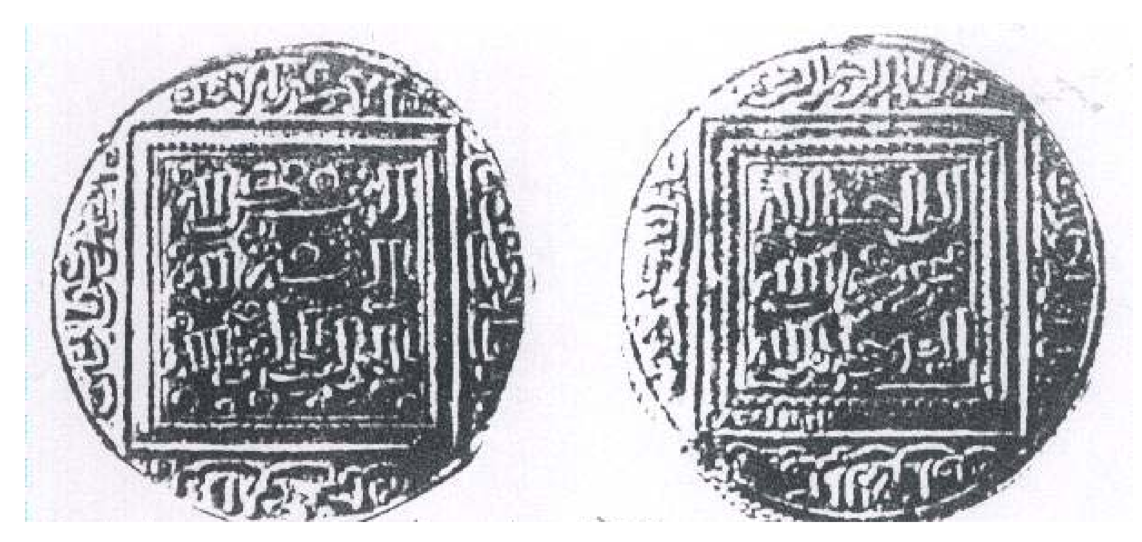


دينار موحدي باسم أبي العلاء إدريس الثاني يحمل عبارة (الحمد لله وحده)

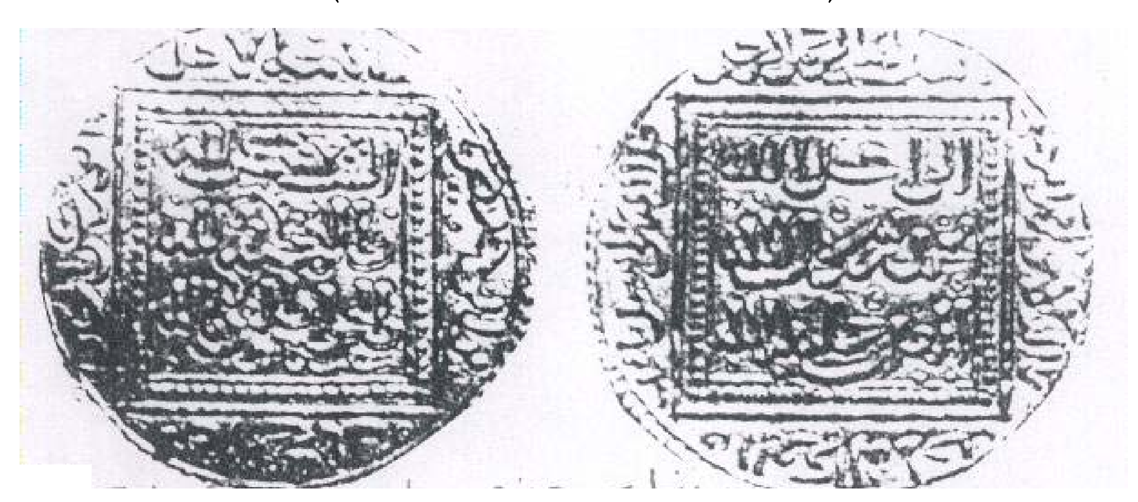


دينار حفصي باسم أبي زكريا يحي الأول ضرب سبتة يحمل عبارة (الشكر لله والمنة لله والحول والقوة بالله)

المرجع : عاطف رمضان ، مرجع سابق ، ص ٤٣٥ .



دينار حفصي باسم أبي زكريا يحي الأول ضرب إشبيلية يحمل عبارة
(الشكر لله والمنة لله والحول والقوة بالله)



دينار حفصي باسم أبي زكريا يحي الأول ضرب غرناطة يحمل عبارة
(الشكر لله والمنة لله والحول والقوة بالله)



دينار موحدي باسم أبي زكريا يحي الأول لا يحمل مكان سكه سجلت عليه عبارة
(الشكر لله والمنة لله والحول والقوة بالله)

المرجع : عاطف رمضان ، مرجع سابق ، ص ٤٣٦ .

بعض الاراغونيين والميورقيين الذين تعاملوا تجاريا مع افريقية بين 1310 و 1331

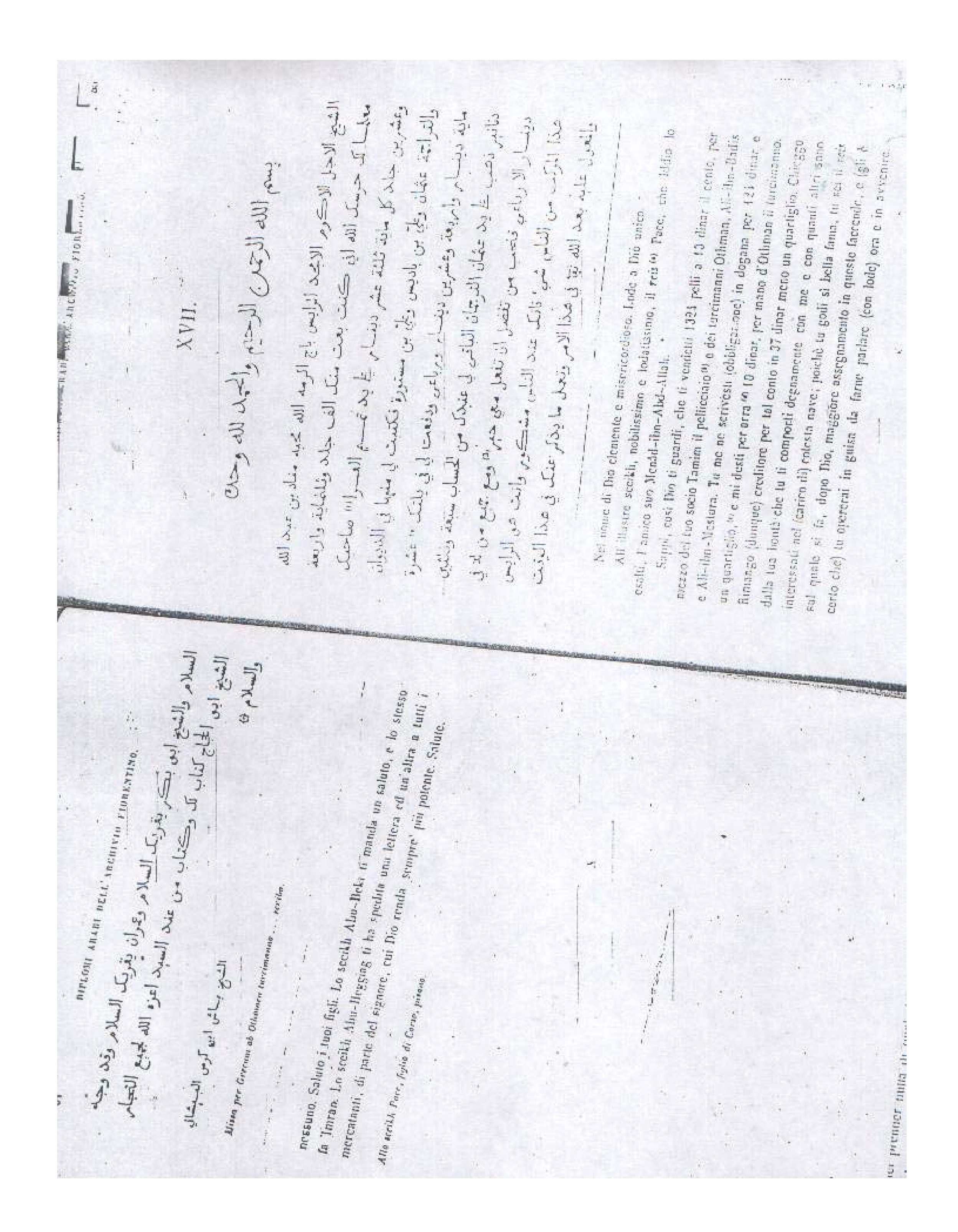
بلد الاصل	الاسم واللقب	الصفة	التجارة مع	السنة
طرطوشة	آفر بسكوال	صاحب راس مال	تونس	1312
برشلونة	البنل برنفر	تاجر	تونس	1320
ميورقة	آمر فرنسسك	ملاك	جيجلي	1331
»	ازقى اندرن	ملاك	تونس	1314
»	برشلو بناط	تاجر	تونس	1320
طرطوشة	بن حاج يوسف	صاحب راس مال يهودي	»	1312
»	بن حاج يهودا	»	»	1312
برشلونة	لايستيلط ولهم ارنو	ملاك	»	1326
ميورقة	كابستا جوان	»	»	1317_1316_1314
»	كان دانيال	»	»	1320
»	قرط برناط	»	»	1330
برشلونة	دورا تافرنسك	تاجر ، نصف قنصل ثم قنصل	»	1330_1320
طرطوشة	دايرات	تاجر مسلم	»	1312
ميورقة	ديسليدو ولهم	ملاك	»	1328_1327
»	فلو ولهم	»	»	1328
»	فراد	»	»	1319
»	جوم	»	»	1319
»	فرار الاب	»	»	1319
»	فرنلو	»	»	1320
طرطوشة	لوبو (حسن بن)	تاجر مسلم	»	1314
ميورقة	مرتينت	ملاك	»	1322
»	باقا طوماس	»	»	1314
»	ريمون برناط	»	»	1332_1331
برشلونة	رشارى جوم	تاجر ونصف قنصل	»	1314_1313
بلنسية	رواق برناط	ملاك	»	1310
ميورقة	رواق الاب	»	طبرقة	1320
بلنسية	رواق رامون	»	تونس	1310
طرطوشة	شلوم يوسف	صاحب راس مال يهودي	طبرقة	1312
بلنسية	ساتون برناط	تاجر	تونس	حوالى 1316
برشلونة	ولد زينة برناط	تاجر وكاتب بالفندق	»	1313
برشلونة	فيل برناط	تاجر ونصف قنصل	»	1326
برشلونة	فيل جوم	»	»	1320
	زقية (محمد بن)	تاجر مسلم	»	1319 و1329
ميورقة	ميمو بن حونى	تاجر يهودي	»	1326

المرجع : نجاة باشا ، التجارة في المغرب الإسلامى ، ص ٩٤ .

وفيما يخص أهمية المعاملات التجارية بين البلاد الكتلانية وافريقية فى نهاية القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر نقتبس الجدول الآتى من كتاب ش. دوفورك : « اسبانيا الكتلانية والمغرب فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر »

التـــاريخ	مصدر حمولة السفينـــة	وجهتهـــا	البضاعـــة	قيمتهـــا
قبل 1285	برشلونة	تونس	زيت	3402 بيزنت 680 دينارا
« 1291	مسينة كتلونيا	«	؟	15500 بيزنت 3100 دينار
« 1302		«	خيل وبضائع مختلفة	2600 صولدى برشلونى 1300 دينار
« 1305	صقلية	«	؟	8000 صولدى 4000 دينار
قبل 1312	برشلونة	«	؟	10000 صولدى بلنسى 555 دينارا 13 دينارا
1318	ميورقة	«	زيت	5278 صولديا ميورقيا
1318	منبلي وميورقة	«	؟	240 دينارا
1318	ميورقة	«	؟	40 دينارا
حوالى 1320	برشلونة	«	؟	22000 بيزنت 3520 الى 4000 دينار

المرجع : نجاة باشا ، التجارة في المغرب الإسلامى ، ص ٩٣ .



DIPLOMI ARABI DELL'ARCHIVIO FIORENTINO.

السلام والشيخ ابو بكر يقريك السلام وعمران يقريك السلام وقد وجه
الشيخ ابو الحجاج كتاب لك وكتاب من عند السيد اعزه الله لجميع التجار
والسلام ☉

الشيخ بياش ابو كرس البيشالي

Missa per Gracum ab Othmanem turcimanno . . . scrito.

nessuno. Saluto i tuoi figli. Lo sceikh Abu-Beki ti manda un saluto, e lo stesso fa 'Imran. Lo sceikh Abu-Hegging ti ha spedita una lettera ed un'altra a tutti i mercatanti, di parte del signore, cui Dio renda sempre più potente. Salute.

Allo sceikh Pore, figlio di Corso, pisano.

XVII.

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله وحده

الشيخ الاجل الاكرم الامجد الرايس باج الرمه الله محبه مناد بن عبد الله
معلما لك حرسك الله اني كنت بعت منك الف جلد وثلثماية واربعة
وعشرين جلد كل ماية ثلثة عشر دينار على يد تميم الفرا⁽¹⁾ صاحبك
والتراجمة عثمان وعلي بن باديس وعلي بن مستورة فكتبت لي منها في الديوان
ماية دينار واربعة وعشرين دينار ورباعي ودفعت لي في يلتك⁽²⁾ عشرة
دنانير ذهب على يد عثمان الترجمان الباقي لي عندك من الحساب سبعة وثلثين
دينار الا رباعي نحب من تفضل ان تفعل معي خيرا⁽³⁾ ومع جميع من له في
هذا المركب من الناس شي ذلك عند الناس مشكور وانت هو الرايس
والمعول عليه بعد الله تبارك في هذا الامر وتعمل ما يذكر عنك في هذا الوقت

Nel nome di Dio clemente e misericordioso. Lode a Dio unico.

All'illustre sceikh, nobilissimo e lodatissimo, il reis (a) Pace, che Iddio lo esalti, l'amico suo Menâd-ibn-Abd-Allah.

Sappi, così Dio ti guardi, che ti vendetti 1324 pelli a 13 dinar il cento, per mezzo del tuo socio Tamim il pellicciaio (b) e dei turcimanni Othman, Ali-ibn-Badis e Ali-ibn-Mestura. Tu me ne scrivesti (obbligazione) in dogana per 124 dinar e un quartiglio, (c) e mi desti per arra (d) 10 dinar, per mano d'Othman il turcimanno. Rimango (dunque) creditore per tal conto in 37 dinar meno un quartiglio. Chieggo dalla tua bontà che tu ti comporti degnamente con me e con quanti altri sono interessati nel (carico di) cotesta nave; poichè tu godi sì bella fama, tu sei il reis sul quale si fa, dopo Dio, maggiore assegnamento in queste faccende, e (gli è certo che) tu opererai in guisa da farne parlare (con lode) ora e in avvenire.

وثيقة رقم (١٧) من وثائق ميشيل أمارى تحوي تسجيلات لبعض المبيعات وأثمانها بين بعض التجار

XIX.

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيوخ الاجلا الاعزا الاحبـا الي وفي نفسي سرفورسطان وسرفغبان وسربلناط كرك وسرالبان سلمهم الله ورعاهم محبكم ومعتقد ودكم الحاج صدقة الجلاد بتونس كلاهما الله يخصكم باتم السلام ويعرفكم انكم اشتريتم منه الف واربعماية وخمسة وثمانين جلد خروف على يد عثمن بن على الترجمـان بثمن جمله مايتين واحد وخمسين دينار وستة درام سكة ولم نقبض من هذه الجملة درهما واحدا ثم لما كان عند اخذ المسطح للمركب من فم الوادي لقلعتم ولم تدفعوا الي شيا والذي تركتم في الديوان ما قدرت ان ناخذ منه شيا والرغبة من تفضلكم ان تفعلوا ما يجب عليكم كيف انتم رجـال جيـاد من خيار التجار وتصلوا

Nel nome di Dio clemente e misericordioso.

Agli illustri sceikhi, miei riveriti e cari amici, ser Forestano, ser F.f.ian (Papiano?), ser B.l.nat k.r.k (Benenato Cerchi?) e ser Albano, che Dio lor conceda salute e li abbia in custodia. Il vostro amico, sicuro del vostro affetto, il pellegrino Sadaka, cuoiaio a Tunis — la quale Dio guardi — vi fa particolarmente pienissimo saluto. E vi ricorda come comperaste da lui 1485 pelli d'agnello, per mezzo di Othman-ibn-Ali il turcimanno, per la somma di 251 dinar e 6 dirhem di zecca, dei quali io non ricevetti nè anche un dirhem. Seguito poi il fatto che la mosattah prese la nave alla bocca del fiume, (a) voi salpaste senza punto pagarmi, nè io potei prender nulla di quel che lasciaste in dogana ...
pertanto la vostra ...

تخلصوني مما لي قبلكم لاني طلبت انا وغيري من الديوان ما بقي لكم قبد فقلنا ما ندفعوا لكم شيا الي ان يصلوا فياخذوا جميع مالهم ويدفعوا لكم مالكم قبلهم وان لم يتفق وصولكم الينـا في هذا الوقت فعسي تكتبوا لنا كتبا وتنفذوا من قبلكم من ياخذ من الديوان ويدفع لنا حقنا والذي يصل يكون بامر من صاحب بيش ومكاتبة من قبله ووكالة من قبلكم وان وصلتم بانفسكم فهو احسن لان السلع وطية والامان والخير كما عهدتم واكثر وتحرروا على الاحفاظ والاكرام كما تقدمت عادتكم والرغبة من سرفورسطان اكرمه الله ان تجتمع بصغير (?) باربه البيشاني وتخصه بالسلام من وجهة الشيخ يوسف الجلاد الذي اشتري منه خمسماية جلد خروف على يد الترجمـان الذي يسمى بالافرنجي ازمات دفرقا بثمانين دينارا وتساله ان يكون يصل معكم لتخلصه مما له قبله كما تفعلوا انتم والتجار الجياد ولا تحتاجوا في ذلك وصية ولا زيادة تاكيد

ed altri al par di me, domandammo in dogana la somma che vi rimanesse di conto vostro, e ci risposero che non ci pagherebbero nulla se prima voi non veniste a prendere tutto l'aver vostro ed estinguere i nostri crediti. Or se voi non capitate qui adesso, speriamo che ci scriviate lettere e mandiate persona incaricata di prendere (ciò che vi appartiene) in dogana e pagare quanto ci si dee. Che la persona inviata rechi un ordine del principe di Pisa, con lettere di parte sua (al governo di Tunis) e con procura di parte vostra. Se voi veniste in persona sarebbe meglio, correndo qui le merci a buon prezzo. Oltrechè la sicurezza e la prosperità (continuano) come voi le lasciaste e maggiori; e voi sarete trattati con ogni riguardo e onoranza, com'è stato solito nei tempi andati.

Si chiede (particolarmente) a ser Forestano — cui Dio onori — ch'egli si abbocchi con Saghir (Sigiero?) Barba il pisano, e lo saluti specialmente da parte dello sceikh Iûsuf il cuoiaio, quegli da cui comperò 500 pelli d'agnello per 80 dinar, per mezzo del turcimanno il cui nome in lingua franca è Azmat Defraka; e lo preghi di venire insieme con voi per soddisfargli cotesto danaro, si come si pratica da voi e dai mercatanti onorati. A ciò non occorre esortarvi nè fa

وثيقة رقم (١٩) من وثائق ميشيل أمارى تحوي طريقة إستخلاص الديون والضرائب من التجار في العهد الحفصي

5°) **وثيقة عدد 140 مكرّر بأرشيف أراغون**

بتاريخ 25 صفر لسنة 761هـ المُوافق لـ 15 يناير 1360م

هَذا كتَابُ صُلْحٍ مُبارَكٍ عَقدَهُ عَنْ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ المُسْتَنْصِرِ باللَّهِ المَنْصُورِ بفَضْلِ اللهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَبُو إِسْحَاقَ[1] إِبْرَاهِيمَ ابنِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ المُتَوكِّلِ عَلَى اللَّهِ المُؤَيَّدِ بنَصْرِ اللَّهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المُقَدَّسِ المَرْحُومِ أَبُو يَحْيَى أَبُو بَكْرٍ ابْنِ سَادَاتِنَا الأُمَرَاءِ الرَّاشِدِينَ أَيَّدَهُمُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُمْ بِمَعُونَتِهِ وَخَيْرِهِ وَأَعْلَى ذِكْرَهُمْ وَشَيَّدَ فَخْرَهُمْ وَخَلَّدَ مُلْكَهُمْ وَجَعَلَ البَسِيطَةَ مُلْكَهُمْ شَيْخُ دَوْلَتِهِمْ وَدُوَلِ أَسْلَافِهِمْ الأَكْرَمِينَ وَخَاصَّتِهِمْ المُقَرَّبُ المُؤْتَمَنُ المَكِينُ حَاجِبُ المُلُوكِ الكُرَمَاءِ المُفَوَّضُ إِلَيْهِ مِنْهُمْ عَلَى الكَمَالِ وَالتَّمَامِ المَعْرُوفُ يُمْنُ نَقِيبَتِهِ عَلَى الدَّوَامِ فِي كُلِّ وَجْهٍ وَمُرَامٍ الشَّيْخُ الأَجَلُّ المُعَظَّمُ الحَاجُّ المُجَاوِدُ المُوَقَّرُ الأَرْفَعُ الأَسْنَى الأَسْرَى الأَشْهَرُ الكَبِيرُ الأَضْخَمُ الأَمْنَعُ الأَشْمَخُ الأَطْوَلُ الأَنْزَهُ العَلَمُ المُقَرَّبُ الأَحْظَى الأَرْضَى المُبَارَكُ الأَسْعَدُ الصِّدِّيقُ الكَهْفُ المَلَاذُ الأَرْشَدُ الأَعْضَدُ الأَوْحَدُ الأَكْمَلُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ مُصْلِحُ الأَحْوَالِ بَعْدَ اخْتِلَالِهَا وَمُنَجِّحُ الآمَالِ بَعْدَ اعْتِلَالِهَا أَعْلَى اللَّهُ عَلَى مَنَابِرِ العِزِّ ذِكْرَهُ وَأَحْظَى فِي كَافَّةِ الآفَاقِ شُكْرَهُ وَجَعَلَ إِمْرَتَهُ بِالإِسْعَادِ دَايِمَةً لَا يَنْفَكُّ مَدَاهَا وَرُتْبَتَهُ بِالإِقْبَالِ ثَابِتَةً لَا يُنْكَرُ إِلَى سِوَاهَا ابْنُ السَّيِّدِ المُسْنَدِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ الفَقِيهِ الرَّاوِيَةِ المُحَدِّثِ المُعَظَّمِ المُوَقَّرِ

(1) - أبو إسحاق ابن السّلطان أبو بكر بن أبي زكريّاء الحفصي.

المُحْتَرَمِ الأَضْخَمِ الأَشْمَخِ الأَشْهَرِ الكَبِيرِ الخَطِيرِ الأَوْحَدِ العَلَمِ الصَّدْرِ الأَرْقَى الأَسْعَدِ الأَصْعَدِ الأَكْمَلِ المُقَدَّسِ المَرْحُومِ أَبِي العَبَّاسِ أَحْمَدَ ابْنِ تَفْرَاجِنَ[1] قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ وَجَعَلَ الجَنَّةَ نُزْلَهُ وَمَقِيلَهُ عَقَدَهُ أَبْقَى اللَّهُ جَلَالَهُ وَحَفِظَ مِنَ الغَيْرِ كَمَالَهُ وَأَسْعَدَ مُسْتَقْبَلَهُ وَحَالَهُ مَعَ الفَارِسِ فَرَنْسِيسَ سَكُوسْطَةَ الوَافِدِ فِي أَوَائِلِ شَهْرِ تَارِيخِهِ عَلَى الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ تُونِسَ أَعْلَى اللهُ مَنَارَهَا وَجَدَّدَ أَنْوَارَهَا رَسُولاً مِنْ قِبَلِ المَلِكِ الأَجَلِّ الأَثِيرِ الخَطِيرِ الشَّهِيرِ أُنْبِيرَ مَلِكِ أَرْغُونَ وَبَلَنْسِيَةَ وَمَيُورْقَةَ وَسَرْدَانِيَةَ وَكُورْسِكَةَ وَقَنْتَ بَرْجَلُونَةَ وَالرُّسِلْيُونَ وَسَرْطَانِيَةَ ابْنِ المَلِكِ

[1] ـ ابن تفراجين: صاحب السّلطان أبو بكر.

الأَجَلِّ الأَثِيرِ الخَطِيرِ الشَّهِيرِ أَلْفُونْسَ[1] وَبَعْدَ وُفُودِهِ عَلَى الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ اسْتَظْهَرَ بِكِتَابٍ مِنْ قِبَلِ مُرْسِلِهِ المَلِكِ الأَجَلِّ الأَثِيرِ الخَطِيرِ الشَّهِيرِ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ مِنْ مَضْمُونِ الكِتَابِ المَذْكُورِ التَّفْوِيضُ لَهُ فِي عَقْدِ الصُّلْحِ بَيْنَ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ وَبَيْنَ مُرْسِلِهِ المَلِكِ الأَجَلِّ الأَثِيرِ الخَطِيرِ الشَّهِيرِ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ فَانْعَقَدَ الصُّلْحُ فِي هَذَا الرَّسْمِ لِعَشْرَةِ أَعْوَامٍ شَمْسِيَّةٍ مُتَوَالِيَةٍ أَوَّلُهَا تَارِيخُ هَذَا الرَّسْمِ مَعَ الرَّسُولِ فَرَنْسِيسَ سَكُوسْطَةَ المَذْكُورِ عَنْ مُرْسِلِهِ المَلِكِ الأَجَلِّ الأَثِيرِ الخَطِيرِ الشَّهِيرِ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ عَلَى شُرُوطٍ اتَّفَقَ مَعَهُ عَلَيْهَا حَسْبَمَا

[1] ـ ألفونس: هو ألفونس الرّابع أخو جاقمو الثّاني وكان خلفهُ بعد موته، وتولى الحكم بعده ابنهُ بترو الرّابع: أنبير المذكور !!

تُذْكَرُ بَعْدُ فَمِنْهَا:

ـ أَنْ يَكُونَ الصُّلْحُ شَامِلاً لِبِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ مَهَّدَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَبِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ الأَثِيرِ الخَطِيرِ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ بَرًّا وَبَحْرًا شَرْقًا وَغَرْبًا بُعْدًا وَقُرْبًا مَا كَانَ مِنْهَا الآنَ بِأَيْدِينَا أَوْ بِأَيْدِيهِمْ أَوْ يَدْخُلُ بَعْدَ هَذَا فِي طَاعَتِنَا أَوْ فِي طَاعَتِهِمْ مُدَّةَ أَمَدِ الصُّلْحِ المَذْكُورِ وَمِنْهَا أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ يُسَافِرُ مِنَ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ مَهَّدَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَوْ مِنَ البِلاَدِ الرَّاجِعَةِ إِلَى نَظَرِهَا وَتَدْبِيرِهَا يَكُونُ آمِنًا بِأَمَانِ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ لاَ يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ وَلاَ تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدٌ عَادِيَةٌ وَمِنْهَا أَنَّ المَلِكَ الأَجَلَّ الأَثِيرَ أُنْبِيرَ المَذْكُورَ يَمْنَعُ مَنْ يُرِيدُ الخُرُوجَ مِنْ جَمِيعِ بِلاَدِهِ إِلَى بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ مَهَّدَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِسَبَبِ القَطْعِ فِي جَفْنٍ مِنَ الأَجْفَانِ عَلَى أَيِّ نَوْعٍ كَانَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا وَلاَ يَصِلُ أَحَدٌ مِنْ بِلاَدِهِ وَلاَ مِمَّنْ هُوَ فِي عَمَلِهِ وَتَحْتَ طَاعَتِهِ إِلَى أَحَدٍ مِمَّنْ هُوَ فِي مَرْسَى مِنْ مَرَاسِي بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ مَهَّدَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِمَضَرَّةٍ وَلاَ إِذَايَةٍ مُسْلِمِينَ كَانُوا أَوْ غَيْرَ مُسْلِمِينَ وَارِدِينَ عَلَيْهَا أَوْ صَادِرِينَ عَنْهَا إِلاَّ قَبِيلَةَ النَّصَارَى الفِنْشِيِّينَ فَإِنَّهُمْ يَدُهُمْ فِيهِمْ عَامِلَةٌ بِمَا يَرَوْنَ إِلاَّ التُّجَّارَ الَّذِينَ يَكُونُونَ فِي أَجْفَانِ الفِنْشِيِّينَ وَهُمْ فِي مَرْسَى الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ أَوْ فِي مَرْسَى مِنْ مَرَاسِي بِلاَدِهَا أَوْ لَقُوهُمْ عَلَى ظَهْرِ البَحْرِ فَإِنَّهُمْ يَحْتَرِمُونَهُمْ بِسَبَبِ هَذَا الصُّلْحِ وَيَحْتَرِمُونَ أَمْوَالَهُمْ مُسْلِمِينَ كَانُوا أَوْ نَصَارَى وَارِدِينَ عَلَى الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ أَوْ شَيْءٍ مِنْ

بِلاَدِهَا وَسَوَاحِلِهَا أَوْ صَادِرِينَ عَنْهَا وَإِنَّ كُلَّ مَنْ
يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ مِنْ أَهْلِ بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورةِ
مَهَّدَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ مِنْ أَحَدٍ مِنْ
أَهْلِ بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ فَعَلَيْهِ أَنْ
يَبْحَثَ عَنْ قَضِيَّتِهِ وَيُنْصِفَهُ مِمَّنْ تَعَدَّى عَلَيْهِ بَعْدَ
ثُبُوتِ ذَلِكَ وَأَنْ يَكُونَ كُلُّ مَنْ يَصِلُ مِنْ بِلاَدِ
الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ إِلَى بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ
أُنْبِيرَ المَذْكُورِ أَوْ إِلَى جَزِيرَةٍ مِنْ جُزُرِهِ أَوْ إِلَى
مَوْضِعٍ مِنَ المَوَاضِعِ التِي تَحْتَ طَاعَتِهِ المُعْتَادَةِ
لِنُزُولِهِمْ آمِنًا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَعَلَى أَنْ لاَ يُعِينَ أَحَدًا
يُرِيدُ ضَرَرًا بِبَلَدٍ مِنْ بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ
مَهَّدَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَعَلَى أَنَّ كُلَّ جَفْنٍ يَعْطُبُ لأَحَدٍ
مِنْ أَهْلِ بِلادِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورةِ فِي مَوْضِعٍ

مِنْ بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ أَوْ مُسْلِمٍ
يَكُونُ مِنْ أَهْلِ بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ فِي
جَفْنٍ يَعْطُبُ لِلنَّصَارَى فَعَلَى أَهْلِ المَوْضِعِ الَذِي
يَكُونُ فِيهِ العَطَبُ أَنْ لاَ يَتَعَرَّضَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لأَحَدٍ
مِنَ المُسْلِمِينَ بِشَرٍّ وَلاَ يَحُولُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَلْفُظُهُ
البَحْرُ لَهُمْ مِنْ سِلَعِهِمْ أَوْ مِنْ حُطَامِهِمْ وَعَلَى أَنَّ كُلَّ
جَفْنٍ يَكُونُ فِي مَرْسَى مِنْ مَرَاسِي بِلاَدِ الحَضْرَةِ
العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا لأَهْلِهَا أَو لِغَيْرِ
أَهْلِهَا مُسْلِمِينَ كَانُوا أَوْ نَصَارَى فَحُكْمُهُمْ حُكْمُ بِلاَدِ
الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ فِي الدَّعَةِ وَالأَمَانِ وَعَلَى
أَنْ لاَ يَشْتَرِيَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلادِهِ مِمَّنْ يَقْطَعُ عَلَى
أَهْلِ بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ شَيْئًا مِنْ
سِلَعِهِمْ وَلاَ مِنْ أَسْرَاهُمْ وَأَنْ يَصْرِفُوهُمْ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ

عَلَيْهَا حُكْمُهُمْ وَيَمْنَعُوهُمْ النُّزُولَ بِهِمْ إِلَى سَوَاحِلِهِمْ
كُلِّهَا وَكَذَلِكَ يَكُونُ حَكْمُ أَهْلِ بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ
أَنْبِيرَ المَذْكُور بِالحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ وَسَائِرِ
بِلاَدِهَا سَوَاءٌ وَمَتَى دَخَلَتْ قِطْعَةٌ أَوْ جَفْنٌ أَوْ أُسْطُولٌ
أَو اجْتَازَتْ مِنْ غَيْرِ مَضَرَّةٍ مِنْ بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ
المَذْكُورَةِ مَهَّدَهَا اللّٰهُ تَعَالَى بِمَرْسَى مِنْ مَرَاسِي بِلاَدِ
المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ أَوْ جَزِيرَةٍ مِنْ جُزُرِهِ
أَوْ سَاحِلٍ مِنْ سَوَاحِلِهِ فَلَهُمْ أَنْ يُجَدِّدُوا أَزْوِدَتَهُمْ
بِدَرَاهِمِهِمْ وَيَسْتَقُوا المَاءَ وَلاَ يُمْنَعُوا مِنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ
كُلُّ نَصْرَانِيٍّ يُسَافِرُ مِنْ بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ
المَذْكُورِ إِلَى بَلَدٍ مِنْ بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ
المَذْكُورَةِ أَوْ إِلَى مَرْسَى مِنْ مَرَاسِي بِلاَدِهَا
المُعْتَادَةِ لِنُزُولِهِمْ يَكُونُ آمِنًا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ لاَ

يَلْحَقُهُ ضَرَرٌ وَلاَ تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدٌ عَادِيَةٌ وَيُمْنَعُ مَنْ
يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِ بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ
مَهَّدَهَا اللّٰهُ تَعَالَى بِسَبَبِ القَطْعِ فِي جَفْنٍ مِنْ أَجْفَانٍ
عَلَى أَيِّ نَوْعٍ كَانَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا وَلاَ يَصِلُ أَحَدٌ مِنْ
أَهْلِ بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ وَلاَ مِمَّنْ هُوَ فِي
عَمَلِهَا وَتَحْتَ طَاعَتِهَا إِلَى أَحَدٍ مِمَّنْ هُوَ فِي مَرْسَى
مِنْ مَرَاسِي بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ
بِمَضَرَّةٍ وَلاَ بِفَسَادٍ نَصَارَى كَانُوا أَوْ غَيْرَ نَصَارَى
وَارِدِينَ عَلَيْهَا أَوْ صَادِرِينَ عَنْهَا وَأَنَّ كُلَّ مَنْ لَحِقَهُ
ضَرَرٌ مِنْ أَهْلِ بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ
فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ مِنْ أَحَدٍ مِمَّنْ هُوَ مِنْ أَهْلِ بِلاَدِ
الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ فَعَلَيْهَا أَنْ تَبْحَثَ عَنْ
قَضِيَّتِهِ وَتُنْصِفَهُ مِمَّنْ تَعَدَّى عَلَيْهِ بَعْدَ ثُبُوتِ ذَلِكَ مِنْ

بِلاَدِهَا مِنْ أَهْلِ بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُور فَهُوَ آمِنٌ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَعَلَى أَنْ لاَ تُعِينَ الحَضْرَةُ العَلِيَّةُ المَذْكُورةُ مَهَّدَهَا اللّهُ تَعَالَى أَحَدًا يُرِيدُ ضَرَرًا بِبَلَدٍ مِنْ بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُور وَعَلَى أَنَّ كُلَّ جَفْنٍ يَعْطُبُ لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ فِي مَوْضِعٍ مِنْ بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورةِ مَهَّدَهَا اللّهُ تَعَالَى أَوْ نَصْرَانِيٍّ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ بِلاَدِ الملِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُور فِي جَفْنٍ يَعْطُبُ لِلْمُسْلِمِينَ فَعَلَى أَهْلِ المَوْضِعِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ العَطَبُ أَنْ لاَ يَتَعَرَّضَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا مِنَ النَّصَارَى بِشَرٍّ وَلاَ يَحُولُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَلْفُظُهُ البَحْرُ لَهُمْ مِنْ سِلَعِهِمْ أَوْ مِنْ حُطَامِهِمْ وَعَلَى أَنْ لاَ يَشْتَرِيَ أَحَدٌ مِنْ أَهلِ بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورة مِمَّنْ يَقْطَعُ عَلَى أَهْلِ بلادِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُور شَيْئًا مِنْ سِلَعِهِم وَلاَ مِنْ أَسْرَاهُمْ مُدَّةَ أَمَدِ الصُّلْحِ المَذْكُورِ وَمَتَى دَخَلَتْ قِطْعَةٌ أَوْ جَفْنٌ أَوْ أُسْطُولٌ أو اجْتَازَتْ مِنْ غَيْرِ مَضَرَّةٍ مِنْ بلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُور بِمَرْسَى مِنْ مَرَاسِي بِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورةِ أَوْ سَاحِلٍ مِنْ سَوَاحِلِهَا فَلَهُمْ أَنْ يُجَدِّدُوا أَزْوِدَتَهُمْ بِدَرَاهِمِهِمْ وَيَسْتَقُوا المَاءَ وَلاَ يُمْنَعُوا مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّ جَمِيعَ مَنْ يُسَافِرُ مِنَ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورةِ أَوْ مِنْ سَائِرِ بِلاَدِهَا فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ إِلَى بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُور يَكُونُ آمِنًا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ لاَ يَلْزَمُهُ فِي مَتْجَرِهِ غَيْرُ المَلاَزِمِ القَدِيمَةِ المُعْتَادَةِ مُجْتَازِينَ كَانُوا أَوْ قَاطِنِينَ وَكَذَلِكَ حُكْمُ أَهْلِ بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ

المَذْكُورِ فِي الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورةِ مَهَّدَهَا اللّهُ تَعَالَى وَفِي سَائِرِ بِلادِهَا سَوَاءً وَذَلِكَ مُدَّةَ أَمَدِ الصُّلْحِ المَذْكُورِ وَأَنْ تُبْنَى لَهُمْ فَنَادِقُهُمْ المَعْرُوفَةُ لِسُكْنَاهُمْ بالحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورةِ وَتُصْلَحَ بُيُوتُهَا وَمَخَازِنُهَا وَلاَ يَسْكُنَ أَحَدٌ مَعَهُمْ فِيهَا مِنْ غَيْرِ صِنْفِهِمْ إلاَّ بِرِضَاهُمْ وَأَنْ يَكُونَ لَهُمْ قَنَاصِلَةٌ بالحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ وَسَائِرِ بِلادِهَا الَّتِي تَحْتَ طَاعَتِهَا يَحْكُمُونَ بَيْنَ النَّصَارَى القَطْلاَنِيِّينَ وَاليَهُودِ الَّذِينَ مِنْ بِلاَدِهِمْ فِيمَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ وَلاَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ غَيْرُ قَنَاصِلَتِهِمْ المُقَدَّمِينَ لِذَلِكَ وَأَنْ يَكُونَ لِلْقُنْصُلِ عَادَتُهُ المَعْرُوفَةُ بالحَضْرَةِ العَلِيَّةِ وَبِسَائِرِ بِلادِهَا الَّتِي لَهُ عَقْدُ طَوَائِفِهِمْ وَأَنْ لاَ يُؤْسَرَ أَحَدٌ مِنَ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورَةِ وَلاَ مِنْ سَائِرِ بِلاَدِهَا بِبِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ مِنَ المُسْلِمِينَ وَلاَ مِنَ اليَهُودِ بَعْدَ عَقْدِ هَذَا الصُّلْحِ وَمَتَى ظَهَرَ ذَلِكَ فَحُكْمُهُ التَّسْرِيحُ وَالإِطْلاَقُ وَكَذَلِكَ لاَ يُؤْسَرُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلاَدِ المَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ بِبِلاَدِ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورةِ مِنْ نَصْرَانِيٍّ أَوْ يَهُودِيٍّ بَعْدَ عَقْدِ هَذَا الصُّلْحِ وَمَتَى ظَهَرَ ذَلِكَ أَيْضًا فَحُكْمُهُ التَّسْرِيحُ وَالإِطْلاَقُ.

وَعَلَى أَنْ يَكُونَ لِلمَلِكِ الأَجَلِّ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ عَلَى دِيوَانِ حَضْرَةِ تُونِسَ المَحْرُوسَةِ وَسَائِرِ دَوَاوِينِ بِلاَدِهَا فِي كُلِّ عَامٍ مِنْ أَعْوَامِ أَمَدِ الصُّلْحِ المَذْكُورِ أَلْفَا دِينَارٍ اثْنَانِ مِنَ الدَّنَانِيرِ الذَّهَبِ الكَبِيرَةِ الضَّرْبِ السِّتِّينِيَّةِ يَأْخُذُهَا مَنْ يَنُوبُ عَنْهُ مِمَّنْ يَرْضَاهُ لِذَلِكَ مِمَّا يَجْلِبُهُ أَهْلُ بِلاَدِهِ مِنَ النَّصَارَى وَاليَهُودِ إِلَى

الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ المَذْكُورةِ وَسَائِرِ بِلَادِهَا مِنَ السِّلَعِ وَمِمَّا يُخْرِجُونَهُ مِنْهَا مِنَ السِّلَعِ أَيْضًا وَمِنْ سَائِرِ بِلَادِهَا يَأْخُذُ ذَلِكَ مِنْ نِصْفِ الوَاجِبِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ المَلَازِمِ المَخْزَنِيَّةِ دَاخِلًا وَخَارِجًا فَإِنْ زَادَ النِّصْفُ شَيْئًا عَلَى الأَلْفَيْ الدِّينَارِ الذَّهَبِ المَوْصُوفَةِ فِيمَا يَدْخُلُونَ بِهِ وَيَخْرُجُونَ فَهُوَ لِلدَّوَاوِينِ المَذْكُورَةِ وَإِنْ نَقَصَ المَذْكُورُ فِي الدَّوَاوِينِ المَذْكُورَةِ عَنِ الأَلْفَيْ الدِّينَارِ الذَّهَبِ المَذْكُورِ فِي عَامٍ مِنْ أَعْوَامِ أَمَدِ الصُّلْحِ المَذْكُورِ وَأَمَّا النِّصْفُ الآخَرُ مِنَ الوَاجِبِ عَلَيْهِمْ فَهُوَ بِكَمَالِهِ لِلدَّوَاوِينِ لَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا.

فَانْعَقَدَ هَذَا الصُّلْحُ المُبَارَكُ عَلَى مَا تَقَيَّدَ فِيهِ عَقْدًا تَامًّا وَشَهِدَ عَلَى إِشْهَادِ فَرَنْسِيسَ سَكُوسْطَةَ النَّصْرَانِيِّ الرَّسُولِ المَذْكُورِ فِيهِ بِمَا فِيهِ عَنْهُ وَهُوَ بِحَالِ صِحَّةٍ وَطَوْعٍ وَجَوَازٍ.

أَمَرَ بِتَرْجَمَةِ مَنْ عَادَتُهُ يُتَرْجِمُ مِنْ تَرَاجِمَةِ المُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ وَيَشْرَعُ الإِذْنُ فِي الشَّهَادَةِ فِيهِ مِمَّنْ تَنْفُذُ عَنْهُ الأَوَامِرُ السُّلْطَانِيَّةُ بِحَضْرَةِ تُونِسَ المَذْكُورَةِ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَدَامَ اللَّهُ عِزَّتَهُ وَحَفِظَ رِفْعَتَهُ خَاصَّةَ المَقَامُ الكَرِيمُ ذُو النَّصَائِحِ الَّتِي لَهَا مَزِيَّةُ التَّفْضِيلِ وَالتَّقْدِيمِ شَيْخُ المُوَحِّدِينَ وَحَاجِبُ المُلُوكِ الرَّاشِدِينَ الشَّيْخُ الأَجَلُّ المُعَظَّمُ الأَرْفَعُ الأَثِيرُ الخُلَاصَةُ الحَاجُّ المُجَاوِدُ البَاذِلُ الأَشْمَخُ الأَضْخَمُ الأَوْحَدُ الأَسْمَى الأَسْنَى الأَكْمَلُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الشَّيْخِ الأَجَلِّ الصَّالِحِ الأَنْزَهِ الفَقِيهِ الرَّاوِيَةِ المُحَدِّثِ الأَرْفَعِ الأَسْنَى الأَسْمَى الأَكْمَلِ

المُقَدَّسِ المَرْحُومِ أَبِي العَبَّاسِ أَحْمَدَ بن تَفْرَاجِينَ المَذْكُورِ فِيهِ أَدَامَ اللَّهُ عَافِيَتَهُ وَوَصَلَ حِمَايَتَهُ وَحَفِظَ سِيَادَتَهُ المُفَوَّضُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِ الكَرِيمِ وَمِنْ أَسْلاَفِهِمْ عَلَى الحَدِيثِ وَالقَدِيمِ التَّفْوِيضُ التَّامُّ وَهُوَ بِحَالِ كَمَالِ الإِشْهَادِ. وَذَلِكَ كُلُّهُ بِتَارِيخِ يَوْمِ الخَمِيسِ الخَامِسِ وَالعِشْرِينَ مِنْ صَفَرٍ مِنْ عَامِ أَحَدٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمَائَةٍ وَهُوَ اليَوْمُ المُوَافِقُ لِلْخَامِسِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ الأَعْجَمِيِّ يَنَايِرَ الكَاينِ فِي العَامِ المُؤَرَّخِ بِهِ وَحَضَرَ الرَّاهِبُ افْرَايُ جُوَانُ وَمِنَ القَطَلاَنِيِّينَ فَرَنْجَسْكُ دِتِيرْمِسُ وَوَلَدُهُ فَرَنْجَسِكُ وَانْدِرِيُونُ بُونْتَ وَجَاقْمَةَ كُولِيتُ وَفَرَنْجَسْكُ كُوِيرْسُ وَبَرْنَاطُ الرِّيُو وَبَرْنَاطُ سَابَتْ ؟ وَمِسْيَاوُنُ فِلْيُو وَجِيمُ تَرِيلَةُ وَمَرْتِينُ ارْتَلُ كَاتِبُ الغُرَابِ وَكَلِيمُ جَرْجِي وَبَرْتَمِيُو بَرْجِيسُ وَارْنَاوُ جِينْتَةُ وَجَاقْمَةُ بِتْرَانُ وَبِرْنَكِيلُ سَرْدَارُ وَمِنَ الفُرْسَانِ فَرَانْدُو بِرِيسُ وَوَقَفُوا عَلَى الكِتَابِ الوَاصِلِ بِهِ النَّصْرَانِيُّ فَرَنْسِيسُ سَكُوسْطَةُ الرَّسُولُ المَذْكُورُ مِنْ قِبَلِ مُرْسِلِهِ المَلِكِ الأَجَلِّ الأَثِيرِ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ وَقَرَأُوهُ وَأَمْعَنُوا النَّظَرَ فِيهِ فَذَكَرُوا كُلُّهُمْ أَنَّهُ مُقْتَضٍ لِلتَّفْوِيضِ التَّامِّ لِلرَّسُولِ فَرَنْسِيسَ سَكُوسْطَةَ المَذْكُورِ يُعْقَدُ بِهِ الصُّلْحُ عَنْ مُرْسِلِهِ المَلِكِ الأَجَلِّ الخَطِيرِ أُنْبِيرَ المَذْكُورِ وَأَنَّهُ يَقْتَضِي التَّفْوِيضَ التَّامَّ عَنْهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَحَضَرَ لِعَقْدِ هَذَا الصُّلْحِ الرَّاهِبُ افْرَايُ جُوَانُ المَذْكُورُ وَفَرَانْدُو بِيرْسُ المَذْكُورُ وَفَرَنْجَسْكُ دَتِيرْمِسْ وَوَلَدُهُ فَرَنْجَسْكُ المَذْكُورَانِ وَذَلِكَ كُلُّهُ فِي التَّارِيخِ المَذْكُورِ وَبِتَرْجَمَةِ مَنْ ذُكِرَتْ تَرْجَمَتُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ شَهِدَ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَبِمُصْلِحٍ مِثْلِ لَهُ "عَنْ"

وَآخرَ مِثْلٍ لَهُ "النِّصْفُ" وَآخرَ مِثْلٍ لَهُ "ذُكِرْتُ" وَبِمُلْحَق مِثْلٍ لَهُ "وَأَمَّا لِلنِّصْفِ الآخرِ مِنَ الوَاجِبِ عَلَيْهِمْ فَهُوَ لِلدَّوَاوِينِ المَذْكُورَةِ لاَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ شَيْئًا" وَآخرَ مِثْلٍ لَهُ "عَنْ"(1) شَهدَ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَأَوْقَعَ شَهَادَتَهُ بِذَلِكَ فِي المُوَفَّى ثَلاَثِينَ لِصَفَرٍ * أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَبُو القَاسِمِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَالِي * مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ * أَبُو سَعِيدٍ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ أَحْمَدَ المَغْرِبِيُّ * أَبُو القَاسِمِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَانِ * عُثْمَانُ بْنُ يَحْيَى بْنُ عُثْمَانَ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ النَّصِيرِيُّ * مُحَمَّدُ بْنُ الحُسَيْنِ.

(1) - هذه العبارات والكلمات التي شدّدنا عليها وردت في عقد الصّلح تمّ إصلاحها والإشهاد عليها بأنّها صحيحة وردت كما هي في النصّ الأصليّ العربيّ. شهد بصحّتها الشّهود الذين حضروا تحرير العقد وإبرامه.

الحَمْدُ لِلَّهِ أَعْلَمَ بِثُبُوتِ الرَّسْمِ المُكْتَتَبِ أَعْلاَهُ: عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ(1) بْنُ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الرَّفِيعِ الرَّبْعِي.

(1) - إنّ هذا الموَقّع شاهدُ عدل شَهد بثبوت الرّسم وصحّته.

6°) - وثيقة عدد 141 بأرشيف أراغون

بتاريخ 15 ربيع الأول سنة 761هـ الموافق لـ 4 فيفري سنة 1360م

الحَمْدُ لِلَّهِ السُّلْطَانُ الكَبيرُ الشَّهيرُ الخَطِيرُ الأَكْمَلُ الأَثِيرُ أَنْبيرُ[1] مَلِكُ أَرَاغُونَ وَبَلَنْسِيَةَ وَمُيُورقَةَ وَسَرْدَانِيَةَ وَكُورْسِكَةَ وَقَنْتَ بَرْجُلُونَةَ وَبَرْشَلُونَةَ (Sic) وَسَرْطَانِيَةَ ابنُ المَلِكِ الأَجَلِّ الأَثير الخَطِيرِ الشَّهيرِ أَلْفُونْس أَكْرَمَهُ اللَّهُ وَأَرْشَدَهُ وَلِلْخَيْرِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ سَيَّرَهُ وَسَدَّدَهُ مُريدُ الخَيْرِ لَهُ عَبْدُ المَقَامِ العَلِيِّ الإمَامِيِّ أَشْمَلَهُ اللَّهُ وَخَلَّدَهُ عَبْدُ......[2] خَارَ اللَّهُ لَهُ وَأَنْجَحَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ.

وَكِتَابُنَا إِلَيكَ مِنْ حَضْرَةِ تُونسَ المَحْرُوسَةِ وَنَحْنُ نَحْمَدُ اللهَ الَّذِي لاَ شَيْءَ كَمِثْلِهِ وَنَلْجَأُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِنَا كُلِّهِ وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُوزِعَنَا شُكْرَ إِحْسَانِهِ وَفَضْلِهِ وَعِنْدَنَا لِجَنَابِكَ المُرَفَّعِ تَكْرُمَةُ نَسْتَوْفِيهَا وَمَبَرَّةٌ نَنْتَهِي إِلَى الغَايَةِ فِيهَا.

وَقَدْ وَصَلَ كِتَابُ ذَلِكَ الجَانِبِ السُّلْطَانِيِّ الخَطِيرِ الشَّهيرِ جَعَلَهُ اللهُ مِمَّنْ يَعْمَدُ الخَيْرَ وَيَعْمَلُ بِهِ وَيُرِيدُ الإِصْلاَحَ وَيَتَمَسَّكُ بِهِ فَوَقَفْنَا عَلَيْهِ وَعَلِمْنَا مَا أَشَرْتَ فِيهِ إِلَيْهِ وَكَانَ تَقَدَّمَ لَنَا كُنْتُ أَرْنَاوُ دُتَرْمِنْشُ المَيُورْقِيُّ الدَّاخِلُ بَيْنَنَا بِهَذَا الصُّلْحِ المَحْضِ بِشُرُوطٍ وَافَقْنَا عَلَى بَعْضِهَا وَتَوَقَّفْنَا عَنْ بَعض فَلَمَّا وَصَلَ كِتَابُكَ المَخْتُومُ بِطَابَعِكَ المَعْلُومِ صُحْبَةَ رَسُولِكَ الفَارِسِ

---

[1] ـ البيترو الرابع ابن ألفونس الرابع ابن جاقمو الثاني كُنْت برشلونة وملك أراغون. نجد بالأصل: أرغون لا أراغون.

[2] ـ فراغ بالنّصّ العربيّ الأصليّ.

المرجع : عمر سعيدان ، علاقات أسبانيا القطلانية بالحفصيين ، ص ١٣٢ ... ١٥١.

فَرَنْسِيس سَكُوسْطَةَ الَّذِي فَوَّضْتَ لَهُ فِي الحَلِّ وَالإِبْرَام وَاستَنَبْتَهُ عَنْكَ لِحُكْمِ هَذَا الالْتِزَامِ أَقْبَلْنَا عَلَيْهِ مُفَسَّرًا فِي غَيْرِ هَذَا المَرْسُومِ مُرَتِّبًا حُكْمُهُ بِالشَّهَادَةِ الثَّابِتَةِ اللُّزُومِ مِنْ ذَلِكَ تَأْمِينُ المُسَافِرِينَ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِنَا وَأَهْلِ طَاعَتِكَ فِي جَمِيعِ مَا لَنَا وَلَكَ مِنَ البِلَادِ وَالسَّوَاحِلِ وَالمَرَاسِي وَمَا يَدْخُلُ تَحْتَ طَاعَتِنَا مِنْ ذَلِكَ وَأَنْ لَا يَتَعَرَّضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِكَ لِمَنْ يَجِدُهُ فِي مَرْسَى مِنَ المَرَاسِي بِجِهَاتِنَا كُلِّهَا مِنْ أَجْفَانِ المُسْلِمِينَ مَا عَدَا أَجْفَانَ الفَنْشِينِي فَيُرْفَعُ الاعْتِرَاضُ عَنْ تَاجِرِهِمْ وَاليَدُ مُطْلَقَةٌ فِي سَايِرِهِمْ وَعَنْ عَطَبٍ لِأَحَدِ الجِهَتَيْنِ بَعْضُ الأَجْفَانِ فِي سَاحِلٍ مِنَ السَّوَاحِلِ فَعَلَى أَهْلِ تِلْكَ الجِهَةِ رَعْيُ مَنْ يَخْرُجُ مِنْ أَهْلِهِ وَإِكْرَامِهِمْ وَالمُحَافَظَةُ عَلَى مَا يَلْفُظُهُ لَهُمُ البَحْرُ مِنَ الأَسْبَابِ وَالحُطَامِ وَاحْتِرَامُهُمْ وَأَنْ لَا يَشْتَرِيَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الطَّاعَةِ مَا أَخَذَهُ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا مُتَمَسِّكٌ بِحَبْلِهَا عَلَى ظَهْرِ البَحْرِ أَوْ تَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِالغَدْرِ لِأَهْلِ هَذِهِ الطَّاعَةِ أَوِ القَهْرِ وَقَدْ أَلْزَمْنَا أَنْفُسَنَا مِنَ اللَّازِمِ وَالشَّرْطِ مَا التَزَمَهُ لَنَا عَنْكَ رَسُولُكَ المَذْكُورُ مِنَ العَقْدِ وَالرَّبْطِ وَهَا نَحْنُ نَشْرَعُ فِي بِنَاءِ الفَنَادِقِ لِسُكْنَى مَنْ يَصِلُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الطَّاعَةِ وَنَأْخُذُ فِي تَقْوِيَةِ هَذَا الصُّلْحِ المُبَارَكِ بِقَدْرِ الاسْتِطَاعَةِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَنْ لَا يَسْكُنَ أَحَدٌ مَعَهُمْ مِمَّنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِاخْتِيَارِهِمْ وَأَنْ يَكُونَ قَلَاصِنَةٌ لِلْحُكْمِ بَيْنَهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ فِي المَجْبَى إِلَّا العَوَايِدُ القَدِيمَةُ وَالفَوَايِدُ المَعْلُومَةُ وَالَّذِي تَمَّ بِهِ السِّلْمُ وَانْعَقَدَ عَلَيْهِ الحُكْمُ أَدَاءُ أَلْفَيْ دِينَارٍ ذَهَبًا كَبِيرَةً يَقْبِضُهَا مَنْ تُعَيِّنُهُ لِذَلِكَ فِي كُلِّ عَامٍ مِنْ مَجْبَى نِصْفِ

الملخص العربى للبحث

التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحدى والحفصى

(٥٥٥ – ٩٨٠ هـ / ١١٦٠ – ١٥٧٣ م)

شهدت بلاد إفريقية وطرابلس الغرب نشاطاً تجارياً ملحوظاً أثناء فترتى الحكم الموحدى والحفصى . خاصة وأن بلاد إفريقية وطرابلس الغرب تشترك كما هو معروف مع بقية بلاد المغرب في وقوعها في منطقة جغرافية متميزة على ساحل البحر المتوسط ، مما أتاح لها السيطرة على بعض الطرق التجارية لأنها تقع بين الساحل والصحراء ؛ ولا تنفصل سهولها عن شواطئ البحر . فكانت الموانئ الإفريقية والطرابلسية نقطة لقاء بين المشرق والمغرب وبين التجارة المتوسطية وقوافل التجارة الصحراوية .

ولذلك عالج هذا البحث جانب مهم من جوانب النشاط الإقتصادى وهو تاريخ التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحدى والحفصى وهى فترة زمنية تمتد إلي ما يقرب من ٤٢٥ سنة تبدأ من تاريخ الضم الموحدى لإفريقية وطرابلس عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م أى من منتصف القرن السادس الهجرى / الثاني عشر الميلادى إلي نهاية العهد الحفصى في المنطقة سنة ٩٨٠هـ/ ١٥٧٣ م أى أواخر القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى.

وقد تم تقسيم الموضوع إلي مقدمة وتمهيد وخمس فصول وخاتمة .

تناولت المقدمة أهمية الموضوع وأسباب إختياره ومنهجية الدراسة بالإضافة إلي دراسة نقدية لأهم مصادر البحث .

وإحتوى الفصل التمهيدى على لمحة جغرافية لبلاد إفريقية وطرابلس الغرب من موقع ومناخ وتضاريس لاستنتاج أهمية ذلك في النشاط التجارى للمنطقة كما تناول التمهيد بيان للحالة السياسية لبلاد إفريقية وطرابلس الغرب خلال الحكم الموحدى وكيفية إنتقال السلطة من الموحدين إلي الحفصيين وما ترتب على ذلك من إستقرار نسبى شهدته المنطقة .

وكان لابد للتجارة لكى تنمو وتزدهر من توافر عدة مقومات وعوامل مؤثرة . لذلك تحدث الفصل الأول عن أهم العوامل المؤثرة في النشاط التجارى سلباً وإيجاباً فأستعرض الفصل الأمن والإستقرار سواء الداخلى من فتن وثورات داخلية قام بها

العرب الهلالية والسلمية في المنطقة إضافة إلي الفئات العامة (الشعبية) لاستنتاج مدى تأثيرها السلبى على حركة التجارة . والأمن الخارجى والذى تمثل في أمن البحر المتوسط وعمليات القرصنة والحروب الخارجية وآثارها السلبية على عمليات التبادل التجارى وأوضح الفصل أهمية الموارد الطبيعية في المنطقة من إنتاج زراعى وحيوانى وصناعى ومعدنى والتي ساهمت في نمو حركة التجارة وساعدت على عمليات التسويق التجارى على الصعيدين الداخلى والخارجى .

أما الفصل الثانى كان تحت عنوان "التجارة الخارجية" فدرست الباحثة أهم الطرق الخارجية البحرية والبرية التي ربطت بلاد إفريقية وطرابلس الغرب مع البلاد المجاورة ، ثم تم توضيح مسار العلاقات التجارية مع تلك البلاد أثناء الحكم الموحدى والحفصى وكان أهمها بلاد المشرق وبلاد السودان وبلاد الأندلس و مملكة صقلية والجمهوريات الإيطالية ، بالإضافة إلي مملكتى قشتالة وأراجون ، فقد لوحظ أن هناك نشاط تجارى ملحوظ مع تلك الدول مما أفرز حركة تبادل وتسويق تجارى للبضائع بين الطرفين من صادرات وواردات ، وأهم الرسوم الضرائب الجمركية المحددة على تلك البضائع .

وخصص الفصل الثالث لدراسة التجارة الداخلية فتم توضيح أهم الطرق الداخلية التي ربطت بين مدن بلاد إفريقية سواء الساحلية أم الداخلية .

وقد نشطت التجارة الداخلية وأدت دورها في مراكز خصصت للبيع والشراء عرفت " بالأسواق " لذلك قامت الباحثة بتوضيح لأهم أنواع تلك الأسواق ونظم البيع والشراء فيها وأهم السلع المعروضة فيها ونظام مراقبتها وضبطها فيما يعرف باسم " الحسبة " بالإضافة إلي نظام التسعير وإحتكار السلع وكيف تم ضبط ذلك . وأهم الضرائب المفروضة على الأسواق فيما يعرف باسم "قبالات الأسواق".

وتناول الفصل الرابع وسائل التعامل التجارى وأهمها النقد أو العملة فتم توضيح تطور سك العملة الموحدية والحفصية ، والتي تمثلت في الدينار الذهبى والدرهم الفضى بالإضافة إلي توضيح نظام المقايضة والصكوك والسفاتج والمكاييل والموازين وبيان مساهمتها في عمليات التبادل التجارى . وتم إستنتاج مدى قوة الدينار

الموحدى والحفصى في إفريقية بفضل الرقابة الصارمة التي وضعتها الدولة على نظامها المالى بحيث أكسبت دينارها فرصة التداول في الأسواق العالمية .

أما الفصل الخامس فقد تناول أهم المؤسسات والهياكل التي أرتكزت عليها التجارة وكان أهمها الفنادق فوضحنا دورها في تدعيم العلاقات التجارية بين إفريقية والدول المسيحية باعتبارها مكان لسكن وإقامة التجار المسيحين ومركزاً للتمثيل القنصلى الذى كان يقوم بمراقبة مصالح رعاياه الأجانب في إفريقية وطرابلس الغرب بل أنه كان الممثل الرسمى لبلده والواسطه بين التجار وبلادهم وبينهم وبين السلطة الحاكمة في البلد الذى يقيمون فيه .

كما إعتبرت وسائل النقل التجارى البحرى والبرى من المؤسسات التي قامت عليها التجارة ، وعن طريقها إستطاعت أن تستمر وتنمو . فتم توضيح دور السفن في حركة النقل البحرى وأهم المراكب المستخدمة والأوقات المناسبة للسفر والرحلات التجارية من حيث ملائمة الجو والأنواء . كما تم توضيح عملية إستئجار تجار إفريقية للسفن والمراكب المسيحية وأسباب ذلك وحيثياته .

بالإضافة إلي بيان دور القوافل في عملية النقل البرى للتجارة مع بلاد السودان وأهم النظم المتبعة في سير القوافل وتنظيمها لضمان سلامة الرحلة التجارية.

وأخيراً فقد أختتمت الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة.